مروج الذهب
ومعادن الجوهر

تصنيف أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي
المتوفى سنة ٣٤٥ هـ على الراجح

راجع أصوله وعلق عليه وضبطه
محمد محيي الدين عبد الحميد

الجزء الثاني

صححه وعلق عليه وفهرسه

محمد محيي الدين عبد الحميد
محمد قطر الدين عبد الحميد

مكتبة السعادة
شارع الخليج العربي - مقابل مسجد الفتح
ت: ٣٩٢٠٠٠

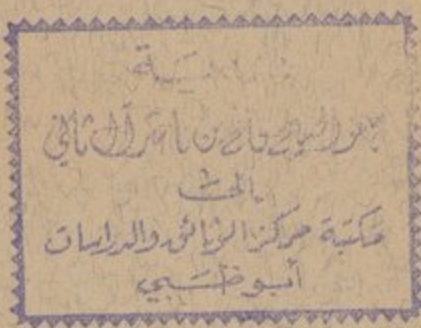
هدية
سمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان
إلى
مكتبة مركز الوثائق والدراسات
أبو ظبي

المكتبة التاريخية

مروج الذهب
ومعادن الجوهر

تصنيف الرحالة الكبير والمؤرخ الجليل أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي
المتوفى في عام ٣٤٦ من الهجرة

راجع أصوله، ورقمه، وضبط مبهمه، وعلق عليه

محمد محيي الدين عبد الحميد

الجزء الثاني

جميع حقوق الطبع محفوظة

يطلب من المكتبة العصرية في بغداد
لصاحبها محمود حلمي

دار الرجاء للطبع والنشر
بأول درب الميزرة ١٠٣
بمصر
١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م

ذكر اليمن وملوكها ومقدار سنيها

ملك سبأ

أول من يعد من ملوك اليمن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، واسمه عبد شمس ، وقد أخبرنا فيما سلف من هذا الكتاب وغيره من كتبنا لأية علة سمى سبأ على ماقيل ، والله أعلم ، وكان ملكه أربعمائة سنة وأربعا وثمانين سنة

حمير

ثم ملك بعده ولده حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب ، وكان أشجع الناس فى وقته ، وأفرسهم ، وأكثرهم جمالا ، وكان ملكه خمسين سنة ، وقيل أكثر من ذلك ، وقيل أقل ، وكان يعرف بالمتوج ، وكان أول من وضع على رأسه تاج الذهب من ملوك اليمن

كهلان

ثم ملك بعده أخوه كهلان بن سبأ ؛ فطال عمره ، وكبر سنه ، واستقامت له الأمور ، وكان ملكه ثلثمائة سنة ، وقيل غير ذلك

ثم عاد الملك بعد أن هلك كهلان إلى ولد حمير لأخبار يطول ذكرها ، وتنازع فى الملك ولدُ حمير وكهلان

عمرو بن سبأ

ثم ملك أبو مالك عمرو بن سبأ ، واتصل ملكه ، وعمر الناس عدله ، وشملهم إحسانه ، وكان ملكه ثلثمائة سنة

وقيل : إن أول من ملك بعد كهلان الرائش ، وهو الحرث بن ذى سدد

أبرهة ذو المنار جبار بن غالب

ثم ملك جبار بن غالب بن إفريقس بن صيفى بن يشجب بن سبأ ، وكان ملكه مائة سنة ونحو أربعين سنة ، وقيل : إن هذا الملك هو أبرهة بن الرائش المعروف بذى المنار

بقية ملوك اليمن

ثم ملك بعده الرائش بن شداد بن ملظاظ ، وكان ملكه مائة وخمسا وعشرين سنة

ثم ملك بعده أبرهة بن الرائش ، وهوذو منار ، وكان ملكه مائة وثمانين سنة

ذو الأذعار ثم ملك بعده أخوه المعبد بن أبرهة ، وهو ذو الأذعار ، وكان ملكه خمسا وعشرين سنة

ثم ملك بعده الهدهاد بن شرحبيل بن عمرو بن الرائش ، وقد تنوزع فى مقدار ملكه : فمنهم من رأى أنه عاش عشر سنين ، ومنهم من ذكر سبعا ، ومنهم من قال ستا

تبع الأول ثم ملك تبع الأول ، وكان ملكه أربعمائة سنة ، وذكر كثير من الناس أن بلقيس قتلته ، وقيل غير ذلك ، والأشهر ماقدمنا

بلقيس وسليمان ثم ملكت بعده بلقيس بنت الهدهاد ، وكان لمولدها خبر ظريف ذكرته الرواة فيما روى أنه تصور لأبيها فى بعض قَنَصه حيَّتان سوداء و بيضاء ، فأمر بقتل السوداء منهما ، وماظهر له بعد ذلك من شيخ وشاب من الجن ، وأن الشيخ زوجه بابنته ، واشترط عليه شروطا ، فعلقت منه ببلقيس ، ونقض تلك الشروط المأخوذة عليه لها ، فغابت عنه ، فى خبر ظريف ، وهو موجود فى كتب التبابعة ،

و إنما نحكى هذه الأخبار على حسب ماوجدناه فى كتب الأخباريين وعلى حسب ماتوجبه الشريعة والتسليم لها ، وليس قصدنا من ذلك وصف أقاويل أصحاب القدم لأنهم ينكرون هذا ويمنعونه ، و إنما نحكى فى هذا الكتاب أقاويل أصحاب الحديث المنقادين للشرع والمسلمين للحق ، وأخبار الشياطين على حسب مانطق به الكتاب المنزل على النبى المرسل ، وما قارن ذلك من الدلائل الدالة على صدقه صلى الله عليه وسلم و إعجاز الخليقة أن يأتوا بمثل هذا القرآن الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

وكان ملك بلقيس عشرين ومائة سنة ، وكان من أمرها مع سليمان عليه السلام ماذكر الله عز وجل فى كتابه ، وما اقتص من خبر الهدهد ، وما اقتص من أمرها ، فملك سليمان اليمن ثلاثا وعشرين سنة

ناشر النعم

ثم عاد بعد ذلك الملك إلى حمير فملكهم ناشر النعم بن عمرو بن يعفر ، وكان ملكه خمسا وثلاثين سنة

كليكرب

ثم ملك بعده كليكرب بن تبع[1] ، وكان ملكه ثلثمائة سنة وعشرين سنة ، وسكن قومه نحو الشرق من بلاد خراسان والتبت والصين وسجستان

حسان بن تبع

ثم ملك بعده حَسَّان بن تبع ، فاستقام له الأمر ، ثم وقع بعد ذلك فى ملكه تنازع وخلاف ، وكان ملكه إلى أن قتل خمسا وعشرين سنة

عمرو بن تبع

ثم ملك بعده عمرو بن تبع ، وهو القاتل لأخيه حسان الملك الماضى ، وكان ملكه أربعا وستين سنة ، ويقال : إنه عدم النوم ؛ لما كان من فعله فى قتل أخيه

تبع بن حسان

ثم ملك بعده تبع بن حسان بن كليكرب ، وهو الملك السائر من اليمن إلى الحجاز ، وكانت له مع الأوس والخزوج حروب ، وأراد هَدْم الكعبة فمنعه من كان معه من أحبار اليهود ، فكساها القصب اليمانى ، وسار نحو اليمن وقد تَهَوَّد وغلب على اليمن اليهودية ، ورجعوا عن عبادة الأصنام ، وكان ملكه نحو مائة سنة

عمرو بن تبع

ثم ملك عمرو بن تبع بعد تفرق وتنازع كان بينهم فى الملك ، ثم خلع عن الملك وملكوا عليهم مرثد بن كلال ، وكان فى اليمن تنازع وحروب ، وكان ملكه أربعين سنة

ثم ملك بعده وكيعة بن مرثد ، وكان ملكه تسعا وثلاثين سنة

أبرهة بن الصباح

ثم ملك بعده أبرهة بن الصباح بن وكيعة بن مرثد ، وهو الذى يدعى شيبة الحمد ، وكان ملكه ثلاثا وتسعين سنة ، وقيل أقل من ذلك ، وكان علامة وله سير مُدَوَّنة

---

(١) كليكرب هو ابن زيد ، وزيد هو تبع الأول ، وزيد : ابن عمرو ذى الأذعار بن أبرهة ذى المنار ، أما حسان الآتى فهو ابن تبع الآخر ، واسم تبع الآخر تبان أسعد ، وكنيته أبو كرب . وتبان بزنة غراب أو رمان

ثم ملك بعده عمرو بن ذى قيعان ، وكان ملكه سبع عشرة سنة

ذوشناتر

ثم ملك بعده ذوشناتر ، ولم يكن من أهل بيت الملك ، فغرى بالأحداث من أبناء الملوك ، وطالبهم بما يطالب به النسوان ، وأظهر الفسق باليمن واللواط وعدل مع ذلك فى الرعية ، وأنصف المظلوم ، وكان ملكه ثلاثين سنة ، وقيل : تسعا وعشرين سنة ، وقتله يوسف ذونواس ، وكان من أبناء الملوك ؛ خوفا على نفسه ، وأنفةً أن يفسق به

يوسف ذونواس وأصحاب الأخدود

ثم ملك بعده يوسف ذونواس بن زرعة بن تبع الأصغر بن حسان بن كليكرب ، وقد ذكرنا خبره فى غير هذا الموضع من كتبنا ، وما كان من أمره مع أصحاب الأخدود ، وتحريقه إياهم بالنار ، وهم الذين أخبر الله تعالى عنهم فى كتابه فقال : (قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود) وإليه عبرت الحبشة من بلاد ناصع والزيلع ، وهو ساحل الحبشة على حسب ما ذكرنا ، إلى بلاد زبيد من أرض اليمن ، فغرق يوسف نفسه بعد حروب طويلة خوفا من العار ؛ وكان ملكه مائتى سنة وستين سنة ، وقيل أقل من ذلك ، وذلك أن النجاشى ملك الحبشة لما بلغه فعل ذى نواس بأتباع المسيح عليه السلام وما يعذبهم به من أنواع العذاب والتحريق بالنار بعث إليه الحبشة وعليهم أرياط بن أصحمة ، فملك اليمن عشرين سنة ، ثم وثب عليه أبرهة الأشرم بن يكسوم فقتله ، وملك اليمن ، فلما بلغ ذلك من فعله إلى النجاشى غضب عليه ، وحلف بالمسيح أن يجز ناصيته ويريق دمه ، ويطأ تُرْبته - يعنى أرض اليمن - فبلغ ذلك أبرهة ، فجز ناصيته وجعلها فى حُقٍّ من العاج ، وجعل دمه فى قارورة ، وجعل من تراب اليمن فى جراب ، وأنفذ ذلك إلى النجاشى ملك الحبشة ، وضم إلى ذلك هدايا كثيرة وألطافا ، وكتب إليه يعترف بالعبودية ، ويحلف له بدين النصرانية أنه فى طاعته وأنه بلغه أن الملك حلف بالمسيح أن يجز ناصيته ويريق دمه ويطأ أرضه ، وقد أنفذت إلى الملك ناصيتى فليجزها بيده ، وبدمى فى قارورة فليهرقه ، وبجراب

من تربة بلادى فليطأه بقدميه ، وليطفىء الملك عنى غضبه ، فقد أبررت يمينه ، وهو على سرير ملكه ، فلما وصل ذلك إلى النجاشى استصوب رأيه ، واستحسن عقله ، وصفح عنه

وأبرهة بن يكسوم هو الذى سار بأصحاب الفيل لإخراب الكعبة ، وذلك لأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنو شروان ، فعدل إلى الطائف ، فبعثت معه ثقيف بأبى رغال ليدله على الطريق السهل إلى مكة ، فهلك أبو رغال فى الطريق بموضع يقال له المغمس بين الطائف ومكة ، فَرُجم قبره بعد ذلك ، وفى ذلك يقول جرير بن الخطفى فى الفرزدق : — أبو رغال

إذا مات الفرزدق فَارْجُمُوه ... كما تَرْمُونَ قبر أبى رغال

قال المسعودى رحمه الله : وقيل : إن أبارغال وَجَّهَهُ صالح النبى صلى الله عليه وسلم على صدقات الأموال ، فخالف أمره ، وأساء السيرة ، فوثب عليه ثقيف — وهو قسى بن منبه — فقتله قتلة شنيعة لسوء سيرته فى أهل الحرم ، فقال غيلان بن سلمة وذكر قسوة أبيهم ثقيف على أبى رغال : نحن قسى وقسى أبونا ، وفى ذلك يقول أمية بن أبى الصلت الثقفى : —

نفوا عن أرضهم عَدْنَانَ طُرًّا ... وكانوا للقبائل قاهرينا

وهم قتلوا الرئيس أبارغالٍ ... بمكةَ إذ يسوق بها الوضينا

وفى ذلك يقول عمرو بن دراك العبدى : —

ترانى إن قطعت حبال قيس ... وخالفت المرور على تميم

لأعظم من فخار أبى رغال ... وأجور فى الحكومة من سدوم

وقال مسكين الدارمى : —

وأرجم قبره فى كل عام ... كَرَجْمِ الناس قبر أبى رغال

وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب قصة الحبشة وورودهم الحرم وما كان من أمرهم فى ذلك .

قال : وفى طريق العراق إلى مكة — وذلك بين الثعلبية والهند نحو النظامية — موضع يعرف بقبر العبادى ، ترجمه المارة إلى هذه الغاية كما ترجم قبر أبى رغال ، وللعبادى خبر ظريف قد أتينا على ذكره فى كتاب « أخبار الزمان » وفى كتاب « حدائق الأذهان » وفى أخبار أهل البيت رضى الله عنهم . قبر العبادى

فكان ملك أبرهة على اليمن إلى أن هلك بعد أن رجع من الحرم وقد سقطت أنامله وتقطعت أوصاله حين بعث الله عليه الطير الأبابيل ثلاثاً وأربعين سنة .

وكان قدوم أصحاب الفيل مكة يوم الأحد لسبع عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ثمانمائة واثنتين وثلاثين سنة للاسكندر وست عشرة سنة ومائتين من تاريخ العرب الذى أوله حجة العدد .

وسنذكر بعد هذا فى الموضع المستحق له من هذا الكتاب جملا من تاريخ العالم ، وتاريخ الأنبياء والملوك ؛ فى باب نفرده لذلك ، إن شاء الله تعالى .

ثم ملك اليمن بعد أبرهة الأشرم ولده يكسوم ؛ فعم أذاه سائر اليمن ، وكان ملكه إلى أن هلك عشرين سنة . يكسوم ابن أبرهة

ثم ملك بعده مسروق بن أبرهة ؛ فاشتدت وطأته على اليمن ، وعم أذاه سائر الناس ، وزاد على أبيه وأخيه فى الأذى ، وكانت أمه من آل ذى يزن ، وكان سيف بن ذى يزن قد ركب البحار ، ومضى إلى قيصر يستنجده ، فأقام ببابه سبع سنين ، وأبى أن ينجده ، وقال : أنتم يهود ، والحبشة نصارى ، وليس فى الديانة أن ينصر المخالف على الموافق ، فمضى إلى كسرى أنوشروان ، فاستنجده ومتّ إليه بالقرابة ، وسأله النصرة ، فقال له كسرى : وما هذه القرابة التى أدليت بها إلى ؟ فقال : أيها الملك الجبلة وهى الجلدة البيضاء ، إذ كنت أقرب إليك منهم ؛ فوعده أنوشروان بالنصرة على السودان ، وشغل بحرب الروم وغيرها من الأمم ، ومات سيف بن ذى يزن ، فأتى ابنه معديكرب بن سيف فصاح على باب الملك ، فلما سأل عن حاله ، قال : لى قبل الملك ميراث ، فوقف بين يدى مسروق ابن أبرهة

أنوشروان ، فسأله عن ميراثه ، فقال : أنا ابن الشيخ الذى وعده الملك بالنصرة على الحبشة فوجّه معه وهْرِزَ إصْبَهْبَذَ الديلمى فى أهل السجون ، فقال : إن فتحوا فلنا ، وإن هلكوا فلنا ، وكلا الوجهين فتح ، فحملوا فى السفن ومعهم خيولهم وعددهم وأموالهم ، حتى أتوا أبلة البصرة — وهى برج البحر ، ولم يكن حينئذ بصرة ولا كوفة ، وهذه مدن إسلامية — فركبوا فى سفن البحر ، وساروا حتى أتوا ساحل حضرموت بموضع يقال له مثوب ، فخرجوا من السفن ، وقد كان أصيب بعضهم فى البحر ، فأمرهم وهرز أن يحرقوا السفن ليعلموا أنه الموت ، ولا وجه يؤمّلون المفر إليه فيجهدون أنفسهم ، وفى ذلك يقول رجل من حضرموت :

حرب الفرس مع الحبشة باليمن

أصبح من مَثْوَبَ ألف فى الجنن من رهط ساسان ورهط مهرسن (١)
ليخرجوا السودان من أرض اليمن دَلُهُمُ قَصْدَ السبيل ذو يزن

فى شعر له طويل ، ونما خبرهم إلى ملك اليمن مسروق بن أبرهة ؛ فأتاهم فى مائة ألف من الحبشة وغيرهم من حمير وكهلان ومن سائر من سكن اليمن من الناس ، وتصافّ القوم ، وكان مسروق على فيل عظيم ، فقال وهرز لمن كان معه من الفرس : اصدقوهم الخبر ، واستشعروا الصبر ، ثم تأمل ملكهم وقد نزل عن الفيل فركب جملا ، ثم نزل عن الجمل فركب فرسا ، ثم أنف أن يحارب على فرس فركب حمارا استصغارا لأصحاب السفن ، فقال وهرز : ذهب ملكه ، وتنقل من كبير إلى صغير ، وكان بين عينى مسروق ياقوتة حمراء معلقة فى تاجه بمعلاق من الذهب يضىء كالنار ، فرمى وهرز ، ورمى القوم ، وقال وهرز لأصحابه : قد رميت ابن الحمارة ، فانظروا إن كان القوم يجتمعون عليه ويتفرقون عنه فقد هلك ، فنظروا إليهم يجتمعون ويتفرقون عنه ، فأخبروه بذلك ، فقال : احملوا على القوم واصدقوهم ، فانكشفت الحبشة وأخذهم السيف ، ورفع رأس مسروق ورءوس خواص الحبشة ورؤسائهم ، فقتل منهم نحو ثلاثين ألفا ، وقد كان أنوشروان اشترط على معديكرب شروطا : منها أن الفرس تتزوج باليمن

(١) مثوب — بفتح الميم وسكون الثاء وفتح الواو — بلد باليمن ، قاله ياقوت

ولا تتزوج اليمن منها ، وفى ذلك يقول الشاعر : —

على أن ينكحوا النسوان منهم وأن لاينكحوا فى الفارسينا

معديكرب يملك اليمن

فتوج وهرز معديكرب بتاج كان معه وقفازات من الفضة ألبسه إياها ، ورتبه فى ملكه على اليمن ، وكتب إلى أنوشروان بالفتح ، وخلف هناك جماعة من أصحابه

وكان جميع ماملكت الأحابش اثنتين وسبعين سنة ، وكان ملك مسروق ابن أبرهة إلى أن قتل ثلاث سنين ، وذلك لخمس وأربعين خلت من ملك أنوشروان

وفود العرب تهنئ معديكرب

وأتت معدى كرب الوفود من العرب تهنئه بالملك ، فأتاه عبد المطلب وجدُّ أمية بن أبى الصلت ، وقد ذكرنا خبر عبد المطلب ووفادته على ابن ذى يزن فى هذا الكتاب فيما بعد ، وما قيل من الشعر ، وفى مسير الفرس إلى اليمن ونصرتهم على الحبشة يقول بعض أولاد فارس : —

نَحْنُ خُضْنَا البحار حتى فككنا حميرا من بَلِيَّةِ السودان
بِلُيُوثٍ من آل ساسان شُوسٍ يمنعون الحريم بالمُرَّان
وبيض بواتر تتلالا كَسَنَا البرق فى ذرى الأبدان
فقتلنا مسروق إذ تاه لمَّا أن تداعت قبائلُ الحبشان
وفَلَقْنَا ياقوتة بين عينيه بنشَّابة القنى الساسانى
وهْرِزَ الديلمىّ لما رآه رابط الجأش ثابت الأركان
وحوَيْنَا بلاد قَحْطان قَسْراً ثم سرنا إلى ذُرَى غمْدَان
فنعمنا فيه بكل سرور ومَنَنَّا على بنى قحطان

وفى ذلك يقول البحترى يمدح أبناء العجم ، ويذكر فضل الفرس على أسلافه ؛ لأنه من قحطان :

فكم لكم مِنْ يدٍ يزكو الثناء بها ونعمة ذكْرُهَا باقٍ على الزمن
إن تفعلوها فليست بِكْرَ أنعمكم ولا يد كأياديكم على اليمن

أيام جلّى أنوشروان جدكم غيابة الذل عن سيف بن ذى يزن
إذ لا تزال خيول الفرس دافعةً بالضرب والطعن عن صَنْعَا وعن عَدَن
أنتم بنو المنعم المجدى ونحن بنو من فاز منكم بفضل الطَّوْل والمنن

أشهر وافدى العرب على معديكرب

قال المسعودى : وأتت معديكرب الوفود من العرب تهنيه بعود الملك إليه ، وأشراف العرب وزعماؤها ، وفيهم عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وخويلد ابن أسد بن عبد العزى بن قصى ، وجد أمية بن أبى الصلت الثقفى ، وقيل أبو الصلت أبوه ، فدخلوا إليه وهو فى أعلى قصره بمدينة صنعاء المعروف بغُمْدَان ، وهو مُضَمَّخٌ بالعنبر ، وسواد المسك يلوح على مفرقه ، وسيفه بين يديه ، وعلى يمينه و يساره الملوك وأبناء المقاول

عبد المطلب بين يدى معديكرب

فتكلمت الخطباء ، ونطقت الزعماء ، وقد تقدمهم عبد المطلب بن هاشم فقال عبد المطلب : إن الله جل جلاله قد أحلك ـ أيها الملك ـ محلا رفيعا صعبا منيعا شامخا باذخا ، وأنبتك منبتا طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، وثبت أصله ، و بَسَق فرعه فى أكرم معدن ، وأطيب موضع وموطن ، فأنت ـ أبيت اللعن ـ رأس العرب وتُبَّعها الذى يخطب له ، وأنت — أيها الملك — ذِرْوَة العرب الذى له تنقاد ، وعمودها الذى عليه العماد ، ومعقلها الذى تلتجىء إليه العباد ، سلفك خير سلف ، وأنت لنا منهم خير خلف ، فلن يخمد ذكر من أنت سلفه ، ولن يهلك من أنت خلفه ؛ أيها الملك ، نحن أهل الله ، وسَدَنة بيته ، أشْخَصَنا إليك الذى أبهجنا من كشف الكرب فرحا ، ونحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة ،[1] فقال له الملك : وأيهم أنت أيها المتكلم ؟ قال : أنا عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف فقال الملك معدى كرب بن سيف : ابن أختنا ؟ قال : نعم ، قال : أدنوه منى ؛ فأدناه ، ثم أقبل عليه وعلى الوفد ، فقال لهم : مرحبا وأهلا ، وناقة ورَحْلاً ، ومُسْتَنَاخاً سهلا ، وملكا مرتجلا ، يعطى عطاء جزلا ، قد سمع الملك مقالتكم ،

(١) الذى فى الأصول كلها « الرزية » وما أثبتناه هو المحفوظ المعروف

وعرف قرابتكم ، وقبل وسيلتكم ، فأنتم أهل الليل والنهار ، لكم الكرامة ما أقمتم ، والحِباء إذا ظعنتم

أبو زمعة الثقفى يبن يدى معديكرب

ثم قام أبو زمعة جد أمية بن أبى الصلت الثقفى ، فأنشأ يقول [1] : -

ليطلب الوتر أمثالُ ابن ذى يزن ... فى لجة البحر أجوالا وأحوالا
حتى أتى بنى الأحرار يحملهم ... تخالهم فى سواد الليل أجمالا
لله درهُمُ من عصبةٍ خرجوا ... ما إن رأيت لهم فى الناس أمثالا
أرسلت أسداعلى سود الكلاب فقد ... أمسى شريدهم فى الأرض فُلّلاَ
فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفقا ... فى رأس غُمْدَانَ داراً منك محلالا
ثم اطّلِ بالمسك إذ شالت نعامتهم ... وأسبل اليوم فى بُرْدَيْكَ إسبالا
تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

ولمعديكرب بن سيف بن ذى يزن كلام كثير مع عبد المطلب وكوائن أخبره بها فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم وبدء ظهوره ، بَشّرَ به عبد المطلب ، وأخبره عن أحواله ، وما يكون من أمره ، وحبّا جميع الوفد ، وانصرفوا ، وقد أتينا على ما كان من أخبارهم فى كتابنا « أخبار الزمان » فأغنى عن إعادته ووصفه

مقتل معديكرب

قال المسعودى : وأقام معد يكرب بن سيف بن ذى يزن ملكا على اليمن ، واصطنع عبيدا من الحبشة حرابة يمشون بين يديه بالحراب ، فركب فى بعض الأيام من باب قصره المعروف بغُمْدَان بمدينة صنعاء ، فلما صار إلى رحبتها عطفت عليه الحرابة من الحبشة ، فقتلوه بحرابهم ، وكان ملكه أربع سنين ، وهو آخر ملوك اليمن من قحطان ، فعدد ملوكهم سبعة وثلاثون ملكا ملكوا ثلاثة آلاف سنة ومائة وتسعين سنة

رواية أخرى فى ملوك اليمن

قال المسعودى : وأما عبيد بن شرية الجرهمى حين وفد على معاوية ، وسأله

---

(١) فى بعض هذه الأبيات اختلاف فى الرواية ، ولم نشأ أن نغيره ، فانظر (سيرة ابن هشام ج ١ ص ٦٩ و ٧٠) فهى موجودة فيها مع زيادة

عن أخبار اليمن وملوكها ، وتواريخ سنيها ، فانه ذكر أن أول ملوك اليمن على حسب ما قدمنا فى هذا الكتاب سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، ملك مائة سنة وأربعا وثمانين سنة

ثم ملك بعده الحرث بن شداد بن ملظاظ بن عمرو ، مائة وخمسا وعشرين سنة

ثم ملك بعده أبرهة بن الرائش ، وهو أبرهة ذو المنار ، مائة وثلاثاً وثلاثين سنة

ثم ملك بعد إفريقس بن أبرهة ، مائة وأربعا وستين سنة

ثم ملك بعده أخوه الهدهاد بن شرحبيل بن عمرو ، وهو ذو الصرح ، سنة

ثم ملكت بعده بلقيس بنت الهدهاد ، سبع سنين

ثم ملك سليمان بن داود عليهما السلام ، ثلاثا وعشرين سنة ، على حسب ما قدمنا من أمر بلقيس

ثم ملك بعده رحبعم بن سليمان ، سنة

ثم رجع الملك إلى حمير ؛ فملك من بعد رحبعم بن سليمان ناشرُ النعم بن يعفر بن عمرو ذى الأذعار ، خمسا وثلاثين سنة ، وقد قيل فى تسميته ذا الأذعار خبر تأباه العقول ، وتنكر النفوس كون مثله فى العالم ، ويجوز كون ذلك فى المقدور ، وأنه إنما سمى ذا الأذعار لأنه وصل إلى قوم فى أقاصى مفاوز اليمن وحضرموت مشوهى الخلقة عجيبى الصورة وجوههم فى صدورهم ، فلما رأى أهل اليمن ذلك أذعرهم ما شاهدوا من ذلك ، وجزعت منه نفوسهم ، فسمى ذا الأذعار ، وقيل غير ذلك ، والله أعلم بكيفيته

ثم ملك بعده عمرو بن شمر بن إفريقس ، ثلاثا وخمسين سنة

ثم ملك بعده من ولده كليكرب بن تبع ، وهو تبع أبو كرب أسعد كليكرب ، أربعا وثمانين سنة

ثم ملك بعده كلال بن سويب ، أربعا وسبعين سنة

ثم ملك بعده تبع بن حسان بن تبع

ثم ملك بعده مرثد ، سبعا وثلاثين سنة

ثم ملك بعده أبرهة بن الصباح ، ثلاثا وسبعين سنة

ثم ملك بعده ذو شَنَاتر بن زرعة ، ويقال : يوسف ، ويقال : بل اسمه عريب بن قطن ، تسعا وثمانين سنة

ثم ملك بعده حنيفة ، ويعرف بذى الشناتر ، أربعا وثمانين سنة

فذلك ألف وتسعمائة وسبع وعشرون سنة ، وإنما ذكرنا ما حكيناه عن عبيد بن شرية فى ترتيب ملوكهم ، وتباين تواريخ سنيهم ؛ لنأتى على جميع ما قيل فى ذلك من التنازع ، والله ولى التوفيق

ولما قتلت الحبشة معد يكرب بن سيف بن ذى يزن — على حسب ما قدمنا — فى الرحبة بحرابهم كان بصنعاء خليفة لوهْرِز فى جماعة من العجم ، ممن كان ضمهم وهرز إلى معد يكرب ؛ فركب وأتى على من كان هنالك من الحبشة ، وضبط البلد ، وكتب بذلك إلى وهْرِز وهو بباب أنوشروان الملك ، وذلك بالمدائن من أرض فارس ، فأعلم وهرزُ بذلك الملك ، فسيره فى البر فى أربعة آلاف من الأساورة ، وأمره باصلاح اليمن ، وأن لا يبقى على أحد من بقايا الحبشة ، ولا على جعد قطط قد شرك السودان فى نسبه ، فأتى وهرز اليمن ، ونزل صنعاء ، فلم يترك بها أحدا من السودان ولا من أنسابهم ، وملك أنوشروان وهرز على اليمن إلى أن هلك بصنعاء ، ثم ملك بعده رجل من فارس يقال له سيحان ، ثم ملك بعده حوراد الشهر ، ثم ملك بعده ابن سيحان ، ثم ملك بعده المرزبان حرحسوا وكان من أهل بيت مملكة فارس ، ثم ملك بعده حرحس ، وكان مولده باليمن ثم ملك بعده باذان بن ساسان

ملوك اليمن من الفرس

ملوك اليمن من أبناء إبراهيم الخليل

قال المسعودى : فهؤلاء جميع من ملك اليمن من قحطان والحبشة والفرس ، وقد ملك اليمن رجل من ولد إبراهيم الخليل عليه السلام ، وهو يعد من ملوك

اليمن ، واسمه هينية بن أميم بن بدل بن مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكان له شأن عظيم فى اليمن وطالت أيامه وذكره امرؤ القيس فى شعره فقال : ـ

وهينية الذى زادت قواه ... على زيدان إذ حال الزوال
تمكن قائما وبنى طريقا ... إلى زيدان أعيط لا ينال

ويقال : إنه منتبه بن أميم بن بدل بن لسان بن إبراهيم الخليل

ظفار عاصمة بلاد اليمن

وقد كانت ملوك اليمن تنزل بمدينة ظفار ، مثل آل ذى شحر وآل ذى الكلاع وآل ذى أصبح وآل ذى يزن ، إلا اليسير منهم فانهم نزلوا غيرها ، وكان على باب ظفار مكتوب بالقلم الأول فى حجر أسود

يوم شيدت ظفار قيل : لمن أن ... ت ؟ فقالت : لحمير الأخيار
ثم سيلت من بعد ذاك ، فقالت : ... إن ملكى للأحبُشِ الأشرار
ثم سيلت من بعد ذاك ، فقالت : ... إن ملكى لفارس التُّجَّار
وقليلا ما يلبث القوم فيها ... منذ شيدت مشيدها للبوار
من أسود يلقيهم البحر فيها ... تشعل النار فى أعالى الديار

وهذا خبر عن ملوك تداولوها أخبروا عن ملكهم قبل كونه فتداولتها الملوك على حسب ما وصفنا ، وينتظر فى المستقبل من الزمان ما ذكرنا من وقود النيران فى أعالى الديار ، وعند أهل اليمن أن ديارهم سيغلب عليها الأحابش فى آخر الزمان بعد هنات وكوائن وأحداث ، وبعث النبى صلى الله عليه وسلم وعلى اليمن عمال كسرى ، ثم غلب الإسلام فظفر بحمد الله .

وقد أتينا على أخبار من ذكرناه من الملوك ، وسيرهم ، ومطافاتهم فى البلاد ، وحروبهم ، وأبنيتهم فى سائر مطافاتهم ؛ فى الكتاب الأوسط ، فأغنى ذلك عن إعادته فى هذا الكتاب .

حدود اليمن

وبلد اليمن طويل عريض : حده مما يلى مكة الموضع المعروف بلجة الملك سبع مراحل إلى صنعاء ، ومن صنعاء إلى عمان ـ وهو آخر عمل اليمن ـ تسع مراحل

والمرحلة من خمسة فراسخ إلى ستة ، والحد الثانى من حكم ورحاء إلى مابين مفاوز حضرموت وعمان عشرون مرحلة ، ويلى الوجه الثالث بحر اليمن على ما ذكرناه أنه بحر القلزم والصين والهند ، فجميع ذلك عشرون مرحلة فى ست عشرة مرحلة وأسماء ملوك اليمن كذى يَزَن وذى نُوَاس وذى منار وغير ذلك مضافة إلى مواضع وإلى أفعال لهم وسير وحروب وغيرها من سِمَاتٍ لهم تميزهم عن غيرهم ، وتبين كل واحد منهم عن غيره من ملوكهم .

وإذ قد ذكرنا جوامع من أخبار اليمن وملوكها فلنذكر الآن ملوك الحيرة من بنى نصر وغيرهم ؛ للحوقهم باليمن ، ثم نعقب ذلك بملوك الشام وغيرهم من الملوك ، إن شاء الله تعالى .

ذكر ملوك الحيرة من بنى نصر وغيرهم

جذيمة الوضاح صاحب الزباء

ولما ملك جذيمة الوضاح أتت عليه الزَّبَّاء بنت عمرو بن ظرب بن حسان ابن أذينة بن السميدع بن هوبر ، وقد كان ملك من مشارق الشأم إلى الفرات من قبل الروم ، وكانت داره بالموضع المعروف بالمصيرة ، بين بلاد الخانوقة وقرقيسيا وقد كانت الزباء تملكت بعد أبيها ، وأطمعت جذيمة فى نفسها إلى أن قتلته ، وأقام جذيمة ملكا فى زمن ملوك الطوائف خمسا وتسعين سنة ، وفى ملك أردشير بابك وسابور الجنود بن أردشير ثلاثا وعشرين سنة ، فكان ملكه مائة سنة وثمان عشرة سنة ، وكان يكنى بأبى مالك ، وفيه يقول بعض شعراء الجاهلية ، وهو سويد بن كاهل اليشكرى :

إنْ أذُقْ حَتْفى فقبلى ذاقه ... طسم عاد وجديس ذو السبع

وأبو مالك القيل الذى ... قتلته بنت عمرو بالخدع

وكان الملك قبل جذيمة أباه ، وهو أول من ملك الحيرة ، والله أعلم ، وكان يقال له مالك بن فهم بن دوس بن الأزد بن العوف بن مالك بن زيد بن كهلان

ابن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وكان سار من اليمن مع ولد جفنة بن عمرو بن عامر مزيقيا فسار بنو جفنة نحو الشأم ، وانفصل مالك نحو العراق فملك على مضر بن نزار اثنتى عشرة سنة ، ثم ملك بعده ابنه جذيمة على ما ذكرنا .

ملك عمرو بن عدى

ثم ملك بعد جذيمة ابن أخته عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة بن الحرث ابن مالك بن غنم بن نمارة بن لخم ، وهو أول من نزل من الملوك الحيرة واتخذها منزلا ودار ملكه ، وإليه تنسب ملوك النصرية ، وهم ملوك الحيرة ، فكان ملك عمرو بن عدى ابن أخت جذيمة مائة سنة .

قال المسعودى : وقد ذكر غير واحد ممن عنى بأخبار العرب وأيامها أن جذيمة أول من ملك من قضاعة ، وهو جذيمة بن مالك بن فهم التنوخى ، وأنه قال ذات يوم لندمائه : لقد ذكر لى عن غلام من إياد له ظرف وأدب ، فلو بعثت إليه فوليته كأسى والقيام على رأسى لكان الرأى ، قالوا : الرأى ما رأى الملك ، فليبعث إليه ، ففعل ، فلما قدم عليه قال : من أنت ؟ قال : أنا عدى بن نصر بن ربيعة ؛ فولاه مجلسه ، فعشقته رقاش ابنة مالك أخت الملك ، فقالت : يا عدى ، إذا سقيت القوم فامزج لهم ، وغرق للملك ، فاذا أخذت الخمر منه فاخطبنى منه فانه يزوجك ، فأشهد القوم إن فعل ، ففعل الغلام ذلك ، فزوجه فأشهد عليه ، وانصرف الغلام إليها فأنبأها ، فقالت : عَرِّسْ بأهلك ، ففعل ، فلما أصبح غدا متضرجا بالْخَلُوق ، فقال له جذيمة : ما هذه الآثار يا عدى ؟ قال : آثار العرس ، قال : أى عرس ؟ قال : عرس رقاش ، فنخر وأكب على الأرض ، ورفع عدى جراميزه ، وهرب ، وأسرع جذيمة فى طلبه ، فلم يجده ، وقال بعضهم : بل قتله وبعث إليها يقول:

زواج عدى بن نصر رقش أخت جذيمة

حدثينى رقاش لا تكذبينى ... أبحر زنيت أم بهجين

أم بعبد فأنت أهل لعبد ... أم بدون فأنت أهل لدون

فأجابته رقاش تقول :

أنت زوجتنى وما كنت أدرى وأتانى النساء للتزيين
ذاك من شربك المدامة صرفا وتماديك فى الصبا والجنون

فنقلها جذيمة إليه ، وحصنها فى قصره ، فاشتملت على حمل ، وولدت غلاما ، فسمته عمرا ، ووشحته ، حتى إذا ترعرع حلته وعطرته وألبسته كسوة فاخرة ، ثم أزارته خاله ، فأعجب به ، وألقيت عليه منه محبة ومودة ، حتى إذا خرج الملك فى سنة مُكْلئة قد أكمأت ، فبسط له فى أرضه ، وخرج عمرو فى غلمة يجْنُون الكمأة ؛ فكانوا إذا أصابوا كمأة طيبة أكلوها ، وإذا أصابها عمرو خبأها ، ثم اقبلوا يتعادَوْن وعمرو يقْدمهم ، ويقول : -

هذا جناى وخياره فيه إذ كل جانٍ يدُهُ إلى فيه

فالتزمه جذيمة وحياه ، ثم إن الجن استطارته ، فضرب له جذيمة فى الآفاق زمانا ، فلم يسمع له بخبر ، فكف عنه ، إذ أقبل رجلان يقال لأحدهما مالك ، وللآخر عقيل ، ابنا فالج ، وهما يريدان الملك بهدية ، فنزلا على ماء ، ومعهما قينة يقال لها أم عمرو ، فنصبت قدرا ، وأصلحت لهما طعاما ، فبينما هما يأكلان إذ أقبل رجل أشعث أغبر الرأس قدطالت أظفاره وساءت حاله ، حتى جلس مزْجرَ الكلب ، ومد يده ، فناولته القينة طعاما ، فأكل ، فلم يغن عنه شيئا ، فمديده فقالت القينة : إن يعط العبد كراعاطلب ذراعا ، فأرسلتهامثلا ، ثم ناولت صاحبيها من شرابها ، وأوكت زقها ، فقال عمرو بن عدى : —

عدَلْتِ الكأس عنا أم عمرو وكان الكأسُ مجراها اليمينا
وما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذى لاتصبحينا (١)

فقال له الرجلان : من أنت ؟ فقال : إن تنكرانى فلن تنكرا حسبى ، أنا عمرو بن عدى ، فقاما إليه فلثماه ، وغسلا رأسه ، وقلما أظفاره ، وقصرا من

(١) والبيتان ينسبان لعمرو بن معديكرب ، وهما فى طويلته

لمته ، وألبساه من طرائف ثيابهما ، وقالا : ما كنا لنهدى إلى الملك هدية هى أنفس عنده ولا هو عليها أحرص من ابن أخته ، قد رده الله إليه ، فخرجا به ، حتى إذا وقفا على باب الملك بَشّراه به ، فصرفه إلى أمه ، وقال لهما : حُكْمَكُمَا ، فقالا : حكمنا منادمتك مابقيت و بقينا ، قال : ذلك لكما ، فهما نَدْمَانَا جذيمة المعروفان ، و إياهما عنى متمم بن نويرة اليربوعى فى مرثيته لأخيه مالك حين قتله خالد بن الوليد بن المغيرة يوم البطاح : —

وكنا كَنَدْمَانَىْ جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل: لن يتصدعا

فلما تفرقنا كأنى ومالكا ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وقال أبو خراش الهذلى : —

ألم تعلمى أن قد تَفَرَّقَ قبلنا ... خليلا صفاء مالك وعقيل

و إن أم عمرو عمدت إليه ، فبعثت معه حفدة يقومون عليه فى الحمام ، حتى إذا خرج ألبسته من طرائف ثياب الملوك ، وجعلت فى عنقه طَوْقًا من ذهب لنذر كان عليها ، ثم أمرته بزيارة خاله ، فلما رأى خاله لحيته والطوق فى عنقه قال : شَبَّ عَمْرٌو عن الطوق ، وأقام عمرو مع جذيمة خاله قد حمل عنه عامة أمره و إن الزباء ابنة عمرو بن ظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هوبر ملكة الشأم والجزيرة من أهل بيت عاملة من العماليق كانوا فى سليح ، وقال بعضهم : بل كانت رومية ، وكانت تتكلم بالعربية ، مدائنها على شاطىء الفرات من الجانب الشرقى والغربى وهى اليوم خراب ، وكانت فيما ذكر قد سقفت الفرات وجعلت من فوقه أبنية رومية ، وجعلته أنقابا بين مدائنها ، وكانت تغدو بالجنود ، فخطبها جذيمة الأبرش ، فكتبت إليه : إنى فاعلة ، ومثلك من رغب فيه ، فاذا شئت فاشْخَصْ إلى ، وكانت بكرا ، فجمع عند ذلك جذيمة أصحابه ، فاستشارهم ، فأشاروا عليه بالمضى ، وخالفهم قصير بن سعد تابع كان له من لخم ، فأمره أن لايفعل ، ويكتب إليها ، فان كانت صادقة أقبلت إليك ، و إلا لم تقع فى حبالها ،

فعصاه وأطاعهم ، حتى إذا كان ببقّة من دون هيت إلى الأنبار جمعهم وشاورهم ، فأمروه بالشخوص إليها لما علموا من رأيه فى ذلك ، وقال قصير : تنصرف ودمك فى وجهك ، فقال جذيمة : ببقّةَ قضى الأمر ، فأرسلها مثلا ، وقال قصير بن سعد حين رآه قد عزم : لايطاع لقصير أمر ، فأرسلها مثلا ، وظعن جذيمة ، حتى إذا عاين مدينتها — وهى بمكان دون الخانوقة — ونظر إلى الكتائب دونها ، فها له مارأى ، فقال : أىْ قَصِيرُ ، ماالرأى ؟ فقال قصير : إنى تركت الرأى ببقّة ، فقال عندذلك : أشِرْ على ، فقال : إن لقيتك الكتائب فحيتك بتحية الملك وانصرفوا أمامك فالمرأة صادقة ، وإن هم أخذوا بجنبيك ووقفوا دونك فالقوم منعطفون عليك فيما بينهم وبين جنودهم ، فاركب العصا فانها لاتدرك ولا تسبق ، يعنى فرسا كانت جنبت معه ، فاستقبله القوم وأحاطوا به ، فلم يركب العصا ، فعمد إليها قصير فركبها وحمل وانطلق ، فالتفت جذيمة فاذا هو بالعصا عليها قصير أمام خيلهم حتى توارت به ، فقال جذيمة : ماضل من تجرى به العصا ، فأدخل على الزباء ، فاستقبلته وقد كشفت عن كَبَعْثَاتِهَا (أى عفلها) وتنضفت باستها ، وقالت : ياجذيمة ، أى متاع عروس ترى ؟ قال : أرى متاع أمة لكعاء غير ذات خفر ، فقالت أما والله ماذاك من عدم مواس ، ولا قلة أواس ، ولكن شيمة ماس ، ثم أجلسته على نطع ، ودعت له بطست من عسجد ، فقطعت رَوَاهشه واستنزفته ، حتى إذا ضعفت قُوَاه ضرب بيده فقطرت قطرة على دعامة من رخام ، وقد قيل لها : إنه إن وقع من دمه قطرة فى غير طست طلب بدمه ، فقالت : أى جذيم ، لاتُضِيعَنَّ من دمك شيئا ، فانى إنما بعثت إليك لأنه بلغنى أن دمك شفاء من الخبل ، فقال جذيمة : وما يغنيك من دم أضاعه أهله! ! ؟ وفى ذلك يقول المغيث : —

من الدارميين الذين دماؤهم شفاء من الداء المحبة والخبل

واستصفت دمه ، وجعلته فى برنية ، وقال بعضهم : دخل عليها جذيمة فى قصر لها ليس فيه إلا الجوارى ، وهى على سريرها ، فقالت للإماء : خذن بيد

ثم دعت بنطع فأجلسته عليه ، فعرف الشر ، وكشفت عن عورتها فإذا هى قد عقدت شعر استها من وراء ، فقالت : أشوار عروس ترى ؟ فقال : بل شوار أمة بتراء ، فقالت : أما والله ما ذاك من عدم مواس ، ولا من قلة أواس ، ولكنها شيمة ما أناس ، ثم أمرت برواهشه فقطعت ، فجعل دمه يشخب فى النطع كراهة أن يفسد مقعدها ، فقال جذيمة : لا يحزنك دم أراقه أهله

ونجا قصير ، فأورد الخبر على عمرو بن عبد الحى التنوخى بالحيرة ، فأشفق لذلك ، فقال له قصير : اطلب بثأر ابن عمك ، وإلا سبّتك العرب ، فلم يجعل بذلك أن عنده خبرا ، فخرج قصير إلى عمرو بن عدى ، فقال له : هل لك إلى أن أصرف الجنود إليك على أن تطلب ثأر خالك ؟ فجعل له ذلك ، فصرف وجوه الجنود إليه ، ومناهم بالمال والحال ، فانصرف إليه منهم بشر كثير ، فالتقى هو والتنوخى ، فلما خافوا الفتن بايعه التنوخى ، وتم الأمر لعمرو بن عدى ، فقال له قصير : انظر ما وعدتنى به فى الزباء ، فقال عمرو : كيف لنا بها وهى أمنع من عقاب الجو ؟ فقال : أما إذ أبيت فإنى جادع أنفى وأذنى ومحتال لقتلها جهدى ، فأعنى وخلاك ذم ، فقال عمرو : أنت أبصر ، وعلى معونتك ، فجدع أنفه ، فقيل : لأمر ما جدع قصير أنفه ، ثم انطلق حتى دخل على الزباء ، فقالت : من أنت ؟ فقال : أنا قصير ، لا ورب المشارق ما كان على وجه الأرض بشر كان أنصح لجذيمة ولا أغش لك منى ، حتى جدع عمرو أنفى وأذنى ؛ فعرفت أنى لا أكون مع أحد هو أثقل عليه منى معك ، فقالت : أى قصير ، نقبل منزلتك وتصرفك فى بضائعنا ، فأعطته مالا للتجارة ، فأتى بيت مال الحيرة ، فاستخف ما فيه بأمر عمرو بن عدى ، وانصرف به إليها ؛ فلما رأت ما جاءها به فرحت بذلك ، وزادته مالا إلى ما جاء به ، وقال : إنه ليس من ملك إلا وهم يتخذون فى مدائنهم أنقابا تكون لهم عددا ، فقالت له : أما إنى قد فعلت ذلك ، قد نقبت سربا و بنيته من تحت سريرى هذا حتى خرج من تحت الفرات إلى سرير أختى

دخلة ففرح بذلك قصير ، ثم ظعن حتى أتى عمرا ، فركب عمرو فى ألفى رجل على ألف بعير فى الصناديق ، حتى صار إليها ، فقدم قصير وسبق الأبعرة ، فقال لها : اصعدى حائط مدينتك ، وانظرى إلى مالك ، وتقدمى إلى بوابك فلا يتعرض لشىء من أموالنا فانى قد جئت بمال صامت ، وكانت قد أمنته ، فلم تكن تخافه وصعدت وفعلت ما أمرها ، فلما نظرت إلى ثقل مشى الجمال قالت : —

ما للجمال مَشْيُهَا وئيدَا أجَنْدَلاً يحملن أم حديدا
أم صَرَفَانَاً باردا شديدا أم الرجال جُثَّماً قعودا

ودخلت الابل المدينة ، حتى إذا بقى آخرها جملا عيل صبر البواب ، فطعن بمنخسة كانت فى يده خاصرةَ رجل ، فضرط ، فقال البواب : بشتابشتا ، بالنبطية ، أى فى الجوالق شر ، وثار الرجال من الجوالق ضربا بأسيافهم ، فخرجت الزباء هاربة إلى سربها ، فأبصرت قصيرا عند نقبها مُصْلتاً سيفه ، فانصرفت راجعة ، وتلقاها عمرو بن عدى ، فضربها ، وقال بعضهم : مصت خاتمها ، وكان فيه سم ساعة ، وقالت : بيدى لا بيد عمرو ، وخربت المدينة ، وسبيت الذرارى ، فقالت الشعراء فى أمرها وأمر قصير فأكثرت فمن ذلك قول المتلمس : —

ومِنْ طَلَبِ الأوتار ماحزَّ أنفه قصيرٌ ورام الموت بالسيف بهس
تعاميت لما صرع القوم رهطه تبين فى أثوابه كيف يلبس

ومن ذلك قول عدى بن زيد التميمى يصف ذلك من أمرهم : —

ألا أيها الملك المُرَجَّى ألم تسمع بخطب الأولينا
دعا بالبَقَّةِ الأمراء يوما جذيمة عصره ينجو معينا[1]
وطاوع أمرهم وعصا قصيرا وكان يقول لو وقع اليقينا
لخطبته التى غدرت وخانت وهن ذوات غائلة لحينا

مع أشعار كثيرة قيلت فى ذلك

وكانت الزباء لا تأتى حصنا إلا ضفرت شعر استها من خلفه ، ثم تقاعست

(١) فى الاصول « دعا بالنقبة » وهو تحريف ، وانظر ياقوت « بقة »

فتقلعه ، حتى فعلت ذلك بما رد — حصن دومة الجندل — و بالأبلق — حصن تيماء الفرد — حصنين منيعين ، فقالت : تمرد ماردوعز الأبلق ، وهما الحصنان اللذان تذكرهما العرب فى أشعارها ، قال الأعشى فى ذلك : —

بالأبلق الفرد من تَيْمَاء منزله حصن حصين وجارٌ غير غدّار

وجذيمة الوضاح الذى يقول فيه :

ماست مودعة الحدي ث فمنجد منهم وغائر

أن تاه أحور ذو رعيـ ن لنا وأحوى ذو أباعر

والملك كان لذى نوا س حوله من ذى بحائر

بالسابغات و بالقنا والبيض تبرق والمغافر (١)

أزمان عملاق وفيـ هم منهمو باد وحاضر

و إنما سمى جذيمة الأبرص الوضاح لأنه كان به برص ؛ فكنى به إعظاما له

قال المسعودى : هـذا بدء خبر بنى عدى ، وقد قدمنا أن مدة ملكه كانت سنة .

وملك بعده ولده امرؤ القيس بن عمرو بن عدى ستين سنة .

محرق وملك بعده عمرو بن امرىء القيس ، وهو محرق العرب ، خمسا وعشرين سنة وكانت أمه مارية البرية أخت ثعلبة بن عمرو من ملوك غسان

وملك النعمان بن امرىء القيس قاتل الفرس خمساً وستين سنة ، وكانت أمه الهيجانة بنت سلول من مراد و يقال من إياد .

فارس حليمة وملك المنذر بن النعمان فارس حليمة ، وهو الذى بنى الخورنق ، وكردس الكراديس ، خمسا وثلاثين سنة ، وكانت أمه هند بنت الهيجانة من آل بكر

وملك المنذر بن الأسود بن النعمان بن المنذر ، أربعا وثلاثين سنة ، وكانت أمه ماء السماء بنت عوف بن النمر بن قاسط بن قصى بن دعبن خويلد بن أسد ابن ربيعة بن سرار ، و إنما سميت ماء السماء لحسنها وجمالها .

---

(١) فى نسخة « بالسابقات وبالقنا »

ثم ملك بعده عمرو بن المنذر ، أربعا وعشرين سنة ، وكانت أمه أخت عمرو بن قابوس من آل نصر .

ثم ملك قابوس بن المنذر ثلاثين سنة ، وكانت أمه بنت الحرث من آل معاوية بن معديكرب .

وملك النعمان بن المنذر ، وهو الذى يقال له «أبيت اللعن» اثنتين وعشرين سنة وكانت أمه سلمى بنت وائل بن عطية من كلب .

وذكر عدة من الأخباريين أن النابغة استأذن على النعمان يوما فقال له الحاجب : إن الملك على شرابه ، قال : فهو وقت الملق ؛ تقبله الأفئدة وهو جذل للرحيق ، فان تلج تلق المجد عن غرر مواهبه ، فأنت قسيم ما أفدت ، قال له الحاجب : ما تنى عنايتى بدون شكرك فكيف أرغب فيما وصفت ودون ماطلبت رهبة التعدى ؟ قال النابغة : ومن عنده ؟ قال الحاجب : خالد بن جعفر الكلابى نديمه ، فقال النابغة : هل لك إلى أن تؤدى إلى خالد عنى ما أقول لك ؟ قال : وماهو ؟ قال : تقول : إن من يدرك وفاء الدرك بك وتأديتى من الشكر ماقد علمت؛ فلما صار خالد إلى بعض ما تبعثه موارد الشراب عليه نهض فاعترضه الحاجب ، فقال : ليهنك التئام حادث النعيم ، قال : وما ذاك ؟ فأخبره الخبر ، وكان خالد رفيقا يأتى الأشياء بلطف وحسن بصيرة ، فدخل متبسما ، وهو يقول : ـ

إلا لمثلك أو من أنت سابقه سبق الجواد إذا استولى على الأمد

واللات لكأنى أنظر إلى ذى رعين وقد مدت لهم قضبان المجد إلى معالم إحسانكم ومناقب أنسابكم فى حلبة أنت ـ أبيت اللعن ـ غرتها ، فجئت سابقا منهملا ، وجاؤا لم يلم لهم سعى ، قال النعمان : لأنت فى وصفك أبلغ إحسانا من النابغة فى نظام قافيته ، فقال خالد : ما أبلغ فيك حسنا إلا وهو دون قدرك استحقاقاً للشرف الباهر ، ولو كان النابغة حاضر القال وقلنا ، فأمر النعمان بادخاله، فخرج الحاجب فقال : قد أذن بفتح الباب ، ورفع الحجاب ، ادخل ، فدخل ثم

انتصب بين يديه وحياه بتحية الملك ، وقال : أبيت اللعن ، أُتفاخرُ وأنت سائد العرب ، وغرة الحسب ، واللات لأمسك أيمن من يومه ، ولقفاك أحسن من وجهه ، وليسارك أسمح من يمينه ، ولوعدك أصلح من رفده ، ولعبيدك أكثر من قومه ، ولاسمك أشهر من قدره ، ولنفسك أكبر من جده ، وليومك أشهر من دهره ، ثم قال :ـ

أخلاق مجدك جلّتْ مالها خطر ... فى الجود والناس بين العلم والخبر

متوّج بالمعالى فـــوق مفرِقِه ... وفى الوغا ضيغَمٌ فى صورة القمر

فتهلل وجه النعمان بالسرور ، ثم أمر فحشى فوه جوهرا ، ثم قال : بمثل هذا فلتمدح الملوك

وقد كان النعمان قتـل عدى بن زيد التميمى ، وكان يكتب لكسرى أبرويز ويترجم إذا وفد عليه زعماء العرب ؛ لموجدة وجدها عليه النعمان ، فى خبر طويل الشرح ، فلما قتل صار زيد بن عدى مكان أبيه ، فذكر لأبرويز جمال نساء آل المنذر ، ووصفهن له ، فكتب إلى النعمان بأمره أن يبعث إليه بأخته ، فلما قرأ النعمان كتابه قال للرسول ـ وهو زيد بن عدى ـ : يا زيد ، أما لكسرى فى مهَا السواد كفاية حتى يتخطى إلى العربيات ؟! فقال زيد : إنما أراد الملك إكرامك أبيت اللعن بصهرك ، ولو علم أن ذلك يشق عليك لما فعله ، وسأحسن ذلك عنده ، وأعذرك بما يقبله ، فقال النعمان : فافعل ، فقد تعرف ما على العرب فى تزويج العجم من الغضاضة والشناعة ، فأدى إليه قوله فى مها السواد على أقبح الوجوه ، وأوجده عليه ، وقال : ما المها ؟ فقال : البقر ، فأخذ عليه ، وقال : رب عبد قد صار فى الطغيان إلى أكثر من هذا ، فلما بلغت كلمته إلى النعمان تخوفه ، فخرج هاربا حتى صار إلى طيىء ؛ لصهر كان له فيهم ، ثم خرج من عندهم حتى أتى بنى رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحرث بن قطيعة بن عبس ، فقالوا له : أقم معنا فانا مانعوك مما نمنع منه أنفسنا ، فجزاهم الخير ، ورحل عنهم يريد كسرى ليرى فيه رأيه ، وذلك قول زهير بن أبى سلمى :ـ

ألم تر للنعمان كان بنجوة ... من الدهر لو أن امرأ كان ناجيا
فغير عنه ملك عشرين حجة ... من الدهر يوما واحدا كان غاويا
فلم أر مسلوباً له مثل ملكه ... أقل صديقاً معطيا ومواسيا
خلا أن حيا من رواحة حافظوا ... وكانوا أناسا يتقون المخازيا
يسيرون حتى جيشوا عند ثاره ... هجان المطايا والعتاق المذاكيا
فجازاهم خيراً وأثنى عليهم ... وودعهم توديع أن لا تلاقيا

وأخبر النعمان حتى أتى المدائن فصف له كسرى ثمانية آلاف جارية عليهن المصبغات صفين ، فلما صار النعمان بينهن قلن له : أما فينا للملك غنى عن بقر السواد ! ؟ فعلم النعمان أنه غير ناج منه ، ولقيه زيد بن عدى ، فقال له النعمان : أنت فعلت هذا بى لئن تخلصت لأسقينك بكأس أبيك ، فقال له زيد : امض تغنم فقد أخيت له أخية لا يقطعها المهر الأرن ، وأمر كسرى النعمان فجلس فى مجلسه بساباط المدائن ، ثم أمر به فرمى تحت أرجل الفيلة ، وقال بعضهم : بل مات فى محبسه بساباط ، وقد ذكرت ذلك الشعراء فأكثرت : فمن ذلك قول الأعشى وأجاد : ـ

ولا الملك النعمان يوم لقيته ... بغبطته يعطى الضحاك ويرفق
ويجبى إليه المسلمون وعنده ... صريعون فى أنهارها والخورنق
ويقسم أمر الناس يوماً وليلة ... وهم ساكتون والمنية تنطق
فذاك وما أنجى من الموت ربه ... بساباط حتى مات وهو محرزق

وقال هانىء بن مسعود الشيبانى : ـ

إن ذا التاج ، لا أبالك ، أضحى ... فى الورى رأسه تخوت الفيول
إن كسرى عدا على الملك النعـ ... ـمان حتى سقاه مر البليـــل

ومما رثى به النعمان : ـ

لم تبكه هندولا أختها ... خرقاء ، واستعجم ناعيه

بين فيول الهند تخبطنه مختبطا تدمى نواحيه

وفاء هانيء بن مسعود الشيبانى

وقد كان النعمان حين أراد المضى إلى كسرى مستسلما مر على بنى شيبان فأودعهم سلاحه وعياله عند هانىء بن مسعود بن هانىء الشيبانى ؛ فلما أتى كسرى على النعمان بعث إلى هانىء بن مسعود وطالبه بتركته ، فامتنع ، وأبى أن يخفر الذمة ، فكان ذلك السبب الذى أهاج حرب ذى قار ، وقد أتينا على ذلك فيما بعد من هذا الكتاب فأغنى عن إعادته هنا

خرقاء بنت النعمان

وقد كانت خرقاء بنت النعمان بن المنذر إذا خرجت إلى بيعتها يفرش لها طريقها بالحرير والديباج مغشى بالخرز والوشى ، ثم تقبل فى جواريها حتى تصل إلى بيعتها وترجع إلى منزلها ، فلما هلك النعمان لكمها الزمان فأنزلها من الرفعة إلى الذلة ولما وفد سعد بن أبى وقاص القادسية أميرا عليها وهزم الله الفرس وقتل رستم فأتت خرقاء بنت النعمان فى حفدة من قومها وجواريها وهن فى زيها عليهن المسوح والمقطعات السود مترهبات تطلب صلته ، فلما وقفن بين يديه أنكرهن سعد ، فقال : أيكن خرقاء ؟ قالت : ها أناذه ، قال : أنت خرقاء ؟ قالت : نعم ، فما تكرارك فى استفهامى ؟ ثم قالت : إن الدنيا دار زوال ، ولا تدوم على حال ، تنقل أهلها انتقالا ، وتعقبهم بعد حال حالا ؛ كنا ملوك هذا المصر يجبى لنا خراجه ، ويطيعنا أهله مدى المدة وزمان الدولة ، فلما أدبر الأمر وانقضى صاح بنا صائح الدهر فصدع عصانا وشتت شملنا ، وكذلك الدهر ياسعد ؛ إنه ليس يأتى قوما بمسرة إلا ويعقبهم بحسرة ، ثم أنشأت تقول : —

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة ليس نعرف[1]

فأف لدنيا لايدوم نعيمها تقلب تارات بنا وتصرف

فقال سعد قاتل الله عدى بن زيد كأنه ينظر إليها حيث يقول : —

إن للدهر صولة فاحذرنها لا تبيتنّ قد أمنت الدهورا

(١) حفظى « إذا نحن فيهم سوقة نتنصف »

قد يبيت الفتى معافًى فيردى ولقد كان آمنا مسرورا

قال : فبينما هى واقفة بين يدى سعد إذ دخل عمرو بن معديكرب ، وكان زوارا لأبيها فى الجاهلية ، فلما نظر إليها قال : أنت خرقاء ؟ قالت : نعم ، قال : فما دهمك فأذهب بجودات شيمك أين تتابع نعمتك وسطوات نقمتك ؟ فقالت : ياعمرو ، إن للدهر عثرات وعبرات تعثر بالملوك وأبنائهم ؛ فتخفضهم بعد رفعة ، وتفردهم بعد منعة ، وتذلهم بعد عز ، إن هذا لأمر كنا ننتظره ، فلما حل بنا لم ننكره ، قال : فأكرمها سعد ، وأحسن جائزتها ، فلما أرادت فراقه قالت : حى أختك بتحية ملوكنا بعضهم لبعض ، لانزع الله من عبد صالح نعمة إلا جعلك سببا لردها عليه ، ثم خرجت من عنده فلقيها نساء المدينة فقلن لها : مافعل بك الأمير ؟ قالت : أكرم وجهى ، إنما يكرم الكريم الكريم

قال أبو الحسن على بن الحسين المسعودى : فهولاء ملوك الحيرة إلى أن ظهر الاسلام ، فأظهره الله ، وأذل الكافرين ، فجميع من سمينا من هؤلاء الملوك من ولد عمرو بن عدى بن أخت جذيمة الأبرص على حسب ماقدمنا آنفا فى صدر هذا الباب ، ثم جاء الاسلام وملكُ الفرس كسرى أبرويز بن هرم فملك على العرب بالحيرة إياس بن قبيصة الطائى ، فكان ملكه تسع سنين ، وثمانية أشهر مضت من ملك إياس كان مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ملك الحيرة جماعة من الفرس ، وقد كان كذلك قبل عمرو بن عدى ملوك الحيرة على حسب ماذكرنا ، وكان عدة الملوك بالحيرة ثلاثة وعشرين ملكا من بنى نصر وغيرهم من العرب والفرس ، وكان مدة ملكهم ستمائة سنة واثنتين وعشرين سنة وثمانية أشهر ، وقد قيل : إن عمران الحيرة و بدوه إلى أن خربت فى وقت بناء الكوفة كان خمسمائة سنة و بضعا وثلاثين سنة

إحصاء بملوك الحيرة ومدتهم

قال المسعودى : ولم يزل عمرانها يتناقص من الوقت الذى ذكرنا إلى صدر من أيام المعتضد ، فانه استولى عليها الخراب ، وقد كان جماعة من خلفاء بنى

العباس كالسفاح والمنصور والرشيد وغيرهم ينزلونها ويصلون المقام بها ؛ لطيب هوائها ، وصفاء جوهرها ، وصحة تربتها ، وصلابتها ، وقرب الخورنق والتحف منها ، وقد كان فيها ديارات كثيرة فيها رهبان فلحقوا بغيرها من البلاد لتداعى الخراب إليها ، وأقفرت فى هذا الوقت ليس بها إلا الصدى والبوم ، وعند كثير من أهل الدراية التامة بما يحدث فى المستقبل من الزمان أن سعدها سيعود بالعمران وأن هذا النحس عنها سيزول ، وكذلك الكوفة

قال المسعودى : ولمن سمينا من ملوك الحيرة أخبار وسير وحروب قد أتينا على ذكرها والغُرَر من مبسوطها فى كتابنا « أخبار الزمان » وفيما بعد من هذا الكتاب فأغنى ذلك عن إعادته

ذكر ملوك الشأم من اليمن من غسان وغيرها من الملوك

كان أول من ملك الشام من اليمن فالغ بن هور .

ثم ملك بعده سومات ، وهو أيوب بن رزاح ، وقد ذكر الله عز وجل فى كتابه ما كان من خبره على لسان نبيه ، وما اقتص من أمره ، ثم غلبت الروم على ديارها ، فتفرقوا فى البلاد ، وكانت قضاعة من مالك بن حمير أول من نزل الشأم وانضافوا إلى ملوك الروم فملكوهم بعد أن دخلوا فى النصرانية على من حوى الشأم من العرب ، وكان أول من ملك من تنوخ النعمان بن عمرو بن مالك .

ثم ملك بعده عمرو بن النعمان بن عمرو ، ثم ملك بعده الحوارى بن النعمان ، ولم يملك من تنوخ إلا ما ذكرنا ، وهو تنوخ بن مالك بن فهم بن تيم الله بن الأزد ابن دبرة بن ثعلب بن حلوان بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير ، وقد تنوزع فى قضاعة : أمن معد كان أم من قحطان ؛ فقضاعة تأبى أن تكون من معد ، وتزعم أنها من قحطان على ما ذكرنا ، وقد قيل فى نسب قضاعة واتصالها بحمير

ما ذكرنا من النسب ، ثم وردت سليح الشأم فغلبت على تنوخ ، وتنصر من ملكته الروم على العرب الذين بالشام ، وتفرقت قبائل العرب لما كان بمأرب وقصة عمرو بن عامر بن سبأ ؛ فسارت غسان إلى الشام من ولد مازن ، وذلك أن الأزد بن الغوث بن تبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن مازن وإليه ترجع جميع قبائل غسان ، وإنما غسان ماء شربوا منه فسموا بذلك ، وفى ذلك يقول حسان بن ثابت الأنصارى : —

إمّا سألتِ فإنّا معشر نُجُبٌ الأزد نسبتنا والماء غسّانُ

وسنذكر بعد هذا الموضع خبر عمرو بن عامر مزيقيا ، وخبر سيل العرم ، وتفرقهم فى البلاد ، وخبر الماء المعروف بغسان ، وقد ذكر أن عمرو بن عامر حين خرج من مأرب لم يزل مقيما على هذا الماء إلى أن أدركه الموت ، وكان عمره ثمانمائة سنة : أربعمائة سوقةً ، وأربعمائة ملكا .

وغلبت غسان على من بالشأم من العرب ؛ فملكها الروم على العرب ، فكان أول من ملك من ملوك غسان بالشأم الحرث بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن ماس بن غسان بن الأزد بن الغوث .

ثم ملك بعده الحرث بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو بن عامر بن حارثة ، وأمه مارية ذات القُرْطَين بنت أرقم بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو ، وذكر أنها مارية بنت ظالم بن وهب بن الحرث بن معاوية بن ثور بن كندة ، وهى التى ذكرتها الشعراء فى أشعارها ، وتنسب جماعة من ملوك غسان إليها .

وملك بعده النعمان بن الحرث بن ثعلبة بن جبلة بن جفنة بن عمرو .

ثم ملك بعده عوف بن أبى شمر ، وكان ملكه حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم

ثم ملك جبلة بن الأيهم بن جبلة بن الحرث بن ثعلبة بن مازن وهو غسان

ابن الأزد بن عوف وهو الملك الذى امتدحه حسان بن ثابت الأنصارى حيث يقول فى شعر طويل : —

أشهرنها فان ملكك بالشأ م إلى الروم فخر كل يمانى

وفيه يقول أيضاً :

لمن الدار أقفرت بمغان بين أعلى اليرموك والصمان
من قريات من ثلاثين عدت ناسكا منه بالقصور الدوانى
قد دنا الفصح والولائد ينظمن سراعا أكلة المرجان
ذاك مغنى لآل جفنة فى الدهر وحقا تصرف الأزمان
صلوات المسيح فى ذلك الدير دعاء القسيس والرهبان

وهذه مواضع وقرى من غوطة دمشق وأعمالها بين الجولان واليرموك

وذكر عدة من الأخبار بين أن حسان بن ثابت الأنصارى زار الحرث بن أبى شمر الغسانى — وكان النعمان بن المنذر اللخمى يساميه — فقال له وهو عنده : يابن الفريعة ، لقد نبئت أنك تفضل النعمان على ، فقال : وكيف أفضله عليك ! ؟ فوالله لقفاك أحسن من وجهه ، ولأمك أشرف من أبيه ، ولأبوك أشرف من جميع قومه ، ولشمالك أجود من يمينه ، ولحرمانك أنفع من نداه ، ولقليلك أكثر من كثيره ، ولنادك أشرع من غديره ، ولكرسيك أرفع من سريره ، ولجدولك أغور من بحره ، وليومك أطول من شهره ، ولشهرك أمد من حوله ، ولحولك خير من حقبه ، ولزندك أورى من زنده ، ولجندك أعز من جنده ، وإنك من غسان وإنه من لخم ، فكيف أفضله عليك وأعدله بك ؟! فقال : يابن الفريعة ، هذا لا يسمع إلا فى شعر ، فقال : —

نبئت أن أبا منذر يساميك للحرث الأصغر
قفاؤك[1] أحسن من وجهه وأمك خير من المنذر
ويسرى يديك على عسرها كيمنى يديه على المعسر

(١) فى جميع الأصول «قفاك» ووزن البيت عليه لا يستقيم ، ومد المقصور يقع فى الشعر

وكانت ديار ملوك غسان باليرموك والجولان وغيرهما من غوطة دمشق وأعمالها ، ومنهم من نزل الأردن من أرض الشأم ، وجبلة بن الأيهم هو الذى أسلم وارتد عن دينه خوف العار والقَوَدِ من اللطمة ، وخبره واضح مشهور قد أتينا على ذكره فيما سلف من كتبنا وسائر أخبار ملوك تنوخ وسليح وغيرهما ممن ملك الشأم ، ودعا النبى صلى الله عليه وسلم الغسانى إلى الاسلام ورغبه فى الايمان ، وقد أتينا على خبره وما كان من إسلامه وأخباره مع النبى صلى الله عليه وسلم فى كتابنا « أخبار الزمان » فيما بعد ، وفى أبيه يقول النابغة : ـ

هٰذَا غُلَامٌ حسنٌ وجهُه مستقبل الخير سريع التَّمام
للحرث الأكبر والحرث الأصغر والحرث خير الأنام
ثم لهنـد ولهند وقـد أسرع فى الخيرات منه أمام
وخمسة آباؤهم ماهم أكرم من يشرب صوب الغمام

فجميع من ملك من ملوك غسان بالشأم أحد عشر ملـكا ، وقد كان بالشأم ملوك ببلاد مأرب من أرض البلقاء من بلاد دمشق ، وكذلك مدائن قوم لوط من أرض الأردن و بلاد فلسطين ، وكانت خمس مدن ، فكانت دار المملكة منها والمدينة العظمى مدينة سدوم ، وكانت سمة كل ملك فارعا ، وكذلك ذكر فى التوراة ، وذكر أسماء هذه المدن ، أعرضنا عنه إذ كان فيه خروج عن شرط الاختصار .

وقد كان لـكندة وغيرها من العرب من قحطان ومعَدملوك كثيرة لم نتعرض لذكرها ؛ إذ كان لاأسماء لهم تعمهم وتشهرهم ، كقولنا الخليفة وقيصر وكسرى والنجاشى ، ولئلا يطول الكتاب بذكرهم ، وقد أتينا على سائر ملوك العرب من معدوقحطان وغيرهم ممن وسم بالملك فى بعض الممالك فى سائر الأمم الخالية والممالك الباقية من البيضان والسودان ممن أمكن ذكره وتأتى لنا الإخبار عنه ، وإنما ذكرنا فى هذا الكتاب من الملوك ما اشتهر ملكه وعرفت مملكته مَيْلاً إلى

الاختصار ، وطلبا للايجاز ، وتنبيها على ما سلف من أخبارهم فى كتبنا المتقدم ذكرها من تصنيفنا ، والله الموفق .

ذكر البوادى من العرب وغيرها من الأمم
وعلة سكناها البدو ، وجمل من أخبار العرب
وغير ذلك مما اتصل بهذا المعنى

وقد تقدم ذكرنا لولد قحطان ، وأن من عداهم من العرب العاربة دثرت من عاد وطسم وجديس وعملاق وجرهم وثمود وعبيل ووبار ، وسائر من سمينا ، وأن من بقى ممن ذكرنا دخلوا فى العرب الباقية إلى هذا الوقت ، وهم قحطان ومَعَد ، ولا يعلم ان قبيلا بقى يشار إليه فى الأرض من العرب الأول غير معد وقحطان ، وذكرنا من طاف البلاد من التبابعة والأذواء ، وشيد البنيان فى الشرق والغرب ، ومَصَّر الأمصار ، وبنى المدن الكبار ، كإفريقش بن أبرهة ، وما بنى بالمغرب من المدن كمدينة إفريقية وصقلية ، وما كوَّر من الكور هنالك ، وما اتخذ من العمائر ، وكمسير شمر إلى أرض المشرق ، وبنيانه سمرقند ، ومن خلف هنالك من حمير بها ، وببلاد التبت والصين ، وقد ذكر ذلك جماعة من شعرائهم ممن سلف وخلف .

وقد افتخر دعبل بن على الخزاعى فى قصيدته التى يرد فيها على الكميت ، وفخر دعبل بمن سلف من ملوكهم وسير فى الأرض وأن لهم من الفضل ما ليس لمعد بن عدنان ، فقال فى شعره : —

هُمُو كتبوا الكتاب بباب مرو ... وباب الصين كانوا الكاتبينا
وهم جمعوا الجموع بسمرقند ... وهم غرسوا هناك التبتينا

وقد كان من بلاد اليمن ملوك لايدعون بالتبابعة ، ممن تقدم وتأخر منهم ، حتى ينقاد إلى ملكه أهل الشحر وحضرموت ، فحينئذ يستحق أن يسمى تُبَّعًا ،

ومن تخلف عن ملكه مَنْ ذكرنا سمى ملكا ، ولم يطلق له اسم تبع ، وقد قال الله عز وجل فى قصة قريش وتفاخرها بقوتها وعددها (أهم خير أم قوم تبع - الآية) حين دخل الحرم فبعث الله عليه الظلة ، وإنما سمى تبعا بمن تبعه ، وكذلك حكى عن عبد الله بن العباس ، وقد كان تبع أبو كرب سار فى الأرض ، ووطىء الممالك وذللها ، ووطىء أرض العراق فى ملك الطوائف ، وعميد الطوائف حينئذ جور ابن سابور ، فلقى أبو كرب ملكا من الطوائف يقال له قتاد ، وليس بقتاد بن فيروز من السامانية ، فانهزم قتاد ، وأتى تبع أبو كرب على ملكه ، وملك العراق والشأم والحجاز وكثيراً من الشرق

وفى ذلك يقول تبع ويذكر ما صنع : —

ورد الملك تُبَّع وبنوه ... ورثوهم جدودهم والجدودا
إذ جبينا جيادنا من ظفار ... ثم سرنا بها مسيرا بعيدا
فاستبحنا بالخيل ملك قتاد ... وابن أقلود قائما مصفودا
فكسونا البيت الذى حرم الله مُلاءً مُقَصَّباً وبرودا
وأقمنا به من الشهر عشرا ... وجعلنا لنا به إقليدا
ثم طفنا بالبيت سبعا وسبعا ... وسَجَدْنا عند المقام سجودا

وقال أيضاً فيه : —

لستُ بالتُّبَّع اليمانى إن لم ... تَرْكُضِ الخيل فى سواد العراق
أو تؤدى ربيعة الخرج قسرا ... أو تعقنى عوائق العواق

وقد كانت لنزار بن معد معه وقائع وحروب كثيرة ، واجتمعت عليه معد بن ربيعة ومضر وإياد وأنمار ، وتداعت بجدها نزار ، وتواهبت ما كان بينها من الدماء والثأر ؛ فكانت لهم غلبة ؛ فى ذلك يقول أبو دواد الإيادى : —

ضَرَبْنَا على تُبَّع حربه ... حبال البرود وخرج الذهب
وولى أبو كرب هاربا ... وكان جبانا كثير الرهب

وأتبعتـه فهـوى للجبين وكان العزيز بها من غلب

وقد ذكرنا فيما بعد بدء النسب من إبراهيم عليه الصلاة والسلام وولده إسمعيل وتفرق النسب إلى نزار بن معـد بن عدنان ؛ فلنذكر الآن فى هـذا الموضع خبر ولد نزار الأربعة مع الأفعى بن الأفعى الجرهمى ، ثم نعقب ذلك بما إليه قصدنا فى هذا الباب من هذا الـكتاب ، مع علة سكنى البوادى من عرب البـدو وغيرهم ممن سكن الجبال والأودية وسائر البرارى والقفار .

أولاد نزار بن معد والأفعى الجرهمى

ذكر عدة من أخبارى العرب أن نزار بن معـد ولد أربعة أولاد : إياداً ، وبه كان يكنى ، وأنمار — وبجيلة وخثعم من ولده على ماقيل ؛ إذ كان فيما ذكرنا تنازع ؛ لأن من النـاس من ألحقهم باليمن ، ومن الناس من ذكر فيهم ما وصفنا أنهم من ولد أنمار بن نزار — وربيعة ، ومضر ، فلما حضرت نزارا الوفاة دعا بنيه ودعا بجارية له شمطاء ، فقال لإياد : هذه الجارية وما أشبهها من مالى فلك ، ثم أخذ بيد مضر فأدخله قبة له حمراء من أدم ، ثم قال : هذه القبة وما أشبهها من مالى فلك ، ثم أخذ بيد ربيعة وقال له : هذا الفرس الأدهم والخباء الأسود وما أشبههما من مالى فلك ، ثم أخذ بيد أنمار وقال له : هذه البدرة والمجلس وما أشبههما من مالى فلك ، فان أشكلت عليكم هذه القسمة فأْتُوا الأفعى بن الأفعى الجرهمى ، وكان ملك نجران ، حتى يقسم بينكم وترضوا بقسمته ، فلم يلبث نزار إلا قليـلا حتى هلك ، وأشكلت القسمة على ولده ، فركبوا رواحلهم ثم قصدوا نحو الأفعى حتى إذا كانوا منه على يوم وليـلة من أرض نجران ، وهم فى مفازة ، إذا هم بأثر بعير ، فقال إياد : إن هذا البعير الذى ترون أثره أعور ، فقال أنمار : وإنه لأبتر ، قال ربيعـة : وإنه لأزور ، قال مضر : وإنه لشرود ، فلم يلبثوا أن رفع إليهم راكب يوضع بين راحلته ، فلما غشيهم قال لهم : هل رأيتم من بعيرضال فى وجوهكم ؟ قال إياد : بعيرك أعور ؟ قال : فانه لأعور ، قال أنمار : بعـيرك أبتر ؟ قال : فانه لأبتر ، قال ربيعة : بعيرك أزور ؟ قال : فانه لأزور ، قال مضر : كان بعـيرك

شرودا ، قال : إنه لشرود ، ثم قال لهم : فأين بعيرى ؟ دلونى عليه ، قالوا : والله ماحسسنا لك ببعير ولا رأيناه ، قال : أنتم أصحاب بعيرى وما أخطأتم من نعته شيئاً ، قالوا : ما رأينا بعيرا ، فتبعهم حتى قدموا نجران ، فلما أناخوا بباب الأفعى استأذنوا عليه ، فأذن لهم ، فدخلوا ، وصاح الرجل من وراء الباب : أيها الملك ، هؤلاء أخذوا بعيرى ثم حلفوا أنهم مارأوه ، فدعا به الأفعى فقال : ما تقول ؟ فقال : أيها الملك ، هؤلاء ذهبوا ببعيرى وهم أصحابه ، فقال لهم الأفعى : ماتقولون ؟ قالوا : رأينا فى سفرنا هذا إليك أثر بعير فقال إياد : إنه لأعور ، قال : ومايدريك أنه أعور ؟ قال : رأيته مجتهدا فى رعى الكلأ من شق قدلحسه والشق الآخر وافٍ كثير الالتفاف لم يمسه فقلت إنه أعور ، وقال أثمار : رأيته يرعى ببعره مجتمعا ولو كان أهلب لمصع به فعلمت أنه أبتر ، وقال ربيعة : رأيت أثر إحدى يديه ثابتا والآخر فاسدا فعلمت أنه أزور ، وقال مضر : رأيته يرعى الشقة من الأرض ثم يتعداها فيمر بالكلأ الملتف الغض فلا ينعش منه حتى يأتى ما هو أرق منه فيرعى فيه فعلمت أنه شرود ، فقال الأفعى : صدقتم ، قد أصابوا أثر بعيرك وليسوا بأصحابه التمس بعيرك ؛ ثم قال الأفعى للقوم : من أنتم ؟ فأخبروه بحالهم ، وانتسبوا ، فرحب بهم وحياهم ، ثم قال : ما خطبكم ؟ فقصوا عليه قصة أبيهم ، قال الأفعى : وكيف تحتاجون إلى وأنتم على ما أرى ؟ قالوا : أمرنا بذلك أبونا ، ثم أمر بهم فأنزلوا ، وأمر خادما له على دار الضيافة أن يحسن إليهم ويكرم مثواهم وإلطافهم بأفضل ما يقدر عليه ، ثم أمر وصيفا له من بعض خدمه ظريفا أديبا ، فقال : انظر كل كلمة تخرج من أفواههم فأتنى بها ، فلما نزلوا بيت الضيافة أتاهم القهرمان بقرص من شهدفأكلوا وقالوا : ما رأينا شهدا أعذب ولا أحسن ولا أشد حلاوة منه ، فقال إياد : صدقتم لولا أن نحله فى هامة جبار ، فوعاها الغلام ، فلما حضر غداؤهم وجىء بالشواء فاذا بشاة مشوية فأكلوها وقالوا : ما رأينا شواء أجود شيًا ولا أرخص لحما ولا أسمن منه ، فقال أثمار : صدقتم لولا أنه غذى بلبن كلبة ، ثم جاءهم بالشراب فلما شربوا قالوا : مارأينا خمرا أرق ولا أعذب ولا أصفى ولا أطيب رائحة منه ، فقال ربيعة : صدقتم

لولا أن كرمها نبت على قبر ، ثم قالوا : مارأينا منزلا أكرم قرى ولا أخصب رجلا من هذا الملك ، قال مضر : صدقتم لولا أنه لغير أبيه ، فذهب الغلام إلى الأفعى ، فأخبره بما كان منهم ، فدخل الأفعى على أمه ، فقال : أقسمت عليك إلا ما أخبرتنى من أنا ومن أبى ، فقالت : يابنى ، وما دعاك إلى هذا ؟ أنت ابن الأفعى الملك الأكبر ، قال : حقا لتصدقنى ، فألح عليها ، قالت : يابنى ، إن أباك الأفعى الذى تدعى له كان شيخا قد ثقل ، فخشيت أن يخرج هذا الملك عنا أهل البيت ، وقد كان قدم إلينا شاب من أبناء الملوك ، فدعوته إلى نفسى ، فعلقت بك منه ، ثم بعث إلى القهرمان فقال : أخبرنى عن الشهد الذى بعثت به إلى هؤلاء النفر ماخَطْبه ، قال : إنا أخبرنا بدَبْرٍ فى طيف ، فبعثت إليه من يَشُوره ، فأخبرونى أنهم هجموا على عظام نخرة منكرة فى ذلك الطيف ، فاذا النحل قد عسلت فى جمجمة من تلك العظام ، فأتوا بعسل لم أر مثله ، فقدمته إلى القوم لجودته ، ثم بعث إلى صاحب مائدته فقال : ماهذه الشاة التى شويتها لهؤلاء القوم ؟ قال : إنى بعثت إلى الراعى أن ابعث إلى بأحسن شىء عندك فبعث بها إلى ، وما سألته عنها ، فبعث إلى الراعى أن أعلمنى خبر هذه الشاة ، قال : إنها أول ماولدت من غنمى عام أول ، فماتت أمها ، فبقيت ، وكانت كلبة لى قد وضعت فأنست السخلة بجراء الكلبة ، فكانت ترضع من الكلبة مع جرائها ، فلم أجد فى غنمى مثلها ، فبعثت بها إليك ، ثم بعث إلى صاحب الشراب ، فقال : ماهذا الخمر الذى سقيت لهؤلاء القوم ؟ قال : من جنة كرم نبتت غرستها على قبر أبيك ، فليس فى العرب مثل شرابها ، فقال الأفعى : مالهؤلاء القوم إن هم إلا شياطين ، ثم أحضرهم فقال : ماخطبكم قُصُّوا على قصتكم ، فقال إياد : إن أبى جعل لى خادمة شمطاء وما أشبهها من ماله ، فقال : إن أباك ترك نَقَدًا[1] فهى

---

(١) النقد — بالتحريك — جنس من الغنم ، وكان قد قضى لاياد بالخادمة والماشية الباق فسمى إياد الشمطاء ، وانظر (مجمع الامثال : ١ ، ١٤ بولاق) وكان فى الأصول «أن أباك ترك برسا فهى لك ورعاولها مع الخادم» وهو كلام كما ترى . . .

لك ورعاؤها مع الخادم ، قال أنمار : إن أبى جعل لى بدرة ومجلسه وما أشبههما من ماله ، قال : فلك ماترك أبوك من الرَّقَة والخرثى والأرض ، فقال ربيعة : إن أبى جعل لى فرسا أدهم و بيتا أسود وما أشبههما من ماله ، قال : فان أباك ترك خيلادُهْماً وسلاحا فهى لك وما فيها من عبيد ، فسمى ربيعة الفرس ، فقال مضر : إن أبى جعل لى قبة حمراء من أدم وما أشبهها من ماله ، فقال : إن أباك ترك إبلا حمراء فهى لك وما أشبهها من ماله ، فصارت لمضر الابل والقبة الحمراء ، والذهب ، فسمى مضر الحمراء ، وكانوا على ذلك مع إخوانهم جرهم بمكة فأصابتهم سنة أهلكت الشاء وعامة الابل ، وبقيت الخيل ، وكان ربيعة يغزو عليها و يصل إخوته ، وذهب ما كان لأنمار من شاء فى تلك السنين ، ثم عاود الناس الخصب والغيث ، فرجعت الابل وثابت إليها أنفسها ومشت ، فتناسلت وكثرت ، وقام مضر بأمر إخوته ، فبينما هم كذلك وقد قدم الرعاء بابلهم فتشعبوا ليلا وعشوا رعاءهم فقام مضر يوصى الرعاء وفى يد أنمار عظم يتعرقه قد جاء به فى ظلمة الليل وهو لايبصر فضرب فى عنق مضر فتأوه مضر ، وصاح عينى عينى ، وتشاغل به إخوته فركب أنمار بعدأن أكرم إبله ، فلحق بديار اليمن ، وكان فى عقبه ماذكرنا من التنازع

فهؤلاء ولدنزار الأربعة : إليهم يرجع سائر ولد نزار على حسب ما قدمنا مضر الحمراء لما ذكرنا من أمر القبة ، وكذلك تفتخر مضر فى كلامها المنثور والمنظوم ، وربيعة الفرس وربيعة القشعم من الفروسية والشجاعة والنجدة والعز وشن الغارات لما ذكرنا من أمر الفَرَس ، وإياد وقد ذكرنا ماالحق عقبه ، وأنمار وقد بينا الخلاف فى تفرع نسله وما قاله النسابون فى عقبه

ولكل واحد من هؤلاء وما أعقب أخبار كثيرة يطول ذكرها ، ويتسع شرحها : من ذكر ماحلوا به من الديار ، وتشعب أنسابها ، وتسلسلها ، فأتى الناس على ذكرها ، وقد قدمنا فيما سلف من كتبنا اليسير من مبسوطها ، فمنعنا ذلك من إعادته فى هذا الكتاب

فلنذكر الآن الغرض من هذا الباب الذى به ترجم ، وإليه نسب ،

من سكنى من حل البدو من العرب وغيرها من الأمم المتوحشة كالترك والكرد والثبجة والبربر ، ومن تقطن بالبرارى و قطن الجبال ، والعلة الموجبة لذلك من فعلهم

تباين الناس فى السبب الموجب لما وصفنا ؛ فذهب كثير من الناس إلى أن الجيل الأول ممن سكن الأرض سكنوا حينا من الزمان لم يبنوا بناء ، ولا شيدوا مدنا ، وكان سكناهم فى شبه الأكواخ والمظال ، ثم إن نفرا منهم أخذوا فى ابتناء المساكن ، وخلف بعدهم خلف فابتنوا الأبنية ، وثبتت فرقة منهم على سجيتها الأولى فى البيوت والأظلال ينتجعون الأماكن الرفيهة الخصبة ، و ينتقلون عنها إذا أجدبت ، فمضت هذه الطائفة على نهج الأقدمين

تفرق الناس بعد الطوفان

وذكرت طائفة أن أول ذلك أن الناس لما نضب عنهم الطوفان الذى أهلك الله به الأرض من زمن نوح على نبينا وعليه السلام تفرق من نجا فى طلب البقاع الخصبة المتخيرة ، وانفرد من انفرد بانتجاع الأرضين وحلول البيداء ، وآخرون بقاعا تخيروها كمن ابتنى إقليم بابل من النبط ، ومن سلم من ولد حام ابن نوح عليه السلام مع نمروذ بن كنعان بن سنجارب بن نمروذ الأول بن كوش بن سام بن نوح ، وذلك حين تملك على إقليم بابل من قبل الضحاك ، وهو بنوارست ، وكمن حل بلاد مصر من ولد حام على حسب ما ذكرنا فى باب مصر وأخبارها فى هذا الكتاب ، وكمن عمر الشأم من الكنعانيين ، وكمن حل بوادى البربر وهم هوارة وزناتة وضريسة ومعولة ورمحولة ونفرة وكتامة ولواتة ومراتة ورلوبة ونفوسة ولعطة وصدسة ومعمورة وعفارة وفاطة ووارثة واسمة و بنواسحين وارلته وهى مورمانه و بنو وكلان و بنو نصر ران و بنو دووعس و بنو منهوسا وصنهاجة ، ومن سكن من أنواع الأجناس من الأحابش وغيرهم الغابة المعروفة بغابة المبرابريةسون ورعوين والعروبة وسنسون ، ومنهم من سكن غير الغابة واتسع فى هذه البلاد من المغرب

وقد ذكرنا أن أرض البربر خاصة كانت أرض فاسطين من بلاد الشأم ، وأن ملكهم كان جالوت ، وهذا الاسم سمة لسائر ملوكهم ، إلى أن قتل داود عليه الصلاة والسلام ملكهم جالوت ، فلم يتملك عليهم بعده ملك ، وأنهم انتهوا إلى ديار المغرب إلى موضع يعرف بلونية ، فانتشروا هنالك ، فنزل منهم زناتة ومعموله وضريسه الجبال من تلك الديار و بطن الأودية ، ونزلوا أرض برقة ، ونزلت هوارة بلاد إياس وهى بلاد طرابلس المغرب إلى الثلاث المدن ، وقد كانت هذه الديار للافرنجة والروم ، فانجلوا عن البربر حين أوطنوا أرضهم إلى جزائر البحر الرومى ، فسكن الأكثر منهم جزيرة صقلية ، وتفرقت البربر ببلاد إفريقية وأقاصى ديار المغرب فى نحو من مسافة ألفى ميل من بلاد القيروان ، وتراجعت الروم والافرنجة إلى مدنهم ، وذلك على موادعة وصلح من البربر ، واختارت البربر سكنى الجبال والأودية والرمال والدهاس وأطراف البرارى والقفار ومن بحر أفريقية وصقلية يخرج المرجان ، وهو المتصل ببحر الظلمات المعروف ببحر اقيانس ، وغير هؤلاء ممن ذكرنا من الأمم من سكن قطع الأرض وابتنى لمدائن شرقا وغربا

ورأت العرب أن جولان الأرض وتخير بقاعها على الأيام أشبه بالعز ، وأليق بذى الأنفة ، وقالوا : لنكون محكمين فى الأرض نسكن حيث نشاء أصلح من غير ذلك ، فاختاروا سكنى البدو ، من أجل ذلك

وذكر آخرون أن القدماء من العرب لما ركبهم الله من سمو الأخطار ، ونبل الهمم والأقدار ، وشدة الأنفة والحمية من المعرة ، والهرب من العار ؛ بدأت بالتفكر فى المنازل ، والتقدير للمواطن ، فتأملوا شأن المدن والأبنية ، فوجدوا فيها معرة ونقصا ، وقال ذو المعرفة والتمييز : إن الأرضين تمرض كما تمرض الأجسام ، وتلحقها الآفات ، والواجب تخير المواضع بحسب أحوالها من الصلاح ؛ إذ الهواء ربما قوى فأضر بأجسام سكانه ، وأحال أمزجة قطّانه ، وقال ذوو

الآراء منهم : إن الأبنية والتحويط حَصْرٌ عن التصرف فى الأرض ، ومَقْطعة عن الجولان ، وتقييد للهمم ، وحبس لما فى الغرائز من المسابقة إلى الشرف ، ولا خير فى اللبث على هذه الحالة ، وزعموا أيضا أن الأبنية والأطلال تحصر الغذاء ، وتمنع اتساع الهواء ، وتسد سروحه عن المرور ، وقذاه عن السلوك ؛ فسكنوا البر الأفيح الذى لا يخافون فيه من حصر ومنازلة ضر ، هذا مع ارتفاع الأقذاء ، وسماحة الأهواء ، واعتزال الوباء ، ومع تهذيب الأحلام فى هذه المواطن ، ونقاء القرائح فى التنقل فى المساكن ، مع صحة الأمزجة ، وقوة الفطنة ، وصفاء الألوان ، وصيانة الأجسام ، فإن العقول والآراء تتولد من حيث تولد الهواء ، وطبع الهواء الفضاء ، وفى هذا الأمن من العاهات والأسقام والعلل والآلام ، فآثرت العرب سكنى البوادى والحلول فى البيداء ، فهم أقوى الناس هما ، وأشدهم أحلاما ، وأصحهم أجساما ، وأعزهم جارا ، وأحماهم ذمارا ، وأفضلهم جوارا ، وأجودهم فطنا ، لما أكسبهم إياه صفاء الجو ونقاء الفضاء ، لأن الأبدان تحتوى أجزاؤها على متكاثف الأكدار ، وعناء الأقذار ، بما يرتفع إليه ويتلاطم فى عرصاته وأفقه من جميع المستحيلات والمستنقعات من المياه ، ففى أكنافه جميع ما يتصعد إليه ، وكذلك تراكيب الأقذاء والأدواء والعاهات فى أهل المدن ، وتركبت فى أجسامهم ، وتضاعفت فى أشعارهم وأنثارهم ، ففضلت العرب على سائر من عداها من بوادى الأمم المعترضة لما ذكرنا من تخيرها الأماكن وارتياد المواطن

قال المسعودى : وكذلك جانبوا فظاظة الأكراد وسكان الجبال من الأجيال الجافية وغيرهم الذين مساكنهم خُرُوت الأرض ودِهَاسُها ، وذلك أن هذه الأمم الساكنة هذه الجبال والأودية تناسب أخلاقها مساكنها فى انخفاضها وارتفاعها ، لعدم استقامة الاعتدال فى أرضها ، فلذلك أخلاق قطانها على ما هى عليه من الغلظ

وذكر الهيثم بن عدى والشرقى بن القطامى وغيرهما من الأخباريين أنه وفد على كسرى أنوشروان بعض خطباء العرب ، فسأله كسرى عن شأن العرب وسكناها واختيارها البدو ، فقال : أيها الملك ، ملكوا الأرض ولم تملكهم ، وأمنوا من التحصين بالأسوار ، واعتمدوا على المُرْهَفَاتِ الباترة ، والرماح السامرة حسا وحصنا ، فمن ملك قطعة من الأرض فكأنها كلها له ، يردون منها خيارها ، ويقصدون ألطافها ، قال : فأين حظوظهم من الفلك ؟ قال : من تحت الفرقدين ورأس المجرة وسعد الجدى مشرفين على الأرض بحسب ذلك ، قال : فما رياحها ؟ قال : أكثرها النكباء بالليل والصبا عند انقلاب الشمس ، قال : فكم الرياح ؟ قال : أربع ، فاذا انحرفت واحدة منهن قيل نكباء ، وما بين سهيل إلى طرف بياض الفجر جنوب ، وما بازائهما مما يستقبلهما من المغرب شمال ، وماجاء من وراء الكعبة فهى دبور ، وماجاء من قبل ذلك فهى صَبًا ، قال : فما أكثر غذائهم ؟ قال : اللحم واللبن والنبيذ والتمر ، قال : فما خلائقهم ؟ قال : العز ، والشرف ، والمكارم ، وقِرَى الضيف ، وإذمار الجار ، وإجارة الخائف ، وأداء الحمالات ، وبذل المهج فى المكرمات ، وهم سراة الليل ، وليوث القيل ، وعمار البر ، وأنس القفر ، ألفوا القناعة ، وسبقوا الضراعة ، لهم الأخذ بالثار ، والأنفة من العار ، والحماية للذمار ، قال كسرى : لقد وصفت هذا الجيل كرما ونبلا ، وما أولانا بانجاح ذلك فيهم

فتخيرت العرب فى البرارى والمهمات والمصاف : فمنهم المنجد والمُتْهِم ممن سكن أغوار الأرض كغَوْر بيسان وغَوْر غزة من أرض الشأم من بلاد فلسطين والأردن ومن سكنه من لخم وجذام ، ولجميع العرب مياه يجتمعون عليها وقطع ملكية يعرجون عليها ، كالرّهَا والسَّماوة والتهائم وأنجاد الأرض والبقاع والقيعان والوهاد ، ولست ترى قبيلا من العرب توغل عن الأماكن المعروفة لهم والمياه المشهورة بهم ، كماء ضارج وماء العقيق والسباط وما أشبه ذلك من المياه

الاكراد وأصلهم وسكناهم

وأما أجناس الأكراد وأنواعهم فقد تنازع الناس فى بدئهم : فمنهم من رأى أنهم من ربيعة بن نزار بن بكر بن وائل ، انفردوا فى قديم الزمان ، وانضافوا إلى الجبال والأودية ، دعتهم إلى ذلك الأنفة ، وجاوروا ماهنالك من الأمم الساكنة المدن والعمائر من الأعاجم والفرس ، فخالوا عن نسائهم ، وصارت لغتهم أعجمية ، وولد كل من الأكراد لغة لهم بالكردية ، ومن الناس من رأى أنهم من مضر ابن نزار ، وأنهم من ولد كرد بن مرد بن صعصعة بن هوازن ، وأنهم انفردوا فى قديم الزمان لوقائع ودماء كانت بينهم و بين غسان ، ومنهم من رأى أنهم من ربيعة ومضر ، وقد اختصموا فى الجبال طلبا للمياه والمراعى فخالوا عن اللغة العربية لما جاورهم من الأمم ، ومن الناس من ألحقهم بإماء سليمان بن داود عليهما السلام حين سلب ملكه ووقع على إمائه المنافقات الشيطان المعروف بالجسد ، وعصم الله منه المؤمنات أن يقع عليهن فعلق منه المنافقات ، فلما رد الله على سليمان ملكه ووضع تلك الاماء الحوامل من الشيطان قال : أكردوهن إلى الجبال والأودية فربتهم أمهاتهم ، وتناكحوا ، وتناسلوا ، فذلك بدء نسب الأكراد ؛ ومن الناس من رأى أن الضحاك ذا الأفواه المقدم ذكره فى هذا الكتاب الذى تنازعت فيه الفرس والعرب من أى الفريقين هو أنه خرج بكتفيه حَيَّتَان لا يهدآن إلا بأدمغة الناس ، فأفنى خلقا كثيرا من فارس ، واجتمعت إلى حربه جماعة كثيرة وافاه أفريدون بهم وقد شالوا راية من الجلود تسميها الفرس دِرَفش كاصان ، فأخذ أفريدون الضحاك وقيده فى جبل نهاوند على ما ذكرنا ، وقد كان وزير الضحاك فى كل يوم يذبح كبشا ورجلا ويخلط أدمغتهما ويطعم تينك الحيتين اللتين فى كتفى الضحاك ، ويطرد من يخلص إلى الجبل ، فتوحشوا وتناسلوا فى تلك الجبال فهم بدء الأكراد ، وهؤلاء من نسلهم ، وتشعبوا أفخاذا ، وما ذكرنا من خبر الضحاك فالفرس لا يتناكرونه ولا أصحاب التواريخ القديمة ولا الحديثة .

وللفرس فى أخبار الضحاك مع إبليس أخبار عجيبة ، هى موجودة فى كتبهم

وتزعم الفرس أن ظهور المقدم ذكره فى ملوك الفرس هو نوح النبى عليه السلام ، وتفسير درفس بالفارسية الفهلوية — وهى الأولى — : الراية والمطرد والعلم

الترك

وأما الترك وأجناسها فقد قدمنا كثيرا من أخبارها ، وقد غلط قوم فزعموا أن الترك من ولد طوج بن أفريدون ، وهذا غلط ، ولى طوج على الترك وسلح على الروم ، وكيف توليه عليهم وهم ولده ؟ وما قلنا يدل على أن الترك من غير ولد طوج بن أفريدون ، بل لطوج فى الترك عقب مشهور ، والمعظم فى أجناس الترك هم التبت ، وهم من حمير على حسب ما ذكرنا أن بعض التبابعة ربتهم هناك

رأى آخر فى الأكراد

وما قلنا من الأكراد فالأشهر عند الناس ، والأصح من أنسابهم ، أنهم من ولد ربيعة بن نزار ؛ فأما نوع من الأكراد — وهم الشاهجان ببلاد مابين الكوفة والبصرة ، وهى أرض الدينور وهمدان — فلا تناكر بينهم أنهم من ولد ربيعة بن نزار بن معد ، والعاخر ذان — وهم من الكيكان ببلاد أذربيجان والهلبانية والسراة وماحوى بلاد الجبال من الساذنجان والكريه والبارد لكان والبارينجان واليارسان والحالبة والحبانار فيه والحاوانيه والمسكان ومن حل بلاد الشام من الديابلة وغيرهم — فالمشهور فيهم أنهم من مضر بن نزار ، ومنهم اليعقوبية والحورفان ، وهم نصارى ، وديارهم مما يلى الموصل وجبل الجودى

وفى الأكراد من رأيهم رأى الخوارج والبراءة من عثمان وعلى رضى الله عنهما

فهذه جملة من أخبار بوادى العالم ، وقد أعرضنا عن ذكر القول فيهم

والخلج وهم أنواع من الترك نحو بلاد عرس ونصيبين وبست مما يلى بلاد سجستان وكذلك من بلاد كرمان من أرض القفص والملوح والخب

بعض أيام العرب

قال المسعودى : فأما أيام العرب ووقائعها وحروبها فقد ذكرناها فيما سلف من كتبنا ، وما كان بينها فى الجاهلية والاسلام ، كيوم الهباءة ، وحروب ذبيان واليمن ، وحرب داحس والغبراء ، وحرب بكر بن وائل وتغلب ، وهى حرب البسوس ، ويوم الكلاب ، ويوم حرار ، ومقتل جساس بن زهير ، ويوم ذى

قار ، ويوم شعب جنانه ، وما كان من بنى عامر وغيرهم ، وحرب الأوس والخزرج ، وما كان بين غسان وعك

وسنورد بعد هذا الباب جملا من أخبار العرب الدائرة وغيرها وتفريقها فى البلاد ، ونذكر جملا من آرائها ودياناتها فى الجاهلية ، وماذهبت إليه فى الغيلان والهواتف والقيافة والكهانة والنفوس والصَّدَى والهام ، وغير ذلك من شيمها ، وبالله التوفيق

ذكر ديانات العرب وآرائها فى الجاهلية

وتفرقها فى البلاد ، وخبر أصحاب الفيل وعبد المطلب

وغير ذلك مما لحق بهذا الباب

كانت العرب فى جاهليتها فرقا : منهم الموحد المقر بخالقه ، المصدق بالبعث والنشور ، موقنا بأن الله يثيب المطيع ، ويعاقب العاصى ، وقد تقدم ذكرنا فى هذا الكتاب وغيره من كتبنا من دعا إلى الله عز وجل ونبه أقوامه على آياته فى الفترة ، كقس بن ساعدة الإيادى ، ورباب السبتى ، وبحيرا الراهب ، وكانا من عبد القيس

وكان من العرب من أقر بالخالق ، وأثبت حدوث العالم بالبعث والاعادة ، وأنكر الرسل ، وعكف على عبادة الأصنام ، وهم الذين حكى الله عز وجل قولهم : (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ـ الآية) وهذا الصنف الذين حجُّوا إلى الأصنام وقصدوها ، ونحروا البُدْن ، ونَسَكُوا لها النسائك ، وأحلُّوا لها وحرموا

ومنهم من أقر بالخالق ، وكذب بالرسل والبعث ، ومال إلى قول أهل الدهر ، وهؤلاء الذين حكى الله تعالى إلحادهم وخبر عن كفرهم بقوله تعالى : (وقالوا إن

هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون)

ومنهم من مال إلى اليهودية والنصرانية

ومنهم المارُّ على عنجهيته ، الراكب لهمجيته

وقد كان صنف من العرب يعبدون الملائكة ، ويزعمون أنها بنات الله ، فكانوا يعبدونها لتشفع لهم إلى الله ، وهم الذين أخبر الله عز وجل عنهم بقوله تعالى : (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون) وقوله تعالى : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ؟ ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذا قسمة ضيزى)

فمن كان مقرا بالتوحيد ، مثبتا للوعيد ، تاركا للتقليد ؛ عبدالمطلب بن هاشم ابن عبد مناف ، وكان حفر بئر زمزم ، وكانت مطوية ، وذلك فى ملك كسرى قباذ ، فاستخرج منها غزالتى ذهب عليهما الدر والجوهر ، وغير ذلك من الحلى ، وسبعة أسياف قَلْعِية ، وسبعة أدرع سوابغ ؛ فضرب من الأسياف بابا للكعبة ، وجعل إحدى الغزالتين صفائح ، وجعل الأخرى فى الكعبة ، وكان عبد المطلب أول من أقام الرِّفادة والسِّقاية بمكة عذبا ، وجعل باب الكعبة ذهبا ، وفى ذلك يقول عبد المطلب : —

أعطى بلا شُحٍّ ولا مشاحح سقيا على رغم العدو الكاشح
بعد كنوز الحلى والصفائح حَلْيًا لبيت الله ذى المسارح

وكان قد نذر إن رزقه الله عز وجل عشرة أولاد ذكور أن يقرب أحدهم لله تعالى أحبهم إليه وهو عبدالله أبو النبى صلى الله عليه وسلم ، فضرب عليه بالقداح حتى افتداه بمائة من الابل فى خبر طويل

وقد كان أبرهة حين سار بالحبشة وأتى أنصاب الحرم فنزل بالموضع المعروف بمحب المحصب ، فأتى بعبد المطلب بن هاشم فأخبر أنه سيِّد مكة ، فعظمه وهابه لاستدارة نور النبى صلى الله عليه وسلم فى جبينه ، فقال له : سلنى ياعبدالمطلب ،

فأبى أن يسأله إلا إبلا له ، فأمر بردها ، وقال : ألا تسألنى الرجوع ، فقال : أنا رب هذه الابل ، وللبيت رب سيمنعه منك ، وانصرف عبد المطلب إلى مكة وهو يقول : —

يأهل مَكّةَ قد وافاكم ملك مع الفيول على أنيابها الزَّرَدُ
هذا النجاشىُّ قد سارت كتائبه مع الليوث عليها البيض تتّقد
يريد كعبتَكُمْ والله مانعه كمنع تُبَّع لما جاءها حرد

وأمر قريشا أن تلحق ببطون الأودية ورءوس الجبال من معرة الحبشة ، وقلد الإبل النعال وخلاها فى الحرم ، ووقف بباب الكعبة وهو يقول : —

يارب لاأرجو لهم سواكا يارب فامنع منهمُ حماكا
إنَّ عَدُوَّ البيت من عاداكا فامنعهمُ أن يخربوا قراكا

ويقول : —

يارب إن المرء يمـ ـنع رحله فامنع رحالك
لا يغلبنَّ صليبهُمْ ومحالهم عدوا محالك

فأرسل الله عليهم الطير الأبابيل أشباه اليعاسيب ترميهم بحجارة من سجيل وهو طين خلط بحجارة خرجت من البحر ، مع كل طير ثلاثة أحجار ، فأهلكهم الله عز وجل

وقد ذكرنا خبر أبى رغال فيما سلف هذا الكتاب حين دلهم ، وهلاكه فى الطريق ، وجعلت الحبشة يومئذ تسأل عن نفيل بن حبيب الخثعمى يدلها على الطريق ، ونفيل يسمع كلام الحبشة وسؤالها عنه ، وقد ريع لما عمهم من البلاء ، وانفرد عن جملتهم يؤمل الخلاص وقد تاهوا فأنشأ يقول : —

ألا ردى حمى لك ياردينا نعمنا كم مع الاصباح عينا
فانك لو رأيت ولن تريه لدى جنب المحصب مارأينا
حمدتُ الله إذ عاينت طيرا وحصب حجارة تلقى علينا

وكل القوم يسأل عن نفيل كأنَّ عليَّ للحُبْشَان دَيْنا

وقد ذكرنا ما كان منهم فى هلك عنيدهم فيما سلف من هذا الكتاب. فلما صدهم الله عز وجل عن الكعبة أنشأ عبد المطلب يقول :

أيُّهَا الدّاعى لقد أسْمَعْتَنى ثم مابى عن نِدَاكُمْ من صَمَمْ
إنّ للبيت لَرَبًّا مانعا مَنْ يرده بأثام يُصْطَلم
رامه تُبَّع فيمن جندت حمير والحى من آل قرم
فانثنى عنه وفى أوداجه جارحٌ أمسك عنه بالكظم
قالت والأشرم يرمى حيلة : إن ذا الأشرم غر بالحرم
فجزاك الله فيما قد مضى لم يزل ذاك على عهد إبرهم
نحن دمرنا ثمودا عَنْوَةً ثم عاداً قبلها ذات الإرَم
نعبد الله وفينا سنة صِلَةُ القُرْبَى وإيفاء الذمم
لم يزل لله فينا حجة يدفع الله بها عنا النِّقَمْ

قال المسعودى : وقد استدل قوم ممن ذهب إلى الغلو فى بعض المذاهب والخروج عما أوجبته قضية العقل وضرورات الحواس بهذا الشعر ، وقول عبد المطلب فيما كان منهم فى قديم الزمان ، وأيدوا ذلك الشعر بشعر العباس بن عبد المطلب فى مدحه النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لَمّا قدم عليه مُنْصَرَفَه من تبوك فأسلم ، قال : سمعت العباس بن عبد المطلب يقول : يارسول الله ، إنى أريد أن أمتدحك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل لا يَفْضُض الله فاك ، فأنشأ يقول :

من قبلها طبت فى الظلال وفى مستودع حيث يخصف الورق
ثم هبطتَ البلادَ لا بشرٌ أنت ولا مضغة ولا علق
بل حجة تركب السفين وقد ألجم نسرا وأهله الغرق (١)
تنقل من صالب إلى رحم إذا مضى عالم بداطبق
أنت لها وارث وأشرقت الـ أرض وأورى بنورك الأفق

(١) يروى « بل نطفة تركب السفين ـ الخ »

حتى احتوى بيتك المهيمن من خندف علياء تحتها النطق

فنحن فى ذلك الضياء وفى النـ ـور وسبل الرشاد نخترق

قالوا : وهذا الخبر قد ذكره أصحاب السير والأخبار والمغازى ، ونقلوا هذا المديح من قول العباس وما كان من سرور النبى صلى الله عليه وسلم بذلك واستبشاره به ، فجعلت هذه الطائفة من الغلاة ما ذكرنا من الشعرين شعر عبد المطلب وشعر العباس دلالة لهم على مواطن ادعوها ، وتغلغلوا إلى شبه بعيدة استخرجوها ، فمنع منها ماتقدم من أوائل العقول ، وموجبات الفحص ، ذكر ذلك جماعة من مصنفى كتبهم ، ومن حذاق مبرزيهم ، من فرق المحمدية والعليانية وغيرهم من فرق الغلاة : منهم إسحق بن محمد النخعى المعروف بالأحمر فى كتابه المعروف بكتاب الصراط ، وقد ذكر ذلك الفياض بن على فى نقضه لكتاب الصراط ، وذكره المعروف بالهنكي فى نقضه هذا الكتاب المترجم بالصراط ، وهؤلاء محمدية نقضوا هذا الكتاب ، وهو على مذهب العليانية ، وقد أتينا على ذكر هؤلاء المحمدية والنمريرية وسائر فرق الغلاة وأصحاب التفويض والوسائط ، واستقصينا النقض عليهم وعلى سائر من ذهب إلى القول بتناسخ الأرواح فى أنواع أشلاء الحيوان ممن ادعى الاسلام وغيرهم ممن سلف من اليونانيين والهند والثنوية والمجوس واليهود والنصارى ، وذكر قول أحمد بن حائط وابن ياوس وجعفر القاضى ، إلى من نجم فى وقتنا ممن تقدم وتأخر إلى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — ممن أحدث تفريعا على ماسلف من أصولهم ، وأبدى شبها أيدها ما تقدم من مذاهبهم ، مثل الحسين بن منصور المعروف بالحلاج ، وأصحاب أبى يعقوب المرايلى ، ثم أصحاب السوق ومن تأخر عنهم وفارقهم فى أصولهم ، مثل أبى جعفر محمد بن على اللقانى المعروف بابن أبى القراقر وغيرهم من أمم ، وذكرنا الفرق بينهم وبين غيرهم من أصحاب الدورق فى هذا الوقت ممن يراعى وقت الظهر ، وأصحاب

حجج الليل والنهار ؛ إذ كان هؤلاء قد أثبتوا القول بالتناسخ ، وأن الأرواح تنتقل فى شىء من الأجسام الحيوانية ، وأحالوا على القديم عز وجل ، أن يجوز عليه شىء مما تقدم فى كتابنا آنفا

وقد تغلغل بنا الكلام فى ذكر عبد المطلب ؛ تنازع الناس فى عبدالمطلب : فمنهم من رأى أنه كان مؤمنا موحدا ، وأنه لم يشرك بالله عز وجل ، ولاأحد من آباء النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه نقل فى الأصلاب الطاهرة ، وأنه أخبر أنه ولد من نكاح لامن سفاح ، ومنهم من رأى أن عبدالمطلب كان مشركا ، وغيره من آباء النبى صلى الله عليه وسلم إلا من صح إيمانه ، وهذا موضع فيه تنازع بين الإمامية والمعتزلة والخوارج والمرجئة وغيرهم من الفرق وفى النص والاختيار وليس كتابنا هذا موسوما للحجاج فنذكر حجاج كل فريق منهم

وقد أتينا على قول كل فريق منهم وما انتدبه قوله فى كتابنا « المقالات فى أصول الديانات » وفى كتاب « الاستنصار » ووصف أقاويل الناس فى الامامة ، وفى كتاب « الصفوة » أيضا

وكان عبد المطلب يوصى ولده بصلة الأرحام ، وإطعام الطعام ، ويرغبهم فعل من يراعى فى المتعقب معاداً وبعثا ونشورا ، وجعل السقاية والرفادة إلى ابنه عبد مناف — وهو أبو طالب — وأوصاه بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وقد تنوزع فى اسم أبى طالب : فمنهم من رأى أن اسمه ما وصفنا ، ومنهم من رأى أن كنيته اسمه ، وأن على بن أبى طالب رضى الله عنه كتب فى كتاب النبى صلى الله عليه وسلم ليهود خيبر بأملاء النبى صلى الله عليه وسلم « وكتب على بن أبى طالب » ، باسقاط الألف ، وقد ذكر عبد المطلب فى شعر له وصية أبى طالب بالنبى صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : —

أوصيت من كنيته بطالب بابن الذى قد غاب ليس بآئب

وقد كان أكبر العرب ممن بقى ودثر يقر بالصانع و يستدل على الخالق

اختلاط الألسنة

وقد كان فى ملك النمروذ بن كوش بن حام بن نوح هيجان الريح التى نسفت صرح النمروذ ببابل من أرض العراق ، فبات الناس ولسانهم سريانى ، وأصبحوا قد تفرقت لغاتهم على اثنين وسبعين لسانا ، فسمى الموضع من ذلك الوقت بابل ؛ فصار من ذلك فى ولد سام بن نوح تسعة عشر لسانا ، وفى ولد يافث ابن نوح سبعة وثلاثون لسانا ، على حسب ماذكرنا فى صدر هذا الكتاب ، وكان من تكلم بالعربية يَعْرُب وجرهم وعاد وعبيل وجديس وثمود وعملاق وطسم ووَبَار وعبد بن ضخم ؛ فسار يعرب بن قحطان بن عامر بن شالخ بن إرفخشذ بن سام بن نوح بمن تبعه من ولده وغيرهم وهو يقول : —

مسير يعرب وسكناه اليمن

أنا ابن قحطان الهمام الأفضل ... الأيمن المعرب ذى المهلل
ياقوم سيروا فى الرَّعيل الأول ... أنا الندى باللسان المسهل
الأبين المنطق غير المشكل ... حثوت والأمة فى تبلبل
ياقوم سيروا فى الرعيل الأول ... نحو يمين الشمس فى تمهل

فحل باليمن على ما وصفنا آنفا من هذا الكتاب

وسار بعده عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح بولده ومن تبعه وهو يقول : —

مسير عاد إلى الأحقاف

إنى أنا عاد الطويل البادى ... وسام جدِّى بن نوح الهادى
فقد رأيتم يعرب الزيادى ... وسوقه الطارف والتلادى

فحل بالأحقاف وأدانى الرمل بين عمان وحضر موت واليمن ، وتفرق هؤلاء فى الأرض ؛ فانتشر منهم ناس كثير : منهم جيرون بن سعد بن عاد حلَّ بدمشق فمصَّر مصرها ، وجمع عمد الرخام والمرمر إليها ، وشيد بنيانها ، وتسمى إرم ذات العماد ، وقد روى عن كعب الأحبار فى إرم ذات العماد غير هذا ، وهذا الموضع بدمشق فى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — سوق من أسواقها ، عند باب المسجد الجامع ، يعرف بجيرون ، وجيرون هو بنيان عظيم كان

إرم ذات العماد بدمشق

قصر هذا الملك ، عليه أبواب من نحاس عجيبة : بعضها على ما كانت عليه ، والبعض على مسجد الجامع ، وقد ذكرنا فيما مر خبر بنى أسهود

نزل ثمود الحجر

وسار بعد عاد بن عوص ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح بولده ومن تبعه وهو يقول : —

أنا الفتى الذى دعى ثمودا يا قوم سيروا وَدَعُوا الترديدا
لعلنا أن ندرك الوفودا فنلحق البادى لنا العديدا
إنا أبينا اليعرب الحميدا وعاد ما عاد الفتى الجليدا

فنزل هؤلاء الحجر إلى فرع ، وقد تقدم ذكرهم فيما سلف من الكتاب ، وخبر نبيهم صالح عليه السلام ، وأنهم نحو وادى القرى بين الشأم والحجاز

مسير جديس إلى اليمامة

وسار بعد ثمود جديس بن عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح بولده ومن تبعه وهو يقول : —

أنا جديس والمسير المسلكا فَدَتْك نفسى يا ثمود المهلكا
دعوتنى فقد قصدت نحوكا إذ سارت العِيسُ وأبدت شخصكا

وقد قلنا فيما سلف : إنهم هؤلاء الذين نزلوا اليمامة

مسير عملاق إلى مواضع مختلفة

وسار بعد جديس عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح ومن تبعه وهو يقول : —

لما رأيت الناس ذا تبَلْبُلِ وسار منّا ذو اللسان الأول
وحدثتنا فى اللحاق الأول فسرت حثا بالسوام المهمل

فنزل هؤلاء أكناف الحرم والتهائم ، ومنهم من سار إلى بلاد مصر والمغرب ؛ وقيل : إن هؤلاء بعض فراعنة مصر ، وقد ذكرنا قول من ألحق العماليق وغيرهم ممن ذكرنا بقطور بن إسحق بن إبراهيم الخليل ، وزعم أنهم من ولد العيص على حسب ماذكرنا فيما تقدم ؛

وقد كانت العماليق ملوكا كثيرة سلفت فى مواضع من الشأم وغيره ، وقد

أتينا على أخبارهم وذكر ممالكهم وحروبهم فى كتابنا « أخبار الزمان » وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب قصة يوشع بن نون مع ملك العماليق ، وأنهم انضافوا إلى ملك الروم على مشارق الشأم والغرب والجزيرة من ثغور الروم فيما بينهم و بين فارس

فممن ملك الروم من العماليق أذينة بن السميدع الذى ذكره الأعشى فى قوله : —

أزال أذينة عن ملكه وأخرج عن ملكه ذا يزن

وقد كان ملك بعد العماليق حسان بن أذينة بن طرب ، ويقال : هو الذى يعرف بأمه

ثم ملك عمرو بن طرب ، ويقال : هو الذى كان يعرف بأمه ، وقد كان بينه و بين جذيمة الأبرش الأزدى ابن مالك حروبٌ كثيرة ، فقتله جذيمة على ماذكرنا ، وما كان من قتل الزباء لجذيمة وقول الشاعر : —

كأنّ عمرو بن زبا لم يعش ملكا ولم يكن حوله الرايات تختفق
لاءم جذيمة من ضرساء مشعلة فيها خراشف بالنيران ترتشق

ثم سار طسم بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح بعد عملاق بن لاوذ بولده ومن تبعه وهو يقول : —

مسير طسم نحو البحرين

إنى أنا طسم وجدّى سام سام بن نوح وَهُوَ الامام
لما رأيت الأخ والأعلاما قلت لنفسى : ألحق السواما
أخاك عملاقا وذا الإقدام يافث لا كان ولي حام

فنزل هؤلاء البحرين

وقد كان جميع من ذكرنا بدوا ، وانتشروا فى الأرض ، على حسب ماذكرنا من مساكنهم ، وكثرت جديس فملكت عليها الأسود بن غفار ، وكثرت طسم ؛ فملكت عليها عميلق بن جديس ، وقد ذكرنا عبيد بن شرية الجرهمى

حين وفد على معاوية وأخبره أن طسم بن لاوذ بن سام بن نوح هم العرب العاربة وقد كان منزلهم جميعا باليمامة ، واسمها إذ ذاك جو

عملوق ملك طسم الظالم

وكان لطسم ملك يقال له عملوق ، وكان ظلوما غشوما ، لاينهاه شيء عن هواه ، مع إصراره و إقدامه على جديس ، وتعديه عليهم ، وقهره إياهم ، فلبثوا فى ذلك دهرا ، وهم أهل مظالم ، قد غمطوا النعمة ، وانتهكوا الحرمة ، و بلادهم أفضل البلاد ، وأكثرها خيرا ، فيها صنوف الشجر والأعناب ، وهى حدائق ملتفة ، وقصور مصطفة ، فلم يزل على ذلك حتى أتته امرأة من جديس يقال لها هزيلة بنت مازن وزوج لها قد فارقها يقال له ماشق ، فأراد قبض ولده منها ، فأبت عليه ، فارتفعا إلى الملك عملوق ليحكم بينهما ، فقالت المرأة : أيها الملك ، هذا الذى حملته تسعا ، ووضعته دفعا ، وأرضعته شفعا ، ولم أنل منه نفعا ، حتى إذا تمت أوصاله ، واستوفى خصاله ، أراد أن يأخذه قسرا ، ويسلبنيه قهرا ، ويتركنى منه صفرا ، قال زوجها : قد أخذت المهر كاملا ، ولم أنل منه نائلا ، إلا ولدا حاملا ، فافعل ماأنت فاعلا ، فأمر الملك أن يؤخذ الولد منها ويجعل فى غلمانه ، فقالت هزيلة فى ذلك : —

أتينا أخا طَسْمٍ ليَحْكُمَ بيننا ... فأبْرَمَ حُكْمًا فى هزيلة ظالما
لعمرى لقد حكمت لامتورعا ... ولا فَهِمًا عند الحكومة عالما
ندمت فلم أقدر على متزحزح ... وأصبح زوجى حائر الرأى نادما

فبلغ الملك قول هزيلة ، فغضب ، وأمر أن لاتتزوج امرأة من جديس فتزف إلى زوجها حتى تحمل إليه فيفترعها قبل زوجها ، فلقوا من ذلك ذلا طويلا ، ولم تزل تلك حالتهم حتى تزوجت عفيرة ، وقيل : الشموس ، بنت غفار الطسمى أخت الأسود بن غفار[1] ، فلما كانت ليلة هديها إلى زوجها انطلق بها إلى عملوق الملك ليطأها على عادته ، ومعه القينات يغنين ويقلن فى غنائهن : —

(١) هكذا ورد فى تاريخ الطبرى (٢ : ٣٨) ووقع فى الأصول « الشموس بنت عمار أخت الأسود بن عفار » بالخطأ فى الموضعين وعدم الاتفاق حتى على الخطأ

إبْدَأْ بعملوق وقومى فاركبى وبادرى الصبح بأمر معجب
فالبكر بعدكم من مَذْهَب

فلما دخلت عفيرة على عملوق وافترعها وخلى سبيلها فخرجت عفيرة على قومها فى دمائها شاقّةً جيبها عن قبلها ودبرها ، وهى تقول :

لا أحدٌ أذل من جديس أهكذا يُفْعَلُ بالعروس

وقالت أيضا تحرض جديس على طسم ، وأبت أن تمضى إلى زوجها من كلمة : —

أيصلح مايؤتى إلى فتياتكم وأنتم رجال فيكم عَدَدُ الرمل
أيصلح تمشى فى الدما فتياتكم صبيحة زُفّتْ فى النساء إلى البعل
فان أنتم لاتغضبوا بعد هذه فكونوانساءلاتفروامن الكحل
ودونكمُ طيبَ العروس ؛ فانما خلقتم لأثواب العروس وللغُسْلِ
قبيحا وشيكا المذى ليس دافعا ويختال يمشى بيننا مشية الفحل
فلو أننا كنا الرجال وكنتم نساء لكنا لانقر على الذل
فموتوا كراما واصبروا لعدوكم بحرب تلظى فى القرام من الجزل
ولا تجزعوا للحرب ياقوم إنما تقوم بأقوام كرام على رجل
فيهلك فيها كل نكس مُوَكّل ويسلم فيها ذو النجابة والفضل

وفى ذلك يقول أخوها : —

جاءت تَمَشّى طَسْمُ فى خميس كالريح فى هشهشة اليبيس
ياطسم مالقيت من جديس حقا لك الويل فهيسى هيسى

قال : فلما سمعت جديس بذلك وغيره من قولها اجتمعت غضبا لذلك ، فقال لهم الأسود بن غفار ، وكان فيهم سيدا مطاعا : ياجديس ، أطيعونى فيما آمركم به ، وأدعوكم إليه ، ففى ذلك عز الدهر ، وذهاب الذل ، قالوا : وما ذلك ؟ قال : قد علمتم أن هؤلاء — يعنى طسما — ليسوا بأعزمنكم ، ولكن ملك صاحبكم عليكم وعليهم هو الذى يذعننا إليه بالطاعة ، ولولا ذلك ما كان له علينا من فضل ، ولو

امتنعنا منه لكان لنا النصف ، فقالوا : قد قبلنا قولك ، ولكن القوم أقراننا ، وأكثر عددا وعُدَدا منا ، فنخاف إن ظفروا بنا أن لايقيلونا ، فقال : والله ياجديس لَتُطِيعُنَّنِى فيما آمركم به وأدعوكم إليه أولأتكئن على سيفى فأقتل به نفسى ، قالوا : فانا نطيعك فيما قد عزمت عليه ، قال : فانى صانع لعملوق وقومه من طسم طعاما وَدَاعيهم إليه ، فاذا جاؤا إليه منفضلين من الخيل والبغال نهضنا إليهم بأسيافنا ، فانفردت أنا بالملك ، وانفرد كل رجل منكم برجل منهم ، قالوا : فافعل مابدالك ، واجتمع رأيهم عليه ، فقالت عفيرة لأخيها الأسود : لاتفعل هذا ؛ فان الغدر فيه ذلة وعار ، ولكن كابدوا القوم فى ديارهم تظفروا أو تموتوا كراما ، قال لا ، ولكن نمكر بهم ، فيكون ذلك أمكن لنا من نواصيهم ، وأبلغ فى الانتقام منهم ، فقالت عفيرة فى ذلك أشعارا قد ذكرناها فيما سلف من كتبنا

ثم إن الأسود صنع طعاما كثيرا ، وأمر قومه فاخترطوا سيوفهم ودفنوها فى الرمل حيث أعدوا الطعام ، ثم قال لهم : إذا أتاكم القوم يرفلون فى حليهم فخذوا أسيافكم ثم تقدموا عليهم قبل أن يأخذوا مجالسهم ، وابدؤا بالرؤساء ؛ فانكم إذا قتلتموهم لم تبالوا بالسفلة ، ولم يكن بعد ذلك منهم حال تكرهونها ، قالوا : نفعل ما قلت .

ثم دعا الأسود بعملوق الطسمى ومن معه من رؤساء طسم باليمامة فأسرعوا إجابة دعوة الأسود ، فلما توافوا إلى المدعاة وثَبَتْ جديس ، فاستثاروا سيوفهم من الرمل ، وشدوا على عملوق وأصحابه فقتلوهم حتى أفنوهم عن آخرهم ومضوا إلى ديارهم فانتهبوها ، وقال الأسود بن غفار فى ذلك أشعارا يرثى بها طسما ، ويذكر نعيمها وفعل عملوق بأخته ، يطول عن ذكرها الكتاب ، وقد تقدمت فيما سلف من كتبنا .

رباح بن مرة الطسمى يستنجد حمير على جديس

قال : وهرب رجل من طسم — وكان اسمه رباح بن مرة الطسمى — فأتى إلى حسان بن تبع الحميرى ملك اليمن يومئذ ، فاستغاث به ، وقد كان عمد إلى

جريدة نخل رطبة فجعل عليها طينا رطبا ، وحملها معه ، وأخرج معه كلبة ، فلما ورد على حسان كسر يد كلبته ، وفرغ الطين عن الجريدة فخرجت خضراء ، ودخل إلى حسان واستعاذ به ، وأخبره بالذى صنعت جديس بقومه ، فقال له الملك : لله أبوك ، فمن أين مبداك ؟ قال : أبيت اللعن مِنْ أرض قريبة وقوم انْتُهِك منهم مالم ينتهك من أحد ، أنا رباح بن مرة الطسمى ، دعتنا جديس إلى مَدْعاة لهم فأجبناهم منفصلين فى الحلل وقد أعدوا لنا السلاح عند جفانهم ، فما ذقنا الطعام حتى صرنا حطاما ، بلاطلب دم ولا تِرَةٍ سلفت ؛ فدونك ـ أبيت اللعن ـ قوما قطعوا أرحامنا ، وسفكوا دماءنا ، قال الملك حسان : أمعك خرجت هذه الجريدة وهذه الكلبة ؟ قال : نعم ، فقال الملك : إن كنت صادقا لقد خرجت من أرض قريبة ، ووعده بالنصرة ، ثم نادى فى حمير بالمسير ، وأعلمهم بما فعل بطسم ، قالوا : من فعل هذا أبيت اللعن ؟ قال : عبيدهم ، قالوا : مالنا فى هذا من أرَبٍ ، هم إخواننا فلا نعين بعضنا على بعض ، وهم عبيدك أيها الملك فدعهم ، فقال حسان : ماهذا بحسن ، أرأيتم لو كان هذا فيكم أكان حسنا للملك أن يهدر دماءكم ؟ وما علينا فى الحكم إلا أننا ننصف بعضنا من بعض ، فقام فرسانهم فقالوا : أبيت اللعن الأمر أمرك ، فمرنا بما أحببت ، فأمرهم بالمسير ، فساروا وسار بهم رباح بن مرة ، حتى إذا صاروا من اليمامة على ثلاث قال رباح بن مرة للملك حسان : أبيت اللعن ، إن لى أختا متزوجة فى جديس ليس فى الأرض أبصر منها زرقاء اليمامة إنها تبصر الراكب على مسيرة ثلاث ليال ، وأنا أخاف أن تنذر القوم بك ، فتأمر كل واحد من أصحابك أن يقتلع شجرة من الأرض فيجعلها أمامه ثم يسير ، فأمر حسان بذلك ، ففعلوا ثم ساروا ، وكان اسم أخت رباح « يمامة » فأشرفت من منظرها فقالت : ياجديس ، لقد سارت إليكم الشجر ، قالوا لها : ماذاك ؟ قالت : أشجار تسير وراءها شىء ، وإنى لأرى رجلا من وراء شجرة ينهش كتفا أو يخصف نعلا ، فكذبوها ، وكان ذلك كما ذكرت ؛ فغفلوا عن أخذ أهبة الحرب ،

ففى ذلك تقول اليمامة لجديس تحذرهم :

إنى أرى شَجَراً من خلفها بَشَرُ ... فكيف تجتمع الأشجار والبشر

ثوروا بأجمعكم فى وجه أولهم ... فان ذلك منكم فاعلموا ظفَرُ

وأقبل الملك حسان بحمير حتى إذا كان من جَوّ على مسيرة ليلة عبّى جيوشه ثم صبحها فاستباح أهلها من جديس قتلا ، فأفنى نساءهم وصبيانهم ، وهرب الأسود بن غفار ملكها حتى نزل بدار طيء فأجاروه من الملك وغيره ، من غير أن يعرفوه ، فيذكر أن نسله اليوم فى طيء مذكور .

فلما فرغ حسان من جديس دعا باليمامة بنت مرة ، وكانت امرأة زرقاء ، فأمر فنزعت عيناها فاذا فى داخلها عروق سود ، فسألها عن ذلك ، فقالت : حجر أسود يقال له الإثمد كنت أكتحل به فنشب إلى بصرى ، وكانت أول من اكتحل به ، فاتخذوه بعد ذلك كحلا ، وأمر الملك باليمامة فصُلبت على باب جو ، وقال : سموا جوا باليمامة ؛ فسميت بها إلى اليوم .

مسير وبار ابن أميم

قال المسعودى : ثم سار بعد طسم بن لاوذ و بارُ بن أميم بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح بولده ومن تبعه من قومه ، فنزل بأرض وَبار بالأرض المعروفة برمل عالج ، فأصابهم نقمة من الله فهلكوا لما كان من بغيهم فى الأرض ، وقد قدمنا فصلا من ذلك فيما سلف من هذا الكتاب على ما زعم الأخباريون من العرب ، وخروجهم بذلك عن حد العقول والعناد من الأمر المفهوم ؛ بزعمهم أن الله عز وجل حين أهلك هذه الأمة العظيمة المعروفة بوبار كما أهلك طسما وجديسا وداسما وكانت ديار داسم بأرض السماوة فأهلكوا بالريح السوداء الحارة ، وطسم كانت ديارهم بالجولان والجيدور من أرض بوا و بلاد حوران والتبت ، وذلك بين دمشق وطبرية من أرض الشام ، وعملاق وعاد وثمود ، وأن الجن كانت تسكن فى ديار و بار ، وحمتها من كل من أرادها وقصد إليها من الإنس ، وأنها كانت أخصب بلاد الله عز وجل وأكثرها شجرا وأطيبها ثمرا وعنبا ونخلا وموزا ، وإن دنا أحد

أرض وبار مسكن الجن فى زعم العرب

من الناس إلى تلك البلاد غالطا أو متعمدا حثت الجن فى وجهه التراب ، وسفت عليه سوافى الرمل ، وأثارت عليه الزوابع ، فان أراد الرجوع خبلوه وتيهوه ، وربما قتلوه ، وهذا الموضع عند كثير من ذوى الحجا باطل ، فاذا قيل لهم : دلُّونا على جهته ، وقِفُونا على حده ، زعموا أنهامن أرادها أغمى على قلبه ، كأنهم كبنى إسرائيل الذين كانوا مع موسى فى التيه فصدهم الله تعالى عن الخروج ، ولم يجعل لهم سبيلا إلى أن تم فيهم مراده ، وانتهى فيهم حكمه ، وقد قال فى ذلك شاعرهم يخبر بمثل ما وصفنا من قولهم فى هذه الأرض المجهولة : —

دَعَا جعلا لايهتدى لمقيله من اللؤم حتى يهتدى لوبار
وداعٍ دعاوالليل مُرْخٍ سُدُولَهُ رجاء القرى يامسلم بن جبار

وأقوالهم فى مثل هذا كثيرة

والعرب ممن سلف وخلف فى الجاهلية والاسلام يخبروننا عن هذه الأرض كإخبارهم عن وادى الروم والصَّمَّان والدهناء والرمل الذى بدارين وغيرها من الأرضين التى نزلوا فيها ؛ يجتمعون عليها طلبا للماء والكلأ ، وزعموا أنه ليس بهذه الأرض اليوم أحد إلا الجن والإبل الوحشية ، وهى عندهم من الإبل التى قد ضربت فيها فحول الجن ، فالوحشية من نسل إبل الجن ، والعبدية والعسجدية والعمانية قد ضربت فيها الوحشية ، وفى ذلك يقول زهير بن أبى سلمى : —

كأنى على وَحْشِيَّةٍ أو نعامة لها نَسَبٌ فى الطير وهو ظليم

والأشعار فى ذلك كثيرة

وفى بسطنا لجوامع أخبار العرب فيما نقلته عن أسلافها — مما أمكن كونه وخرج عن حد الوجوب والجواز — خروجٌ عن حد الإيجاز والاختصار ، وقد أتينا على ذلك فيما سلف من كتبنا

مسير عبد ضخم إلى الطائف

وسار بعد وبار بن أميم عَبْدُ ضخم بن إرم بن سام بن نوح بولده ومن تبعه

فنزلوا الطائف ، فهلك هؤلاء ببعض غوائل الدهر ، فدثروا وذكرتهم الشعراء ، وفيهم يقول الأزدى : —

وعبد ضخم إذا نسبتهم ابيض أهل الحي بالنسب
ابتدعوا منطقا يجمعهم فبين الخط قحة العرب

بدء الكتابة

وذكر أن هؤلاء أول من كتب بالعربية ، ووضع حروف المعجم ، وهى حروف ا ب ت ث ، وهى التسعة والعشرون حرفا ، وقد قيل غير ذلك ، على حسب تنازع بدء الكتابة .

مسير جرهم إلى مكة

وسار بعد عبد ضخم بن إرم جرهم بن قحطان بولده ومن تبعه ، وطافوا البلاد ، حتى أتوا مكة فنزلوها ، وفى ذلك يقول مُضَاض بن عمرو الجرهمى : —

هذا سبيل كسبيل يعرب البادىء القول المبين المعرب
ياقوم سيروا عن فعال الأجنب جُرْهُم جَدَّىَ وقحطان أبى

مسير أميم إلى بلاد فارس

وسار أميم بن لاوذ بن إرم بعد جرهم بن قحطان فحل بأرض فارس ؛ فالفرس — على حسب ماقدمنا فيما سلف من هذا الكتاب ، فى باب تنازع الناس فى أنساب فارس — من ولد كيومرث بن أميم بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح ، وفى ذلك يقول بعض من تقدم من أهل الحكمة من شعراء فارس فى الإسلام :—

أبونا أميم الخير من قبل فارس وفارس أرباب الملوك بهم فخرى
وماعد قوم من حديث وحادث[1] من المجد إلا ذكرنا أفضل الذكر

أول من بنى البيوت أميم ابن لاوذ

وقد ذكر جماعة من أهل السير والأخبار أن جميع من ذكرنا من هذه القبائل كانوا أهل خيم و بدوا مجتمعين فى مساكنهم من الأرض ، وأن أميما أول من ابتنى البنيان ، ورفع الحيطان ، وقطع الأشجار ، وسقف السقوف ، واتخذ السطوح ، وأن ولد حام بن نوح حلّوا ببلاد الجنوب ، وأن ولد كوش بن كنعان خاصة هم النوبة ، على حسب ماقدمنا آنفا فى باب السودان من هذا الكتاب ، وأن

(١) كذا ، ولعله « من قديم وحادث »

فخذا من ولد كنعان بن حام ساروا نحو بلاد إفريقية وطنجة من أرض المغرب ، فنزلوها ؛ وزعم هذا القائل أن البربر من ولد كنعان بن حام

تنازع الناس فى نسب البربر

وقد تنازع الناس فى بدء أنساب البربر ؛ فمنهم من رأى أنهم من غسان وغيرهم من اليمن ، وأنهم تفرقوا حول تلك الديار حين تفرق الناس من بلاد مأرب عند ما كان من سيل العرم ، ومنهم من رأى أنهم من قيس عيلان ، ومنهم من رأى غير ما ذكرنا فيما سلف من كتبنا

الشام بلاد كنعان

ونزل كنعان بن حام والأغلب من ولد كنعان بلاد الشأم ، فهم الكنعانيون وبهم تعرف تلك الديار ، فقيل : بلاد كنعان .

مسير بوقر بن لوط إلى الهند

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب أخبار مصر بن حام ومصر والأنباط وسار بوقر [بن لوط[1]] بن حام بولده ومن تبعه إلى أرض الهند والسند ، وبالسند أمم لهم أجسام طوال ، وهم من بلاد المنصورة من أرض السند ، فعلى هذا القول أن الهند والسند من ولد بوقر بن حام بن نوح ، فولد حام فى الجنوب من الأرض الأكثر منهم ، وولد يافث فى الشمال فيما بين المشرق والمغرب ، على حسب ماذكرنا من الأمم وتفرقها فى الشرق وغيره مما يلى جبل الفتح والباب والأبواب .

بغى عاد وأصنامها

وبغت عاد فى الأرض وملكها الجلجان بن الوهم ؛ فكانوا يعبدون ثلاثة أصنام ، وهى : صمود ، وصداء ، والهباء ، فبعث الله إليهم هودا على حسب ماقدمنا ، فكذبوه ، وهو هود بن عبدالله بن رباح بن خالد بن الخلود بن عاد[2] ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وقد قدمنا أن قوم عاد كانوا عشرة قبائل ، وقد تقدم ذكر أسمائهم فدعا عليهم هود ، فمنعوا المطر ثلاث سنين ، وأجدبت الأرض فلم يَدِرَّ عليهم ضرع .

وقد كان من ذكرنا من الأمم لا يجحد الصانع جل وعز ، ويعلمون أن نوحا

---

(١) هذه الكلمة زائدة هنا فى أصول الكتاب ، وقد سقطت فيما يلى .

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى (١ : ١١١) وكان فى الأصل « بن الحلود بن عياذ » وسقط من الطبرى ذكر خالد ، وفيه أن الذين نزلوا الهند بنو نوقين بن يقطن (١ : ١٠٥)

عليه السلام كان نبيا ، وأنه وفى لقومه بما وعدهم من العذاب ، إلا أن القوم دخلت عليهم شُبَه بعد ذلك لتركهم البحث واستعمال النظر ، ومالت نفوسهم إلى الدعة ، وما تدعو إليه الطبائع من الملاذ والتقليد ، وكان فى نفوسهم هيبة الصانع ، والقرب إليه بالتماثيل وعبادتها ، لظنهم أنها مقربة لهم إليه ، وكانوا مع ذلك يعظمون موضع الكعبة ، وكان موضعها على ما ذكرنا ربوة حمراء ، فوفدت عاد إلى مكة يستسقون لهم ، وكان بمكة يومئذ العماليق ، فأتى الوفد مكة ، فأقبلوا على الشرب واللهو ، حتى جاءتهم الجرادتان قينتا معاوية بن بكر يشرحن لهم ماوردوا من أجله ، وهو : -

ألا ياقَيْل وَيْحَك قم فهينم ... لعل الله يمطرنا غماما
فيسقى أرض عادٍ إنَّ عادا ... قدَ امْسَوْا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو ... به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وإن الوحش تأتى أرض عاد ... فلا تخشى لراميهم سهاما
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم ... نهاركم وليلكم التماما
فقبح وفدكم من وفد قوم ... ولا لُقُّوا التحية والسلاما

ثم إن معاوية بن بكر دعا إحدى الجرادتين فغنت :

ألا ياقيل من عوص ... ومن عاد بن سام
وعاد كالشماريخ ... من الطول الكرام
سقى الله بنى عاد ... مَعَاصَوْبَ الغمام

فاستيقظ القوم من غفلتهم ، وبادروا إلى الاستسقاء لقومهم ، وفى مجىء السحاب واختيارهم لما اختاروه منها ما قد اتضح ، وفيهم يقول مرثد بن سعد من كلمة : —

عَصَتْ عاد رسولهم فأمسوا ... عطاشا لا تبلهم السماء
ألا قَبَحَ الإلهُ حلوم عاد ... فان قلوبهم قَفْرٌ هواء
لهم صنم يقال له صمود ... يقابله صداء والهباء

فبصرنا النبي سبيل رشد فأبصرنا الهدى ونأى العماء
وإني موقن فاستيقنوه بأن إله هود هو العلاء
وأن إله هود هو إلهي على الله التوكل والرجاء
وأني لاحق بالأمس هودا وإخوته إذا حق المساء

فأرسل الله عز وجل على عاد الريح العقيم ، من وادٍ لهم ، فلما رأوا ذلك قالوا : (هذا عارض ممطرنا) وتباشروا بذلك ، فلما سمع هود ذلك من قولهم قال : (بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم - الآية) فأتتهم الريح يوم الأربعاء ، فلم تأت الأربعاء الثانية ومنهم حي ، فمن أجل ذلك كره الناس يوم الأربعاء .

وقد بينا فيما يرد من هذا الكتاب كيفية ذلك ، وكيف وقوعه من أيام الشهر في باب الشهور ، فلما شاهد هود النبي صلى الله عليه وسلم ما قاله قومه انفرد هو ومن معه من المؤمنين ، وفي ذلك يقول الهيل بن الخليل : -

لو أن عادًا سَمِعَتْ من هود واتبعت طريقة الرشيد
وقد أتى بالوعد والوعيد عادا وبالتقريب والتبعيد
ما أصبحت عاثرة القدود حَبْوًا على الآناف والخدود
ساقطة الأجساد بالوصيد ماذا جنى الوفد من الوفود
أحدوثة في الأبد الأبيد

وقال مهد بن سعد في شعر له : -

دعاهم خيفة لله هود فما نفع النذير ولا أجابوا
فلما أن أبوا إلا عتوا أصابهم ببغيهم العذاب

وقد كان الآخر من الملوك الجلجان ، وقد تقدم ذكره في هذا الباب لملك عاد وثمود وغيرهم ، وقيل : إن أول من ملك عادا من الملوك عاد بن عوص ثلثمائة سنة ، ثم ملك ابن عاد بن عوص ، قال : ولما دثرت هذه الأمم من

العرب والقبائل خلت منهم الديار فسكنها غيرهم من الناس ، فنزل قوم من بنى حنيفة اليمامة واستوطنوها ، وقد كان نزل بلاد الجحفة بين مكة والمدينة وقطنوها ، فقال شاعرهم يرثى من كان فى تلك الديار : ـ

إنَّ طَسْمًا وجرهما وجديسا والعماليق فى السنين الخوالى
عمروا البيت حقبة ثم ولوا واستمرت بهم صروف الليالى
وأراك الزمان منهم وأضحى غيرهم ساكنا بتلك الخوالى
ورماهم ريب الزمان فأمسوا دورهم بلقع لِمَرِّ الشمال

الجحفة

وقد كان نزل بلاد الجحفة بين مكة والمدينة عبيد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح هو وولده ، فهلكوا بالسيل ، فسمى ذلك الموضع بالجُحْفة لإجحافها عليهم .

يثرب

وكان يثرب بن قامة بن مهليل بن إرم بن عبيد نزل بالمدينة هو وولده ومن تبعه فسميت به يثرب ، فهلك هؤلاء أيضا ببعض غوائل الدهر وآفاته ، فقال شاعرهم : ـ

عَيْنُ جودى على عبيد برجع بأماق فيضانها بانسجام
عمروا يثربا ليس بها سفـ ـر ولا صارخ ولا ذو سنام
غرسوا لينها بمجرى معين ثم حفوا السبيل بالأرحام

وقد أخبر الله جلت قدرته عنهم ، فقال : (كذبت ثمود وعاد بالقارعة ، فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية)

تنازع الناس فى شعيب ونسبه

وقد تنازع أهل الشرائع فى قوم شعيب بن نوفل بن رعبيل بن مر بن عنقاء ابن مدين بن إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم ، وكان لسانه العربية : فمنهم من رأى أنهم من العرب الدائرة والأمم البائدة ، وبعض من ذكرنا من الأجيال الخالية ، ومنهم من رأى أنهم من ولد المحض بن جندل بن يعصب بن مدين بن إبراهيم ، وأن شعيبا أخوهم فى النسب ، وقد كانوا عدة ملوك تفرقوا فى ممالك

متصلة ، فمنهم المسمى بأبى جاد وهوز وحطى وكلمن وسعفص وقرشت ، وهم على ما ذكرنا بنو المحض بن جندل ، وأحرف الجمل هى أسماء هؤلاء الملوك ، وهى التسعة والعشرون حرفا التى عليها حساب الجمل ، وقد قيل فى هذه الأحرف غير ما ذكرنا من الوجوه ، على حسب ما قدمنا فى هـذا الـكتاب ، وليس كتابنا هذا موضعا لما قاله الناس فيها ، وتنازعوا فى تأويلها والمراد بها ، وكان أبجد ملك مكة وما يليها من الحجاز ، وكان هوز وحطى ملـكين ببلادوَجٍّ ، وهى أرض الطائف وما اتصل بذلك من أرض نجد ، وكلمن وسعفص وقرشت ملوكا بمَدْيَنَ ، وقيل : ببلاد مصر ، وكان كلمن على ملك جميع من سمينا مشاعا متصلا على ما ذكرنا ، وأن عذاب يوم الظُّلة كان فى ملك كلمن منهم ، وأن شعيبا دعاهم فـكذبوه ، ووعدهم بعذاب يوم الظلة ، ففتح عليهم باب من السماء من نار ، ونجا شعيب بمن آمن معه إلى الموضع المعروف بالأيكة ، وهى غَيْضَةٌ نحو مدين ، فلما أحس القوم بالبلاء واشتد عليهم الحر وأيقنوا بالهلاك طلبوا شعيبا ومن آمن معه وقد أظلتهم سحابة بيضاء طيبة النسيم والهواء لايجـدون فيهم ألم العـذاب ، فأخرجوا شعيبا ومن آمن معه من موضعهم ، وأزالوهم عن أما كنهم ، وتوهموا أن ذلك ينجيهم مما نزل بهم ، فجعلها الله عليهم نارا ، فأتت عليهم ، فرثت حارثة بنت كلمن أباها فقالت وكانت بالحجاز : —

كلمن هدَّم ركنى هُلْـكُهُ وَسْط المحلَّهْ
سَيِّدُ القوم أتاه الـــحَتْفُ نارا تحت ظُلَّهْ
كونت نارا وأضحت دَارُ قومى مُضْمَحِلَّهْ

وفى ذلك يقول المنتصر بن المنذر المدينى : —

ألا يا شعيب قد نطقت مقالة أتيت بها عمرا وحى بنى عمرو
وهم ملـكوا أرض الحجاز وأوجها كمثل شعاع الشمس فى صورة البدر

ملوك بنى حطى وسعفص ذى الندى وهوّز أرباب الثنية والحجر

همو قطنوا البيت الحرام ورتبوا خطورا وسامَوْا فى المكارم والفخر

ولهؤلاء الملوك أخبار عجيبة من حروب وسير ، وكيفية تغلبهم على هذه الممالك وتملكهم عليها ، وإبادتهم من كان فيها وعليها من الأمم ، قد أتينا على ذكرها فيما تقدم من كتبنا فى هذا المعنى مما كتابنا هذا منبه عليها وباعث على درسها .

حضورا وتنازع الناس فى أنسابهم

وأما بنو حضورا وكانت أمة عظيمة ذات بطش وشدة فغلبت على كثير من الأرض والممالك ، وقد تنازع الناس فيهم : فمنهم من ألحقهم بمن ذكرنا من العرب البائدة ممن سمينا ، ومنهم من رأى أنهم من ولد يافث بن نوح ، وقيل فى أنسابهم غير ما ذكرنا من الوجوه ، وقد كان بعث الله عز وجل إليهم شعيب ابن ذى مهدم بن حضورا بن عدى نبيا ناهيا عما كانوا عليه ، وهذا غير شعيب ابن نوفل بن رعبيل بن مر بن عنقاء بن مدين بن إبراهيم الخليل صاحب مدين المتزوج إليه موسى بن عمران المقدم ذكره ، وبينهما مئون من السنين ، وقد كان بين موسى بن عمران وبين المسيح ألف سنة ، ولما بعث إلى حضورا واشتد كفرهم جدّ نبيهم شعيب بن ذى مهدم فى دعائهم وخوفهم وتوعدهم ، فقتلوه من بعد ظهور معجزات كانت له ودلائل أظهرها الله على يديه تدل على صدقه وثبوت حجته على قومه ، فلم يضيع الله دمه ، ولم يكذب وعيده ، فأوحى الله تعالى إلى نبى كان فى عصره - وهو برخيا بن أحبيا بن رو بابيل بن شاليال ، وكان من سبط يهوذا بن إسرائيل بن إسحق بن إبراهيم الخليل عليه السلام - أن يأتى بختنصر ، وكان بالشأم ، وقيل غيره من الملوك ؛ فيأمره أن يغزو العرب الذين لا أغْلاقَ لبيوتهم ، فلما أتى برخيا ذلك الملك قال له الملك : صدقت ، لى سبع ليال أومر فى نومى بما ذكرت ، وأنادى بمجيئك إلى ، وأُبَشَّرُ ، ويقال لى ما أمرتنى به ، وأنا أنتصر للنبى المقتول المظلوم الفريد ؛ فسار إليهم فى جنوده ،

وغشى ديارهم فى عساكره ، وصاح بهم صائح من السماء وقد استعدوا لحربه من حيث عَمَّ الصوتُ جميعهم ، وهو يقول :

سَيُغْلَبُ قوم غالَبُوا الله جَهْرَةً وإن كايدوه كان أقْوَى وأكْيَدَا

كذاك يُضِلُّ الله من كان قلبُهُ مريضا ومَنْ والى النفاقَ وألْحَدَا

فلما سمعوا ذلك علموا أن الأمر قد نزل بهم ، فانفضت جنودهم ؛ وتفرقت جموعهم ، وولَّت كتائبهم ، وأخذهم السيف ؛ فحصدوا أجمعين

وقد ذكر أن فى قصة هلكهم قال الله عز وجل من قائل : (فلما أحَسُّوا بأسنا إذا هم منها يَرْكُضُون)

وقد تنوزع فى ديارهم والموضع الذى كانوا فيه : فمن الناس مَنْ رأى أنهم كانوا بأرض السماوة ، وأنها كانت عمائر متصلة ذات جنان ومياه متدفقة ، وذلك بين العراق والشأم إلى حد الحجاز ، وهى الآن ديار خراب برارى وقفار ، ومنهم من رأى أن ديارهم كانت من بلاد سورية ، وهذه المدن فى هذا الوقت مضافة إلى أعمال حلب من بلاد قنسرين من أرض الشأم

قال المسعودى : وقد أتينا على جمل من أخبار العرب الماضية والباقية ، وقد كان قبل ظهور الإسلام للباقى منهم مذاهب وآراء فى النفوس وتعوُّل الغيلان من الهواتف والجن ، سنورد جملا منها منفردة على حسب ما يقتضيه شرط الاختصار فى هذا الكتاب ، على حسب ما نمى إلينا من أخبارهم ، واتصل بنا من آثارهم ، وذكره الناس من آرائهم ، عن الفانى والباقى ، إن شاءالله تعالى

ذكر ما ذهب إليه العرب فى النفوس والهام والصفر

وغير ذلك من مذاهب الجاهلية فى النفوس والمرء

الاختلاف فى النفس

تنازع الناس فى كيفيتها : فمنهم من زعم أن النفوس فى الدم لا غير ، وأن الروح الهواء الذى فى باطن جسم المرء منه نفسه ، ولذلك سموا المرأة نُفَسَاء لما يخرج منها من الدم ، ومن أجل ذلك تنازع فقهاء الأمصار فيما له نفس سائلة إذا سقط فى الماء : هل ينجسه أم لا ؟ قال تأبط شَرًّا لخاله الشَّنْفَرَى الأكبر ، وكان من قصته أنه قال : ألجمته عضبا ، فسالت نفسه سكبا ، وقالوا : إن الميت لاينبعث منه الدم ولا يوجد فيه ، ولكن فى حال الحياة والنماء مع الحرارة والرطوبة ؛ لأن كل حى فيه حرارة ورطوبة ، فاذا مات بقى اليبس والبرد ، ونفيت الحرارة ، قال ابن براق من كلمة : —

وكم لاقَيْتُ ذا حُبٍّ شديد ... تسيل به النفوس على الصدور

إذا الحربُ العَوَانُ به اسْتَهَامَتْ ... وحال ؛ فذاك يوم قَمْطَرِيرُ

وطائفة منهم تزعم أن النفس طائر ينبسط فى جسم الإنسان ، فاذا مات أو قتل لم يزل مطيفا به متصورا إليه فى صورة طائر يصرخ على قبره مستوحشا ، وفى ذلك يقول بعض الشعراء وذكر أصحاب الفيل : —

سُلِّطَ الطيرُ والمنونُ عليهم ... فلهم فى صَدَى المقابر هَامُ

الهام

لأن هذا الطائر يسمونه الهام ، والواحدة هامة ، وجاء الإسلام وَهُمْ على ذلك ، حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا هَامَ ولا صَفَرَ » .

ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيرا ، ثم يكبر حتى يصير كضرب من البوم ، وهى أبدا تتوحش وتصدح ، وتوجد أبدا فى الديار المعطلة والنواويس وحيث مصارع الموتى .

ويزعمون أن الهامة لا تزال عند ولد الميت فى محلته بفنائهم لتعلم ما يكون بعده فتخبره به ، حتى قال الصلت بن أمية لبنيه : ـ

هامتى تخبرنى بما تستشعروا فتجنبوا الشنعاء والمكروها[1]

وفى ذلك يقول فى الاسلام تَوْبَةُ فى ليلى الأخيلية :

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت على ودونى جَنْدَل وصفائح

لسلمت تسليم البشاشة أو زقا إليها صَدَى من جانب القبر صائح

وهذا من قولهم يدل على أن الصَّدَى ينزل إلى قبورهم ويصعد ، ومن ذلك ما روى عن حاتم طيىء مما سنورد خبره فى هذا الكتاب

أَتَيْتَ لصَحْبِكَ تَبْغِى القِرَى لدَى حُفْرَة صَدَحَتْ هَامُهَا

وسنذكر هذا الشعر فى أخبار الحجاج بن يوسف مع ليلى الأخيلية من هذا الكتاب ؛ وقد قيل : إن هذه الأبيات لغير توبة ، وهذا كثير فى أشعارهم ومنثور كلامهم وسجعهم وخطبهم ، وغير ذلك من محاوراتهم .

وللعرب وغيرهم من أهل الملل ممن سلف وخلف كلام كثير فى تنقل الأرواح وقد أتينا على مبسوط ذلك فى كتابنا المترجم بـ « سر الحياة » وكتاب « الدعاوى » وبالله التوفيق .

ذكر أقاويل العرب فى الغيلان والتغول

وما لحق بهذا الباب

للعرب فى الغيلان وتغولها أخبار ظريفة

العرب يزعمون أن الغول يتغوَّلُ لهم فى الخلوات ، ويظهر لخواصهم فى أنواع من الصور ؛ فيخاطبونها ، وربما ضَيَّفُوها ، وقد أكثروا من ذلك فى أشعارهم : فمنها قول تابط شرا : ـ

وأدْهَمَ قَدْ جُبْتُ جِلْبَابَهُ كما اجتابت الكاعبُ الخيعلا

(١) كذا ، والبيت غير مستقيم الوزن ولا الاعراب .

فأصبحتُ والغـول لى جارةٌ فياجارتى أنتِ ما أهْوَلاَ
وطالبتُها بُضْعَها فالتـوت بوجه تغـول فاستغْوَلاَ
فمن كان يسأل عن جارتى فإنَّ لها باللِّوَى مـنزلا

ويزعمون أن رجليها رجلا عنز ، وكانوا اذا إعترضتهم الغول فى الفيافى يرتجزون ويقولون :

يارجـل عنز انهقى نهيقـا لن تنزلى السبيل والطريقا

وذلك أنها كانت تتراءى لهم فى الليالى وأوقات النهار ، فيتوهمون أنها إنسان فيتبعونها ، فتزيلهم عن الطريق التى هم عليهـا ، وتتيههم ، وكان ذلك قد اشتهر عندهم وعرفوه ، فلم يكونوا يزولون عما كانوا عليه من القصد ، فاذا صيح بها على ما وصفنا شَرَدَتْ عنهم فى بطون الأودية ورءوس الجبال .

الغول تتلون وتضلل

وقد ذكر جماعة من الصحابة منهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه شاهد ذلك فى بعض أسفاره إلى الشأم ، وأن الغول كانت تغول له ، وأنه ضربها بسيفه وذلك قبل ظهور الاسلام ، وهذا مشهور عندهم فى أخبارهم .

عمر بن الخطاب والغول

وقد حكي عن بعض المتفلسفين أن الغول حيوان شاذ من جنس الحيوان لم تحكمه الطبيعة ، وأنه لما خرج منفردا فى نفسه وهيئته توحش من مسكنه فطلب القفار ، وهو يناسب الانسان والحيوان البهيمى فى الشكل ، وقد ذهبت طوائف من الهند إلى أن ذلك إنما يظهر من فعل ما كان غائبا من الكواكب عند طلوعها ، مثل طلوع الكوكب المعروف بكلب الجبار ، وهى الشعرى العبور ، وأن ذلك يُحْدِث داء فى الكلاب ، وسهيل فى الحمل ، والدّئب فى الدب ، وحامل رأس الغول يحدث عند طلوعه تماثيل وأشخاص تظهر فى الصحارى وغيرها من العالم فتسميه عوام الناس غولا ، وهى ثمانية وأربعون كوكبا ، وقد ذكرها بطليموس وغيره ممن تقدم وتأخر ، وقد وصف ذلك أبو معشر فى كتابة المعروف بالمدخل الكبير فى النجوم ، وذكر كيفية صورة كل كوكب عند ظهوره فى أنواع مختلفة

الغول عند الفلاسفة والمنجمين

تلون الغول أيضا

وزعمت طائفة من الناس أن الغول شيء يعرض للسُّفّار ، ويتمثل فى ضروب من الصور ذكرا كان أو أنثى ، إلا أن أكثر كلامهم على أنه أنثى ، وقد قال أبو المطراب : —

وحالفنى الوحوش على الوفاء ... وتحت عهودهن وبا البعاد
وغولا قفرة ذكرا وأنثى ... كأنّ عليهما قطع النجاد

وقال آخر — وهو كعب بن زهير الصحابى : —

فما تَدُوم على حال تَكُونُ بها ... كما تَلَوَّنُ فى أثوابها الغولُ

وقد قدمنا ذكر ذلك فيما سلف من هذا الكتاب فى هذا المعنى ، وأن كل كوكب يظهر فى صورة مخالفة لما تقدمه من الصور يحدث فى هذا العالم نوعا من الأفعال ينفرد بفعله عن غيره من الكواكب

وكانت العرب قبل الاسلام تزعم أن الغيلان توقد بالليل النيران للعبث والتحيل واختلال السابلة ، قال أبو المطراب : —

فلله دَرُّ الغول أىُّ رفيقة ... لصاحب قَفْرٍ حالف وهو معسر
أرَنَّتْ بلَحْنٍ بعد لَحْنٍ ،وأوقدت ... حَوَالَىَّ نيرانا تلوح وتزهر

السعلاة

وقد فرقوا بين السِّعْلاة والغول ، قال عَبيد : —

وساخِرةٍ منى ، ولو أن عينها ... رَأَتْ مارأت عَيْنى من الهول جُنَّت
أبيت بسعلاة وغول بقَفْرَةٍ ... إذا الليل وَارَى اللَّحْن فيه أرَنَّتِ

وقد وصفها بعضهم فقال : —

وحافر العنز هم ساق مُدَمْلَجَة ... وجَفْن عين خلاف الإنس بالطول

بعض إيذاء الغيلان والشياطين للانسان

وللناس كلام كثير فى الغيلان والشياطين والمَرَدَة والجن والقرب والقدار ، وهو نوع من الأنواع المشيطنة يعرف بهذا الاسم ، يظهر فى أكناف اليمن والتهائم وأعالى صعيد مصر ، وأنه ربما يلحق الإنسان فينكحه فيتدَوَّدُ دبره فيموت ، وربما يتوارى للانسان فيذعره ، فاذا أصاب الإنسان ذلك منه يقول له أهل تلك

النواحى التى سمينا : أمنكوح هو أم مذعور ؟ فان قالوا منكوح يُئِسَ منه ، و إن كان مذعورا أسكن روعه وشجع مما ناله ، وذلك أن الإنسان إذا عاين ذلك سقط مغشيا عليه ، ومنهم من يظهر له ذلك فلا يكترث به لشهامة قلبه وشجاعة نفسه ، وما ذكرنا مشهور فى البلاد التى سمينا ، ويمكن جمع ما قلنا مما حكيناه عما ذكرنا من هذه البقاع التى يكون فيها ضروب من السوانح الفاسدة والخواطر الرديئة أو غير ذلك من الآفات والأدواء المعترضة بجنس الحيوان من الناطقين ، والله أعلم بكيفية ذلك

ولم نذكر فى هذا الكتاب ما ذكره أهل الشرائع وما ذكره أهل التواريخ والمصنفون لكتب البدو ، كوهب بن منبه وابن إسحق وغيرهما أن الله تعالى خلق الجان من نار السموم ، وخلق منه زوجته ، كما خلق حواء من آدم ، وأن الجان غشيها فحملت منه ، وأنها باضت إحدى وثلاثين بيضة ، وأن بيضة تفلقت من تلك البيض عن قطربة ، وهى أم القطارب ، وأن القطربة على صورة الهرة وأن الأبالس من بيضة أخرى منهم الحرث أبو مرة ، وأن مسكنهم الجزائر ، وأن الغيلان من بيضة أخرى مسكنهم الخرابات والفلوات ، وأن السعالى من بيضة أخرى سكنوا الحمامات والمزابل ، وأن الهوام من بيضة أخرى سكنوا الهواء فى صورة الحيات ذوات أجنحة يطيرون هنالك ، وأن من بيضة أخرى الحماميص - لأنا قد ذكرنا ذلك فيما سلف من كتبنا وتقدم من تصنيفنا ، وأتينا على ذكر أنسابهم والمشهور من أسمائهم ومساكنهم من الأرض والبحار ، و إن كان ماذكره أهل الشرع مما وصفنا ممكنا غير ممتنع ولاواجب ، و إن كان أهل النظر والبحث والمستعملون لقضية العقل والفحص يمتنعون مما ذكرنا ، ويأبون ما وصفنا ، والمصنف حاطب ليل ، فأوردنا ما قاله الناس من أهل الشرائع وغيرهم ؛ إذ الواجب على كل ذى تصنيف أن يورد جميع ما قاله أهل الفرق فى معنى ما ذكرناه ، وأتينا أيضا على سائر ما خبرنا من الأشخاص التى هى مرئية من

الجن والشياطين وما قالوه فى سلوك الجن فى كتابنا المترجم بـ « كتاب المقالات فى أصول الديانات » وبالله التوفيق

ذكر قول العرب فى الهواتف والجان

الهاتف واختلاف الناس فيه

فأما الهواتف فقد كثرت فى العرب ، واتصلت بديارهم ، وكان أكثرها أيام مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى أولية مبعثه ، ومن حكم الهواتف أن تهتف بصوت مسموع وجسم غير مرئى

قال المسعودى : وقد تنازع الناس فى الهواتف والجان : فذكر فريق منهم وقال : إن ما تذكره العرب وتنبىء به من ذلك إنما يعرض لها من قبل التوحد فى القفار ، والتفرد فى الأودية ، والسلوك فى المهامه والمَرَوْراة [1] الموحشة ، لأن الإنسان إذا صار فى مثل هذه الأماكن يوجد له تفكر ووَجَل وجُبْن ، وإذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة ، والأوهام المؤذية ، والسوداوية الفاسدة ، فصوَّرَت له الأصوات ، ومثلت له الأشخاص ، وأوهمته المحال بنحو ما يعرض لذوى الوسواس ، وقُطْبُ ذلك وأسُّه سوء التفكير ، وخروجه على غير نظام قوى ، أوطريق مستقيم سليم ، لأن المتفرد فى القفار والمتوحد فى المروراة [1] مستشعر للمخاوف ، متوهم للمتالف ، متوقع للحتُوف ؛ لقوة الظنون الفاسدة على فكره ، وانغراسها فى نفسه ، فتوهم ما يحكيه من هتف الهواتف به ، واعتراض الجان له ،

وقد كانت العرب قبل ظهور الاسلام تقول : إن من الجن من هو على صورة نصف الإنسان ، وإنه كان يظهر لها فى أسفارها فى حين خلواتها وتسميه شِقًّا

وذكر عن علقمة بن صفوان بن أمية بن محدث الكنانى جدِّ مروان بن الحكم لأمه أنه خرج فى بعض الليالى يريد مالا له بمكة ، فانتهى إلى الموضع المعروف بخط عريان فاذا هو بشق قد ظهر له فى أوصاف ذكرها فقال : —

علقمة بن صفوان والهاتف

عَلْقَمَ إنى مقتول وإن لَحْمِى مأكول

(١) المروراة — بفتح الميم والراء وسكون الواو — الأرض لاشىء بها ، وجمعها مروري ومروريات .

أضربهم بالمـــدلول ضرب غلام مشمول

رحب الذراع بهلول

فقال علقمة : —

شِقٌّ ، مالى ولك اغمد عنى مُنْصُلَكْ

تقتل من لا يقتلك

فضرب كل منهما صاحبه فخرا ميتين ، وهذا مشهور عندهم ، وأن علقمة ابن صفوان قتلته الجن

وذكروا عن الجن بيتين من الشعر قالتهما فى حَرْب بن أمية حين قتلته الجن ، وهما : —

وقَبْرُ حَرْب بمكان قَفْر وليس قرب قبر حرب قبر

واستدلوا على أن هذا من قول الجن بأن أحدا من الناس لم يتأت له أن ينشد هذين البيتين ثلاث مرات متواليات لا يتتعتع فى إنشادها ؛ لأن الناس قد ينشدون العشرين بيتا والأكثر والأقل أشد من هذا الشعر وأثقل منه ولا يتتعتعون فيه

بعض الذين قتلتهم الجن

وممن قتلته الجن مِرْدَاس السُّلَمى ، وهو أبو عباس بن مرداس السلمى ، ومنهم الغريض المغنى ، بعد أن ظهر غناؤه ، وقد كانت الجن نهته أن يغنى بأبيات من الشعر ، فغناها ، فقتلته

قبر حاتم الطائي

وحدث يحيى بن عتاب ، عن على بن حرب ، عن أبى عبيدة معمر بن المثنى عن منصور بن زيد الطائى ، قال : رأيت قبر حاتم طيىء ببيعة ، وهو أعلى جبل له واد يقال له الحامل ، وإذا قدْرٌ عظيمة من بقايا قُدُوره مكفأة ناحيةً من القبر من القدور التى كان يطعم فيها الناس ، وعن يمين قبره أربع جَوَار من حجارة ، وعلى يساره أربع جوار من حجارة ، كلهن صاحبة شعر منشور محتجرات على قبره كالنائحات عليه ، لم ير مثل بياض أجسامهن وجمال وجوههن ، مَثَّلَهُنَّ الجن على

قبره ، ولم يَكُنَّ قبل ذلك ، والجوارى بالنهار كما وصفنا ، فاذا هدأت العيون ارتفعت أصوات الجن بالنياحة عليه ، ونحن فى منازلنا نسمع ذلك ، إلى أن يطلع الفجر [فاذا طلع الفجر] (١) سكتن وهدأن ، وربما مر المار فيراهن فيفتتن بهن فيميل إليهن عجبا بهن ، فاذا دنا منهن وجدهن حجارة

حاتم يقرى ضيفان قبره

وحدث يحيى بن عتاب الجوهرى ، قال : حدثنا على ، قال : أنبأنى عبدالرحمن ابن يحيى المنذرى ، عن أبى المنذر هشام الكلبى ، قال : حدثنا أبو مسكين بن جعفر بن محرز بن الوليد ، عن أبيه ، وكان مولى لأبى هريرة يحدث ، قال : كان رجل يكني أبا البَخْتَرى مر فى نفر من قومه بقبر حاتم طيء ، فنزلوا قريبا منه ، فبات أبو البخترى يناديه : يا أبا الجعد ، اقْرِنَا ، فقال قومه له : مهلا ما تكلم من رمة بالية ؟ قال : إن طيئا تزعم أنه لم ينزل به أحد قط إلا قَرَاه ، وناموا ، فانتبه صائحا : وارحلتاه ، فقال له أصحابه : ما بدالك ؟ قال : خرج حاتم من قبره بالسيف ، وأنا أنظر ، حتى عقر ناقتى ، قالوا له : كذبت ، ثم نظروا إلى ناقته بين نوقهم منجدلة لا تنبعث ، فقالوا له : والله قَرَاك ، فظلوا يأكلون من لحمها شِوَاء وطبيخا حتى أصبحوا ، ثم أردفوه ، وانطلقوا سائرين ، فاذا راكبُ بعيرٍ يقود آخر قد لحقهم فقال : أيكم أبو البخترى ؟ فقال أبو البخترى : أنا ذلك ، قال : أنا عدى بن حاتم ، وإن حاتما جاءنى الليلة فى النوم ونحن نزول وراء هذا الجبل ، فذكر شتمك إياه ، وأنه قرى أصحابك براحلتك وأنشد : —

أبا البَخْتَرِىِّ ، لأنت امرؤ ظَلُوم العشيرة شَتَّامُهَا
أتيتَ بصحبك تبغى القرى لدى حُفْرَةٍ صَدَحَتْ هامُهَا
أتبغى لَدَى الرمِّ عند المبيت وحولك طَىٌّ وأنْعَامُهَا
فإنا سنشبع أضيافنا ونأتى المطى فَنَعْتَامُهَا

وقد أمرنى أن أحملك على بعير مكان راحلتك ؛ فدونكه

---

(١) زيادة لا بد منها

وقد ذكر هذا سالم بن زرارة الغطفانى فى مدحه عدى بن حاتم حيث يقول :—

أبوك أبو سباقة الخير لم يَزَلْ ... لدُنْ شَبَّ حتى مات فى الخير راغبا

بِهِ تُضْرَبُ الأمثال فى الشعر مَيِّتًا ... وكان له إذ ذاك حيًا مصاحبا

قَرى قبرُهُ الأضياف إذ نزلوا به ... ولم يَقْرِ قبرٌ قبله الدهرَ راكبَا

وحدث أبو محمد بن الحسن بن دريد ، عن أبى حاتم السجستانى ، عن أبى عبيدة معمر بن المثنى ، قال : سمعت شيخا من العرب قد أناف على المائة يقول: إنه خرج وافدا على بعض ملوك بنى أمية ، قال : فسرت فى ليلة صهاكية حالكة كأن السماء قد برقعت نجومها بطرائق السحاب ، وضَلِلْتُ الطريق ، فتولجت واديا لا أعرفه ، فأهمتنى نفسى بطرحها حتى الصباح ، فلم آمن عريف الجن ، فقلت : أعوذ برب هذا الوادى من شره ، وأستجيره فى طريقى هذا ، وأسترشده ، فسمعت قائلا يقول من بطن الوادى : —

تَيامَنْ تُجَاهَك تَلْقَ الكلا ... تسير وتأمن فى المسلك

قال : فتوجهت حيث أشار إلى ، وقد أمنت بعض الأمن فاذا أنا بأقباس نار تلمع أمامى فى خلالها كالوجوه على قامات كالنخيل السحيقة ، فسرت وأصحبت بأوسال — وهو ماء لكلب يقارب برية دمشق

وقد ذكر الله عز وجل ذلك من فعلهم فقال : (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رَهقًا)

ذكر ما ذهب إليه العرب

من القيافة والزجر والسانح والبارح وغير ذلك

الخلاف فى القيافة وجوازها

تنازع الناس فى القيافة وغيرها مما ذكر : فذهبت طائفة إلى تحقيق القيافة والأخذ بها ، لأن الأشباه تُنْزَع ، وغير جائز أن يكون ولد غير مشبه لأبيه أو أحد من أهله من جهة من الجهات ، ومنهم من ذهب إلى أن فى الولد مواضع تلحقها القيافة دون غيرها من الأعضاء مما لم يحلها الشبه ولا توافق بينها بحد مشترك ، وأبى آخرون ما وصفنا ؛ إذ كان الناس قد يتشابهون فى حد الانسانية وغير ذلك من الحدود ، ويفترقون فى غيرها من الصور ، وليس وجود الأغلب من الأشباه مما يوجب إلحاق الشبه بشبهه ودون أن يخالف من حيث أوجبت قضية الاختلاف بانتباين .

اختصاص العرب بذلك

وهذه المعانى من خواص ما للعرب ، وما تفردت به دون سائر الأمم فى الأغلب منها ، وإن كانت الكهانة قد وجدت فى غيرها فان القيافة والزجر والتفاؤل والتطير ليس لغيرها فى الأغلب من الأمور ، وليس هو موجوداً فى سائر العرب ، وإنما هو للخاص منها الفطن والمتدرب النظير ، وإن وجد ذلك فى بعض الأمم كوجود ذلك فى الإفرنجة وماجانسها من هنالك من الأمم ؛ فيمكن أن يكون ذلك مورثا عن العرب ، ومأخوذا منها فى سالف الدهر ؛ لأن العرب قد تنقلت فى البلاد وتغيرت لغاتها فنسب ذلك إلى الجنس الذى قطنت بينهم العرب ، ويمكن أن تكون الإفرنجة ومن وجد فيها ذلك من الأمم أخذت بعد ظهور الإسلام عمن جاورهم من أمم العرب ممن سكن بلاد الأندلس من الأرض الكبيرة ، وإن كان ذلك قبل ظهور الاسلام فهو ما ذكرنا آنفا ، ويمكن أن يكون الله عز وجل خص بذلك أمما غير العرب كما خص العرب به ؛ إذ كان ذلك داخلا فى الامكان خارجا من باب الممتنع ؛ فيكون الزجر والفأل شاملا لبعض

العرب وغيرها من خواص الأمم ، كوجود النعط للبربر ، والنظر فى الكتف وغير ذلك مما خص به كل جنس من الناس .

منشأ القيافة

وقد ذهبت طائفة ممن سلف من أهل البحث والتنقير إلى أن القيافة اسم مشتق من القفو ، وهو معنى استدلالى ، وأصل ذلك أن الأشكال انفصلت فى صورة أنسابها بأشياء تخص الأنواع بالتشكيل وخواص وجدت لما به ضربت الفواصل أضرابها فى وحيدات الأشخاص ، وكان التناسل على وساعه وقدر من الغير لما توجبه الطبيعة من اتفاق كل شىء فى حوزته وصرفه إلى وجهه ، كما خصت الطبيعة كل نوع من الجنس بفصل أبانته من أغياره ، وفرقت بينه و بين أشكاله فلذلك أيضا خصت أوحاد الأشخاص المنفصلة فى الهيئة وتغير الغير من أغياره ، وكذلك لا تكاد فنون الصور تتراءى فى المرائى لغير من أغياره ، وكذلك لا تكاد و إن ضمها النوع وشملها المادة ؛ فالقائف يقارب بين الهيآت فيحكم للأقرب صورة ؛ لأن تشبيه النسل أقرب من تشبيه النوع ، وكذلك تشبيه الشخص إلى النوع أقرب منه إلى الجنس ؛ لأن النوع والشخص قد ضمهما حدّان مشتركان ، و إنما ضمه ضرب من ضروب البحث ، والجنس حد واحد ، فهو أصل القيافة عند الطائفة ، وهو ضرب من ضروب البحث و إلحاق النظير فى الأغلب بنظيره ، من حيث تساويهما من حيث ذكرنا فى قضية العقل ، وهو القياس بعينه ، وليس هذا الاستدلال من كلام أحد من فقهاء القائسين ولا غيرهم من المسلمين ، و إنما هذا انتزعناه من كلام طائفة من الفلاسفة المتقدمين ، فيجب أن يكون نظر القائف على قول هذه الطائفة إلى القدم لأنها نهاية الشكل وغاية الهيئة ، والولد لو خالف صورة أبيه فى كُنْه أفعاله و باينه فى سائر شكله فى الأغلب لوافقه فى القدم ، لأن النسل لا بد له من تخصيص قوته بشىء يميزه من غيره ينبه من سواه ، ولذلك وجدوا الطول فى أزدشنوأة ، وكذلك صار الجفاة الأجسام والغلظ فى الروم وأصحاب الجمال والأكثر من أهل الشأم وأوباش مصر ، واللؤم فى الخزر وأهل

حران من بلاد ديار بكر ، والشح بفارس ، واللؤم على الطعام بأصفهان ، وصار تفرطح الرجلين وفطس الأنوف فى السودان ، والطرب فى الزنج خاصة

وهذا الذى وصفنا عند هذه الطائفة من أسرار الطبيعة وخواص تأثير الأشخاص العلوية والأجسام السماوية ، وقد تقصينا هذا الشأن على كماله فى كتبنا فى الأسرار الطبيعية العلوية ، والغرائب النفسية فى كتبنا فى الصور السبعة فى أنواع السياسات المدنية على من زعم أن العالم متغير جوهره إلى الظلمة ، وأن النور فيه غريب مختار ، وأن ستة أنفس كانوا نورا بلا أجساد : شيث بن آدم ، وزرادشت ، والمسيح ويونس ، واثنان لايمكن ذكرهما ، وأن النور والظلمة قديمان ، وأنهما لا يريان إلا غير ممتزجين ، وأن الأشياء لا تعمل إلا فى جوهرهما ثم امتزجا من تلقاء أنفسهما من غير داخل عليهما ولا مكره أكرههما ، وهذا الخلف من الكلام والفاسد من المقال ، وأعجب من هذا القول قول زرادشت نبى المجوس : إن القديم تعالى ذكره طالت وحدته فطالت فكرته ، فلما أن طالت فكرته واشتدت وحشته توالدالهم منه ، وهو الشيطان ، من تلك الوحشة التى ولدتها تلك الفكرة ونتجتها الوحدة ، وأن الله عز وجل لو كان قادرا على إفناء الهم منه لما ضرب له أجلاً ، ولا أجل له أمرا يغوى عباده ، ويفسد بلاده ، وهذا هو المحال بعينه ، والتناقض بنفسه ، وعجب آخر من الآراء من قول بولس : إن المسيح عليه السلام هو الذى أرسله ، وإن المسيح إنسان وإله ؛ لأنه إله صار إنسانا وإنسان صار إلها ، وقد أتينا على جمل من متناقضات أهل الآراء فى أثناء ما تقدم من كتبنا ، وإنما تشعب بنا الكلام إلى هذا النوع ، وتغلغل بنا القول إلى هذا المعنى ؛ لأنه من جنس ما كنا فيه ، لكن عند ذكرنا لما أودعناه كتاب الاسترجاع والابانة عن غرض فيه

فلنرجع الآن إلى ما كنا فيه من هذا الكتاب :

الزجر

وحدث المنقرى عن العتبى قال : وقف عبيد الراعى ذات يوم مع ركب من ثقيف على نفر ، وكانوا يريدون استقصاء رجل من تميم ؛ إذ سنحت ظباء سُود

منكرة ، ثم اعترضت الركب مقصرة فى حُضْرها ، واقفة على شأنها ، فأنكر ذلك عبيد الراعى ، ولم ينتبه له أصحابه ، فقال عبيد : —

أَلَم تدر ما قال الظباء السَّوانحُ أَطُفْنَ أمام الركب والركبُ رائح
فكَبَّرَ من لم يعرف الزجر منهم وأيقن قلبى أنهن نوائح

ثم شارفوا مقصدهم ، فألقوا الرئيس قد نهشته أفعى فأتت عليه .

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : وهذا من غريب الزجر ، وذلك أن السانح مرْجُوٌّ عند العرب ، والبارح هو المخوف ، وأظن عبيدا إنما زجر الظباء فى حالة رجوعها ، ووصف الحال الأول فى شعره ، كما أن من شرط الواصف أن يبدأ بهوادى الأسباب فيوضح عنها ؛ فهذا وجه زجر عبيد الراعى فى شعره

اختصاص بعض العرب ببعض هذه الأمور

ويقال : إن الكهانة لليمن ، والزجر لبنى أسد ، والقيافة لبنى مدلج وأحياء مضر بن نزار بن معد ؛ لما كان من فعل بنى نزار الأربعة فى مسيرهم نحو الأفعى الجرهمى ، ووصفهم الجمل الشارد ، على ماذكرنا ، وذلك منهم قيافة ، فمن هنالك تفرقت القيافة من أحياء مضر على حسب ما تغلغل فى العروق ونزع ، وأهل العروق أكهن ، وأهل الجمال أقوف ، وبأرض الحفاء — وهى بلاد الرمل من بلاد مضر ، وأرض الشأم فى تلك الأراضى — يتناول الانسان من تمر نخلهم فيغيب عنهم السنين ولم يروه ولا شاهدوه ، فان رأوه بعد مدة علموا أنه الآخذ لتمرهم ، ولا يكادون يخطئون ، وهذا من فعلهم مشهور ، ولا يكاد تخفى عليهم أقدام أى الناس هم

القيافة

ورأيت بهذه الأرض أناسا قد رتبهم ولاة المنازل يطوفون فى هذا الرمل ، يُعْرفون بالقُصَّاص ، يقصون آثار الناس وغيرهم ، فيخبرون ولاة المنازل أى الناس هم ممن طرق البلاد ، وهم لم يروهم ، بل رأوا آثار أقدامهم ، وهذا معنى لطيف وحس دقيق .

وقد قَفَتْ القافة بقريش حين خرج النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى

الغار ، حتى أتت باب الغار على حجر صلد وصخر صم وجبال لارمل عليهاولاطين ولا تراب تتبين عليه الأقدام ، فحجبهم الله تعالى عن نبيه صلى الله عليه وسلم بما كان من نسج العنكبوت ، وما سفت عليه الرياح ، وما لحق القائف من الحيرة ، وقوله : إلى ههنا انتهت الأقدام ، ومعه الجماعة من قريش لايرون على الصلد ما يرى على الصوان وما يشاهد ، وأبصارهم سليمة ، والآفات عنهامرتفعة ، والموانع زائلة ، ولولا أن هنالك لطيفة لا يتساوى الناس فى علمها ، ولا يتقنون بالأبصار إحصاءإدراكها ؛ لما استأثر بذلك طائفة دون أخرى ، وأهل الجبال والقفار والرهاش أزجر وأعرف .

القيافة عند أهل الشرع

وقد ذهب قوم من أهل الشريعة من فقهاء الأمصار وغيرهم ممن سلف إلى الحكم بالقيافة استدلالا على شرف القيافة ، وعظم خطرها ، وكبر محلها ، وتحقيق فضلها ؛ لتعجب النبى صلى الله عليه وسلم منها ، وتصديقه مُحْرِزا المدلجى

وقد أنكر جماعة من فقهاء الأمصار ممن سلف وخلف الحكم بالقيافة ، والدليل على فساد الحكم بها إلحاق النبى صلى الله عليه وسلم الولد بأبيه حين شك فيه لعدم التشابه ، فقال : يا رسول الله ، إن امرأتى وضعت غلاما و إنه لأسود ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم مقربا إلى فهمه وقصداً منه لفساد علته التى قصدها وشك « فهل لك من إبل » ؟ قال : نعم ، قال : « فما ألوانها » ؟ قال : حمر ، قال : « فهل فيها أورق » ؟ قال : نعم ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « فمن أين ذلك ؟ لعل عِرْقا نزع » وقوله صلى الله عليه وسلم فى قصة شريك بن أسحم « إن جاءت به على النعت المكروه فهو للذى رميت به » فلما جاءت به على النعت المكروه ووجد التشابه بينه و بين من رميت به فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لولا حكم الله لكان لى ولك شأن » فألحق الولد مع عدم الشبه هنالك ، ولم يلحق بالشبه ههنا ، ولم يجعله حكما ، وقضى بوجود الفراش وثبوت النص على فساد الحكم بالتشابه .

وهذا قصدنا فيه هذا الكلام ، وإنما ذكرنا هذا الفصل لذكر الحكم بضده من القيافة ، وهذا باب يطول فيه الخطب ، ويكثر فى معانيه الشرح ؛ لغموضه ولطفه ، وقد ذكرنا وجه الكلام فى ذلك وما ذهبت إليه كل فرقة من الناس ممن سلف وخلف فى كتابنا المترجم بـ « كتاب الرءوس السبعة فى الاحاطة بسياسة العالم وأسراره » وهو كتاب مشهور مستوعب

ذكر الكهانة وما قيل فى ذلك

وما اتصل بهذا الباب مما يراه الناس

وحد النفس الناطقة

أصل ادعاء علم الغيب

تنازع الناس فى الكهانة : فذهبت طائفة من حكماء اليونانيين والروم إلى التكهن ، وكانوا يدعون العلوم من الغيوب ، فادعى صنف منهم أن نفوسهم قد صفت فهى مطلعة على أسرار الطبيعة ، وعلى ماتريد أن يكون منها ؛ لأن صور الأشياء عندهم فى النفس الكلية ؛ وصنف منهم ادعى أن الأرواح المنفردة - وهى الجن - تخبرهم بالأشياء قبل كونها ، وأن أرواحهم كانت قد صفت حتى صارت لتلك الأرواح من الجن متفقة .

وذهب قوم من النصارى أن السيد المسيح إنما كان يعلم الغائبات من الأمور ، ويخبر عن الأشياء قبل كونها ؛ لأنها كانت فيه نفس عالمة بالغيب ، ولو كانت تلك النفس فى غيره من أشخاص الناطقين لكان يعلم الغيب ، ولا أمة خلت إلا كان فيها كهانة ، ولم يكن الأوائل من الفلاسفة اليونانية يدفعون الكهانات ، وشهر فيهم أن فيثاغورس كان يعلم علوما من الغيب وضروبا من الوحى لصفاء نفسه وتجردها من أدران هذا العالم ، والصابئة تذهب إلى أن أزر ياسيس وأوايس وأويس الثانى - وهما هرمس وأغافيمون - كانوا يعلمون

الغيب ، ولذلك كانوا أنبياء عند الصابئة ، ومنعوا أن تكون الجن أخبرت من ذكرنا بشيء من ضروب الغيب ، لكن صفت نفوسهم حتى اطلعوا على ما استتر عن غيرهم من جنسهم .

وطائفة ذهبت إلى أن التكهن سبب نفسانى لطيف يتولد من صفاء مزاج الطباع وقوة النفس ولطافة الحس

استراق السمع سبب الكهانة عند بعضهم

وذكر كثير من الناس أن الكهانة تكون من قبل شيطان يكون مع الكاهن يخبره بما غاب عنه ، وأن الشياطين كانت تسترق السمع وتلقيه على ألسنة الكهان فيؤدون إلى الناس الأخبار ، بحسب مايرد إليهم ، وقد أخبر الله عز وجل بذلك فى كتابه فقال : (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهبا) إلى آخر القصة ، وقوله تعالى : (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) وقوله تعالى : (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم - الآية) والشياطين والجن لاتعلم الغيب ، وإنما ذلك لاستراقها السمع مما يسمع من الملائكة بظاهر قوله عز وجل : (فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين)

سبب الكهانة عند بعضهم علل فلكية

وطائفة ذهبت إلى أن وجه سبب الكهانة من الوحى الفلكى ، وأن ذلك فى المولد عند ثبوت عطارد على شرفه ، وأما ماعداه من الكواكب المدبرات من النيرين والخمسة إذا كانت فى عقد متساوية وأرباع متكافئة ومناظرة متوازية وجب لصاحب المولد التكهن والإخبار بالكائنات قبل حدوثها ؛ لاشراق هذه الأشراف الكوكبية . ومن هؤلاء من أوجب كون ذلك فى القرانات الكبار

وعند آخرين علل نفسية

وذهب كثير ممن تقدم وتأخر أن علة ذلك علل نفسانية ، وأن النفس إذا قويت وزادت قهرت الطبيعة ، وأبانت للانسان كل سر لطيف ، وخبرته بكل معنى شريف ، وغاصت بلطافتها فى انتخاب المعانى اللطيفة البديعة فاقتنصتها وأبرزتها عن الكمال ، وكشفت هذه الطائفة وجه اعتلالها فيما ذكرنا فانهم

قالوا : رأينا الإنسان ينسب إلى قسمين ، وهما النفس والجسد ، ووجدنا الجسد مَوَاتا لا حركة له ولا حس إلا بالنفس ، وكان الميت لا يعلم سببا ولا يؤديه ؛ فوجب أن يكون العلم للنفس ، والنفوس طبقات : منها الصافى وهى النفس الحسية والنفس البراعية والنفس المجلية ، ومنها ما قوته فى الإنسان أزيد منه ، فلما كانت النسبة النورية للانسان إلى النفس كانت تهدى الانسان إلى استخراج الغيب وعلم آلاته ، وكانت فطنته وظنونه أبعث وأعم ، فاذا كانت النفس فى غاية البروز ونهاية الخلوص وكانت تامة النور وكاملة الشعاع كان توجها فى دراية الغائب بحسب ما عليه نفوس الكهنة ، وبهذا وجد الكهان على هذه السبيل من نقصان الأجسام وتشويه الخلق ؛ كما اتصل بنا عن شق وسطيح وسملقة وزوبعة وسديف بن هرماس وطريفة الكاهنة وعمران أخى عمرو مزيقياء وحارثة بنت جهينة وكاهنة باهلة وأشباههم من الكهان

العراف وبعض العرافين

وأما العراف — وهو دون الكاهن — فمثل الأبلق الأسدى ، والأجلح الزهرى ، وعروة بن زيد الأسدى ، ورباح بن كحلة عراف اليمامة الذى قال فيه عروة : —

جَعَلْتُ لعَرَّاف اليمامة حكمه وعراف نجد إنْ هُمَا شَفَيَانى

وكهند صاحب المستنير ، وكان فى نهاية التقدم فى العرافة .

الكهانة فى العرب

والكهانة أصلها نفسى لا لطيفة باقية ومقارنة لأعجاز باهرة ، وهى تكون فى العرب على الأكثر وفى غيرهم على وجه الندرة ؛ لأنه شىء يتولد على صفاء المزاج الطبيعى ، وقوة مادة نور النفس ، وإذا أنت اعتبرت أوطانها رأيتها متعلقة بعفة النفس وقمع شرها بكثرة الوحدة وإدمان التفرد وشدة الوحشة من الناس وقلة الأنس بهم ، وذلك أن النفس إذا هى تفردت فكرت ، وإذا هى فكرت بعدت ، وإذا بعدت هطل عليها سحب العلم النفسى ؛ فنظرت بالعين النورية ، ولحظت بالنور الثاقب ، ومضت على الشريعة المستوية ، فأخبرت عن الأشياء على

ما هى به وعليه ، وربما قويت النفس فى الإنسان فأشرفت على دراية الغائبات قبل ورودها ، وكان كبراء اليونانيين ينعتون هذه الطائفة بالروحانية ، ويقولون : إن النفس إذا هى أدت وكانت أكبر جزء فى الإنسان تهذبت إلى استخراج البدائع والأخبار المستترات ، واستدلوا على ذلك أن الانسان إذا قوى فكره وزادت مواد نفسه وخاطره فكر فى الطارىء قبل وروده بعلم صورته وكيف وروده إلى ما على تصوره ، وهكذا النفس أيضاً إذا تهذبت كانت الرؤيا فى النوم صادقة وفى الزمان موجودة .

الرؤيا وأسبابها

وقد تنازع الناس فى الرؤيا ، والسبب الموقع لها وماهيتها ، وكيفية وقوعها ، فقال فريق : إن النوم هو اشتغال النفس عن الأمور الظاهرة بملاقاة حوادث باطنة فيها ، وذلك على وجهين : أحدهما معروف بالعين ، قائم الصفة ، يحدث النفس على معان تعبرها وتفرق بينها ، فتشتغل به عن استعمال الظاهر والباطن الذى ألهى الحواس عن الإدراك إلى الحاس أعنى الروح لاشتغال الروح عن استعمالها ، وإذا وجب بطلانها سمى نورها عرضيا ، لأنه ليس النوم الكلى الذى يعم الأطفال والعجائز والشيوخ الذين خرجوا من مواقع ومخالفة السحر ، وكذلك نوم الليل على ما وصفنا ، والوجه الآخر ـ وهو النوم الكلى الذى يعم الأطفال والعجائز والطبقات الحيوانية ذوات الفكر وغيرها ـ وهى طبيعة توجبها الخلقة فى وقت ضرورة كما يوجب الجوع فى وقته ضرورة لأن الجوع عند صناعة أهل الطب علة ، وهى الموجبة تحديد الكبد من الفراغ والأغذية .

ومنهم من رأى أن النفس تدرك صورة الأشياء على ضربين : أحدهما حس ، والآخر فكر ، فالصورة المحبوسة لا تدركها إلا فى هيئتها ، فاذا تخلص علمها عندنا كان إدراكها مفردا من طبعها ، فيكون فكر الانسان مالم ينم مانعا للحس ، حتى إذا نام فعدمت النفس الحواس كلها كانت تلك الصورة التى أخذتها من أعيان الأشياء فيها قائمة كأنها محسوسة ، لأن الحس بها فى أعيانها كان قبيل استيلائها

بالفكر ضعيفا ، فلما ارتفع الحس قوى الفكر فصار يصور الأشياء كأنها محسوسة فخطر على بال النائم منها ما يخطر على باله إذا كان يقظان للشيء الذى قد كان أشبه ، وليس لذلك نظام ، وإنما هو ما اتفق ، فلذلك يرى الإنسان كأنه يطير وليس بطائر ، وإنما صورة الطيران مفردة كما تعلمها إذا غابت ، ولكن فكرته فيها تقوى حتى كأنها معاينة له ، فأما مايراه من الأشياء التى تدل على ما يريد فإنما ذلك لأن النفس عالمة بالصور ، فإذا خلصت فى المنام من شوائب الأجسام أشرفت على ماينالها ، وهى عالمة أيضاً فى حال اليقظة لايمكنها معرفة ذلك فتتخيل خيالات تدل بها على تلك الأشياء التى تريد أن تكون ، حتى إذا تذكرت تلك الخيالات وتلك الأشياء فمن كانت نفسه صافية لم تكد رؤياه تكذب كثيرا ، ثم مابين الكدرة والصافية وسائط ، على حسب مراتبها من الصفاء والكدر يكون صدق ما تخيلته وكذبه .

وقال فريق آخر : إذا بطل استعمال النفس للحواس ظاهرا لم يبطل استعمالها فى نفسها ، ولم يبطل استعمال قواها ، فتنتقل فى الأماكن ، وتشاهد الأشخاص بالقوة الروحانية التى ليست بجسم ، لا بالقوة الجسمانية الغليظة ، وذلك أن القوة الجسدانية لا تدرك إلا بمشاركة وملامسة الأشياء : إما باتصال كاتصال اللون ، وإما بانفصال الجسم من الأماكن ، والروح تدرك المتصل والمنفصل جميعا ، لا بمشاركة الجسد الذى يوجب الحاجة إلى قرب المدرك .

ومنهم من رأى أن النوم هو اجتماع الدم وجريانه إلى الكبد .

ومنهم من رأى أن ذلك هو سكون النفس وهدو الروح .

ومنهم من زعم أن مايجده الانسان فى نومه من الخواطر إنما هو عمل الأغذية والأطعمة والطبائع .

ومنهم من رأى أن بعض الرؤيا من الملك و بعضها من الشيطان ، واعتل هؤلاء بقوله تعالى : (إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا)

ومنهم من رأى أنها جزء من إحدى وستين جزأ من النبوة ، وتنازع هؤلاء فى كيفية الجزء وماهيته

ومنهم من ذهب إلى أن الإنسان الحساس هو غير هذا الجسم ، وأنه يخرج عن البدن فى حال النوم فيشاهد العالم ويرى الملكوت ، على حسب صفائه ، واعتل هؤلاء وغيرهم - ممن ذهب إلى نحو هذا المعنى - بقوله عز وجل : (الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتى لم تمت فى منامها) إلى قوله (إلى أجل مسمى)

وذهب الجمهور من المتطببين فى ذلك أن الأحلام بالأخلاط ، وترى بقدر مزاج كل واحد منها وقوته ، وذلك أن الذين تشتغل أجسادهم من المرة الصفراء يرون فى منامهم النيران ونحو ذلك وما أشبهه ، والغالب على من كان مزاجه البلغم أن يرى بحورا وأنهارا وعيونا وأحواضا وغُدْرَانا ومياها كثيرة وأمواجا ، ويرى كأنه يسبح أو يصيد سمكا ونحو ذلك وما قارب ، والغالب على من كان مزاجه السوداء أن يرى فى منامه أجداثا وقبورا وأمواتاً مكفنين بسواد وبكاء ونوحا ورنينا وصراخا وأشياء مفزعة وأمورا مفظعة وفيلة وأسودا ، والغالب على من كان مزاجه الدم أن يرى خمرا ونبيذا ورياحين ولعبا ووصفا وعَزْفا وأنواع الملاهى والرقص والسكر والفرح والسرور والثياب المصبغات من الحمرة وغيرها وما لحق بهذا الباب مما وصفنا من أنواع السرور

ولا خلاف بين المتطببين فى أن الضحك واللعب وأنواع السرور من الدم ، وأن كل حزن وخوف وإن اختلفت معانيه فان ذلك من المرة السوداء ، واحتجوا بضروب من الاحتجاجات ، فهذه جملتها ، وقد أوضحنا هذا فى كتابنا « الرؤيا والكمال » وفى كتاب « طب النفوس » فلا وجه لإطنابنا فى هذا الموضع من كتابنا هذا إذ كان هذا الكتاب كتاب خبر لا كتاب بحث ونظر

تحديد النفس

وإنما تغلغل بنا الكلام لما تشعب من مذاهبهم فى إخبارنا عنهم ، ولم نعرض فى هذا الكتاب لما ذهبت إليه الناس فى تحديد النفس ، وما قاله أفلاطون فى تحديده للنفس : إن النفس جوهر ليس بمحرك للبدن ، وما حده صاحب المنطق أن حد

النفس كمال الجسم الطبيعى ، وحدها من وجه آخر أنه حى بالقوة ، ولا للفرق بين النفس والروح ، لأن الفرق بينهما أن الروح جسم ، والنفس لا جسم ، وأن الروح يتحرك به البدن ، والنفس تبطل أفعالها فى البدن ، ولا تبطل هى فى ذاتها ، والنفس تحرك البدن وتنيله الحس ، وذكره أفلاطون فى كتاب السياسة المدنية نهر البستان وما يلحق الانسان من صفات النفس الداخلة على النفس الناطقة ، وذكره أفلاطون فى كتابه إلى طسماويس ، وفى كتاب قارون ، وكيفية سقراط الحكيم وما يتكلم فى ذلك فى النفس والصورة

وقد تكلم الناس فى طبقات النفوس وصفاتها من أصحاب الألسن وغيرهم من الفلاسفة ، ثم تنازع أهل الاسلام فى هيئة الإنسان الحساس الدارك المأمور المنهى وما قالت المتصوفة وأصحاب المعارف والدعاوى فى طبقات النفوس من النفس المُطْمَئِنّة ، والنفس اللوّامة ، والنفس الأمّارة بالسوء ، وغير ذلك مما ذهب إليه اليهود والمجوس والصابئة ، وغير ذلك مما قد أتينا على إيضاحه فى كتاب « سر الحياة » وغيره من كتبنا

وقد كان سطيح الكاهن — وهو ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدى بن مازن بن غسان — يدرج سائر جسده كما يدرج الثوب ، لا عظم فيه إلا جمجمة الرأس ، وكانت إذا لمست باليد يلين عظمها ، وكان شق بن مصعب بن شكران بن أترك بن قيس بن عنفر بن أنمار بن ربيعة بن نزار معه [1] فى عصر واحد ، وكان فيهما حمرة الكهانة ، وكذلك سمقلة وزوبعة كانا فى عصر واحد ، والله أعلم

---

(١) هكذا ورد فى أصول الكتاب نسب سطيح وشق الكاهنين ، والذى فى سيرة ابن هشام (ج١ ص١١) أن اسم سطيح ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب ابن عدى بن مازن ، وأن شقا ابن صعب بن يشكر بن أفرك بن قسر بن عبقر بن أنمار ابن إراش ؛ بغير خلاف فى نسب سطيح ، ومع خلاف كثير فى أسماء آباء شق . ولم نشأ أن نغير فى حروف الأصل بما يتوافق مع رواية السيرة لأنا نعلم أن العلماء لا يتفقون على ضبط هذه الأسماء وترتيبها

ذكر جمل من اخبار الكهان ، وسيل العرم وتفرق الأزد فى البلدان

قال المسعودى : قد ذكرنا جملا من الكهانة والقيافة والزجر والبارح والسانح فلنذكر الآن لُمَعًا من أخبار الكهان ، وتفرق ولد سبأ فى البلدان

ولم يزل ولد قحطان فى أطيب عيش إلى أن هلك سبأ ، وكان القوم بعد مضى سبأ تداولتهم الأعصار قرنًا بعد قرن ، إلى أن أرسل الله عليهم سَيْلَ الْعَرِم وذلك أن الرياسة انتهت فيهم إلى عمرو بن عمرو[1] مزيقياء — وهو عمرو بن عامر ابن ماء السماء بن حارثة الغطريف بن ثعلبة بن امرىء القيس بن مازن بن الأزد ابن الغوث بن كهلان بن سبأ — وذلك ببلاد مازن من أرض اليمن ، وهى بلاد سبأ التى ذكرها الله فى القرآن أنه أرسل على أهلها سيل العرم ، وهو السد ، وكان فرسخا فى فرسخ ، بناه لقمان الأكبر العادى — وهو لقمان بن عاد بن عاديا — وقد ذكرنا خبره وخبر غيره ممن كان عُمِّر منهم عمر النسور ، وهذا السد هو الذى كان يردُّ عنهم السيل فيما سلف من الدهر إذا حان أن يغشى أموالهم ؛ فمزقهم الله كل مُمَزَّق ، وباعد بين أسفارهم ، والناس فى قصة هلكهم يختلفون ، وفى سياقة أخبارهم يتباينون

وصف بلاد سبأ

وذكر أصحاب التاريخ القديم أن أرض سبأ كانت من أخصب أرض اليمن ، وأثراها ، وأغدقها ، وأكثرها جنانا وغيضانا ، وأفسحها مُرُوجًا ، مع بنيان حسن ، وشجر مصفوف ، ومساكب للماء متكاثفة ، وأنهار وأزهار متفرقة؛ وكانت مسيرةَ أكثرَ من شهر للراكب المجدِّ على هذه الحالة ، وفى العرض مثل ذلك ، وأن الراكب والمار كان يسير فى تلك الجبال من أولها إلى أن ينتهى إلى آخرها لا تواجهه الشمس ولا تعارضه ؛ لاستتار الأرض بالعمارة الشجرية ، واستيلائها عليها ، وإحاطتها بها ، وكان أهلها فى أطيب عيش وأرفهه ، وأهنأ

(١) سيأتى أن آخرهم هو عمرو بن عامر (ص ٩٤)

حال ، وأرغد قرى ، وفى نهاية الخصب ، وطيب الهواء ، وصفاء الفضاء ، وتدفق الماء ، وقوة الشوكة ، واجتماع الكلمة ، ونهاية المملكة ، وكانت بلادهم فى الأرض مثلا ، وكانوا على طريقة حسنة من اتباع شرف الأخلاق ، وطلاب الافضال على القاصد ، والسفر بحسب الامكان وما توجبه القدرة من الحال ، فمكثوا على ذلك ما شاء الله من الأعصار : لا يعاندهم ملك إلاقصموه ، ولا يوافيهم جبار فى جيش إلا كسروه ، فذلت لهم البلاد ، وأذعن لطاعتهم العباد ، فصاروا تاج الأرض ، وكانت المياه التى هى أكثر ما يرد إلى أرض سبأ تظهر من مخراق من الحجر الصلد والحديد من السد والجبال ، طول المخراق فيما وصفنا فرسخ ، وكان وراء السد والجبال أنهار عظام ، وكان فى هذا المخراق الآخذ من تلك الأنهار ثلاثون نقبا مستديرة فى استدارة الذراع طولا وعرضا مُدَوَّرَة على أحسن هندسة وأكمل تقدير ، وكانت المياه تخرج من تلك الأنقاب فى مجاريها حتى تأتى الجبال فترويها سقيا ، وتعم شرب القوم ، وقد كانت أرض سبأ قبل ما وصفنا من العمارة والخصب يركبها السيل من تلك المياه ، وكان ملك القوم فى ذلك الزمان يُقَرِّب الحكماء ، ويدنيهم ، ويؤثرهم ، ويحسن إليهم ، فجمعهم من أقطار الأرض للالتجاء إلى رأيهم ، والأخذ من محض عقولهم ، فشاورهم فى دفع ذلك السيل وحصره ، وذلك أنه كان ينحدر من أعالى الجبل هابطا على رأسه يهلك الزرع ويسوق من حملته البناء ، فأجمع القوم رأيهم على عمل مصارف إلى برارى تقذف به إلى البحر ، وأخبروا الملك أن الماء إذا حفرت المصارف الهابطة طلبها ، وانحدر فيها ، ولم يتراكم حتى يعلو الجبال ؛ لأن فى طباع الماء طلاب الخفض ، فحفر الملك المصارف حتى انحدر الماء وانصرف وتدافع إلى تلك الجهة وانحدر السيل فى الموضع الذى كان فيه بدء جريان الماء من الجبل إلى الجبل ، وجعلوا فيه المخراق على ما وصفنا آنفا ، ثم اجتذبوا من تلك المياه نهرا مرسلا مقدارا معلوما ينتهى فى جريانه إلى المخراق ثم ينبعث الماء منه إلى تلك الأنقاب ، وهى الثلاثون مخراقا

الصغار التى قدمنا ذكرها ، وكانت البلاد عامرة على ما وصفنا آنفا

ثم إن تلك الأمم بادت ، ومرت عليها السنون ، وضربها الدهر بضرباته وطحنها بكلكله ، وعَمِلَ الماء فى أصول ذلك المخراق ، وأضعفه ممر السنين عليه وتدافع الماء حوله ، وقد قيل فى المثل : إذا أثّرَ تَوَاتُرُ الماء على الحجر الصَّلْد فما ظنك بسيل يتدافع على حديد وحجر مصنوع

فلما سكنت أبناء قحطان على ما وصفنا من هذه الديار وتغلبت على من كان فيها من القطان لم تعلم الآفة من انحطام السد والمخراق والبنيان ، فقذف به فى جريه ورمى به فى تياره ، وذلك إبّانَ زيادة الماء ، واستولى الماء على تلك الديار والجبال والعمائر والبنيان ، حتى انقرض سكان تلك الأرض ، وزالوا عن تلك المواطن ، فهذه جملة من أخبار سيل العرم و بلاد سبأ

العرم

ولا خلاف بين ذوى الدراية منهم أن العرم هو المسناة التى قد أحكموا عملها لتكون حاجزا بين ضياعهم و بين السيل ففجرته فأرة ليكون ذلك أظهر فى الأعجوبة ، كما أفار الله تعالى الطوفان من جوف تَنُّور ليكون أثبت فى العبرة وأوعد فى الحجة ، ولا يتناكر أحلاف قحطان من أهل تلك الديار إلى هذا الوقت ما كان من العرم ، لاستفاضته فيهم وشهرته عندهم

مفاخرة بين القحطانيين والنزاريين فى مجلس السفاح

وقد فخر بعض أولاد قحطان فى مجلس السفاح بمناقب قحطان من حمير وكهلان على ولد نزار ، وخالد بن صفوان وغيره من نزار بن معد يسطون بأبهة السفاح ، لأن أخواله من قحطان ، فقال السفاح لخالد بن صفوان : ألا تنطق وقد غمرتكم قحطان بشرفها وعلت عليكم بقديم مناقبها ؟ فقال خالد : ماذا أقول لقوم ليس فيهم إلا دابغ جلد ، أو ناسج برد ، أو سائس قرد ، أو راكب عرد ، أغرقتهم فأرة ، وملكتهم امرأة ، ودل عليهم هدهد ، ثم مر فى ذمهم إلى أن انتهى إلى ما كان من قصتهم فى ملك الحبشة وما كان من استنقاذ الفرس إياهم على حسب ما قدمنا آنفا

العرم فى شعر العرب

وقد ذكروا فى أشعارهم العرم وما كان لسبأ وأرض مأرب ، وأن مأرب سمة للملك الذى يتملك على هذه البلدة ، وأن هذا الاسم وقع على هـذا البلد فاشتهر به ، وصار سمة له ، وقال الشاعر : —

من سبأ الحاضرين مأرب إذ يَبْنُون من دون سيله العَرِما

وقد قيل : إن مأرب سمة لقصر هذا الملك فى صدر الزمن ، قال أبو الطَّمَحَان فى ذلك : —

ألم تروا مأربا ما كان أحْصَنَه وما حواليه من سور وبنيان
ظـل العبادىُّ يسقى فوق قلتـه ولم يهب رَيْبَ دَهْرٍ جدّ خَوَّان
حتى تناوله من بعـد ما هجعوا يرقى إليـه على أسباب كتان

وقد ذكر الأعشى ما وصفنا حيث يقول فى كلمته : —

ففى ذاك للْمُؤْتَسِى أسوة بمأرب عَفَّى عليها العرم
رخام بناه لهم حمـير إذا جاء ماؤهمو لم يرم
فأغنى الحروث وأغنامها على ساعة ماؤهم قـد قسم
فطار الفيول وفيالهـا بها فى فيافى سراب يطم
وكانوا بذلكمو حقبة فمـال بهم جارف منهدم
فطاروا سراعا وما يقدمو ن منه لشرب صبى فطم

طول العمر وعمر النسور

وقد ذكرنا فى كتابنا « أخبار الزمان » الملك الذى طال عمره وحسنت سيرته ، وأنه بنى هذا السد الذى هو المسناة ، وأن عمره انتهى على عمر النسور ؛ عند ذكرنا لطول الأعمار ، وما أكثرت العرب فى صفة طول عمر النسر ، وضربت به الأمثال ، و بلُبَد ، و بصحة بدن الغراب ؛ فمن ذلك ماذكره الخارجى فى شعره عند ذكره لطول عمر معاذ بن مسلم بن رجاء مولى القعقاع بن حكيم من قوله فيه عند ذكره سنه وهرمه، وهو : —

إنَّ معاذ بن مسلم رجل قد ضج من طول عمره الأبَدُ[1]
قد شاب رأس الزمان واختضب الدهر وأثواب عمره جدد
يانسر لقمان كم تعيش وكم تلبس ثوب الحياة يالبُدُ
قد أصبحت دار حمير خربت وأنت فيها كأنك الوَتِدُ
تسأل غربانها إذا حجَلت كيف يكون الصداع والرمد

وقد قدمنا فيما سلف فى مواضع من هذا الكتاب ما قالت الأوائل فى علة طول الأعمار وقصرها ، وعظم الأجسام فى بدء الأمر ، وتناقصها على مرور الأعصار ومضى الدهور ، وأن الله تبارك وتعالى لما بدأ الخلق كانت الطبيعة التى جعلها الله جبلة للاسلام فى تمام الكثرة ونهاية القوة والكمال ، والطبيعة إذا كانت تامة القوة كانت الأعمار أطول والأجسام أقوى ؛ لأن طرق الموت الطارئ يكون بإعلال قوى الطبيعة ، فلما كانت القوة أتم كانت الأعمار أزيد ، وكان العالم فى أولية شأنه تام العمر ، ثم لم يزل ينقص أولا أولا لنقصان المادة ، حتى يكون آخر مائية الطبيعة فى تناهى النقص فى الأجسام والأعمار

وقد أبى ما ذكرنا من عظم أجسام الناطقين فى صدور الزمان كثيرٌ من أهل النظر والبحث ممن تأخر ، وزعموا أن تأثيرهم فى بنيانهم وما ظهر فى الأرض من أعمالهم يدل على صغر أجسامهم ، وأنها كانت كأجسامنا ، لما شاهدوه من مساكنهم وأبوابهم وممراتهم فيما أحدثوه من البنيان والهياكل والديار والمساكن فى سائر الأرض ، كديار ثمود ونحتها المساكن فى الجبال وحفرها فى الصخر الصلد بيوتا صغارا وأبوابا لطافا ، وكذلك أرض عاد ومصر والشأم وسائر بقاع الأرض فى الشرق والغرب ، وهذا إن أكثرنا القول فيه طال ، وإن أطنبنا فى صفته كثر ، فلنرجع الآن إلى ماعنه عملنا ومن صفته خرجنا من ذكر سبأ ومأرب ، وما كان من الملك فى ذلك الوقت وهو عمرو بن عامر

(١) فى الأصول « قد صح فى طول عمره الأبد » وهو كما ترى .

طريفة الخير الكاهنة تنذر بالسيل

وكان للملك عمرو بن عامر المقدم ذكره فى هذا الباب أخ كاهن عقيم ، يقال له عمران ، وكان لعمرو كاهنة من أهله من حمير يقال لها طريفة الخير (١)

وكان أول شىء وقع بمأرب وعرف من سيل العرم أن عمران الكاهن أخا عمرو رأى فى كهانته أن قومه سوف يُمَزَّقون كل مُمَزَّق ويُبَاعَدُ بين أسفارهم ، فذكر ذلك لأخيه عمرو ، وهو الملك مزيقياء الذى كانت محنة القوم فى أيام ملكه والله أعلم بكيفية ذلك ، وبينا طريفة الكاهنة ذات يوم نائمة إذ رأت فيما يرى النائم أن سحابة غشيت أرضها وأرعدت وأبرقت ثم صعقت فأحرقت ما وقعت عليه ، ووقعت إلى الأرض فلم تقع على شىء إلا أحرقته ، ففزعت طريفة لذلك ، وذُعِرَتْ ذعرا شديدا ، وانتبهت وهى تقول : ما رأيت مثل اليوم ، قد أذهب عنى النوم ، رأيت غيما أبرق ، وأرعد ثم أصعق ، فماوقع على شىء إلا أحرق ، فما بعد هذا إلا الغرق ، فلما رأوا ما دخلها من الرعب خَفَضُوها وسكنوا من جأشها حتى سكنت ، ثم إن عمرو بن عامر دخل حديقة من حدائقه ومعه جاريتان له فبلغ ذلك طريفة ، فأسرعت نحوه ، وأمرت وصيفا لها يقال له سنان أن يتبعها ، فلما برزت من باب بيتها عارضها ثلاث مناجد منتصبات على أرجلهن واضعات أيديهن على أعينهن ، وهى دواب يشبهن اليرابيع يكن بأرض اليمن ، فلما رأتهن طريفة وضعت يدها على عينها وقعدت ، وقالت لوصيفها : إذا ذهبت هذه المناجد عنا فأعلمنى ، فلما ذهبت أعلمها ، فانطلقت مسرعة ، فلما عارضها خليج الحديقة التى فيها عمرو وثبت من الماء سُلَحْفَاة فوقعت على الطريق على ظهرها ، وجعلت تريد الانقلاب فلا تستطيع ، فتستعين بذنبها وتحثو التراب على بطنها وجنبها وتقذف بالبول ، فلما رأتها طريفة جلست إلى الأرض ، فلما عادت السلحفاة إلى الماء مضت إلى أن دخلت على عمرو الحديقة حين انتصف النهار ، فى ساعة شديد حرها ، فاذا الشجر يتكفأ من غير ريح ، فغدت حتى دخلت على عمرو

(١) كذا فى معجم البلدان (١ : ٣٥٥) ووقع فى الأصول «ظريفة الخبر» وهو تحريف

ومعه جاريتان على الفراش ، فلما رآها استحيا منها ، وأمر الجاريتين فنزلتا عن الفراش ، ثم قال لها : هلمى ياطريفة إلى الفراش ، فتكهنت وقالت : والنور والظلماء ، والأرض والسماء ، إن الشجر لهالك ، وسيعود الماء لما كان فى الدهر السالف ، قال عمرو : من خبرك بهذا ؟ قالت : أخبرنى المناجد ، بسنين شدائد ، يقطع فيها الوالد الواحد ، قال : ما تقولين ؟ قالت : أقول : قول الندمان لهفا ، قد رأيت سلحفا ، تجرف التراب جرفا ، وتقذف بالبول قذفا ، فدخلت الحديقة فاذا الشجر يتكفا ، قال عمرو : متى ترين ذلك ؟ قالت : هى داهية كبيرة ، ومصائب عظيمة ، لأمور جسيمة ، قال : وما هى ؟ قالت : أجل إن لى الويل ، ومالك فيها من نيل ، فلى ولك الويل ، مما يجىء به السيل ، فألقى عمرو نفسه على الفراش وقال : ما هذا ياطريفة ؟ قالت : هو جل جليل ، وحزن طويل ، وخلف قليل ، والقليل خير من تركه ، قال عمرو : وما علامة ذلك ؟ قالت : تذهب إلى السد فاذا رأيت جرذا يكثر فى السد الحفر ، ويقلب برجليه من الجبل الصخر ؛ فاعلم أن النقر عقر ، وأنه قد وقع الأمر ، قال : وما هذا الأمر الذى يقع ؟ قالت : وعد الله نزل ، وباطل بطل ، ونكال بنا نزل ، فتعمده ياعمرو ، فليكن الثكل ؛ فانطلق عمرو إلى السد يحرسه ، فاذا الجرذ يقلب برجليه صخرة ما يقلبها خمسون رجلا فرجع إلى طريفة فأخبرها الخبر وهو يقول : —

أبصرت أمرا عادلى منه ألم ... وهاج لى من هَوْله بَرْحُ السَّقَمْ
من جُرَذٍ كفَحْلِ خنزير الأجم ... أو تَيْس صرم من أفاويق الغنم
يسحب صخرا من جلاميد العرم ... له مخاليب وأنياب قضم
ما فاته سحلا من الصخر قصم ... كأنما يرعى حصيرا من سلم

فقالت له طريفة : إن من علامة ما ذكرت لك أن تجلس فى مجلسك بين الجنتين ، ثم تأمر بزجاجة فتوضع بين يديك ، فانها ستمتلىء بين يديك من تراب البطحاء من سهلة الوادى ورمله ، وقد علمت أن الجنان مظلة ما يدخلها شمس ولا

ريح ، فأمر عمرو بزجاجة فوضعت بين يديه ، فلم تمكث إلا قليلا حتى امتلأت من تراب البطحاء ، فذهب عمرو إلى طريفة فأخبرها بذلك ، وقال : متى ترين هلاك السد ؟ قالت : فيما بينك و بين السبعين سنة ، قال : ففى أيها يكون ؟ قالت : لا يعلم ذلك إلا الله تعالى ، ولو علمه أحد لعلمته ، ولا يأتى عليك ليلة فيما بينك و بين السبعين سنة إلا ظننت هلاكه فى غدها أو فى تلك الليلة

عمرو بن عامر يتحيل للخروج من بلاده

ورأى عمرو فى النوم سيل العرم ، وقيل له : إن آية ذلك أن ترى الحصباء قد ظهرت فى سعف النخل ، فذهب إلى سرب النخل وسعفه فوجد الحصباء قد ظهرت فيها ، فعلم أن ذلك واقع بهم ، وأن بلادهم ستخرب ، فكتم ذلك وأخفاه وأجمع أن يبيع كل شىء له بأرض سبأ ويخرج منها هو وولده ، ثم خشى أن يستنكر ذلك ؛ فصنع طعاما وأمر بإبل فنحرت ، و بغنم فذبحت ، وصنع طعاما واسعا ، ثم بعث إلى أهل مأرب أن عمرا صنع يوم مجد وذكر فاحضروا طعامه ، ثم دعا ابنا له يقال له مالك ، ويقال : بل كان يتيما فى حجره ، فقال : إذا جلست أطعم الطعام الناس فاجلس عندى ونازعنى الحديث ، وارددعلى ، وافعل بى مثل ما أفعله بك ، وجاء أهل مأرب ، فلما جلسوا أطعم الناس وجلس عنده الذى أمر به ، فجعل ينازعه الحديث ، و يرد عليه ، فضرب عمرو وجهه وشتمه ، فصنع الصبى بعمرو مثل ما صنع ، فقام عمرو وصاح : واذ لاه !! يوم فخر عمرو ومجده يضرب وجهه صبى ، وحلف ليقتلنه ، فلم يزالوا بعمرو حتى تركه ، ففى ذلك قال حاجر الأزدى : —

يارب لطمة غدر قد سخنت بها بكف عمرو التى بالغدر قدعرفت

ثم قال : والله لاأقيم ببلدة صنع هذا بى فيه ، ولأبيعن عقارى فيه وأموالى ، فقال الناس بعضهم لبعض : اغتنموا غضبة عمرو ، واشتروا منه أمواله قبل أن يرضى ، فابتاع الناس منه جميع ماله بأرض مأرب ، وفشا بعض حديثه فيما بلغه من شأن سيل العرم ، فخرج ناس من الأزد وباعوا أموالهم ، فلما أكثروا

البيع استنكر ذلك الناس فأمسكوا بأيديهم ، فلما اجتمعت إلى عمرو بن عامر أمواله أخبر الناس بشأن سيل العرم فقال أخوه عمران الكاهن : قد رأيت أنكم ستمزقون كل مُمَزَّق ويُبَاعد بين أسفاركم ، وإنى أصف لكم البلدان فاختاروا أيها شئتم ، فمن أعجبه منكم صفة بلد فليصر إليها ، من كان منكم ذا هم بعيد وحمل شديد ، فليلحق بقصر عمان المشيد ، قال : ومن كان منكم ذا هم بعيد ، وحمل غير شديد ، فليلحق بالشعب من كرود ، قال : وهى أرض همدان ، فلحق به وادعة بن عفر ، فانتسبوا فيهم ، وقال الكاهن : ومن كان منكم ذا حاجة ووطر ، ونظر وصبر ، على أزمات الدهر ، فليلحق ببطن مر ، وكان الذين سكنوه خزاعة لانخزاعها فى ذلك الموضع عمن كان معها من الناس ، وهم بنو عمرو بن لحى ، فتخزعت هنالك إلى هذه الغاية ، وفى ذلك يقول حسان بن ثابت : —

ولَمَّا هبَطْنَا بطنَ مَرٍّ تَخَزَّعَتْ خزاعة منا فى ملوك كرا كر

فى شعر له طويل ، ومالك وأسلم وبنو قصى بن حارثة بن عمرو مزيقياء [1] ، وقال الكاهن : ومن كان يريد الراسيات فى الرحل ، المطعمات فى المحل ، فليلحق بيثرب ذات النخل ، وهى المدينة ، وكان الذين سكنوها الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو مزيقياء [1] ، قال الكاهن : ومن كان يريد منكم الخمر والخمير ، والديباج والحرير ، والأمر والتدبير ، فليلحق ببصرى وحفير ، وهى أرض الشأم ، قال الكاهن : ومن كان منكم يريد الثياب الرقاق ، والكنوز والأرزاق ، فليلحق بالعراق ، وكان الذين لحقوا بالعراق منهم مالك بن فهم الأزدى وولده ، ومن كان بالحيرة من غسان على حسب ما قدمنا آنفا فيما سلف من هذا الكتاب .

قال هشام بن الكلبى : وأما أبى فكان يقول : إنما نزل بالحيرة من غسان مع تبع بعد هذا بزمان ،

ثم خرج عمرو بن عامر مزيقياء فسكنوا همدان ، وتخلف مالك بن الهميان بن

(١) فى بعض أصول الكتاب « بن عمرو بن مزيقياء » فى الموضعين

جهم بن عدى بن عمرو بن مازن بن الأزد ، وكان بعدهم بمأرب ملكا إلى أن كان من أمرهم ما كان فى الهلاك ، ثم ساروا حتى إذا كانوا بنجران تخلف أبو حارثة بن عمرو بن عامر مزيقياء ورعيل بن كعب بن أبى حارثة فانتسبوا إلى مذحج ، قال أبو المنذر : ويقال : إن أبا حارثة هو جد الحرث بن كعب بن أبى حذيفة الذى بنجران ، والله أعلم ، ثم سار عمرو بن عامر حتى إذا كان بأدنى المسناة ومكة قام هنالك أناس من بنى نصر من الأزد وأقام معهم عمران بن عامر الكاهن أخو عمرو بن عامر مزيقياء وعدى بن حارثة بن عمرو مزيقياء ، وسار عمرو بن عامر وبنو مازن حتى نزلوا بين بلاد الأشعريين وعَكٍّ على ماء يقال له غَسَّان بين واديين يقال لهما زَبيد ورِمَع وهما مما يلى صدورهما بين صعيد يقال له صعيد الحسك وبين الجبال التى تدفع به فى زبيد ورمع فأقاموا على غَسَّان ، وشربوا منه فسموا غسان وغلب على أسمائهم فلا يعرفون إلا به ، قال شاعرهم :

إما سألت فانّا معشر نجب الأزْدُ نسبتنا والماء غسان

والذين سموا غسان من بنى مازن الأوس والخزرج ابنا ثعلبة بن امرىء القيس ابن مازن الأزدى

وللقوم أخبار فى تفرقهم ومن دخل منهم فى معد بن عدنان وما كان بينهم من الحروب إلى أن ظفرت بهم بنو معد فأخرجتهم إلى أن لحقوا بالسراة — والسراة جبل الأزد الذين يقال لهم السراة ، ويقال له الحجاز ، وإنما سمى السراة من هذا الجبل ظهره ، فيقال لظهره السراة كما يقال لظهر الدابة السراة ، فأقاموا به ، وكانوا فى سهله وجبله وما قاربه ، وهو جبل على تخوم الشام ، وفرز بينه وبين الحجاز مما يلى أعمال دمشق والأردن وبلاد فلسطين تلا جبل حرا

ديانة أهل مأرب

وقد كان أهل مأرب يعبدون الشمس فبعث الله إليهم رُسُلاً يدعونهم إلى الله ، ويزجرونهم عما هم عليه ، ويذكرونهم آلاء الله ونعمته عليهم ، فجحدوا قولهم ، وردوا كلامهم ، وأنكروا أن لله عليهم نعمة ، وقالوا لهم : إن كنتم رسلا

فادعوا الله أن يسلبنا ما أنعم به علينا ، ويذهب عنا ما أعطانا ، وفى ذلك تقول امرأة منهم : —

إن كان ما يصح فى ضلاله من ربكم فلينطلق بماله
إليه عنا وإلى عياله

فأجابتها امرأة مؤمنة فقالت : —

لولا الاله لم يكن عيالنا ولم يسع عيالنا أموالنا
هو الذى يجيبنا سؤالنا ويكشف الغم إذا ما هالنا

فأرسل الله عليهم سيل العرم فهدم سدهم وغشى الماء أرضهم ، فأهلك شجرهم وأباده ، وأزال أموالهم وأنعامهم ، فأتوا رسلهم فقالوا : ادعوا الله أن يخلف علينا نعمتنا ، ويخصب بلادنا ، ويرد علينا ما شرد من أنعامنا ، ونعطيكم مَوْثقاً أن لا نشرك بالله شيئا ، فسألت الرسل ربها ، فأجابهم إلى ذلك وأعطاهم ما سألوا فأخصبت بلادهم ، واتسعت عمائرهم إلى أرض فلسطين والشام قرى ومنازل وأسواقا ، فأتتهم رسلهم فقالوا : موعدكم أن تؤمنوا ، فأبوا إلا طغيانا وكفرا ، فمزقهم الله كل ممزق وباعد بين أسفارهم

قال المسعودى : وإذ قد ذكرنا جملا من أخبار السد و بلاد مأرب وعمرو بن عامر وغير ذلك مما تقدم ذكره فى هذا الباب فلنرجع الآن إلى أخبار الكهان

عود إلى حديث الكهانة وذكر سطيح

وكان أول ما تكهن به سطيح الغسانى أنه كان نائما فى ليلة سهاكية مظلمة مع حرمته فى لحاف ، والحى خلوف ، إذ زعق من بينهم ورَنَّ وتأوه ، وقال : والضياء والشفق ، والظلام والغسق ، ليطرقنكم ما طرق ، قالوا : ما طرق ياسطيح؟ قال : ما طرق إلا الأجلح ، حين سرى الليل البهيم الأفلح ، وولاهم فيه دح ، قالوا : وما علامة ذلك ياسطيح ؟ قال : أمر يسد النقرة ، ذو حبسة فى الوجرة ، وحرة بعدحرة ، فى ليلة قرة ، فانصرفوا عن قوله ، واستهانوا بأمره ، وتعاصفت مدود من أودية هناك فجأتهم فى ليلة باردة قرة كما ذكر ، فساقت الأنعام والمواشى ، وكادت أن تذهب بعامتهم

ولسطيح الكاهن ولشق بن مصعب[1] أخبار كثيرة : منها رؤيا تبع الحميرى فى أن جمجمة ، خرجت من ظلمة ، فوقعت بأرض تهمة ، أكلت منها كل ذات جمجمة ، وما فسراه له فى ذلك ، وكذلك خبر سطيح وعبد المسيح فى رؤيا الموبذان وارتجاج الإيوان ، وخبر سملقة وزوبعة ، وما كان من أمرهما ، وخبر شأن الظليم والسحرة ، وما كان بين عك وغسان من الحرب فى رقة اللبن وحلاوته وثخنه ، ونزل غسان أعلى الوادى وعك فى أسفله ، وما كان فى ذلك من القيافة بينهم فى طول الشمس وغروبها على إبلهم ، وخبر السموءل بن حسان بن عادياء وما كان من أمره وأمر خازن الكاهن ، وما قاله حين طرقه ليلا ، وانقياده إلى ذمته ، وما كان من العير الأقمر ، والظليم الأحمر ، والفرس الأشقر ، والجمل الأورق ، والشيخ الأسدى ، وغير ذلك مما ذكرناه فيما سلف من كتبنا فى « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط ، والله أعلم

ذكر سنى العرب والعجم وشهورها

وما اتفق منها وما اختلف

قال المسعودى : عدة الشهور عند العرب وسائر العجم اثنا عشر شهرا ؛ فلنذكر الآن سنى وشهور وأيام ما اشتهر أهله من جل الأمم ، وهم العرب والفرس والروم والسريانيون والقبط ؛ إذ كان قول اليونانيين فى ذلك من حسابهم ومن تبعهم على ذلك من أهل الصين وكثير من الممالك والأمم إذا كان فى ذلك خروج عما عليه الجمهور والمعهود بين الناس ، ونجعل المبتدأ بذكر سنى وشهور القبط ؛ لموافقتها السريانيين وموافقتها لشهور الروم ، ثم نعقب ذلك بذكر سنى العرب وشهورها وأيامها ، ولأية علة استحق عندها تسمية كل شهر منها ، وكل يوم ، وما قالته العرب فى تسمية الليالى ، وجمل من ذكر أفعال الشمس والقمر وتأثيرهما فى هذا العالم فى الجماد والنبات والحيوان وغير ذلك مما يقف عليه المتأمل عند قراءته — إن شاء الله تعالى — على ما يريد ، والله تعالى ولى التوفيق

(١) كذا ، وقد ذكرنا سابقا أنه « شق بن مصعب »

ذكر شهور القبط والسريانيين
والخلاف فى أسمائها من التاريخ

أسماء شهور القبط وما يقابلها عند السريان

أول شهور القبط توت — وهو أيلول — وبابه — وهو تشرين الأول — وهاتور — وهو تشرين الثانى — وكيهك — وهو كانون الأول — وطوبه — وهو كانون الثانى — وأمشير — وهو شباط — وبرمهات — وهو آذار — وبرموده — وهو نيسان — وبشنس — وهو أيّار — وبؤونة — وهو حزيران — وأبيب — وهو تموز — ومسرى — وهو آب

أيام لواحق (النسىء)

وللقبط بعد هذا خمسة أيام لواحق تدعى العمائر ، تزيدها على ما سمينا من شهورها ، وهى ثلثمائة يوم وستون يوما ، فتصير السنة ثلثمائة وخمسة وستين يوما

وأول يوم من السنة عند القبط هو اليوم التاسع والعشرون من آب ، وعدة كل شهر منها ثلاثون يوما ، وكانت أيام السنة ثلثمائة وخمسة وستين يوما بعدد أيام سنة الفرس ، وكانت شهور القبط فيما مضى توافق أوائلها شهور الفرس ، وكان أول يوم أول آزرماه ، ثم كل شهر كذلك على هذا الوصف إلى آخر سنة القبط آخر آذرماه ، وهذا الحساب بعينه موجود فى كتب الزيجات فى النجوم ، وأهل مصر وسائر القبط فى هذا الوقت - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة - يستعملون فى حسابهم فى الشهور غير ما قدمنا ؛ وذلك أنهم زادوا فى أيام السنة ربع يوم على مذهب اليونانيين والروم ، فصارت شهورهم مخالفة لشهور الفرس وموافقة لشهور السريانيين والروم فى عدد أيام السنة التى ملك فيها البختنصر ، وكان أولها يوم الأربعاء

وأما تاريخ القبط فى كتاب زيج بطليموس فمن أول سنة ملك فيلفوس ،

وكان أولها يوم الأحد ، والذى بين تاريخ البختنصر وتاريخ يزدجرد ألف وثلثمائة وتسع وتسعون سنة فارسية وثلاثة أشهر ، والذى بين تاريخ فليفوس وتاريخ يزدجرد تسعمائة واثنتان وأربعون سنة من سنى الروم ومائتان وتسعة وخمسون يوما ، وبين تاريخ يزدجرد وتاريخ الهجرة من الأيام ألف وستمائة وأربعة وعشرون يوما ، فأول هذه التواريخ تاريخ البختنصر ، ثم تاريخ فليفوس ، ثم تاريخ يزدجرد

وتاريخ العرب من أول السنة التى هاجر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ، وكان أولها يوم الخميس

وتاريخ الفرس من أول السنة التى ملك فيها يزدجرد بن شهريار بن كسرى ابن أبرويز ، وكان أولها يوم الثلاثاء

وتاريخ الروم والسريانيين من أول السنة من ملك الإسكندر ، وكان أولها يوم الاثنين ، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك

ذكر شهور السريانيين

ووصف موافقتها لشهور العرب

وعدة أيام السنة ومعرفة الأنواء

فأول ذلك أن أيام السنة ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم ، وهى مختلفة فى العدد : فنيسان ثلاثون يوما ، وأيار أحد وثلاثون يوما ، وحزيران ثلاثون يوما ولثمان عشرة ليلة منه رجوع الشمس هابطة من السماء على ما أوجبه حساب الهند ، وهو أطول يوم فى السنة وأقصر ليلة ، وتموز أحد وثلاثون يوما ، وآب أحد وثلاثون يوما ، فاذا انسلخ ذهب الحر ، قال محمد بن عبد الملك الزيات :—

بَرَدَ الماء وطال الـ ـليل والتَذَّ الشَّرابُ
ومضى عنك حَزِيرَا ـنُ وتَمُّوزٌ وآب

وأيلول ثلاثون يوما ، ولخمس منه عيد زكريا ، ولعشر منه تطلع الصرفة فينصرف الحر ، ولثلاث عشرة منه عيد الصليب ، وهو اليوم الرابع عشر منه ، وفى هذا اليوم تفتح الترع بمصر على حسب ماذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب ، ولتمام عشرين منه يستوى الليل والنهار ، وقال أبو نواس : -

مَضَى أيلول وارتفع الحرور وأذْكَتْ نارها الشِّعْرَى العُبُورُ

وتشرين الأول أحد وثلاثون يوما ، وفيه يكون المهرجان ، وبين النيروز والمهرجان مائة وتسعة وستون يوما ، وعند الفرس فى معنى المهرجان أنه كان لهم ملك فى قديم الزمان من ملوك الفرس قد خص ظلمه خواصّ الناس وعوامهم ، وكان يسمى مهر ، وكانت الشهور تسمى بأسماء الملوك ، فقيل مهرماه ، ومعنى ماه هو الشهر ، وأن ذلك الملك طال أمره واشتدت وطأته فمات فى النصف من هذا الشهر ، وهو مهرماه ، فسمى ذلك اليوم الذى مات فيه « مهرجان » وتفسيره نفس مهر ذهبت ، لأن الفرس تقدم فى لغتها ما تؤخر العرب فى كلامها ، وهذه اللغة الفهلوية ، وهى الفارسية الأولى ، وأهل المروآت بالعراق وغيرها من مدن العجم يجعلون هذا اليوم أول يوم من الشتاء ، فتغير فيه الفرش والآلات وكثيرا من الملابس ، ولخمس منه - وهو تشرين الأول - عيد كنيسة القمامة ببيت المقدس ، وفى هذا اليوم تجتمع النصارى من سائر الأرض ، وتنزل عليهم نار من السماء ، فيسرج هناك الشمع ، ويجتمع فيه من المسلمين خلق عظيم للنظر إلى العيد ، ويقتلع فيه ورق الزيتون ، ويكون للنصارى فيه أقاصيص ، ولهذه النار حيلة لطيفة وسر عظيم ، وقد ذكرنا وجه الحيلة فى ذلك فى كتابنا المترجم بـ « كتاب القضايا والتجارب » وتشرين الثانى ثلاثون يوما ، وكانون الأول أحد وثلاثون يوما ، ولسبع عشرة منه يكون النهار تسع ساعات وربعا ، وهو منتهى قصره ، والليل أربع عشرة ساعة ونصفا وربعا ، وهو منتهى طوله ، وليلة الخامس والعشرين منه ميلاد المسيح عليه السلام ، وكانون الثانى أحد وثلاثون يوما ، وأول يوم منه

زمن المهرجان ومعناه

الغطاس ؛ فيكون فيه بالشام لأهله عيد يوقدون فى ليلته النيران ، ويظهرون الأفراح ، لاسيما بمدينة أنطاكية ، وما يكون فى كنيسة القسيان بها من القداس عندهم ، وكذلك لسائر الشام وبيت المقدس ولمصر وأرض النصرانية كلها ، وما يظهر أهل دين النصرانية بأنطاكية من الفرح والسرور وإيقاد النيران والمآكل والمشارب وتساعدهم على ذلك عوام الناس وكثير من خواصهم ، وذلك أن مدينة أنطاكية بها كرسى البطرك المعظم عندها فى ديانتها ، وأن النصرانية تسمى أنطاكية مدينة الله ، ويسمونها أيضا مدينة الملك ، وأم المدن ؛ لأن بدو ظهور النصرانية كان فيها .

ليلة الغطاس بمصر والشام

والبطارقة عند النصرانية أربعة : أولهم صاحب مدينة رومية ، ثم الثانى وهو صاحب مدينة قسطنطينية ، وهى أقسس ، واسمها القديم بوزنطيا ، ثم الثالث وهو صاحب الاسكندرية من أرض مصر ، ثم الرابع وهو صاحب أنطاكية ورومية ، وأنطاكية لبيطرس ، فبدؤا برومية لأنها لبيطرس ، ثم ختموا بأنطاكية لأنها له ، وتعظيما ، وقد أحدثوا كرسيا ببيت المقدس ، ولم يكن هذا مقدما ، وإنما هو محدث ، وكان لإيليا وهو بيت المقدس أسقف

بطارقة النصرانية

وبأنطاكية أيضا كنيسة أخرى تدعى استوست ، وبها عيد عظيم للنصرانية وكذلك كنيسة مزور ، وهى كنيسة مَزُورة ، وبنيانها من إحدى عجائب العالم فى التشييد والرفعة ، وكان الوليد بن عبد الملك بن مروان اقتلع من هذه الكنيسة عمدا عجيبة من المرمر والرخام لمسجد دمشق ، وبقى الأكثر من هذه الكنيسة إلى هذا الوقت

كنائس أنطاكية

وقد كان لملك من ملوك الروم بأنطاكية خبر عجيب فى كنيسة استوست وكانت خارج السور من أنطاكية ، وهى فى أيدى اليهود ، فعوضت اليهود دار الملك بأنطاكية بدلا من كنيسة استوست ، وهذه الدار التى كانت دار الملك بأنطاكية تعرف بدار اليهود ، ولليهود حيلة احتالوها حين خرجت الكنيسة من

أيديهم حتى قتلوا من النصرانية خلقا عظيما من نشر خشب فيها وغير ذلك ، وقدمنا أخبار بطرس و بولص وما كان من أمرهما بمدينة رومية وغيرهما من تلاميذ المسيح وتفرقهم فى البلاد ، وذكرنا قصة الملك الذى بنى مدينة أنطاكية ، وهو المعروف بافطنحس ، وتفسير ذلك محوط الحوائط ، وكان اسم أنطاكية بالرومية على اسمه افطنحس ، فلما ورد المسلمون وافتتحوها حذفت الأحرف إلا الألف والنون والطاء

وفى تاريخ النصارى الملكية وغيرها من أهل دين النصرانية يكون لمولد المسيح إلى وقتنا هذا ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ـ تسعمائة سنة وأربعون سنة ، وتكون سنو الاسكندر ألفا ومائتين وخمسا وثمانين ، ويكون من الاسكندر إلى المسيح ثلثمائة سنة وتسع وستون

هذا ماوجد فى تاريخ الملكية فى كنيسة القسيان بمدينة أنطاكية ، وسنذكر بعد فى هذا الكتاب جملا من التاريخ فى باب نفرده لذلك إن شاء الله تعالى

فلنرجع الآن إلى وصف حساب الشهور : شباط ثمانية وعشرون يوما وربع ثلاث سنين متوالية ، والرابعة كبيسة فيكون تسعا وعشرين يوما ، وتكون السنة ثلثمائة وستة وستين يوما ، ولسبعة منه تسقط الجمرة الأولى ، وهى الجبهة ، ولأربع عشرة منه تسقط الجمرة الثانية ، وهى الصرفة ، وينصرف البرد ، وثلاثة أيام من آخره أيام العجوز ؛ وأذار أحد وثلاثون يوما ، ولأربعة من أوله تتم أيام العجوز ، والعرب تسمى هذه السبعة الأيام : صِنًّا ، وصِنَّبْرًا ، ووَبْرًا ، وآمرا ، ومؤتمرا ، ومعللا ، ومطفىء الجمر ، قال بعض العرب فى أسماء أيام العجوز :

زمن أيام العجوز وأسماؤها

كسع الشتاء بسبعة غُبُرْ ... صِنٌّ وصِنَّبْرٌ وبالوَبْرِ
فاذا انقضت أيام شتوتنا ... أيام صادرة عن القر
كسع الشتاء مُوَلِّيًا هربا ... وأتتك واقدة من الحر

ولخمس عشرة من أذار يستوى الليل والنهار ، وتحل الشمس الحَمَل ، وهذا اليوم تحويل سنة العالم ، قال أبو فراس : —

أما ترى الشمس حلّتِ الحملا وطاب وَزْنُ الزمان واعتدلا
وغنت الطير بعد عجمتها واستوفت الخمر حولها كَمَلاَ
واكتست الأرض من زخارفها وَشْيَ ثيابٍ تَخَالُهَا حُلَلاَ
فاشرب على جدَّةِ الزمان فقد أصبح وجه الزمان معتدلا

وليس بحلول الشمس الحمل تستوفى الخمر سنة ، وإنما أراد بحلولها قربها من الحول والقوة

قال المسعودى : وأما شهور الروم فهى موافقة لشهور السريانيين فى العدد ، وذلك أن أول شهور الروم يواريوس ، وهو كانون الثانى ، وقد قدمنا أن فى أول يوم منه يكون الغطاس ، وشباط فبراريوس ، وآذار مارتيوس ، ونيسان إبريليس ، وأيارمايوس ، وحزيران يونيوس ، وتموز يوليوس ، وآب أغسطوس ، وأيلول سبطمبر ، وتشرين الأول أقطوبر ، وتشرين الثانى نوَمبر ، وكانون الأول دشمبر

ذكر شهور الفرس

كلها ثلاثون يوما ، فأولها فرودرى ؛ وأول يوم منه النيروز ، وبينه وبين المهرجان مائة وأربعة وسبعون يوما[1] ، والثانى اردبهشت ماه ، وخردادماه ، ونيرماه نيروز عيد المهاجرين ، ومردادماه ، وشهريورماه ، ويوم الرابع والعشرين منه المهرجان ، ومهرماه ، وأيان ماه ، وآدرماه عيد الأنصار ، وهذه خمسة أيام الفرد ، وحان ودى ماه ، وأول يوم منه يخرج الكوسج فيه راكبا بغاله بالعراق وأرض فارس ، ولا يعرف ماوصفنا إلا بالعراق ، وأرض العجم وأرض الشأم والجزيرة ومصر واليمن لايعرفون ذلك ، ويطعم مدة من الأيام الجوز والثوم واللحم السمين

(١) سبق (ص ١٠٣) أن بينهما تسعة وستين يوما ومائة يوم .

وما عدا ذلك من الأطعمة الحارة والأشربة المسخنة الدافعة للبرد ، فيظهر طاردا للبرد ، فيصب عليه الماء البارد ، فلا يجد لذلك شيئا من ألمه ، ويصيح بالفارسية كرما كرما ، وهذا وقت عيد الأعاجم يطربون فيه ويظهرون السرور ، وكذلك فى أوقات كثيرة من فصول السنة ، وأدورون ، والأردحش ، ودرماه ، ودسمهر ، وردمنا ، وآذروبهمن ماه ، واسفندار مدرون الاسوف ، واسفندار موزماه ، فذلك ثلثمائة وخمسة وستون يوما والله أعلم

ذكر أيام الفرس

وهى هرمزوبهمان وأدربهشت وشهرين واسفندار موزخرداد ومرداد ودينا ودين وادواران وحردمله ونبر ونبرس ودى ومهر وانرويس وأفرون وبهران ، وفيه يقول الشاعر : —

باكر بنا لذة المدام فى يوم سبت ويوم رام
شريطتى فيه أن ترانى وقت الضحى فاتر الكلام

وبادور ونبرين وارد وسال واسار وحامار ومار وسعيد ونيران ؛ فأما أيامهم المعروفة بالفردجان فهى وهيدكاه وست كاه هوكاه مسروكاه كاساه

وكانت العرب تسمى الأيام الخمسة : الهرير ، والهبير ، وقالب الفهر ، وحافل الضرع ، ومدحرج البعر

وكانت الفرس تكبس فى كل مائة وعشرين شهرا الربع اليوم الفاضل فى الشهور الرومية ، وتسمية الهارك ، فاذا كانت سنة كبيسة أخروا ذلك إلى مائة وعشرين سنة ، لأن أيامهم كانت سعودا ونحوسا ، فكرهوا أن يكبسوا فى كل أربع سنين يوما فتنتقل بذلك أيام السعود إلى أيام النحوس ، ولا يكون النيروز أول يوم من الشهر ، والله تعالى أعلم

ذكر سنى العرب وشهورها

وتسمية أيامها ولياليها

أشهر الأهلة أولها المحرم ، وأيامها ثلثمائة وأربعة وخمسون يوماً تنقص عن السريانى أحد عشر يوما وربع يوم ، فتفرق فى كل ثلاث وثلاثين سنة ، فتنسلخ تلك السنة العربية ، ولا يكون فيها نيروز ، وقد كانت العرب فى الجاهلية تكبس فى كل ثلاث سنين شهرا وتسميه النسىء ، وقد ذم الله تبارك وتعالى فعلهم بقوله : (إنما النسىء زيادة فى الكفر) ورسمت العرب الشهور فبدأت بالمحرم ؛ لأنه أول السنة ، وإنما سمته المحرم لتحريمها الحرب والغارات فيه ، وصفر بالأسواق التى كانت باليمن تسمى الصفرية ، وكانوا يمتارون فيها ، ومن تخلف عنها هلك جوعا ، وقال نابغة ذبيان : —

إنى نهيت بنى ذبيان عن أفق وعن ترفهم فى كل أصفار

وقيل : إنما سمى الصفر لأن المدن كانت تخلو فيه من أهلها بخروجهم إلى الحرب ، وهو مأخوذ من قولهم : صَفِرَت الدار منهم ، إذا خلت ، وربيع وربيع ، لارتباع الناس والدواب فيهما ؛ فان قيل : قد توجد الدواب ترتبع فى غير هذا الوقت ، قيل : قد يمكن أن يكون هذا الاسم لزمها فى ذلك الوقت فاستمر تعريفها بذلك مع انتقال الزمان واختلافه ، وجمادى وجمادى ؛ لجمود الماء فيهما فى الزمان الذى سميت به هذه الشهور ؛ لأنهم لم يعلموا أن الحر والبرد يدوران فتنتقل أوقات ذلك ، ورجب ؛ لخوفهم إياه ، يقال : رجبت الشىء ، إذا خفته ، وأنشد : —

* فلا تهبها ولا ترجبها *

وشعبان ، لتشعبهم إلى مياههم وطلب الغارات ، ورمضان لشدة حر الرمضاء فيه ذلك الوقت ، والوجه الآخر أنه اسم من أسماء الله تعالى ذكره ، ولا يجوز أن يقال رمضان ، وإنما يقال شهر رمضان ، وشوال ، لأن الابل كانت تشول فيه

ذلك الوقت بأذنابها ، تشاءمت به العرب ، ولذلك كرهت التزويج فيه ، وذو القعدة ، لقعودهم فيه عن الحرب والغارات ، وذو الحجة ، لان الحج فيه

والأشهر الحرم : المحرم ، ورجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة

وأشهر الحج : شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذى الحجة ، والأيام المعلومات العشر ، والأيام المعدودات أيام التشريق ، والتعجيل باتفاق غير جائز إلا فى اليوم الثالث من يوم النحر ، يدل ذلك على أن أولها ثانى يوم النحر ، ولو كان يوم النحر من المعدودات كان يوم التعجيل فى ثلاثة أيام ، وهذا خلاف القرآن لاخبار الله تعالى أن التعجيل فى يومين من المعدودات ، وإذا كانت المعدودات ما وصفنا صح أن المعلومات منها ، والذبح فى يوم النحر ذبح فى المعلومات لكونه منها ، ولا تمانع بين العرب أن يقول القائل « آتيك فى الشهر » ، والاتيان إنما كان فى بعضه ، و « جئتك فى اليوم » والمجىء فى بعض أوقاته ، ولا يصام يوم النحر ، ولا يوم الفطر ، ولا أيام منى ، لفرض ولا لتطوع ؛ لنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، ولم يخص فرضا من تطوع بالنهى ، فالواجب الامتناع على ما وصفنا

وقد ذكر عن عقبة بن عامر أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن صيام ثلاثة أيام التشريق ؛ وفى جميع ماذكرنا من المعلومات والمعدودات والصيام فى أيام التشريق خلاف بين الناس ، وأيام التشريق أولها ثانى النحر وآخرها اليوم الثالث عشر من ذى الحجة

تسمية أيام التشريق

قال المسعودى : وقد اختلف الناس فى علة أيام التشريق ، وهى أيام منى ولياليها ، فقالت طائفة : إنما سميت أيام التشريق لأنهم كانوا يذبحون الذبائح ويشرقون اللحم فى الشمس ، وقال آخرون : إنما سميت أيام التشريق لأن أهل مكة وغيرهم يتشرقون منصرفين إلى أوطانهم ، وفيه قول آخر ، وهو أنها إنما سميت أيام التشريق لأنهم كانوا يخرجون من منى وغيرها كالمزدلفة إلى مصليات لهم فى فضاء من الأرض فيسمونها المشارق ، واحدها مشراق ، يسبحون ويدعون

فسميت بذلك أيام التشريق ، وفيه قول آخر ، وهو أن طائفة زعمت أنه مأخوذ من ذبح البهائم ،وهو التشريق ، وقالوا : إن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن الضحية بالمشرقة ، يعنى المشقوقة الأذنين بالطول ، فهى أيام التشريق ، وللناس فى التشريق من أهل الآراء والنحل كلام كثير لا يحتمله كتابنا هذا ، وإنما ذكرنا ما أوردناه لتغلغل الكلام بنا إليه واتصاله بما قدمناه ، وإن كان كلاما يلحقه بالفقه

الأيام النحسات

والأيام النحسات : كل أربعاء يوافق أربعا من الشهر ، مثل أربع خلون ، وأربع وعشرين ، وأربع بقين

أسماء الأيام

وأما أسماء الأيام فأولها الأحد ، وإنما سمى بذلك لأنه أول يوم خلقه الله من الزمان ، وبذلك نطقت التوراة ، وقد قدمنا فى صدر هذا الكتاب ما فى الأيام من بدء الخلق ، والاثنين ، وسمى لأنه ثان ، والثلاثاء ، وسمى لأنه ثالث ، والأربعاء لأنه رابع ، والخميس لأنه خامس ، والجمعة لأن الخلق اجتمعوا فيه ، والسبت لأن الخلق انقطع فيه ولم يخلق ، وهو مأخوذ من قولهم : نعل سِبْتِية ، إذا كانت مقطوعة الشعر ، ويقال : سبت شعره ، إذا قطعه ، وكانت العرب

أسماء الايام عند العرب قديما

تسميها فى الجاهلية : الأحد أول ، والاثنين أهون ، والثلاثاء جبار ، والأربعاء دبار ، والخميس مؤنس ، والجمعة عروبة ، والسبت شيار ، قال شاعرهم : —

أؤمل أن أعيش وأنّ يَوْمى ... بأول أو بأهون أو جبار
أو المردى دبار فان أفته ... فمؤنس أو عروبة أو شيار

أسماء الشهور عندهم

وكانوا يسمون الشهور : المحرم ناتق ، وصفر ثقيل ، ثم طليق ، ناجر ، سماح ، امنح ، احلك ، كسع ، زاهر ، برط ، حرف ، نعس ، وهو ذو الحجة

الأزمنة الأربعة

وقد اختلفت العرب فى أسماء الأزمنة : فزعمت طائفة منها أن أولها الوَسْمِى ، وهو الخريف ، ثم الشتاء ، ثم الصيف ، ثم القَيْظ ، ومنهم من يعد الأول من فصول السنة الربيع ، وهو الأشهر والأعم ، والعرب تقول : خرفنا فى بلد كذا ، وشتونا فى بلد كذا ، وتربعنا فى بلد كذا ، وصيفنا فى بلد كذا

وشهور العرب ليست مرتبة على فصول السنة ، بل المحرم وغيره من الشهور العربية قد يقع تارة فى الربيع وتارة فى غيره من فصول السنة

وشهور الروم مرسومة على مايوافق فصول السنة التى تقطع فيها الشمس بروج الفلك عن آخرها ، ومقادير أيام كل شهر منها ولياليه فى الطول والقصر وظهور مايظهر فيه من النجوم الثابتة للأبصار واستتارمايستتر منها على ممر الدهور والسنين وهى اثنا عشر شهرا على حسب ماذكرنا أن أولها تشرين إلى أيلول ؛ فلكل فصل من السنة أربعة شهور معلومة [1] من هذه الاثنى عشر شهرا غير حائله ولا منتقلة انتقال الشهور العربية ، ولكل برج منها شهر : فأيلول وتشرين وتشرين لسلطان السوداء ، وكانون وكانون وشباط لسلطان البلغم ، وآذار ونيسان وأيار لسلطان الدم ، وحزيران وتموز وآب لسلطان الصفراء ، فأيلول لبرج السنبلة ، وتشرين الأول لبرج الميزان ، وتشرين الآخر لبرج العقرب ، وكانون الأول برجه القوس ، وكانون الآخر برجه الجدى ، وشباط برجه الدلو ، وأذار برجه الحوت ، ونيسان برجه الحمل ، وأيار برجه الثور ، وحزيران برجه الجوزاء ، وتموز برجه السرطان ، وآب برجه الأسد

قال المسعودى : وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب جملا من الكلام فى الطبائع وفصول السنة ، وما يلائم ذلك من المآكل والمشارب وغير ذلك مما لحق بهذا الباب ، إن شاء الله تعالى ، والله ولى التوفيق .

---

(١) كذا ، ولعله « ثلاثة شهور »

ذكر قول العرب فى ليالى الشهور القمرية وغيرها

كانت العرب تخبر عن القمر فى كل ليلة على حسب ما هو به من الضياء وغيره على طريق المسئلة والجواب ، فتقول : قيل للقمر : ما أنت ابن ليلة ؟ قال : رضاع سخيلة ، حل أهلها برميلة ، قيل : فما أنت لليلتين ؟ قال : حديث مشيق ، ذو أفل ونيق ، قيل : فما أنت لثلاث ؟ قال : حديث فتيات ، يجتمعن من شتات ، وقيل : قليل الثبات ، قيل : فما أنت لأربع ؟ قال : غنمة رتع ، غير جائع ولا مرضع ، قيل : ما أنت لخمس ؟ قال : حديث وأنس ، قيل : فما أنت لست ؟ قال : سرو بت ، قيل : فما أنت لسبع ؟ قال : نصف فى السبع ، وقيل : حلجة للضبع ، قيل : فما أنت لثمان ؟ قال : قمر أصبحان ، وقيل : رغيف اقتسمه أخوان ، قيل : فما أنت لتسع ؟ قال : يلتقط الجرع ، قيل : فما أنت لعشر ؟ قال : محب الفجر ، قيل : فما أنت لإحدى عشرة ؟ قال : أُرَى مساء وأُرَى بكرة ، قيل : فما أنت لاثنى عشر ؟ قال : موفق للسير فى البدو والحضر ، قيل : فما أنت لثلاث عشرة ؟ قال : قمر باهر ، يعشى عين الناظر ، قيل : فما أنت لأربع عشرة ؟ قال : مقتبل الشباب ، أضاء بين السحاب ، قيل : فما أنت لخمس عشرة ؟ قال : تم التمام ، ونقدت الأيام ، قيل : فما أنت لست عشرة ؟ قال ناقص الخلق ، فى الغرب والشرق ، قيل : فما أنت لسبع عشرة ؟ قال : يكن الفقير للفقير ، قيل : فما أنت لثمان عشرة ؟ قال : قليل البقاء ، سريع الفناء ، قيل : فما أنت لتسع عشرة ؟ قال : بطىء الطلوع ، من الخشوع ، قيل : فما أنت لعشرين ؟ قال : أطلع سحرة ، وأرى بكرة ، قيل : فما أنت لإحدى وعشرين ؟ قال : لا أطيل السرى ، إلا ريثما أرى ، قيل : فما أنت لاثنتين وعشرين ؟ قال : منع خطب ، وليث حرب ، قيل : فما أنت لثلاث وعشرين ؟ قال : كالقبس ، أطلع فى الغلس ، قيل : فما أنت لأربع وعشرين ؟ قال : أطلع فى قسمة ، ولا أجلى ظلمه ، قيل : فما أنت لخمس

وعشرين ؟ قال : أنا فى تلك الليال ، لا قمر ولا هلال ، قيل : فما أنت لست وعشرين ؟ قال : دنا الأجل ، وانقطع الأمل ، قيل : فما أنت لسبع وعشرين ؟ قال : دنا ما دنا ، فليس فى من سنا ، قيل : فما أنت لثمان وعشرين ؟ قال : أطلع بكرا ، ولا أرى ظهرا ، قيل : فما أنت لتسع وعشرين ؟ قال : أسبق شعاع الشمس ، ولا أطيل الجلس ، قيل : فما أنت لثلاثين ؟ قال : مستقبل سريع الأفل

تقسيم الليالى ثلاثا ثلاثا واسم كل ثلاث

وكانت العرب تسمى الثلاثة الأولى من ليالى الشهر ؛ فتقول : ثلاث غرر ، والثلاث التى تليها ثلاث سمر ، والثلاث التى تليها ثلاث زهر ، والثلاث التى تليها ثلاث درر ، والثلاث التى تليها قمر ، وثلاث بيض ، وتقول فى النصف الثانى من الشهر فى الثلاث الأول درع ، وفى الثلاث التى تليها ظلم ، وفى الثلاث التى تليها ثلاث حناديس ، وفى الثلاث التى تليها ثلاث دوارى ، وفى الثلاث التى تليها ثلاث محاق ، وقيل فى وجه آخر من الروايات : إنه يقال لليالى الشهر ثلاث هلل ، وثلاث قمر ، وست نقل ، وثلاث درع ، وثلاث بهم ، وست حناديس ، وليلتان داريتان ، وليلة محاق

أسماء الهلال والليالى

قال المسعودى : فأما ما ذهب إليه العرب فى تسمية القمر فانها تسميه فى ليلة طلوعه هلالا ، ومالم يستدر فهو هلال ، ثم تسميه قمرا إذا ما استدار ، وإذا ما حجر وأضاء فهو قمير ، قال شاعرهم :

وقمير بدا ابن خمس وعشري * ن له قالت الفتاتان قوما

ثم يستوى لثلاث عشرة منه ، وهى ليلة السواء ، ثم ليلة البدر لأربع عشرة ، ويقال : غلامٌ بدر ، إذا امتلأ شبابا قبل أن يحتلم ، ويقال : عين حذرة قمرة ، إذا كانت حديدة كعين الفرس ، والليالى البيض ليلة ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة ، والليالى الدرع هى التى تسود صدورها وتبيض سائرها ، والمحاق إذا ما طلعت عليه الشمس ، والسواد حين يستتر فيكون قد خلف الشمس ،

ويقال : قد حجر القمر ، إذا استدار بخطر قيق من غير أن يغلظ ، ويقال : أفتق ، إذا أصابته فرجة من السحاب فخرج ، وأفتق علينا فأبصرنا الطريق ، وكل سواد من الليل حندس ، والليالى الزهر الليالى البيض ، والله الموفق للصواب

ذكر القول فى تأثير النيرين فى هذا العالم

وجمل مما قيل فى ذلك

وغير ذلك مما لحق بهذا الباب

ذهب الحكماء جميعا من اليونانيين وغيرهم إلى أن أفعال القمر فى الجواهر التى قلنا عظيمة إلا أنها أقصر من أفعال الشمس ، وهى الثانية بعدها ، وذلك أن الشهور ما يكون على حسب حركته يجرى أمرها وأفعالها ترى أعظم وأبين فى حيوان البحر خاصة ، وهى تنمى النبات وغيره ، وتعظم البحار ، وتسمن الحيوان ، وتلزم النساء الطمث أزمانا محدودة .

تصور الجنين فى الرحم

قال المسعودى رحمه الله : وقد تنازع الناس فى كيفية تصور الجنين فى الرحم : فذهب قوم من أهل القدم إلى أن فى المنى قوة تصور الجنين إما منه وإما من دم الطمث .

وذهب قوم إلى أن فى الرحم قالبا يتصور فيه الجنين ، وقد ذكر جالينوس فى كتابه عن بقراط أن مقام المنى مقام الفاعل والمفعول فى تصور الجنين

وقال صاحب المنطق : إن ذلك بمنزلة الفاعل ، وإن الجنين يتصور فى دم الطمث من المنى ، قال : والمنى يعطى الدم مثل الحركة ثم يستحيل ريحا فيخرج من الرحم ، وزعم جالينوس أن الجنين يكون فى المنى ، وقد يحدث إليه الدم الذى هو الروح من العروق والشريانات ؛ فيكون من المنى ومن ذلك الدم الذى يجذبه ومن الريح الذى يصير إليه من الشريانات ، قال : وكون الجنين بمنزلة كون النبات والطبيعة تصوره من المنى والدم ، وتفعل الطبيعة فى الجنين ما تفعله فى النبات ،

لأن بزر النبات يحتاج إلى أرض لينال منها مايغتذى به ، فالجنين والرحم والنبات يرسل عروقه من الأصول ليجذب بها من الأرض غذاءه ، وللجنين فى المشيمة شريانات ، والعروق نظير لذلك ، وهى أصول الجنين ، و بزر النبات منه سوق، ومن السوق أغصان كبار ، ثم من هذه الأغصان أغصان أخرى تتفرع أولا حتى تنتهى إلى الأقاصى ، ونظير ذلك يوجد فى الجنين ، فتجد العرق فى بدئه ثلاثة من كل واحد من الأغصان الأصول ، وهى الشريان الأعظم والعرق الأجوف والنخاع ، ثم تجد كل واحد من هذه يتشعب منه شعب كالأغصان المنقسمة إلى أغصان أخر حتى ينتهى إلى الأطراف ، ثم قال بعد ذلك : إن المنى هو المحرك لنفسه ، و إن الجنين يكون من الرجل والمرأة ودم الطمث

وحكى جالينوس عن أبيه بليس أن أجزاء الولد منقسمة فى منى الذكر والأنثى، وأن شهوة الجماع تسبق هذه الأجزاء إلى أن لا ينام ، وهذا موجود فى كتبهم فيما ذكروه من مذاهبهم فى كيفية تركيب العالم واتصال النفس بعالمها وغير ذلك

وقد ذهب قوم من أهل القدم إلى أن ذلك هو أجزاء تخرج من أعضاء الإنسان اللطيفة من جنس سائر أعضاء الانسان ، فتنصب فى الرحم ، فيتغذى منه وينمو ، فيكون من ذلك الجنين

يشبه الولد أباه وأهل بيت أبيه

ومنهم من رأى أن هذه الأجزاء الواردة من سائر أعضاء الذكر تقاربها مواد من الرحم ومن ماء المرأة عند اجتماعها فيكون الجنين من ذلك ، فمن ذلك صار الولد يشبه أباه فى الأغلب من سائر الأعضاء وتشكيله وأهل بيت أبيه ، ولهذا وقع الشبه بين البنين والآباء فى الأغلب من تشابه الأعضاء ، ومن ههنا أدركت القافة إلحاق النسب عند الشبه والشك فى النسب ، وذلك على قول من رأى إلحاق النسب بالقيافة من القافة ، وقد تقدم الكلام فى هذا المعنى فيما سلف من هذا الكتاب فى باب القيافة

وللناس فى كيفية تصور الجنين فى الرحم وما بدؤه وما عنصره وكيفية تقلبه

من النطفة إلى العلقة ومن العلقة إلى المضغة إلى استكمال شكله كلام كثير : منهم أصحاب الانبيق وغيرهم ممن تقدم وتأخر ، أعرضنا عن ذكر ذلك إذ كان فيه خروج عما إليه قصدنا فى هذا الباب

قال المسعودى رحمه الله : والذى يقضى على سائر ماتقدم وصفه وينقطع علم العقول عنده هو ماأخبر به البارى عز وجل فى كتابه بقوله : (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لاإله إلا هو العزيز الحكيم) ولم يخبر عن كيفية ذلك وماسبب مواده ، بل استأثر بتلك الدلالة وظهور حكمته ، ثم أخبر عن المبدأ الذى خلقهم منه فقال : (ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) وقال عز وجل : (ياأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر — الآية)

الاختلاف فى تأثير النيرين

قال المسعودى : وللناس فيما سلف من الأوائل وخلف من الشرعيين كلام كثير فى كيفية أفعال النيرين وتأثيرهما فى هذا العالم ، وما قالوه فى ذلك ، وماخصوا به كل واحد منهما وأفردوه ، وما ذهبوا إليه من فعل الثانى منهما وهو القمر ، ومايظهر من تأثيره فى الجزر والمد فى بحر الصين والحبش واليمن على حسب ماقدمنا فى هذا الكتاب ، وكذلك فعله فى المعادن وأدمغة الحيوان والبيض وسائر الحيوان والنبات ، وما يظهر من الزيادات فيه عند امتلائه والنقص عند نقصانه ، وما يكون من بحرانات المرضى فى اليوم السابع من العلة والرابع عشر والحادى والعشرين والثامن والعشرين ؛ لأن للقمر أربعة أشكال هى أثبت صورة ، فيه شكل التنصيف ، وشكل التمام ، وشكل التنصيف عند التمام ، وشكل المحاق ؛ ولكل شكل من هذه سبعة أيام ، لأنه فى سبع ليال يتنصف ، وفى الرابعة عشرة يتم ، وفى الحادية والعشرين يتنصف ، وفى الثامنة والعشرين ينمحق ، فكذلك

البحرانات ، وعند هذه الطائفة يصح فى السابع والرابع عشر والحادى والعشرين ، ويصح أيضا فى تنصيفات هـذه ؛ إذ كانت هذه الأشكال أثبت أشكال الشىء المنقسم ، وقد خالف هؤلاء خلق ممن ذهب إلى غير هـذا القول ، وأن ذلك من قبل الأخلاط وغير ذلك والطبائع الأربعة وغيرها مما قد أتينا على إيضاحه فى كتابنا المترجم بكتاب « الزلف » وفى كتاب «المبادى والتراكيب» وغير ذلك فى كيفية تأثير الشمس والقمر .

وأما الدلائل وأن السماء تدل على مثال الكرة وتدويرها بجميع ما فيها من الكواكب كدورة الكرة ، وأن الأرض بجميع أجزائها من البر والبحر على مثال الكرة ، وأن كرة الأرض مثبتة فى وسط السماء كالكرة ، وقدرها عند قدر السماء قدر النقطة فى الدائرة صغرا ، ووصف الربع المسكون من الأرض ، وما يعرض فيها من دور الفلك واختلاف الليل والنهار ، ووصف المواضع التى تطلع الشمس فيها شهورا لا تغرب وتغرب شهورا لا تطلع ؛ فقد أتينا على وصف جميع ذلك وما اتضح عليه وما انتصب من البراهين وما قاله الناس فى ذلك فى كتابنا المترجم بكتاب «أخبار الزمان » ، وما أوضحنا فيه من هيئة الأفلاك والكواكب ، وأن الأرض مع ما وصفنا فى تدويرها موضوعة فى جوف الفلك كالمحة فى البيضة ، والنسيم جاذب أيضا لما فى أبدان الخلق من الخفة ، والأرض جاذبة لما فى أبدانهم من الثقل ؛ إذ كانت الأرض بمنزلة حجر المغناطيس الذى يجذب بطبعه الحديد ، وأن الأرض مقسومة نصفين ، وبينهما خط الاستواء ، وهو من المشرق إلى المغرب كما أن منطقة الأرض أكبر من الفلك ، وعرض الأرض من القطب الجنوبى الذى تدور حوله بنات نعش ، وأن استدارة الأرض من خط الاستواء ست وثلاثون درجة ، والدرجة خمسة وعشرون فرسخا ، والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع ، والذراع اثنان وأربعون أصبعا ، والأصبع ست حبات وتسعان مصفوفة بعضها إلى بعض ، يكون ذلك تسعة آلاف فرسخ .

وقد قدمنا فيما سلف من هـذا الكتاب فى باب ذكر الأرض والبحار ومبادى الأنهار مقدار الميل والذراع الأسود ، وإنما نذكر فى كل موضع من هذا الكتاب ما سنح لنا ونجده فى كتب الناس فننقل ذلك عنهم على ما وجدناه فى كتبهم ، إلا أنا لا نقطع على صحته ، إذ كان ما يذهب إليه فى مقدار الميل من الأذرع والذراع من الأصابع هو ما بيناه آنفا فى باب ذكر الأرض والبحار ، و بين الاستواء وكل واحد من قطبين تسعون درجة ، واستدارتها عرضا مثـل ذلك ، وزعم هؤلاء أن العمارة فى الأرض بعـد خط الاستواء أربع وعشرون درجة ، وأن الباقى قد عمه البحر الكبير ؛ وأن الخلق على الشمال من الأرض ، والربع الجنوبى خراب لشدة الحر فيه ، والنصف الباقى من الأرض لا ساكن فيه ، وكل ربع من الشمال والجنوب سبعة أقاليم قد ذكرناها فيما سلف من هـذا الكتاب عند ذكرنا الأرض والأقاليم السبعة ، وأن عدد المدن عند صاحب كتاب الجغرافيا أربعة آلاف مدينة ومائتا مدينة ؛ فأما قبلة المشرق والمغرب والتيمن والجنوبى فقد ذكرنا جملا من ذلك فى كتابنا « أخبار الزمان »

وقد حرر ذلك فى كتابه أبو حنيفة الدينورى ، وقد سلب ذلك ابن قتيبة ونقله إلى كتبه نقلا ، وجعله عن نفسـه ، وقد فعل ذلك فى كثير من كتب أبى حنيفة الدينورى ، هذا ، وكان أبو حنيفة هذا ذا محل من العلم كبير ، و بطليموس فى كتاب المجسطى ، وغيره ممن تقدم ، ثم لمن طرأ بعد ظهور الإسلام مثل الكندى وابن المنجم ، وأحمد بن الطبيب ، وماشاء الله ، وأبى معشر ، والخوارزمى ، ومحمد ابن كثير الفرغانى ، فيما ذكره فى كتابه فى الأصول الثلاثين ، وثابت بن قرة ، والسديدى ، ومحمـد بن جابر البنانى ، وغير هؤلاء ممن قد عنى بعلوم الهيئة علوم كثيرة فى هذا المعنى ، وإنما ننقل من ذلك إلى هـذا الكتاب لُمَعًا طلبا للاختصار والإيجاز .

ذكر ارباع العالم والطبائع

وما خص به كل جزء منه من الشرق والغرب والتيمن والجنوبى

والأهوية وغير ذلك من سلطان الكواكب ، ومالحق بهذا الباب

الطبائع الاربع

فأما الطبائع الأربعة فالنار حارة يابسة ، والطبيعة الثانية باردة رطبة ، وهى الماء ، والطبيعة الثالثة الهواء ، وهو حار رطب ، والطبيعة الرابعة الأرض ، وهى باردة يابسة ، فاثنتان تَذْهَبَان الصُّعَداء ، وهما النار والهواء ، واثنتان ترسخان سفلا ، وهما الأرض والماء ، والعالم أربعة أجزاء : فالمشرق الربع الأول ، وجميع مافيه حار رطب الهواء والدم ، وهـذا الربع ريحه الجنوب ، وله من الساعات الأولى والثانية والثالثة ، وله من قوى البدن قوة الطبيعة الهاضمة ، ومن المذاقات حظه الحلاوة ، وله من الكواكب القمر والزهرة ، وله من البروج الحمل والثور والجوزاء ، وللحكماء فى هذا خطب طويل فى وصف هذه الأرباع هذه جمل منها مامضى ومايأتى ، والمغرب هو الربع الثانى ، وجميع مافيه بارد رطب الماءواللبن فى الشتاء ، ورياحه الدبور ، وله من الساعات العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة وله من المذاقات المالح وما شابه ذلك ، وله من القوى القوة الدافعة ، وله من الكواكب المشترى وعطارد ، ومن البروج الجدى والدلو والحوت ، والجزء الثالث التيمن ، وجميع مافيه حار يابس النار والمرة الصفراء فى الصيف ، وريحه الصبا ، وله من الساعات الرابعة والخامسة والسادسة من النهار ، وله من قوى البدن القوة النفسانية والحيوانية ، وله من المذاقات المرارة ، وله من الكواكب المريخ والشمس ، ومن البروج السرطان والسنبلة والميزان ، والجزء الرابع هو الجنوبى ، وجميع مافيه بارد يابس مثل الأرض ، وله من الساعات السابعة والثامنة والتاسعة ، وله من قوى البدن القوة الماسكة ، ومن المذاقات العفص ، وله من

أرباع العالم وما خص به كل ربع منها

الكواكب زحل ، وله من البروج الميزان والعقرب والقوس ، والأرض وماوصفناه فى الهيئة ؛ وتختلف فى التأثير على مقادير الخطوط ؛ فاذا بعد الخط كان التأثير بخلاف ماهو إذا قرب ؛ لموجبات متنافية متغايرة ، وأفضل المواضع فى السكنى ماتطرح الشمس ضوء شعاعها إليه ، وإلى الإقليم الرابع ينتهى عند هذه الطائفة شعاعها فى صفوه وارتفاع كدره ، ولا فرق بين شعاع الشمس يهبط مساويا إلى هذا الموضع وهو العراق

علة عدم سكنى بعض الارض

قال المسعودى : والمواضع التى لاتسكن عند هذه الطائفة عدمت السكنى لعلتين : إحداهما إفراط الحر وإحراق الشمس وكثرة تواتر شعاعها على تلك الأرضين جعلتها يابسة وأغاضت مياهها لكثرة التنشيف ، والعلة الأخرى بُعْدُ الشمس عن الإقليم ، وارتفارعها عن حوزاته ، فاكتنف تلك الأرضين البرد ، واستولى عليها القر والجهد ؛ فزاد إفراط البرد فى الجو حتى أزال حسن الاعتدال ، ورفع فضيلة النشف ؛ فلم تلبث الحرارة فى الأجسام ، ولم تظهر الرطوبة فى إنماء الحيوان هنالك ، فصارت تلك البلاد قاعا صفصفا من الحيوان والنبات ، وهذه البلدان التى تراها مفرطة الحرارة والبرودة هى تناسب ماذكرنا من هذه الديار البلاقع ، ولهذه الطائفة كلام كثير فى فناء العالم ونقصه وعوده جديدا ، وذكروا أن السلطان فى هذا الوقت السنبلة والمشترى فى التدبير ، وأن نهاية العالم فى كثرة قطع الكوكب المدبر المسافة التامة بالقوى ، فاذا استكمل وبلغ المسافة التى ذكروها فى الفلك فهنالك يقع النفاد ويكون الدثور بالعالم ، والكواكب إذا كملت مابها من كَرّ ودَوْرٍ عاد التدبير إلى الأول منها وعادت أشخاص كل عالم وصوره مع اجتماع المواد التى كانت له فى حد حركة تأثير الكوكب الذى كان التدبير إليه ، هكذا عند هؤلاء كان يجرى شأن العالم سرمدا

مدة سلطان الكواكب

وزعموا أن سلطان الحمل اثنا عشر ألف سنة ، وسلطان العقرب خمسة آلاف سنة ، وسلطان الجدى ثلاثة آلاف سنة ، وسلطان الدلو ألفا سنة ، وعند ذلك

هو انقضاء العالم ونقص مافيه ورجوعه إلى كونه

وتكلم هؤلاء فى الجن الذين كانوا فى الأرض قبل خلق آدم واستخلافه فى الأرض ، وأن المتولى لهم كوكب من الكواكب النارية

وتكلم كلا الفريقين فى أوج الشمس عند انفصالها إلى البروج الجنوبية ، وما يحدث فى العالم فى كون الشمال جنوبا والجنوب شمالا ، وتحول العامر غامرا والغامر عامرا ، على حسب ما ذكرنا فى كتابنا المترجم بكتاب « الزلف »

أجناس الاجسام

وقد ذهب هؤلاء ممن تقدم من الأوائل أن التى وجد بها سائر الموجودات كالأول والثوانى والثوالث على قدر مراتبها فى العقل والنفس والصورة والهيولى وأنها المبادى على حسب ما رتبناه وقدمناه فى كتاب « الزلف » فما عدا ماوصفنا فهى الأجسام ، وأجناسها ستة : الجسم السماوى ، والحيوانى الناطق ، والحيوانى غير الناطق ، والنبات ، والأحجار الحجرية وهى المعدنية ، والاستقطاعات الأربعة وهى النار والهواء والماء والأرض

وتكلم هؤلاء فيما يخص كل واحد مما ذكرنا مما لا يحتمله كتابنا هذا ؛ إذ كان فيه خروج عن الغرض المتمم فيه ، وقد أتينا على بسط ذلك فى كتاب « الرءوس السبعة » فى باب السياسة المدنية وعدد أجزائها وملتها الطبيعية ، وهل ملك تلك المدينة جزء من أجزائها أو من غيرها ؟ وإليه نهاية أجزائها على حسب ما ذكرناه ذكره فرقورنوس فى كتابه فى وصف منازعة أفلاطون وأرسطاطاليس فى ذلك ، فأما علة كون الشتاء بأرض الهند فى الحالة التى يكون الصيف بها عندنا والشتاء يكون الصيف عندهم [1] قد ذكرنا علة ذلك ووجه البرهان عليه ، وأن فلك الشمس فى قربها و بعدها ، وكذلك علة تكون السودان فى بعض البقاع من الأرض دون بعض ، وتعطر ألوان الصقالبة وشقرتهم وصهوبة شعورهم ، وما لحق الترك من استرخاء مفاصلهم وتعوج سيقانهم ولين

(١) الوجه فى العربية أن يقول « فقد ذكرنا »

عظامهم حتى إن أحدهم ليرمى بالنشاب من خلف كرميه من قدام فيصير وجهه قفاه وقفاه وجهه ، ومطاوعة فقارات الظهور لهم على ذلك ، وكون الحمرة فى وجوههم عند تكامل الحرارة فى الوجه على الأغلب من كونها وارتفاعها لغلبة البرد على أجسامهم ، فقد أتينا بحمد الله على ما ذكرنا فيما سلف من كتبنا فى هذه المعانى المقدم ذكرها ، ولم نتعرض لذكر ما لم يصح عندنا فى العالم وجوده حسا ولا خبرا قاطعاً للعذر ولا دافعا للرأى ومزيلا للشك كأخبار العامة فى كون النسناس ، وأن وجوههم على نصف وجوه الناس ، وأنهم ذوو ألباب ، وقولهم فى عنقاء مغرب ، وقد زعم كثير من الناس أن الحيوان الناطق ثلاثة أجناس : ناس ، ونسناس ، ونسانس ، وهذا محال من القول ، لأن النسناس إنما وقع هذا الاسم على السفلة من الناس والرذال ، وقد قال الحسن : ذهب الناس و بقى النسناس ، قال الشاعر :

ذهب الناس فاستقلوا وصرنا خَلَفاً فى أراذل النسناس

أراد به ما وصفنا : أى ذهب الناس و بقى من لا خير فيه

أنواع الجن

وقد ذهب كثير من الناس إلى أن الجن نوعان : أعلاهم وأشدهم الجن ، وأضعفهم الحن ، وأنشد الراجز : —

* مختلف سحرهم جن وحن *

وهذا التفصيل بين الجنسين من الجن لم يرد به خبر ، ولا صح به أثر ، وإنما ذلك من توهم الأعراب على ما بينا آنفاً

النسناس

وقد غلب على كثير من العوام الأخبار عن معرفة النسناس وصحة وجوده فى العالم ، كالأخبار عن وجود الصين وغيرها من الممالك النائية والأمصار القاصية ، فبعضهم يخبر عن وجودهم فى المشرق ، و بعضهم فى المغرب ، فأهل الشرق يذكرون كونها بالمغرب ، وأهل المغرب يذكرون أنها بالمشرق ، وكذلك كل صقع من البلاد يسير سلطانه إلى أن النسناس فيما بعد عنهم من البلاد ونأى عن الديار ،

وقد رووا فى ذلك خبرا مخرجه من طريق الآحاد أن ذلك فى بلاد حضرموت من الشحر ، وهو ما ذكرناه عن عبد الله بن كثير بن عفير المصرى ، عن أبيه يعقوب بن محرث بن لخيم ، عن شيبة بن الحرث التميمى ، قال : قدمت الشحر فنزلت على رأسها ، فتذاكرنا النسناس ، فقلت : صيدوا لنا منها ، فلما أن رجعت إليه إذا بنسناس منها مع بعض أعوانه المهرة ، فقال لى النسناس : أنا بالله وبك ، فقلت لهم : حلوه ، فحلوه ، فلما حضر الغداء قال : هل اصطدتم منها شيئاً ؟ قالوا : نعم ، ولكن خلاه ضيفك ، قال : استعدوا ؛ فانا خارجون فى قنصه ، فلما خرجنا إلى ذلك السرح خرج منها واحد يعدو وله وجه كوجه الانسان وشعرات فى ذقنه ، ومثل الثدى فى صدره ، ومثل رجلى إنسان رجلاه ، وقد ألظ به كلبان وهو يقول : —

الويل لى مما به دهانى ... دهرى من الهموم والأحزان
قفا قليلا أيها الركبان ... واستمعا قولى وصدقانى
إنكما حين تُحَارِبانى ... ألفيتمانى حضرا يمانى
لولا سباتى ما ملكتمانى ... حتى تموتا أو تفارقانى
لست بخوّار ولا جبان ... ولا بنكس رعش الجنان
لكن قضاء الملك الرحمن ... يذل ذا القوة والسلطان

قال : فالتقيا به كلبان ، فأخذاه ، ويزعمون أنهم ذبحوا منها نسناسا ، فقال آخر من شجرة : كان يأكل السماق ، قال : فقالوا : نسناس آخر ، خذوه ، فأخذوه وذبحوه ، وقالوا : لو سكت هذا لم يعلم بمكانه ، فقال نسناس من شجرة أخرى : أنا صمت ، فأخذوه فذبحوه ، وقالوا : لو سكت هذا لم يعلم بمكانه ، فقال نسناس من شجرة أخرى : يالسان احفظ الرأس ، قالوا : نسناس خذوه ، فأخذوه ، وزعم من روى هذا الخبر أن المهرة تصطادها فى بلادها وتأكلها

قال المسعودى : ووجدت أهل الشحر من بلاد حضر موت وساحلها ، وهى

تسعون مدينة على الشاطىء من أرض الأحقاف ، وهى أرض الرمل وغيرها مما اتصل بهذه الديار من أرض اليمن وغيرها من عمان وأرض المهرة ـ يستظرفون أخبار النسناس إذا ما حُدِّثوها ، ويتعجبون من وصفه ، ويتوهمون أنه ببعض بقاع الأرض مما قد نأى عنهم و بعد ، كسماع غيرهم من أهل البلاد بذلك عنهم، وهذا يدل على عدم كونه فى العالم ، و إنما ذلك من هوس العامة واختلاطها ، كما وقع لهم أخبار عنقاء مغرب ، وهذا يدل على عدم كونه فى العالم ، ورووا فيه حديثاً عزوه إلى ابن عباس ، ونحن لم نُحِلْ وجود النسناس والعنقاء وغير ذلك مما اتصل بهذا النوع من الحيوان الغريب النادر فى العالم من طريق العقل ؛ فان ذلك غير ممتنع فى القدرة ، لكن أحلنا ذلك لأن الخبر القاطع للعذر لم يرد بصحة وجود ذلك فى العالم ، وهذا باب هو داخل فى حيز الممكن الجائز خارج عن باب الممتنع والواجب ، ويحتمل هذه الأنواع من الحيوان النادر ذكرها كالنسناس والعنقاء والعربد وما اتصل بهذا المعنى أن تكون أنواعا من الحيوان أخرجتها الطبيعة من القدرة إلى الفعل ولم تحكمه ولم يتأت فيه الطبع كتأتيه فى غيره من الحيوان ، فبقى شاذا فريدا متوحشا نادرا فى العالم طالبا للبقاع النائية من البر مباينا لسائر أنواع الحيوان من الناطقين وغيرهم للضدية التى فيه لغيره مما قد أحكمته الطبيعة ، وعدم تشاكله به ، والمناسبة التى بينه و بين غيره من أجناس الحيوان وأنواعه ، على حسب ما قدمنا فى باب الغيلان فيما سلف من هذا الكتاب ، وفى الاكثار من هذا خروج عن الغرض الذى إليه قصدنا فى هذا الكتاب ، وقدمنا فيما سلف من هذا الكتاب من الأخبار عمن زعم أن المتوكل أمر حسين بن إسحق[1] أو غيره من أهل عصره وممن عنى بهذا الشأن من الحكماء أن يتأتى له و يحتال فى حمل النسناس والعربد من أرض اليمامة ، وأن حسينا[1] حمل له شيئا من ذلك ، وقد أتينا على شرح هذا الخبر فيمن أرسل إلى اليمامة فى حمل العربد إلى بلاد الشحر وفى حمل النسناس فى كتابنا « أخبار الزمان » والله تعالى أعلم بصحة هذا الخبر ،

(١) كذا

وليس لنا فى ذلك إلا النقل ، وأن نعزوه إلى راويه ، وهو المقلد بعلم ذلك فيما حكاه ورواه فينظمه على حسب ما يأتى نظمه فى ذلك الموضوع المستحق له، والله ولى التوفيق برحمته

وأما ما ذكره عن ابن عباس فهو خبر يتصل بخبر خالد بن سنان العبسى ، وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب خبر خالد بن سنان العبسى ، وأنه ذكر أنه كان فى الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، وذكرنا خبره مع النار و إطفائه لها

العنقاء

فلنذكر الآن خبر العنقاء على حسب ماروووه ، فلا بد من إعادة خبر خالد لذكر العنقاء واتساع الخبرين ، ومخرج هذه الأخبار كلها عن ابن عفير ، حدث الحسن بن إبراهيم قال : حدثنا محمد بن عبد الله المروزى ، قال : حدثنا أسد بن سعيد بن كثير ، عن ابن عفير ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق طائرا فى الزمان الأول من أحسن الطير ، وجعل فيه من كل جنس قسطا ، وخلق وجهه على مثال وجوه الناس ، وكان فى أجنحته كل لون حسن من الريش ، وخلق له أربعة أجنحة من كل جانب منه ، وخلق له يدين فيهما مخالب ، وله منقار على صفة منقار العقاب غليظ الأصل ، وجعل له أبناء على مثاله ، وسماها بالعنقاء ، وأوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران : إنى خلقت طائرا عجيبا خلقته ذكرا وأنثى ، وجعلت رزقه فى وحش بيت المقدس ، وآنستك بهما ، ليكونا مما فضلت به بنى إسرائيل » ، فلم يزالا يتناسلان حتى كثر نسلهما ، وأدخل الله موسى وبنى إسرائيل فى التيه فمكثوا فيه أربعين سنة حتى مات موسى وهرون فى التيه وجميع من كان مع موسى من بنى إسرائيل ، وكانوا ستمائة ألف ، وخلفهم نسلهم فى التيه ، ثم أخرجهم الله تعالى من التيه مع يوشع ابن نون تلميذ موسى ووصيه ، فانتقل ذلك الطائر فوقع بنجد والحجاز فى بلاد قيس عيلان ، ولم يزل هنالك يأكل من الوحوش ويأكل الصبيان وغير ذلك

من البهائم إلى أن ظهر نبى من بنى عبس بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم يقال له خالد بن سنان ؛ فشكا إليه الناس ما كانت العنقاء تفعل بالصبيان ، فدعا الله عليهما فقطع نسلهما ، فبقيت صورتهما تحكى فى البسط وغير ذلك

وقد ذهب جماعة من ذوى الدراية إلى أن أقوال الناس فى أمثالهم « عنقاء مغرب » إنما هو للأمر العجيب النادر وقوعه ، وقولهم «جاء فلان بعنقاء مغرب» يريدون أنه جاء بأمر عجيب ، قال شاعرهم :

* وصبحهم بالجيش عنقاء مغرب *

والعنق : السرعة ، قال ابن عباس : وكان خالد بن سنان نبى بنى عبس بشر برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما حضرته الوفاة قال لقومه : إذا أنا مت فادفنونى فى حقف من هذه الأحقاف ، وهى تلول عظام من الرمل ، واحرسوا قبرى أياما فاذا رأيتم حمارا أشهب أبتر يدور حول الحقف الذى فيه قبرى أياما فاجتمعوا ثم انبشوا قبرى وأخرجونى إلى شفير القبر ، وأحضروا لى كاتبا ومعه ما يكتب فيه حتى أملى عليكم مايكون ومايحدث إلى يوم القيامة ، قال : فرصدوا قبره ، واجتمعوا عليه لينبشوه كما أمرهم ، فحضر ولده وشهروا سيوفهم ، وقالوا : والله لاتركنا أحدا ينبشه ، أتريدون أن نعير بذلك غدا وتقول لنا العرب : هؤلاء ولد المنبوش ؟ فانصرفوا عنه وتركوه ، قال ابن عباس : ووردت ابنة له عجوز قد عمرت على النبى صلى الله عليه وسلم ، فتلقاها بخير وأكرمها وأسلمت ، وقال لها : « مرحبا بابنة نبى ضيعه أهله » قال شاعر بنى عبس : —

خالد بن سنان نبى بنى عبس

بنى خالد لو أنكم إذ حضرتم ... نبشتم عن الميت المغيب فى القبر
لأبقى عليكم آل عبس ذخيرة ... من العلم لاتبلى على سالف الدهر

وقد روى عن ابن عفير أخبار كثيرة فى هذا المعنى وأشباهه من فنون الأخبار من أخبار بنى إسرائيل وغيرها : منها خبر خلق الخيل ، وهو ما حدث به الحسن بن إبراهيم الشعبى القاضى ، قال : حدثنا أبو عبدالله محمد بن عبدالله المروزى ، قال : حدثنا

خبر خلق الخيل

أبو الحرث أسد بن سعيد بن كثير بن عفير ، عن أبيه ، عن جده كثير ، عن أبيه عفير ، قال : قال عكرمة : أخبرنى ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله لما أراد أن يخلق الخيل أوحى إلى الريح الجنوبى : إنى خالق منك خلقا ، فاجتمعت ، فأمر جبريل فأخذ منها ، ثم قال الله : هذه قبضتى ، قال : ثم خلق الله منها فرسا كميتا ، ثم قال الله : خلقتك فرسا ، وجعلتك عربيا وفضلتك على سائر ما خلقته من البهائم لسعة الرزق ، والغنائم تقتاد على ظهرك ، والخير معقود بناصيتك ، ثم أرسل فصهل ، فقال : باركت فيك ، بصهيلك أرعب المشركين ، وأملأ مسامعهم ، وأزلزل أقدامهم ، ثم وسمه بغرة وتحجيل ، فلما خلق الله آدم قال : يا آدم ، أخبرنى أى الدابتين أحب إليك الفرس أو البراق ؟ قال : وصورة البراق على صورة البغل لا ذكر ولا أنثى ، فقال : يا رب ، اخترت أحسنها وجها ، فاختار الفرس ، فقال الله : يا آدم ، اخترت عزك وعز ولدك باقيا ما بقوا وخلدوا » قال ابن عباس : فذلك الوسم فيه وفى ولده إلى يوم القيامة ، يعنى الغرة والتحجيل ، ولولا أن المصنف حاطب نيل يذكر كل نوع لما ذكرنا

قال المسعودى رحمه الله : وقد ذكر عيسى بن لهيعة المصرى فى كتابه المترجم بكتاب الحلائب والجلائب وذكره لكل حلبة أجريت فيها الخيل فى الجاهلية والإسلام : إن سليمان بن داود زود أناسا من الأزد فرسا يصيدون عليه ، فسمى زاد الراكب ، وكذلك ذكر ابن دريد فى كتاب الخيل وغيره

وللناس فى الخيل أخبار عظيمة كثيرة قد أتينا على ذكرها فى السالف من كتبنا

ما يؤخذ به من الأخبار وما يترك

وقد ذهبت طائفة إلى أن الأخبار التى تقطع العذر وتوجب العلم والعمل هى أخبار الاستفاضة : ما رواه الكافة عن الكافة ، وأن ما عدا ذلك فغير واجب قبوله

وذهب الجمهور من فقهاء الأمصار إلى قبول خبر الاستفاضة ، وهو خبر التواتر ، وأنه يوجب العلم والعمل ، وأوجبوا العمل بخبر الواحد ، وزعموا أنه موجب العمل دون العلم بأوصاف ذكروها

ومن الناس من ذهب إلى غير هذه الوجوه فى فنون الأخبار من الضرورة وغيرها

وما ذكرنا من حديث النسناس والعنقاء وخلق الخيل فغير داخل فى أخبار التواتر الموجبة للعمل واللاحقة بما أوجب العمل دون العلم ، ولا بالأخبار المضطرة لسامعها إلى قبولها عند ورودها واعتقاد صحتها عن مخبرها ، وهذا النوع من الأخبار قد قدمنا فى خبر الجائز الممكن الذى ليس بواجب أنه لا حق بالاسرائيليات من الأخبار والاعجاز عن عجائب البحار ، ولو لا ما قدمنا آنفا من اشتراطنا على أنفسنا الاختصار والايجاز لذكرنا ما اتصل بهذا المعنى من الأخبار ، مما رواه أصحاب الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وهم حملة السنن ونقلة الآثار ، مما لا يتناكرونه ، ويعرفونه ولا يدفعونه ، مع حديث القرد الذى كان فى السفينة فى عهد بنى إسرائيل مع رجل كان يبيع الخمر لأهل السفينة ويشوب الخمر بالماء ، وأنه جمع من ذلك دراهم كثيرة ، وأن القرد قبض على الكيس الذى كانت فيه الدراهم وصعد على الدور ، وهو صارى المركب ويدعى بالعراق الرقل ، فحل الكيس ولم يزل يرمى درهما إلى الماء ودرهما إلى السفينة ، حتى قسم ذلك نصفين ، ومثل ما روى الشعبى عن فاطمة بنت قيس عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وكذلك قد رواه عن فاطمة بنت قيس عدة من الصحابة ، وهو خبر تميم الدارى ، أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر عنه أنه أخبره أنه ركب البحر فى جماعة من بنى عمه فى سفينة ، فأضل بهم البحر وألقاهم إلى جزيرة ، فنظروا إلى دابة عظيمة قد نشرت شعرها ، فقالوا لها : أيتها الدابة ، ما أنت ؟ فقالت : أنا الجساسة التى أخرج آخر الزمان ، وذكروا عنها كلاما غير هذا ، وأنها قالت : عليكم بصاحبة القصر ،

بعض الاسرائيليات التى لا يؤخذ بأشباهها

فنظروا فاذا هم بقصر من حاله ووصفه كذا ، وإذا هم برجل بالحديد والقيود مسلسل إلى عمود من حديد وصفة وجهه كذا ، وأنه خاطبهم وساءلهم ، وأنه الدجال وأنه أخبرهم بجمل الملاحم ، وأنه لا يدخل مدينة النبى صلى الله عليه وسلم ، وغير ذلك مما ذكر فى هذا الحديث وغيره مما ورد من الأخبار فى معناه ، وهذا باب كبير يتسع وصفه ويعظم شرحه

عود إلى ذكر أرباع العالم والطبائع

ثم رجع بنا القول إلى ما كنا فيه آنفا من ذكر أرباع العالم والطبائع ، وما اتصل بهذا المعنى ، وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب جوامع من الكلام فى الطبائع وغيرها مما ينبه على عظم هذا الكتاب ومبسوطه ، وقد زعم جماعة ممن تقدم وتأخر من الأطباء ومصنفى الكتب فى الطبيعيات وغيرها أن للطعام ثلاثة انهضامات : أما الأول فهى المعدة : تهضم الطعام فتأخذ قوته فيصير مثل ماء الكشك ، ثم تدفعه إلى الكبد فى العروق إلى جميع الجسد كاندفاع الماء من النهر إلى السواقى والمشارب ، فتهضمه بأعضاء الجسد البالية ، فتصيره إلى شبهها اللحم لحما والشحم شحما ، وكذلك العروق والعصب وماسوى ذلك ، وأن أقتارها إذا استوت استوت أقدار القوى ، وإذا استوت القوى استوى الجسد واعتدل ويصح باذن الله تعالى ، وأن الزمان أربعة فصول : الصيف ، والخريف ، والشتاء ، والربيع ، فبالصيف تقوى المرة الصفراء ويكثر اهتياجها ، والخريف يقوى السوداء ، والشتاء يقوى البلغم ، والربيع يقوى الدم ، ثم ينقسم عمر الانسان أربعة أقسام : الصبا وفيه تقوى الصفراء ، والفتوة وفيه يقوى الدم ، والكهولة وفيه تقوى السوداء ، والشيخوخة وفيه يقوى البلغم ، وأن البلدان أيضا تنقسم على أربعة[1] أقسام : المشرق وطبيعته الحرارة والرطوبة ، وفيه يقوى الدم ، والجنوب وطبيعته البرد والرطوبة ، وفيه تقوى المرة والصفراء ، وأن بنية الأصول من الجسد ربما

(١) ترك ذكر المغرب فلم يعرض له ، وترك ذكر الشمال أيضا ، ثم ذكر تأثير ريح الجنوب والشمال مقحما فى تضاعيف الكلام مايدعو إلى توهم أنه المتروك ، ويسمى المؤلف الشمال بالتيمن

كانت مستوية معتدلة الأخلاط ، وربما كان أحد الأخلاط أغلب فى البنية فتظهر قوته بأعلامه حتى يكون مقوما لذلك الخلط إذا هاج

أعمار الانسان سبعة

وقد قال أبقراط : ينبغى أن يكون كل شىء فى هذا العالم مقدرا على سبعة أجزاء ؛ فالنجوم سبعة ، والأقاليم سبعة ، وأسنان الناس سبعة : أولها طفل ، ثم صبى إلى أربع عشرة سنة ، ثم غلام إلى إحدى وعشرين سنة ، ثم شاب مادام يشب ويقبل الزيادة إلى خمس وثلاثين سنة ، ثم كهل إلى الأربعين ، ثم شيخ إلى سبع وأربعين سنة ، ثم هرم إلى آخر العمر

وجميع تغير أحوال الحيوان من الناطقين وغيرهم فمن الهواء يكون ذلك .

الهواء وأثره فى الانسان والنبات

وقد قال الحكيم أبقراط : إن تغير حالات الهواء هو الذى يغير حالات الناس : مرة إلى الغضب ، ومرة إلى السكون ، إلى الهم والسرور وغير ذلك ، وإذا استوت حالات الهواء استوت حالات الناس وأخلاقهم

وقال : إن قوى النفس تابعة لمزاجات الأبدان ، ومزاجات الأبدان تابعة لتصرف الهواء : إذا برد مرة وسكن أخرى خرج الزرع نضيجا ومرة غير نضيج ، ومرة قليلا ومرة كثيرا ، ومرة حارا ومرة باردا ، فتتغير لذلك صورهم ومزاجاتهم ، وإذا اعتدل الهواء واستوى خرج الزرع معتدلا ، فاعتدل بذلك الصور والمزاجات

الاستدلال بالأقاليم على تأثير الهواء

فأما علة تشابه صور الترك فانه لما استوى هواء بلدانهم فى البرد استوت صورهم وتشابهوا ، وكذلك أهل مصر لما استوت أهواؤهم تشابهت صورهم ، ولما كان الغالب على هواء الترك البرد وعجزت الحرارة عن تنشيف رطوبات أبدانهم كثرت شحومهم ، ولانت أبدانهم ، وتشبهوا بالنساء فى كثير من أخلاقهم ؛ فضعفت شهوة الجماع فيهم ، وقل ولدهم ؛ لبرد مزاجهم والرطوبة الغالبة عليهم ، وقد يكون ضعف الشهوة أيضا لكثرة ركوب الخيل ، وكذلك نساؤهم لما سمنت أبدانهن ورطبت ضعفت أرحامهن عن جذب الزرع إليها

وأما حمرة ألوانهم فللبرد كما ذكرنا لأن البياض إذا ألحت عليه البرودة صار إلى الحمرة ، و بيان ذلك أن أطراف الأصابع والشفة والأنف إذا أصابها برد شديد احمرت .

وذكر الحكيم أبقراط أن فى بعض البلدان من الجنوب بلدة كثيرة الأمطار كثيرة النبات والعشب ، وأن أشجارها ذاهبة فى الهواء ، ومياهها عذبة ، ودوابها عظيمة ، وهى مخصبة ؛ لأن تلك البلاد بلاد لم يلحقها حر الشمس ، ولم يلحقها يبس البرد ، فأجسام أهلها عظيمة ، وصورهم جميلة ، وأخلاقهم كريمة ، فهم فى صورهم وقاماتهم واعتدال طبائعهم يشبهون باعتدال زمان الربيع ، غير أنهم أصحاب دعة ، لا يحتملون الشدائد والكد .

وقال أبقراط فى معنى ما وصفنا و إليه قصدنا من بيان الأهوية وتأثيرها فى الحيوان والنبات : إن الروح المطبوعة فيها هى التى تجذب الهواء إلينا ، و إن الرياح تقلب الحيوان من حال إلى حال ، ومن حر إلى برد ، ومن يبس إلى رطوبة ، ومن سرور إلى حزن ، وكما تغيرها فى البيوت من بدن أو عسل أو فضة أو شراب أو سمن فتسخنها مرة وتبردها أخرى ، وعلة ذلك أن الشمس والكواكب تغير الهواء بحركاتها ، و إذا تغير الهواء تغير بتغيره كل شىء ، فمن تقدم وعرف أحوال الأزمنة وتغيرها والدلائل التى فيها عرف السبب الأعظم من أسباب العالم وتقدم فى صحة الأبدان .

وقال أيضا : إن الجنوب إذا هبت أذابت الهواء و بردته ، وسخنت البحار والأنهار ، وكل شىء فيه رطوبة ، وتغير لون كل ذى رطب وحالاته ، وهى ترخى الأبدان والعصب ، وتورث الكسل ، وتحدث ثقلا فى السماع ، وغشاوة فى البصر ؛ لأنها تحلل المرة ، وتنزل الرطوبة إلى أصل العصب الذى يكون فيه الحس

وأما الشمال فانها تطب الأبدان ، وتصح الأدمغة ، وتحسن اللون ، وتصفى الحواس ، وتقوى الشهية والحركة ؛ غير أنها تحرك السعال ووجع الصدر

وقد زعم بعض من تأخر فى الاسلام من الحكماء أن الجنوب إذا هبّ بأرض العراق تغير الورد ، وتناثر الورق ، وسخن الماء ، واسترخت الأبدان ، وتكدر الهواء ، قال : وذلك شبه ما قال أبقراط : إن الصيف أوبأ من الشتاء ، لأنه يسخن الأبدان فيرخيها ويضعف قواها ، وإن أهل العراق يكون الرجل منهم نائما فى فراشه يسخن بهبوبها ، وإنه إذا هبت الشمال برد الخاتم فى إصبعه واتسع لانضمام البدن بها ، وإذا هبت الجنوب سخن الخاتم وضاق ، واسترخى البدن ، وحدث فيه الكسل ، وهذا يجده سائر من بالعراق ممن له حس ، إذا صرف همته إلى تأمل ذلك ، وكذلك يجده من تأمل ما وصفناه فى سائر الأمصار فى بقاع الأرض والبلدان ، وإذا كان ذلك بالعراق فهو أظهر لعموم الاعتدال

الرياح الأربعة

ثم قال الحكيم أبقراط فى معنى ماذكرناه : إن الرياح العامة أربعة : إحداها تهب من جهة المشرق ، وهى القبول ، والثانية تهب من المغرب ، وهى الدبور ، والثالثة من التيمن ، وهى الجنوب ، والرابعة من التيسر ، وهى الشمال

قال المسعودى : وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب جوامع من الأخبار عن الطبائع والأهوية والبلدان وأنواع الأرض من العامر والغامر ، وغير ذلك مما تقدم ذكره وانتظم تصنيفه واتصل بحمد الله إيراده ، فرأينا أن نختم هذا الباب بجوامع من مساحات الممالك ، وما بينها من البعد والقرب على حسب ما حكاه الفزارى صاحب كتاب الزيج والقصيدة فى هيئة النجوم والفلك :

مساحات الممالك وما بينها من المسافة

زعم الفزارى أن عمل أمير المؤمنين من فرغانة وأقصى خراسان إلى طنجة بالمغرب ثلاثة آلاف وسبعمائة فرسخ ، والعرض من باب الأبواب إلى جدة ستمائة فرسخ ، ومن الباب إلى بغداد ثلثمائة فرسخ ، ومن مكة إلى جدة اثنان وثلاثون ميلا

عمل الصين من المشرق أحد وثلاثون ألف فرسخ فى أحد عشر ألف فرسخ

عمل الهند فى المشرق أحد عشر ألف فرسخ فى سبعة آلاف فرسخ

عمل التبت خمسمائة فرسخ فى مائتين وثلاثين فرسخا

عمل ما ينشاه أربعمائة فرسخ فى ستين فرسخا
عمل البلغار بالترك ألف فرسخ فى خمسمائة فرسخ
عمل الترك بخاقان سبعمائة فرسخ فى خمسمائة فرسخ
عمل برجان ألف وخمسمائة فرسخ فى ثلثمائة فرسخ
عمل الصقالبة ثلاثة آلاف وخمسمائة فرسخ فى أربعمائة فرسخ وعشرين فرسخا
عمل الروم ثلاثة آلاف فرسخ فى سبعمائة فرسخ
عمل الأندلس لعبد الرحمن بن معاوية ثلثمائة فرسخ
عمل إدريس الفاطمى ألف ومائتا فرسخ فى مائة وعشرين فرسخا
عمل فاس لأبى المنتصر أربعمائة فرسخ فى ثمانين فرسخا
عمل سجلماسة ألفان وخمسمائة فرسخ فى ستمائة فرسخ
عمل غانة بلاد الذهب ألف فرسخ فى ثمانين فرسخا
عمل ذمار مائتا فرسخ فى ثمانين فرسخا
عمل بجلة مائة فرسخ وعشرون فرسخا فى ستين فرسخا
عمل واح ستون فرسخا فى أربعين فرسخا
عمل البختة مائتا فرسخ فى ثمانين فرسخا
عمل النجاشى ألف وخمسمائة فرسخ فى أربعمائة فرسخ بالمغرب
عمل الزنج بالمشرق و بلاد صعدة ألف وستمائة فرسخ فى مائتين وخمسين فرسخا.
فذلك الطول اثنان وسبعون ألفا وأربعمائة وثمانون فرسخا ، والعرض خمسة وعشرون ألفا ومائتان وخمسون فرسخا

وأما الكلام فى وصف أصول الطب وهل ذلك مأخوذ من طريق الرياضة والقياس أو من غيره ووصف تنازع الناس فى ذلك فلم نتعرض لايراده فى هذا الكتاب ، و إن كان متعلقا ومتصلا بالكلام فى الطبائع وجمل المعانى المذكورة فى هذا الباب ؛ لأناقد أوردناه فيما يرد من هذا الكتاب فى أخبار الواثق على

إيضاح جرى بحضرته ، وقد حضر مجلسه حنين بن إسحق وابن ماسويه وغيرهم من الفلاسفة والمتطببين ، فأغنى ذلك عن إيراده فى هذا الباب ، ولو لا أن الكتاب يرد على أغراض من الناس لما هم عليه من اختلاف الطبائع والتباين فى المراد لما ذكرنا ما يورد فيه من أنواع العلوم وفنون الأخبار ، وقد يلحق الانسان الملل بقراءته ما لا تهوى نفسه فينتقل منه إلى غيره ، فقصدنا فيه ، من سائر ما يحتاج الناس من ذوى المعرفة إلى علمه ، ولما تغلغل بنا الكلام فى نظمه وتشعبه واتصاله بغيره من المعانى مما لم يتقدم ذكره ، وقد أتينا على مبسوط سائر ما ذكرناه على الاتساع والايضاح فى كتابنا « أخبار الزمان » وفى الكتاب الأوسط ، والله تعالى أعلم

المؤلف يعتذر عن استطراداته

ذكر البيوت المعظمة والهياكل المشرفة

و بيوت النيران والأصنام

وذكر الكواكب وغير ذلك من عجائب العالم

كان كثير من أهل الهند والصين وغيرهم من الطوائف يعتقدون أن الله عز وجل جسم ، وأن الملائكة أجسام لها أقدار ، وأن الله تعالى وملائكته احتجبوا بالسماء ، فدعاهم ذلك إلى أن اتخذوا تماثيل وأصناما على صورة البارى عز وجل ، و بعضها على صورة الملائكة : مختلفة القدود والأشكال ، ومنها على صورة الانسان وعلى خلافها من الصور ؛ يعبدونها ، وقربوا لها القرابين ، ونذروا لها النذور ؛ لشبهها عندهم بالبارى تعالى وقربها منه ، فأقاموا على ذلك برهة من الزمان وجملة من الأعصار حتى نبههم بعض حكمائهم على أن الأفلاك والكواكب أقرب الأجسام المرئية إلى الله تعالى ، وأنها حية ناطقة ، وأن الملائكة تختلف فيما بينها و بين الله ، وأن كل مايحدث فى هذا العالم فانما هو على قدر ماتجرى به الكواكب على أمر الله ، فعظموها ، وقربوا لها القرابين لتنفعهم ، فمكثوا على ذلك دهرا ،

اتخاذهم أصناما تمثل الملائكة

اتخاذهم الكواكب آلهة

اتخاذهم أصناما تمثل الكواكب

فلما رأوا الكواكب تخفى بالنهار وفى بعض أوقات الليل لما يعرض فى الجو من السواتر أمرهم بعض من كان فيهم من حكمائهم أن يجعلوا لها أصناما وتماثيل على صورها وأشكالها ، فجعلوا لها أصناما وتماثيل بعدد الكواكب الكبار المشهورة ، وكل صنف منهم يعظم كوكبا منها ، ويقرب لها نوعا من القربان خلاف ما للآخر على أنهم إذا عظموا ما صوروا من الأصنام تحركت لهم الأجسام العلوية من السبعة بكل ما يريدون ، وبنوا لكل صنم بيتاً وهيكلا مفردا ، وسموا تلك الهيا كل بأسماء تلك الكواكب .

عقيدتهم فى بيت الله الحرام

وقد ذهب قوم إلى أن البيت الحرام على مرور الدهور معظم فى سائر الأعصار لأنه بيت زحل ، وأن زحل تولاه ، ولأن زحل من شأنه البقاء والثبوت ، فما كان له فغير زائل ولا دائر ، وعن التعظيم غير خامل ، وذكروا أمورا أعرضنا عن ذكرها لشناعة وصفها .

يوداسف متنبى الهند يدعو إلى الصابئة

ولما طال عليهم العهد عبدوا الأصنام على أنها تقربهم إلى الله ، وألفوا عبادة الكواكب ، فلم يزالوا على ذلك حتى ظهر يوداسف بأرض الهند ، وكان هنديا خرج من أرض الهند إلى السند ، ثم سار إلى بلاد سجستان و بلاد زابلستان ، وهى بلاد فيروز بن كبك ، ثم دخل السند إلى كرمان ، فتنبأ وزعم أنه رسول الله وأنه واسطة بين الله و بين خلقه ، وأتى أرض فارس ، وذلك فى أوائل ملك طيمورت ملك فارس ، وقيل : ذلك فى حمر سند ، وهو أول من أظهر مذاهب الصابئة على حسب ماقدمنا آنفا فيما سلف من هذا الكتاب ، وقد كان يوداسف أمر الناس بالزهد فى هذا العالم والاشتغال بما علا من العوالم إذ كان من هنالك بدء النفوس و إليها يقع الصَّدَرُ من هذا العالم .

دعوته إلى عبادة النار

وجدد يوداسف عند الناس عبادة الأصنام والسجود لها ؛ لشبه ذكرها ، وقرّب إلى عقولهم عبادتها بضروب من الحيل والخدع ، وذكر ذوو الخبرة بشأن هذا العالم وأخبار ملوكهم أنه أول من عظم النار ، ودعا الناس إلى تعظيمها

وقال : إنها تشبه ضوء الشمس والكواكب ؛ لأن النور عنده أفضل من الظلمة ، وجعل للنور مراتب .

ثم تنازع هؤلاء بعده : فعظم كل فريق منهم ما يرون تعظيمه من الأسماء تقربا إلى الله بذلك ، ثم تنازعوا برهة من الزمان

عمرو بن لحى أول من نصب بمكة الأصنام

ونشأ عمرو بن لحى فسار بقومه إلى مكة ، واستولى على أمر البيت ، ثم سار إلى مدينة البلقاء من عمل دمشق من أرض الشأم ، فرأى قوما يعبدون الأصنام ، فسألهم عنها ، فقالوا : هذه أرباب نتخذها : نستنصر بها فننصر ، ونستسقى بها فنسقى ، وكل من سألها يعطى ، فطلب منهم صنما يدعونه هُبَل ، فسار به إلى مكة ونصبه على الكعبة ، ومعه إساف ونائلة ، ودعا الناس إلى تعظيمها وعبادتها ، ففعلوا ذلك إلى أن أظهر الله الإسلام و بعث محمداً عليه السلام فطهر البلاد ، وأنقذ العباد .

البيوت السبعة المعظمة

وقد قال هؤلاء : إن البيت الحرام من البيوت السبعة المعظمة المتخذة على أسماء الكواكب من النيرين والخمسة .

و بيت ثان معظم على رأس جبل بأصبهان يقال له مارس ، وكانت فيه أصنام إلى أن أخرجها منه يستاسف الملك لما تمجس وجعله بيت ناره ، وذلك على ثلاثة فراسخ من إصبهان ، وهذا البيت معظم عند المجوس إلى هذه الغاية

والبيت الثالث يدعى سندوساب ببلاد الهند ، وله قرابين تقرب ، وفيه أحجار المغناطيس الجاذبة والرافعة والمنفردة من أوصاف لا يسعنا الإخبار عنها ، فمن أراد أن يبحث عن ذكرها فليبحث ؛ فانه بيت مشهور ببلاد الهند

والبيت الرابع هو البوبهار الذى بناه متوشهر بمدينة بلخ من خراسان على اسم القمر ، وكان من يلى سدانته تعظمه الملوك فى ذلك الصقع ، وتنقاد إلى أمره وترجع إلى حكمه ، وتحمل إليه الأموال ، وكانت عليه وقوف ، وكان الموكل بسدانته يدعى البرموك ، وهو سمة عامة لكل سدنته ، ومن أجل ذلك سميت

البرامكة لأن خالد بن برمك كان من ولد من كان على هذا البيت ، وكان بنيان هذا البيت من أعلى البنيان تشييدا ، وكان تنصب على أعلاه الرماح عليها شقاق الحرير الأخضر طول الشقة مائة ذراع فما دونها قد نصب لذلك رماح وخشب تدفع قوة الريح بما عليها من الحرير ، فيقال والله أعلم : إن الريح خطفت يوما من بعض تلك الشقاق ورمت به فأصيب على مسافة خمسين فرسخا وقيل أكثر من تلك المسافة ، وهذا يدل على زيادته فى الجو وتشييد بنيانه ، وكانت مسافة البحر المحيط بهذا البنيان أميالا لم نذكرها إذ كان أمر ذلك مشهورا من وصف علو السور وعرضه

البرموك سادن البوبهار بخراسان

قال المسعودى : وقد ذكر بعض أهل الرواية والتنقير أنه قرأ على البوبهار ببلخ كتابا بالفارسية ترجمته « قال يوداسف : أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاث خصال : عقل ، وصبر ، ومال » وإذا تحته بالعربية « كذب يوداسف ، الواجب على الحر إذا كان معه واحدة من هذه الخصال أن لا يلزم باب السلطان »

والبيت الخامس بيت غُمْدان الذى بمدينة صنعاء من بلاد اليمن ، وكان الضحاك بناه [1] على اسم الزهرة ، وخربه عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فهو فى وقتنا هذا خراب قد هدم فصار تلا عظيما ، وقد كان الوزير على بن موسى الجراح حين نفى إلى اليمن وصار إلى صنعاء بنى فيه سقاية وحفر فيه بئرا

غمدان

ورأيت غمدان ردما وتلا عظيما قد انهدم بنيانه ، وصار جبل تراب كأنه لم يكن ، وقد كان أسعد بن يعفر صاحب قلعة كحلان المنازل بها وصاحب مخاليف اليمن فى هذا الوقت وهو المعظم فى اليمن أراد أن يبنى غمدان ، فأشار عليه يحيى بن الحسين الحسنى أن لا يتعرض لشىء من ذلك إذ كان بناؤه

---

(١) قوله «وكان الضحاك بناه» قال المجد: وغمدان كعثمان قصر باليمن بناه يشرخ بأربعة وجوه أحمر وأبيض وأصفر وأخضر وبنى داخله قصرا بسبعة سقوف بين كل سقفين أربعون ذراعا . وقوله « يشرخ » وهو ليشرخ بكسر اللام وفتح الياء وسكون الشين

على يدى غلام يخرج من أرض سبأ وأرض مأرب يؤثر فى صقع هذا العالم تأثيرا عظيما

وقد ذكر هذا البيت جد أمية بن أبى الصلت أخو أمية ، واسمه ربيعة[1] ، فى مدحه لسيف بن ذى يزن ، وقيل : إن الممدوح بهذا الشعر معد يكرب بن سيف ، حيث يقول : —

اشْرَبْ هنيئاً عليك التاجُ مُرْتَفِقاً برأس غُمْدانَ داراً منك مِحْلالا

وكان أبو أمية جاهليا ، وهو القائل فى أصحاب الفيل : —

إن آيات رَبِّنَا بيناتٌ ما يُمَارِى بهن إلا كَفُور
غلب الفيل بالْمُغَمَّس حتَّى ظل يجفو كأنه مسحور[2]
حوله من شباب كندة فتيا نٌ مُلَاوِيث فى الحروب صقُور
واضعا خلفه الجرار كما قُطَّ ر صخرٌ من جانب محدُورُ

وقيل : إن ملوك اليمن كانوا إذا قعدوا فى هذا البنيان بالليل واشتعلت الشموع رأى الناس ذلك من مسيرة ثلاثة أيام كثيرة

والبيت السادس كارشان شاه ، بناه كارش الملك بناء عجيبا على اسم المدبر الأعظم من الأجسام السماوية وهو الشمس ، بمدينة فرغانة من مدائن خراسان ، وخربه المعتصم بالله ، ولهدمه هذا البيت خبر ظريف قد أتينا على ذكره فى كتاب « أخبار الزمان »

---

(١) هكذا ، وهى عبارة فى غاية الفساد ، والذى فى سيرة ابن إسحاق « قال ابن إسحاق : قال أبو الصلت بن أبى ربيعة الثقفى ، قال ابن هشام : وتروى لأمية بن أبي الصلت. » اه ولعل أصل عبارة الأصل ههنا : « وقد ذكر هذا البيت أمية بن أبى الصلت وقيل أبوأمية بن أبى ربيعة » ولكن أصابها تحريف النساخ ، ولاحول ولا قوة إلا بالله

(٢) المغمس كمعظم ومحدث موضع بطريق الطائف فيه قبر أبى رغال دليل أبرهة ويرجم ، قاله المجد اه

والبيت السابع بأعالى بلاد الصين ، بناه ولد عابور بن بعويل بن يافث بن نوح ، وأفرده للعلة الأولى ؛ إذ كان منشأ هذا الملك وممده وباعث الأمور إليه ، وقيل : إنما بناه بعض ملوك الترك فى قديم الزمان وجعله سبعة أبيات فى كل بيت منها سبع كُوًى يقابل كل كُوَّة صورةٌ منصوبة على صورة من الخمسة والنيرين من أنواع الجواهر المضافة إلى تأثير تلك الكواكب من ياقوت أو زمرد على اختلاف ألوان الجواهر ، ولهم فى هذا الهيكل سر يسرونه فى بلاد الصين ، بما قد زخرف لهم فيه القول وزينه لهم الشيطان ، ولهم فى هذا الهيكل علوم فى اتصال الأجسام السماوية وأفعالها بعالم الكون الذى تحدثه وما يحدث فيه من الحركات والأفعال عند تحرك الأجسام السماوية فى هذا العالم ، وهو على حسب الذى نسج فيه بنصب من حركات الطبائع بتلك الخشب والخيوط الابريسم تحدث ضروب من الحركات ، فإذا اتصلت أفعاله وتواترت حركاته من النسج للثوب الديباج تمت الصورة فيه ، فبضرب من الحركات يظهر جناح طائر ، وبآخر رأسه ، وبآخر رجلاه ، فلا يزال كذلك حتى تتم الصورة على حسب مراد الصانع ، فجعلوا هذا المثال واتصال الإبريسم بآله النسج وما يحدثه الصانع فى ذلك من الأفعال مثالا لما ذكرنا من الكواكب العلوية وهى الأجسام السماوية ، فبضرب من الحركات ظهر فى العالم الطائر ، وبضرب آخر فرخ ، وكذلك سائر مايحدث فى العالم ويسكن ويتحرك ويوجد ويعدم ويتصل وينفصل ويجتمع ويفترق ويزيد وينقص من جماد ونبات أو حيوان ناطق أو غير ناطق فانما يحدث عن حركات الكواكب على حسب ماوصفنا من نسج الديباج وغيره من الصنائع ، وأهل صناعة النجوم لايتناكرون أن يقولوا : أعطته الزهرة كذا ، وأعطاه المريخ كذا ، كالشقرة وصهوبة الشعر ، وأعطاه عطارد دقة الصنعة ، وأعطاه المشترى الحياء والعلم والدين ، وأعطته الشمس كذا ، وأعطاه القمر كذا ، وهذا باب يكثر القول فيه ويتسع وصف مذاهب الناس فيه وما قالوه فى بابه

ذكر البيوت المعظمة عند اليونانيين

البيت الأول بأنطاكية

البيوت المضاف بناؤها إلى من سلف من اليونانيين ثلاثة بيوت : فبيت منها كان بأنطاكية من أرض الشأم على جبل بها داخل المدينة ، والسور محيط بها ، وقد جعل المسلمون فى موضعه مرقبا لينذرهم من قد رتب فيه من الرجال بالروم إذا وردوا من البر والبحر ، وكانوا يعظمونه ويقربون فيه القرابين ، فخرب عند مجىء الإسلام ، وقد قيل : إن قسطنطين الأكبر بن هيلانة الملكة المظهرة لدين النصرانية هو المخرب لهذا البيت ، وكانت فيه الأصنام والتماثيل من الذهب والفضة وأنواع الجواهر ، وقد قيل : إن هذا البيت هو بيت بمدينة أنطاكية على يسرة الجامع إلى اليوم ، وكان هيكلا عظيما ، والصابئة تزعم أن الذى بناه سفلانيوس ، وهو فى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — يعرف بسوق الجزارين ، وقد كان ثابت بن قرة بن كرايا الصابىء الحرانى حين وافى المعتضد فى سنة تسع وثمانين ومائتين فى طلب وصيف الحادم بن ثابت أتى هذا الهيكل وعظمه وأخبر من شأنه ماوصفنا

الثانى بمصر

والبيت الثانى من بيوت اليونانيين هو بعض تلك الأهرام التى ببلاد مصر ، وهو يرى من الفسطاط على أميال منها

والبيت الثالث هو بيت المقدس ، على مازعم القوم ، والشريعة إنما تخبر أن

الثالث بيت المقدس فى زعمهم

داود عليه السلام بناه وأتمه سليمان بعد وفاة أبيه ، والمجوس تزعم أن الذى بناه الضحاك ، وأنه سيكون له فى المستقبل من الزمان خطب طويل ، ويقعد فيه ملك عظيم ، وذلك عند ظهور موسى على بقرة من صفتها كذا ومعه من الناس كذا من العدد ، وأقاصيص تدعيها المجوس فى هذا المعنى ، واختلاط طويل ننزه كتابنا عن ذكره ، والله تعالى ولى التوفيق

ذكر البيوت المعظمة عند أوائل الروم

البيوت المعظمة عنـد أوائل الروم قبل ظهور النصرانية بيت ببلاد المغرب بمدينة قرطاجنة ، وهى تونس ، وراء بلاد القيروان ، وهى من أرض الافرنجة ، وبنى على اسم الزهرة بأنواع من الرخام ، والبيت الثانى بافرنجة ، وهو بيت عظيم عندهم ، والبيت الثالث عندهم بمقدونة ، وقد أتينـا على أخباره وأخبار غيره فيما سلف من كتبنا ، والله تعالى أعلم

ذكر البيوت المعظمة عند الصقالبة

كانت فى ديار الصقالبة بيوت تعظمها : منها بيت كان لهم فى هـذا الجبل الذى ذكرت الفلاسفة أنه أحد جبـال العالم العالية ، وهـذا البيت له خبر فى كيفيـة بنائه ، وترتيب أحجاره ، واختلاف ألوانه ، والمخاريق المصنوعة ، وما أودع فيه من الجواهر والآثار المرسومة فيه الدالة على الـكائنات المستقبلة ، وما تدل به تلك الجواهر من الأحداث قبل كونهـا ، وظهور أصوات من أعاليه بهم وما كان يلحقهم من سماع ذلك

وبيت اتخـذه ملوكهم على الجبل الأسود تحيط به مياه عجيبة ذوات ألوان وطعوم مختلفة عامة المنافع ، وكان لهم فيـه صنم عظيم على صورة رجل قد انحنى على نفسه ، وهو شيخ بيده عصا يحرك بهـا عظام الموتى من النواويس ، وتحت رجله اليمنى صور أنواع من النمل ، وتحت الأخرى غرابيب سود من صور الغداف[1] وغيرها وصور عجيبة لأنواع من الأحابيش والزنج

وبيت آخر على جبل لهم يحيط به خليج من البحر قد بنى بأحجار المرجان

---

(١) الغداف ـ كغراب : ـ غراب القيظ ، والنسر الـكثير الريش ، جمعه غدفان اه قاله المجد

الأحمر وأحجار الزمرد الأخضر ، فى وسطه قبة عظيمة ، تحتها صنم عظيم أعضاؤه من جواهر أربعة : زمرد أخضر ، وياقوت أحمر ، وعقيق أصفر ، وبلور أبيض ، ورأسه من الذهب الأحمر ، وبازائه صنم آخر على صورة جارية ، وكان يقرب له قرابين ودخن ، وكان ينسب هـذا البيت إلى حكيم كان لهم فى قديم الزمان ، وقد أتينا على خبره وما كان من أمره بأرض الصقالبة وما أحدث فيهم من الذبول والحيل والمخاريق المصطنعة التى اجتذب بها قلوبهم وملك نفوسهم واستَرَقَّ بها عقولهم مع شراسة أخلاق الصقالبة واختلاف طبائعهم فيما سلف من كتبنا ، والله تعالى ولى التوفيق

ذكر بيوت معظمة وهياكل شريفة للصابئة وغيرها مما لحق بهذا الباب

للصابئة من الحرانيين هياكل على اسم الجواهر العقلية والكواكب

فمن ذلك هيكل العلة الأولى ، وهيكل العقل ، وما أدرى أشاروا إلى العقل الأول أم الثانى ، وقد ذكر صاحب المنطق فى كتابه فى المقالة الثالثة من كتاب النفس العقل الأول الفعّال ، والعقل الثانى ، وذكر ذلك معيطوس فى كتابه فى شرح كتاب النفس الذى عمله صاحب المنطق ، وقد ذكر العقل الأول والثانى الاسكندر والافرديس فى مقالة أفردها فى ذلك قد ترجمها إسحق بن حنين

هياكل العقول

ومن هياكل الصابئة هيكل السنبلة ، وهيكل الصورة ، وهيكل النفس ، وهذه مدورات الشكل ، وهيكل زحل مسدس ، وهيكل المشترى مثلث ، وهيكل المريخ مستطيل ، وهيكل الشمس مربع ، وهيكل عطارد مثلث الشكل فى جوف مربع مستطيل ، وهيكل الزهرة مثلث فى جوف مربع ، وهيكل القمر مثمن الشكل

هياكل الكواكب

وقد حكى رجل من ملكية النصارى من أهل حران يعرف بالحرث بن سنبسطاط للصابئة الحرانيين أشياء ذكرها من قرابين يقربونها من الحيوان ودخن

قرابينهم

للكواكب يبخرون بها وغير ذلك مما امتنعنا عن ذكره مخافة التطويل .

الباقى من هيا كلهم إلى عصر المؤلف

والذى بقى من هيا كلهم المعظمة فى هذا الوقت - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة - بيت لهم بمدينة حران فى باب الرقة يعرف بمصلينا ، وهو هيكل آزر أبى إبراهيم الخليل عليه السلام عندهم ، وللقوم فى آزر وابنه إبراهيم كلام كثير ليس فى كتابنا هذا ، ولابن عيسون الحرانى القاضى - وكان ذا فَهْمٍ ومعرفة وتوفى بعد الثلثمائة - قصيدةٌ طويلة يذكر فيها مذاهب الحرانيين المعروفين بالصابئة ، ذكر فيها هذا البيت وما تحته من السراديب الأربعة المتخذة لأنواع صور الأصنام التى جعلت مثالا للأجسام السماوية وما ارتفع من ذلك من الأشخاص العلوية وأسرار هذه الأصنام وكيفية إيرادهم لأطفالهم إلى هذه السراديب وعرضهم لهم على هذه الأصنام وما يحدث ذلك فى ألوان صبيانهم من الاستحالة إلى الصفرة وغيرها لما يسمعون ظهور أنواع الأصوات وفنون اللغات فى تلك الأصوات من الأصنام والأشخاص ، بحيل قد اتخذت ، ومنافيخ قد عملت : تقف السدنة من وراء جُدُرٍ فتتكلم بأنواع من الكلام ، فتجرى الأصوات فى تلك المنافيخ والمخاريق والمنافذ إلى تلك الصور المجوفة والأصنام المشخصة ؛ فيظهر منها نطق على حسب ما قد عمل فى قديم الزمان ، فيصطادون به العقول ، وتسترق بها الرقاب ، ويقام بها الملك والممالك ، ومما ذكر فى هذه القصيدة قوله :

إن نفيس العجائب بيت لهم فى سرادب
تعبدفيه الكواكب أصنامهم خلف غائب

وهذه الطائفة المعروفة بالحرانيين والصابئة فلاسفة ، إلا أنهم من حشوية الفلاسفة ، وعوامهم مضافون لخواص حكمائهم إضافة سبب لا إضافة حكمة ؛ لأنهم يونانية وليس كل اليونانيين فلاسفة إنما الفلاسفة حكماؤهم

ورأيت على باب مجمع الصابئة بمدينة حران مكتوبا بالسريانية قولا لأفلاطون فسره مالك بن عفنون منهم وهو « من عرف ذاته تَأَلَّهَ » وقد قال أفلاطون

« الانسان نبات سماوى ، والدليل على هـذا أنه شبيه شجرة منكوسة أصلها إلى السماء وفروعها فى الأرض » ولأفلاطون كلام كثير فى هل النفس فى البدن أوالبدن فى النفس ، كالشمس أهى فى الدار أوالدار فى الشمس ، وهذا قول تغلغل بنا الكلام فيه كالكلام فى تنقل الأرواح فى أنواع الصور

بحث فى النفس

وقد تنازع أهل هـذه الآراء ممن قصد هـذه المقالة فى النقلة على وجهين ، وطائفة من الفلاسفة القدماء اليونانيين والهند ممن لم يثبت كلاما منزلا ولا نبيا مرسلا منهم أفلاطون ومن يمم طريقهم فإنه حكى عنهم أنهم زعموا أن النفس جوهر ليست بجسم ، وأنها حية عالمة مميزة لأجل ذاتها وجوهرها ، وأنها هى المدبرة للأجسام المركبة من طبائع الأرض المتضادة ، وغرضها فى ذلك أن تقيمها مقام العدل وماتتم به السياسة المستقيمة والنظام غير المفسد وتردها من الحركة المضطربة إلى المنتظمة

وزعموا أنها تلذ وتألم وتموت ، وموتها عندهم انتقالها من جسد إلى جسد بتدبير وبطلان ذلك الشخص الذى فسد ووصف بالموت ؛ لأن شخصها يفسد ، ولأن جوهرها ينتقل

وزعموا أنها عالمة بذاتها وجوهرها ، وفيها قبول علم المحسوسات من جهة الحس ، ولأفلاطون وغيره فى هذه المعانى كلام يطول ذكره ، ويعجز عن وصفه وإظهاره لاعتياصه وغموضه ، وكذلك صاحب المنطق وفيثاغورس وغيرهما من الفلاسفة ممن تقدم وتأخر ؛ لأن الطالب لعلم هذه الأشياء والإحاطة بفهمها وبلوغ غايتها لا يدرك ذلك لما نصبوا من الكتب ورتبوا من التصنيف للعلوم المؤدية إلى معرفة الألفاظ الخمس ، وهى : الجنس ، والفصل ، والنوع ، والخاصة ، والعرض ، ثم معرفة المقولات ، وهى عشرة : الجوهر ، والكمية ، والكيفية ، والإضافة - وهى النسبة - وهذه أربع بسائط ، والست الأخر مركبات ، وهى : الزمان ، والمكان ، والجِدَة - وهى الملْكُ - والوضع ، والفاعل ، والمنفعل ؛ ثم ما بعد

الكليات الخمس والمقولات العشر

ذلك مما يترقى فيه الطالب إلى أن ينتهى إلى علم ما بعد الطبيعة من معرفة الأول والثانى

عود إلى الكلام عن الصابئة

ثم رجع بنا الإخبار عن مذاهب الصابئة من الحرانيين وذكر من أخبر عن مذاهبهم وكشف عن أحوالهم

فمن ذلك كتاب رأيته لأبى بكر محمد بن زكريا الرازى الفيلسوف صاحب كتاب المنصورى فى الطب وغيره ، ذكر فيه مذاهب الصابئة الحرانيين منهم دون من خالفهم من الصابئة ، وهم الكنيارِيون[1] ، وذكر أشياء يطول ذكرها ويقبح عند كثير من الناس وصفها أعرضنا عن حكايتها إذ كان فى ذلك خروج عن حد الغرض فى كتابنا إلى وصف الآراء والديانات ، وقد خاطب مالك بن عفنون وغيره منهم بشىء مما ذكرنا وغيره مما عنه كتبنا ، فمنهم من اعترف ببعضه وأنكر بعضا من ذكر القرابين وغيره ؛ مثل فعلهم بالثور الأسود فانه يضرب وجهه بالملح إذا سدت عيناه ثم يذبح ويدعى كل عضو من أعضائه وما يظهر منه من الحركات والاختلاج على ما يدل ذلك من أحوال السنة وغير ذلك من أسرارهم ومحالاتهم وأحوال قرابينهم

قال المسعودى : وقد ذكر جماعة ممن له تأمل بشأن أمور هذا العالم والبحث عن الأخبار بأن بأقاصى بلاد الصين هيكلا مدورا له سبعة أبواب ، فى داخله قبة مسبعة عظيمة الشأن عالية السمك ، فى أعالى القبة شبه الجوهر يزيد على رأس العجل تضىء منه جميع أقطار ذلك الهيكل ، وأن جماعة من الملوك حاولوا أخذ تلك الجوهرة فلم يَدْنُ أحد منها على مقدار عشرة أذرع شيئا ، وإن حاول أحد منهم أخذ هذه الجوهرة بشىء من الآلات الطوال كالرماح وغيرها وانتهت إلى هذا المقدار من الذرع انعكست وعطلت ، وإن رميت بشىء كان كذلك ؛ فليس شىء من الحيل يؤدى إلى تناولها ولا يسبب ، وإن تعرض لشىء من هدم هذا

(١) كذا ، وانظر (ص ١٦٠) من هذا الجزء

الهيكل مات من يروم ذلك من أهل الخبرة لقوة دافعة منفردة قد عملت فى أنواع الأحجار المغناطيسية ، وفى هذا الهيكل بئر مسبعة الرأس متى أكب الإنسان على رأس البئر إكبابا متمكنا تهوَّر فى البئر فصار فى أسفلها على أم رأسه ، وعلى رأس هذه البئر شبه الطوق مكتوب عليه بقلم قديم أراه بقلم السند هند « هذه بئر تؤدى إلى مخزن الكتب وتاريخ الدنيا وعلوم السماء وما كان فيما مضى من الدهر وما يكون فيما يأتى منه ، وتؤدى هذه البئر أيضا إلى خزائن رغائب هذا العالم ، لا يصل إلى الوصول إليها والاقتباس منها إلا من وازت قدرته قدرتنا ، واتصل علمه بعلمنا ، وساوت حكمته حكمتنا ، فمن قدر على الوصول إلى هذا المخزن فليعلم أنه قد وازانا ، ومن عجز عن الوصول إلى ما وصفنا فليعلم أنا أشد منه بأسا ، وأقوى حكمة ، وأكثر علما ، وأبعث دراية ، وأتم عناية » ، والأرض التى عليها هذا الهيكل والقبة وفيها البئر أرض حجرية صلبة عالية من الأرض كالجبل الشامخ لا ترام قلعته ولا يتأتى نقب ما هو تحته ، فاذا أدرك البصر ذلك الهيكل والقبة والبئر وقع للرائى عند رؤيته ذلك جزع وحزن واجتذاب للقلب إليه وحريق على بنيته وتأسف على إفساد شىء منه أو هدمه ، والله أعلم بذلك

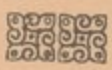

ذكر الأخبار عن بيوت النيران وغيرها

رأيهم فى النار والنور

فأما بيوت النيران ومن رسمها من ملوك الفرس الأولى والثانية فأول ما يحكى ذلك عنه أفريدون الملك ، وذلك أنه وجد نارا يعظمها أهلها ، وهم معتكفون على عبادتها ، فسألهم عن خبرها ووجه الحكمة منهم فى عبادتها ، فأخبروه أنها واسطة بين الله و بين خلقه ، وأنها من جنس الآلهة النورية ، وأشياء ذكروها أعرضنا عن ذكرها لاعتياصها ، وذلك أنهم جعلوا للنور مراتب ، وفرقوا بين طبع النار والنور ، وأن الحيوان يجتذب فيحرق نفسه كالفراش الطائر ، فما لطف يطرح نفسه فى السراج فيحرقها ، وغير ذلك مما يقع فى صيد الليالى من الغزلان والطير والوحوش وظهور الحيتان من الماء إذا قربت من السراج فى الزوارق كما يصطاد ببلاد البصرة السمك فى الليل يظهر من الماء طافيا حتى يقع فى جوف المركب والسرج قد جعلت حواليه ، وأن بالنور صلاح هذا العالم ، وشرف النار على الظلمة ومضادتها لها ، ومرتبة الماء وزيادته على النار باطفائه ومضادته لها وأنه أصل لكل شىء ومبدأ لكل شىء ومبدأ لكل تمام ، فلما أخبر أفريدون بما ذكرنا أمر بحمل جزء منها إلى خراسان فاتخذ لها بيتا بطوس ، و بنى آخر من بيوت النار بسجستان كراكركان اتخذه بهمن بن استيذاباذ بن يستاسف ، و بيت آخر ببلاد السيروان والرى ، وكان فيه أصنام فأخرجها أنوشروان ، وقيل : إن أنوشروان صادف هذا البيت وفيه نار معظمة فنقلها إلى الموضع المعروف بالبركة ، وبيت آخر للنار يقال له كوسجة بناه كيجره الملك ، وقد كان بقومس بيت للنار معظم لايدرى من بناه يقال له جريس ، ويقال : إن الاسكندر لما غلب عليها تركها ولم يطفئها ، ويقال : إنه كان فى ذلك الموضع فيما مضى مدينة عظيمة عجيبة البناء فيها بيت كبير عجيب الهيئة فيه أصنام فأخربت تلك المدينة بما فيها من البيوت ، ثم بنى بعد ذلك بيت وجعلت فيه تلك النار ، و بيت آخر بناه فارس بن كاوش الجبار ،

أماكن بيوت النيران

وذلك زمان لبثه بمشرق الصين مما يلى البركة ، و بيت نار بمدينة أرجان من أرض فارس اتخذه فى آخره بهراسف ، وهذه البيوت العشرة كانت قبل ظهور زرادشت بن استبجان نبى المجوس ، ثم اتخذ زرادشت بن استبجان بعد ذلك بيوت النيران ، وكان مما اتخذ بيت بمدينة نيسابور من بلاد خراسان ، و بيت آخر بمدينة نسا والبيضاء من أرض فارس ، وقد كان زرادشت يستاسف الملك يطلب نارا معظمها جمر فوجدت بمدينة خوارزم فنقلها بعد ذلك يستاسف إلى مدينة درابجرد من أرض فارس وكورها بهذا البيت ، وهذه النار تسمى فى وقتنا هذا ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ـ آذر وحواء ، وتفسير ذلك نار النهر ، وذلك أن آذر أحد أسماء النار بالفارسية الأولى ، والمجوس تعظم هذه النار ما لا تعظم غيرها من النيران والبيوت

وذكرت الفرس أن كيجره لما خرج غازيا إلى الترك سار إلى خوارزم ، فمر على تلك الديار ، فلما وجدها عظمها وسجد لها ، ويقال : إن أنوشروان هو الذى نقلها إلى الكارباه ، فلما ظهر الاسلام تخوفت المجوس أن تطفئها المسلمون ، فتركوا بعضها بالكارباه ، ونقلوا بعضها إلى نسا والبيضاء من كورة فارس ؛ لتبقى إحداهما إن طفئت الأخرى

وللفرس بيت نار باصطخر فارس تعظمه المجوس ، كان فى قديم الزمان فأخرجته حمانى بنت بهمن بن استيذاباذ وجعلته بيت نار ، ثم نقلت عنه النار فتخرب ، والناس فى وقتنا هذا يذكرون أنه مسجد سليمن بن داود ، و به يعرف ، وقد دخلته ، وهو على فرسخ من مدينة إصطخر ، فرأيت بنيانا عجيبا ، وهيكلا عظيما ، وأساطين صخر عجيبة ، على أعلاها صور من الصخر ظريفة ومن الحلى وغيره كالحيوان عظيمة القدر والأشكال ، محيط بذلك جبل عظيم وسور منيع من الحجر ، وفيه صور لأشخاص قد تشكلت وأبقيت صورها ، فزعم من جاور هذا الموضع أنها صور الأنبياء ، وهو فى سفح الجبل ، والريح غير خارجة من ذلك

المؤلف يصف بيتار آه باصطخر

الهيكل فى ليل ولا نهار لها هبوب ودَوِىّ ، يذكر من هنالك أن سليمان بن داود عليهما السلام حبس الريح فى ذلك الموضع ، وأنه كان يتغدى ببعلبك من أرض الشأم ، ويتعشى فى هـذا المسجد ، وينزل بمدينة تدمر وقلعتها المتخذة فيها ، ومدينة تدمر فى البرية بين العراق ودمشق وحمص من أرض الشأم يكون منها من الشأم نحو خمسة أميال أو ستة ، وهى بنيان عجيب من الحجر ، وكذلك الملعب الذى فيها ، وفيها خلق من الناس من العرب من قحطان

وفى مدينـة سابور من أرض فارس بيت للنار معظم عندهم ، اتخذه دارا ابن دارا

المؤلف يصف بيتا آخر بجور من بلاد فارس

وفى مدينة جور من أرض فارس وهو البلد الذى يحمل منه ماء الورد الجورى وإليه يضاف ، بيت للنار ، بناه أردشير بن بابك ، قد رأيته ، وهو على ساعة منها على عين هناك عجيبة ، وله عيد ، وهو أحد متنزهات فارس ، وفى وسط مدينـة جور بنيـان كانت تعظمه الفرس يقـال له البرمال أخر به المسلمون ، وبين جور ومدينة كوار عشرة فراسخ ، وبها يعمل ماء الورد الـكورى وإليها يضاف ، وهذا الماء الورد المعمول بجور وكوار أطيب ماء ورد يعمـل فى العـالم ؛ لصحة البرية ، وصفاء الهواء ، وألوان سكان هذه البلاد حمرة فى بياض ليست لغيرهم من الأمصار ومن كوار إلى مدينة شيراز ـ وهى قصبة فارس ـ عشرة فراسخ . وجور وكوار وشيراز وغيرها من كور فارس أخبار ، ولما فيها من البنيان أقاصيص يطول ذكرها قد دونتها الفرس ، وكذلك ما كان بأرض فارس من الموضع المعروف بماء النار ، وقد بنى عليه هيكل ، وكان كورش الملك ـ حين ولد المسيح عليه السلام ـ بعث ثلاثة أنفس : دفع إلى أحدهم صرة من لبان ، وإلى آخر صرة من مر ، وإلى آخر صرة من تبر ، وسيرهم يهتـدون بنجم وصفه لهم ، فساروا حتى انتهوا إلى السيد المسيح وأمه بأرض الشأم ، والنصـارى تغلو فى قصة هؤلاء النفر ، وهـذا الخبر موجود فى الإنجيل ، وإن هـذا الملك كورش نظر إلى نجم قد طلع بمولد المسيح عيسى ، فكانوا إذا ساروا سار معهم ذلك النجم ، وإذا وقفـوا وقف بوقوفهم ،

وقد أتينا فى كتابنا «أخبار الزمان» على شرح هذا الخبر ، وما قالت فيه المجوس والنصارى ، وخبر الرغفان التى دفعتها إليهم مريم ، وما كان من الرسل ، وجعل الخبز تحت الصخرة وغوصها فى الأرض ، وذلك بفارس ، وكيف حصر عليها الماء وأنها وجدت وقد صارت شعلتى نار على وجه الأرض تتقدان ، وغير ذلك مما قيل فى هذا الخبر .

وقد كان أردشير بنى بيتا آخر يقال له باربو ، فى اليوم الثانى من غلبة فارس ، وبيت نار على خليج القسطنطينية فى عساكره ، فلم يزل هذا البيت هنالك إلى خلافة المهدى ، فخرب ، وله خبر عجيب ، وقد كان سابور الجنود اشترط على الروم بناء هذا البيت وعمارته عند حصاره القسطنطينية ، وكان مسيره فى جيوش فارس وغيرها من الترك وملوك الأمم ، فسمى سابور الجنود لكثرة من تبعه من الجنود

وقد كان سابور لما سار إلى بلاد الحيرة عدل عن طريقه فنزل الحصن المعروف بالحضر ، وقد كان هذا الحصن للساطرون بن استطرون ملك السريانيين

حصن الحضر فى رستاق يقال له أباحر من بلاد الموصل ، وقد ذكرته الشعراء لعظم ملكه وكثرة جيوشه وحسن بنائه بهذا الحصن المعروف بالحضر ؛ فمن ذكره منهم أبو دُوَاد حارثة بن حجاج الايادى بقوله : —

وأرى الموت قد تدلى من الحض ... ـر على رب أهله الساطرون
ولقد كان آمنا للدواهى ... ذا ثواء وجوهر مكنون

وقد قيل : أن النعمان بن المنذر من ولد الساطرون بن استطرون ، والساطرون واستطرون هذه ألقاب ، وهم ملوك ملكوا على السريانيين ، ثم تملك تلك الديار بعد من ذكرنا ممن أفناهم الدهر الضيزن بن جبهلة ، وجبهلة أمه[1] ، وهو الضيزن بن تبت بن معاوية بن العبيد بن حرام بن سعد بن حلوان بن عمران بن إلحاف

(١) كذا ، والذى فى معجم ياقوت (٣ : ٢٩٠) « الضيزن بن جلهمة أحد الأحلاف » وفيه أنه « الضيزن بن معاوية بن عبيد بن الأحرام بن عمرو بن النخع ابن سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة »

ابن قضاعة ، وكان كثير الجنود ، مهادنا للروم ، متحيزا إليهم ، يعبر رجاله على العراق والسواد ، وكان فى نفس سابور عليهم ذلك ، فلما نزل على حصنه تحصن الضيزن فى الحصن ، فأقام سابور عليه شهرا لا يجد سبيلا إلى فتحه ، ولا يتأتى له حيلة فى دخوله ، فنظرت النضيرة بنت الضيزن يوما وقد أشرفت من الحصن إلى سابور فهويته وأعجبها جماله ، وكان من أجمل الناس وأمدهم قامة ، فأرسلت إليه إن أنت ضمنت لى أن تتزوجنى وتفضلنى على نسائك دللتك على فتح هذا الحصن ، فضمن لها ذلك ، فأرسلت إليه ائت البربار — وهو نهر فى أعلاه — فانثر فيه تبنا ، ثم أتبعه النظر أين يدخل فأدخل الرجال منه ، فإن ذلك المكان يفضى إلى الحصن ، ففعل ذلك سابور ، فلم يشعر أهل الحصن إلا وأصحاب سابور معهم فى الحصن ، وقد عمدت النضيرة فَسَقَتْ أباها حتى أسكرته طمعا فى تزويج سابور إياها ، وأمر سابور بهدم الحصن بعد أن قتل الضيزن ومن معه ، وعرس سابور بالنضيرة بنت الضيزن فباتت مسهرة ، فقال لها سابور : مالك لاتنامين ؟ قالت : إن جنبى يتجافى عن فراشك ، قال : ولم فوالله ما نامت الملوك على ألين منه وأوطأ وإن حشوه لزغب النعام ؟ !! فلما أصبح سابور نظر فاذا ورقة آس بين عكنها ، فتناولها فكاد بطنها أن يدمى ، فقال لها : ويحك !! بم كان أبواك يغذيانك ؟ فقالت : بالزبد والمخ والقمح والشهد وصفو الخمر ، فقال لها سابور : إنى لجدير أن لا أستبقيك بعد إهلاك أبويك وقومك ، وكانت حالتك عندهم الحالة التى تصفين ، فأمر بها فربطت بغدائرها إلى فرسين جموحين ، ثم خلى سبيلهما ، فقطعاها ، ففى هذا المقتول ومن كان معه يقول جدى بن الدهمى [1] العبسى : —

ألم يحزنك والأنباء تنمى ... بما لاقت سراة بنى العبيد
ومصرع ضيزن وبنى أبيه ... وأحلاف الكتائب من تزيد
أتاهم بالفيول مجللات ... وبالأبطال سابور الجنود
فهدم من بروج الحصن صخرا ... كأن بناءه زُبَرُ الحديد

(١) فى ياقوت « الجدى بن الدلهاث » وفيه « وإخلاء القبائل من تزيد »

وفى قتل سابور للنضيرة بنت الضيزن وما كان منها من الغدر بأبيها وقومها وإرشاد سابور إلى دخول الحصن يقول عدى بن زيد العبادى : —

والحضر صبت عليه داهية من قصره قد أبدّ ساكنها[1]
ربيّةٌ لم تُوَقّ والدها لحينها إذ أضاع راقبها
وأسلمت أهلها لليلتها تظن أن الرئيس خاطبها
وكان حظ العروس إذ جشر الصبح دماء تجرى سباسبها

والشعر فى هذه القصة كثير

و بأرض العراق بيت للنار فى مدينة السلام بنته بوران بنت كسرى أبرويز الملكة فى الموضع المعروف بأسبيا

و بيوت النيران كثيرة مما بنته المجوس بالعراق وأرض فارس وكرمان وسجستان وخراسان وطبرستان والجبال وأذربيجان والران وفى الهند والسند والصين ، أعرضنا عن ذكرها ، وإنما ذكرنا ما اشتهر هنها

هياكل اليونانيين

والهياكل المعظمة عند اليونانيين وغيرهم كثيرة : مثل بيت بعل ، وهو الصنم الذى ذكره الله عز وجل بقوله : (أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين) وهو بمدينة بعلبك من أعمال دمشق من كورسنير ، وقد كانت اليونانية اختارت لهذا الهيكل قطعة من الأرض من حسبان وجبل تستر فأحدثته موضعا للأصنام ، وهما بيتان عظيمان أحدهما أقدم من الآخر ، فيهما من النقوش العجيبة المحفورة فى الحجر الذى لا يتأتى حفر مثله فى الخشب مع علو سمكهما وعظم أحجارهما ، وطول أساطينهما ، ووسع فتحهما ، وعجيب بنيانهما ، وقد أتينا على خبر هذه الهياكل وما كان من خبر القتل على رأس ابنة الملك وما نال أهل هذه المدينة من سفك الدماء

هيكل بعل

وهيكل عظيم البنيان فى مدينة دمشق ، وهو المعروف بجيرون ، وقد ذكرنا خبره فيما سلف من هذا الكتاب وأن بانيه جيرون بن أسعد العادى ، ونقل إليه

جيرون

(١) فى سيرة ابن إسحاق « من فوقه أيد منا كبها » وهى أفضل للقافية

عمد الرخام ، وأنه إرم ذات العماد المذكورة فى القرآن ، لاما ذكر عن كعب الأحبار أنه دخل على معاوية بن أبى سفيان وسأله عن خبرها وذكر عجيب بنيانها من الذهب والفضة والمسك والزعفران وأنه يدخلها رجل من العرب يتيه له جملان فيخرج فى طلبهما فيقع إليها وذكر حلية الرجل ، ثم التفت فى مجلس معاوية فقال : هذا هو الرجل ، وكان الأعرابى قد دخلها يطلب مانَدَّ من إبله ، فأجاز معاوية كعبا وتبين صدق مقالته و إيضاح برهانه ، فان كان هذا الخبر عن كعب حقا فى هذه المدينة فهو حسن ، وهو خبر يدخله الفساد من جهات من النقل وغيره ، وهو من صنعة القصاص

وقد تنازع الناس فى هذه المدينة وأين هى ؟ ولم يصح عند كثير من الأخباريين ممن وفد على معاوية من أهل الدراية بأخبار الماضين وسنن الغابرين من العرب وغيرهم من المتقدمين وما كان فيها من الكوائن والحوادث وتشعب الأنساب ، وكتاب عبيد بن شرية متداول فى أيدى الناس مشهور

وقد ذكر كثير من الناس ممن له معرفة بأخبارهم أن هذه أخبار موضوعة ، من خرافات مصنوعة ، نظمها من تقرب للملوك بروايتها ، وصال على أهل عصره بحفظها والمذاكرة لها ، وأن سبيلها سبيل الكتب المنقولة إلينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية ، وسبيل تأليفها مما ذكرنا مثل كتاب أقسان ، وتفسير ذلك من الفارسية ويقال له أقشايه ، والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة ، وهو خبر الملك والوزير وابنته ودايتها شير زاد ورسازاد ، ومثل كتاب وزره وشماس ومافيه من أخبار ملوك الهند والوزراء ، ومثل كتاب السندباد ، وغيرها من الكتب فى هذا المعنى

أصل مسجد دمشق

وقد كان مسجد دمشق قبل ظهور النصرانية هيكلا عظيما فيه التماثيل والأصنام ، على رأس منابره تماثيل منصوبة ، وقد كان بنى على المشترى وطالع سعد ، ثم ظهرت النصرانية فجعلته كنيسة ، وظهر الاسلام وأحكم بناءه الوليد بن

عبد الملك والصوامع لم تغير ، وهى منائر الأذان إلى هذا الوقت

البريض

وقد كان بدمشق أيضا بناء عجيب يقال له البريض ، وهو مبنى إلى هذا الوقت فى وسطها ، وكان يجرى فيه الخمر فى قديم الزمان ، وقد ذكرته الشعراء فى مدحها لملوك غسان من مأرب وغيرهم

الديماس

وهيكل بأنطاكية يعرف بالديماس ، على يمين مسجدها الجامع ، مبنى بالآجر العادى والحجر ، عظيم البنيان ، وفى كل سنة يدخل القمر عند طلوعه من باب من أبوابه من أعاليه فى بعض الأهلة الصيفية ، وقد ذكر أن هذا الديماس من بناء الفرس حين ملكت أنطاكية وأنه بيت نار لها

قال المسعودى : وقد ذكر أبو معشر المنجم فى كتابه المترجم بـ « كتاب الألوف » الهياكل والبنيان العظيم الذى يحدث بناؤه فى العالم فى كل ألف عام ، وكذلك ذكره ابن الماربار تلميذ أبى معشر فى كتابه « المنتخب من كتاب الألوف » وقد ذكر غيرهما ممن تقدم عصرهما وممن تأخر عنهما كثيرا من البنيان والعجائب فى الأرض ، وقد أعرضنا عن ذكرها ، وذكر السد الأعظم — وهو سد يأجوج ومأجوج — وتنازع الناس فى كيفية بنائه كتنازعهم فى إرم ذات العماد على ماذكرنا آنفا ، وكيفية بناء الأهرام بأرض مصر وما عليها من الكتابة المرسومة ، وما بصعيد مصر من البرابى المصنوعة ، وبغير أرض الصعيد من أرض مصر ، وأخبار مدينة العقاب ، وما ذكر الناس فيها ، وكونها فى وهاد مصر ، وأنها فى جهة الواحات مما يلى المغرب والحبشة ، وخبر العمود الذى ينزل منه الماء فى فصل من السنة بأرض عاد ، وأخبار النمل الذى على قدر الذباب والكلاب ، وقصة أرض الذهب التى حذاء سلجاسة من أرض المغرب ، ومن هنالك من وراء النهر العظيم ، ومبايعتهم من غير مشاهدتهم ولا مخاطبتهم ، وتركهم المتاع ، وغدو الناس الى أمتعتهم فيجدون أعمدة الذهب وقد تركت إلى جنب كل متاع من تلك الأمتعة ، فان شاء مالك المتاع اختار الذهب وترك المتاع ،

و إن شاء أخذ متاعه وترك الذهب ، و إن أحب الزيادة ترك الذهب والمتاع ، وهذا مشهور بأرض المغرب بسلجاسة ، ومنها حمل التجار الأمتعة إلى ساحل هذا النهر ، وهو نهر عظيم واسع الماء ، وكذلك بأقاصى خراسان مما يلى الترك من أقاصى ديارهم أمة تبايع على هذا الوصف من غير مخاطبة ولا مشاهدة ، وهم هنالك على نهر عظيم أيضا ، وخبر البئر المعطلة والقصر المشيد ، وذلك ببلاد الشحر من بلاد الأحقاف بين اليمن وحضرموت ، والبئر وما فيها من الحرف واتصالها بالقرى والفضاء من أعلاها وأسفلها ، وما قاله الناس فى تأويل هذه الآية فيها ، وهل المراد بالقصر والبئر هذا القصر والبناء أو غيره ، وأخبار مخاليف اليمن ، وهى القلاع والحصون كقلعة نحل وغيرها ، وأخبار مدينة رومية وكيفية بنائها وماحوته من عجيب الهياكل والكنائس ، والعمود الذى عليه السودانية من النحاس وما يحمل إليها من الزيتون فى أيامه بالشأم وغيره ، ويحمل ذلك الزيتون المعروف بالسودانية طير فى مخالبه ومناقره فيطرحه على السودانية النحاس فيكثر زيتون رومية وزيتها من ذلك على حسب ما ذكرنا فى أخبار الطلسمات عن ماليعاس وغيره فى كتابنا « أخبار الزمان » ثم أخبار البيوت السبعة التى ببلاد الأندلس وخبر مدينة الصقر وقبة الرصاص التي بمفاوز الأندلس ، وما كان من خبر الملوك السالفة فيها وتعذر الوصول إليها ، ثم ما كان من أمر صاحب عبد الملك بن مروان فى نزوله عليها ، وما تهافت فيه المسلمون عند الطلوع على سورها ، و إخبارهم عن أنفسهم أنهم وصلوا إلى نعيم الدنيا والآخرة ، وخبر المدينة التى أسوارها من الصفر على ساحل البحر الحبشى فى أطراف مفاوز الهند ، وما كان من ملوك الهند وعدم وصولهم إليها ، وما يجرى من وادى الرمل نحوها ، وما ببلاد الهند من الهياكل المتخذة للأصنام التى على صورة البدر المتقدم ظهورها فى قديم الزمان بأرض الهند ، وخبر الهيكل المعظم الذى ببلاد الهند المعروف ببلاد الرى ، وهذا عند الهند يقصد من البلدان الشاسعة ، وله بلد قد وقف عليه ، وحوله ألف

مقصورة فيها جوار لم تنظر لتعظيم هذا الصنم من الهند ، وخبر الهيكل الذى فيه الصنم ببلاد المولتان على نهر مهران من أرض السند ، وخبر سندار كسرى ببلاد مرماسين من أعمال الدينور من ماء الكوفة ، وكثير من أخبار العالم وخواص بقاعه وأبنيته وجباله وتدافع ما فيه من الخلق وغيره مما قد أتينا على ذكره فيما سلف من كتبنا ، وكذلك ما خص به كل بلد من اللباس والأخلاق دون غيرهم ، وما انفردوا به من أنواع الأغذية والمآكل والمشارب والشم ، وعجائب كل بلد وذكرنا أخبار البحار وما قيل فى اتصال بعضها ببعض وتفاغل مياهها وما يحدث فى كل بحر منها من الآفات وما فيه من الجوهر دون غيره من البحار ؛ كتكون المرجان ببحر المغرب وعدمه من غيره ووجود اللؤلؤ فى البحر الحبشى دون غيره

محاولات قديمة لوصل بحر الروم بالبحر الأحمر

وقد كان بعض من ملك من الروم حفر بين القلزم و بحر الروم طريقا فلم يتأت له ذلك ؛ لارتفاع القلزم ، وانخفاض بحر الروم ، وأن الله عز وجل قد جعل ذلك حاجزا على حسب ما أخبر فى كتابه ، والموضع الذى حفره ببحر القلزم يعرف بذنب التمساح على ميل من مدينة القلزم ، عليه قنطرة عظيمة يجتاز عليها من يريد الحج من مصر ، وأجرى خليجا من هذا البحر إلى موضع يعرف بالهامة ، صنعه محمد بن على الحرانى من أرض مصر فى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — فلم يتأت له اتصال بين بحر الروم و بحر القلزم

وحفر خليج آخر مما يلى بلاد تنيس ودمياط و بحيرتهما ، و يعرف هذا الخليج بالزنير والحسة ، واستمر الماء فى هذا الخليج من بحر القلزم الذى فى نحو من هذه القرى ومن بحر القلزم فى خليج ذنب التمساح فيتتابع أرباب المراكب وتقرب حمل ما فى كل بحر إلى آخر ، ثم ارتدم ذلك على تطاول الدهور وملأته السوافى من الرمل وغيره .

وقد رام الرشيد أن يوصل بين هذين البحرين مما يلى النيل من أعالى مصبه من نحو بلاد الحبشة وأقاصى صعيد مصر فلم يتأت له قسمة ماء النيل ، فرام ذلك مما يلى بلاد الفرما نحو بلاد تنيس على أن يكون مصب بحر القلزم إلى البحر الرومى فقال يحيى بن خالد : يخطف الروم الناس من المسجد الحرام والطواف ، وذلك أن مراكبهم تنتهى من بحر القلزم إلى بحر الحجاز فتطرح سراياها مما يلى جدة فيخطف الناس من المسجد الحرام ومكة والمدينة على ما ذكرنا ، فامتنع من ذلك .

وقد حكى عن عمرو بن العاص — حين كان بمصر — أنه رام ذلك فمنعه عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، وذلك لما وصفنا من فعل الروم وسراياهم ، وذلك فى حال ما افتتحها عمرو بن العاص فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وأثار الحفر بين هذين البحرين فيما ذكرنا من المواضع والخلجان على حسب ما شرعت فيه الملوك السالفة طلبا لعمارة الأرض وخصب البلاد وعيش الناس بالأقوات وأن يحمل إلى كل بلد ما فيه من الأقوات وغيرها من ضروب المنافع وضروب المرافق والله تعالى أعلم .

ذكر جامع التاريخ

من بدء العالم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

وما لحق بهذا الباب

قد ذكرنا فيما سلف من كتبنا جملا من تباين الناس فى بدء العالم ممن أثبت حدوثه وتناهيه وما جرت الآراء بهم فيه إلى جهات شتى ، وقد أخبرنا أنهم طوائف وفرق من اليونانيين ومن وافقهم على القول بالقدم من الفلكيين والطبيعيين وما أوردته الفلكية من قولها : إن الحركة الصانعة للأشخاص الحالة فيها الأرواح متى قطعت المسافة التى بين العقدة التى ابتدأت منها حتى تنتهى إليها راجعة ثم تنفصل عنها أعادت كل مابدأت أولا كهيئته وأشخاصه وصوره وضروب أشكاله إذ كانت العلة والسبب اللذين بوجودهما توجد الأشياء ووجود الوجود بدء فوجب ظهور الأشياء متى عادت إلى المبدأ الذى كان عند الصدر ، ثم مايعقب هذا القول من قول الطبيعيين : إن علة كون الأشياء الجسمانية والنفسانية من قبل حركات الطبائع واختلاطها لأن الطبيعة عندهم تحركت فى بدوها واختلطت فأظهرت الحيوان والنبات وسائر الموجودات فى العالم وجعلت لها أصلا فى التناسل فحركت عن تبقية الأشخاص وعرت إلى النسل ، وإن الطبائع تنتقل من مركب إلى بسيط ، ومن بسيط إلى مركب ، حتى أورى المركب كنه ما فيه ، وعادت الأشياء إلى البسيط وابتدأ الكون على طريقه ؛ لأن الذى أوجبه أولا قد وجد فحقه أن يوجد منه بوجود المعنى الذى أوجده ، فظهر ذلك الظهور كالنبات فى الربيع ، وتحرك قوته تحت الثرى ، وذلك أن الشمس تبلغ فى الربيع إلى رأس الحمل بادئة فى شرفها آخذة فى ممرها ، وهى العلة الكبرى فى الأحياء وما حدث من الثمر والزهور فى الشجر بادئا كان ظاهرا بالمثال الأول الذى قد باد فى الشتاء ويبسه وبرده

لأن علة الكون الحرارة والرطوبة وعلة الفساد البرد واليبس ، فاذا انتقلت الأشياء من الحرارة والرطوبة إلى البرد واليبوسة فارقت الكون المتمم ودخلت الفساد ، فاذا انتهى بها الفساد إلى غايته وأوصلها إلى نهايته عاقبها الكون بوصول الشمس إلى رأس الحمل فبدأ بها بعادته فى إنشائها وأبرزها من خساسة الفساد إلى نفاسة الكون ، ولو كانت الحواس تضبط شأن الأجسام وتحيط بانتقالها من حال إلى حال لشاهدت ممرها فى دائرة الزمان مبتدئة فى رتبه راجعة إليها مشكلة فى محيط الدائرة بأشكال توافق بعضها ، والشكول مختلفة باختلاف العلل متفرقة فى المرور كاختلاف الأسباب ، وفى هذا القول من هذه الطائفة ما صرح بالقول وأبان عنه ، وقضية الفحص توجب أن الأشياء الموجودة غير خالية من أحد منزلين : إما أن يكون بدء وانتهاء ، وإما أن يكون بدء لا انتهاء ، فواجب أن تكون أجزاؤها وأبعاضها غير متناهية ، وواجب أن يكون الزمان غير عادّ لها ولا حاصر لجميعها ، وقد وجدنا التناهى والابداء فى أجزائها وأبعاضها على الدوام ، وأنا فى كل يوم جديد نعاين خلقا جديدا ، وصورا فى العالم لم تكن ، وصورا بادئة قد كانت متأثلة ، وفى هذا مايدل على حصر الأشياء ووقوعها فى غاية انتهاء صدرها ، وأوجب أن للأشياء بدءا وانتهاء ، وبطل قسم المتوهم أن الأشياء بلا نهاية ، وأن ليس لها ابتداء ولا غاية ، وذلك باطل ومحال فاسد ، ولو وجب أن تكون الأشياء الموجودة بلا بدء ولا نهاية لوجب أن لا يزول شىء من مركزه ولا يتحول عن رتبته ، ولبطلت الاستحالة وبسطت المتضادة ، وهذا مستحيل ، ولوجب أن تكون الأشياء على غير نهاية ، ولما كان لقولنا اليوم وأمس وغدا معنى لأن هذه الأزمان بعد ما هو بالنهاية ويوجد فى حوزتها إيجاد ما لم يكن ودخلها فى حوزتها ما هو كائن ، وفيما ذكرنا ما أوضح عن تنقل شأن المعانى ودل على حدوث الأجسام ، وهذه الدلاله مأخوذة من الحس ، ومستظهرة للعقول والبحث ، وإذ قد وضح أن الأشياء محدثة لكونها بعد أن لم تكن فلا بد

من محدث هو بخلافها لاشكل له ولا مثل ؛ لأن العقل لايقيم شيئا مثلا حتى يعلم له قدرا ووزنا يعادله بمثله وشكله ، وتعالى وجل وعز من لاتعبر عن ذاته اللغات ، وتعجز العقول أن تحصره بالصفات ، وتدركه بالاشارات ، أو يكون ذا غايات ونهايات

قال المسعودى : فلنرجع الآن إلى الكلام فى حصر تاريخ العالم لما ذكرنا قول من قال بقدمه ودل على أزليته ، وقد تقدم ذكرنا لقول الهند فى ذلك فيما سلف من هذا الكتاب ، وأما اليهود فانهم زعموا أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة وأخذوا فى ذلك مأخذا سريعا ، وذهبت النصارى إلى أن عمر العالم ماذهبت إليه اليهود ، وأما الصابئة من الحرانيين والكتابيين [1] فقد ذكرنا قولهم فى ذلك فى جملة قول اليونانيين ، وأما المجوس فانهم ذهبوا فى ذلك إلى حد معلوم من نقاد قوة الهرميد وكيده ، وهو الشيطان ، ومنهم من ذهب فى ذلك إلى نحو ما ذهب إليه أصحاب الأنيس والجلوس ، وأن العالم سيعود بدءا متخلصا من الشرور والآفات ، وزعمت المجوس أن من وقت زرادشت بن سيمان نبيهم إلى الاسكندر مائتين وثمانين سنة ، وملك الاسكندر ست سنين ، ومن ملك الاسكندر إلى ملك أردشير خمسمائة سنة وأربع وستون سنة ، فذلك من هبوط آدم إلى هجرة النبى صلى الله عليه وسلم ستة آلاف سنة ومائة سنة وست وعشرون سنة : منها من هبوط آدم عليه السلام إلى الطوفان ألفان ومائتان وست وخمسون سنة ، ومن الطوفان إلى مولد إبراهيم الخليل عليه السلام ألف وتسع وسبعون سنة ، ومن مولد إبراهيم إلى ظهور موسى بعد ثمانين سنة خلت من عمر موسى بن عمران — وهو وقت خروجه ببنى إسرائيل من مصر إلى التيه — خمسمائة وخمس وستون سنة ، ومن خروجهم إلى سنة أربع من ملك سليمان بن داود عليه السلام — وذلك وقت ابتدائه فى بناء بيت المقدس — ستمائة وست وثلاثون سنة ، ومن بناء بيت المقدس إلى ملك الاسكندر سبعمائة وسبع عشرة سنة ،

(١) كذا ، وانظر (ص ١٤٥) من هذا الجزء

ومن ملك الاسكندر إلى مولد المسيح ثلثمائة سنة وتسع وستون سنة ، ومن مولد المسيح إلى مولد النبى صلى الله عليه وسلم خمسمائة سنة و إحدى وعشرون سنة ، و بين أن رفع الله المسيح وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة إلى وفاة النبى صلى الله عليه وسلم خمسمائة سنة وست وأربعون سنة ، و بين مبعث المسيح وهجرة النبى صلى الله عليه وسلم خمسمائة وأربع وتسعون سنة ؛ وكانت وفاة نبينا صلى عليه وسلم فى سنة تسعمائة وخمس وثلاثين سنة من سنى ذى القرنين ، ومن داود إلى محمد صلى الله عليه وسلم ألف سنة وسبعمائة سنة وسنتان وستة أشهر وعشرة أيام ، ومن إبراهيم إلى محمد صلى الله عليه وسلم ألفا سنة وسبعمائة سنة وعشرون سنة وستة أشهر وعشرة أيام ، ومن نوح إلى محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثة آلاف سنة وسبعمائة سنة وعشرون سنة وعشرة أيام ، فعلى هذا القول إن جميع جملة التاريخ من هبوط آدم إلى الأرض إلى مبعث النبى صلى الله عليه وسلم أربعة آلاف سنة و إحدى عشرة سنة وستة أشهر وعشرة أيام ، فجملة التاريخ من هبوط آدم إلى الأرض إلى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة من خلافة المتقى بالله ونزوله الرقة من ديار مضر — خمة آلاف سنة ومائة وست وخمسون سنة

وقد ذكرنا جملا من التاريخ فيما سلف من هذا الكتاب فلم نعد منه ما تقدم

وللمجوس فى التواريخ أقاصيص يطول ذكرها وعود الملك إليهم و إلى غيرهم من الطوائف السالفة فى بدوّ العالم وفنائه ، ومن قال منهم ببقائه ، وأن لا بدء له ولا نهاية ، ومن ذهب منهم إلى أن له انتهاء ولا بدء له ، وقد أتينا على ذلك فيما سلف من كتبنا فأغنى ذلك عن الإعادة فى هذا الكتاب ؛ لاشتراطنا فيه على أنفسنا

الاختصار والايجاز والتنبيه على ما سلف لنا من الكتب

وقدذهب جماعة من أهل البحث والنظر من أهل الإسلام [إلى] أن الدلالة قدقامت على حدوث العالم وكونه بعد أن لم يكن ، وأن المحدث له الخالق البارى جل وعز ، أحدثه لامن شيء ويبعثه لا من شيء فى الآخرة ليصح بذلك وعده ووعيده ، إذ كان الصادق فى وعده ووعيده لا مبدل لكلماته ، وأن أول العالم من لدن آدم ، وقد غاب عنا حصر السنين وإحصاؤها ، وتنازع الناس فى بدء التاريخ ، والكتاب لم يخبر بحصر أوقاته ولا بين عن كيفيته ولاأعداد سنيه فيما مضى ، وليس علم ذلك مما تهتجم عليه الآراء ، ولا تحصره أقضيات العقول وموجبات الفحص وضرورات الحواس عند مذاكرتها لمحسوساتها ، فكيف توجب أن يوقت عمر الدنيا بسبعة آلاف سنة ، والله عز وجل يقول وقد ذكر الأجيال ومن ضمه الهلاك : (وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا) والله تعالى ذكره يقول فى الشيء الكثير الشيء الحقير ، وأعلمنا فى كتابه خلق آدم وما كان من أمره وأمر الأنبياء بعده ، وأخبر عن شأن بدء الخلق ، ولم يخبرنا بمقدار ذلك فنقف عليه كوقوفنا عند ما أخبرنا به ، ولا سيما مع علمنا أن البدء بيننا و بينه متفاوت ، وأن الأرض كثرت بها المدن والملوك والعجائب ، فلا نحصر ما لم يحصر الله عز وجل ، ولا يقبل من اليهود ما أوردته ، لنطق القرآن أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه ويكتمون الحق وهم يعلمون ونفيهم النبوات وجحدهم ما أتوا به من الآيات مما أظهره الله عز وجل على يدى عيسى بن مريم من المعجزات وعلى يدى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من البراهين الباهرات والدلائل والعلامات ، والله عز وجل يخبرنا بما أهلك من الأمم لما كان من فعلهم وكفرهم بربهم قال الله عز وجل : (الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة كذبت ثمود وعاد بالقارعة فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية) إلى قوله : (فهل ترى لهم من باقية) ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم « كذب النسابون » وأمر أن ينسب

إلى معد [1] ونهى أن يتجاوز بالنسب إلى مافوق ذلك ؛ لعلمه بما مضى من الأعصار الخالية والأمم الفانية ، ولولا أن النفوس إلى الطارف أحَنُّ ، وبالنوادر أشغف ، وإلى قصار الأحاديث أميل وبها أكلف ، لَذَكَرْنا من أخبار المتقدمين وسير الملوك الغابرين مالم نذكره فى هذا الكتاب ، ولكن ذكرنا فيه ماقرب تناوله تلويحا بالقول دون الايضاح والشرح ، إذا كان مُعَوَّلنا فى جميع ذلك على ما سلف من كتبنا وتقدم من تصنيفنا ، وإذا علم الله عز وجل موقع النية ووجه القصد أعان على السلامة من كل مخوف

وقد ذكرنا فى هذا الكتاب من كل فن من العلوم وكل باب من الآداب على حسب الطاقة ومبلغ الاجتهاد والاختصار والايجاز لُمَعًا سيعرفها من تأمل وينبه بها من رآها

وإذ قد ذكرنا جوامع ما يحتاج إليه المبتدى والمنتهى من علوم العالم وأخباره فلنذكر الآن نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومولده ، ومبعثه ، وهجرته ، ووفاته ، وأيام الخلفاء والملوك : عصرا فعصرا إلى وقتنا هذا ، ولم نعرض فى كتابنا هذا لكثير من الأخبار ، بل لوحنا بالقول بها تخوفا من الاطالة ووقوع الملل ؛ إذ ليس ينبغى للعاقل أن يحمل البنية على ما ليس فى طاقتها ويسوم النفس ما ليس فى حيلتها ، وإنما الألفاظ على قدر المعانى ، وقليلها القليل ، وهذا باب كبير ، وبعضه ينوب عن بعض ، والجزء منه يوهم الكل ، والله تعالى ولى التوفيق .

---

(١) المؤلف ذكر معدا ، وإنما هو عدنان ، كما ذكر فى كثير من مصنفات التاريخ والحديث ، والاجماع على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما انتسب إلى عدنان ولم يتجاوزه

ذكر مولد النبى صلى الله عليه وسلم ونسبه
وغير ذلك مما لحق بهذا الباب

وقد ذكرنا فيما سلف من كتبنا بدء التاريخ فى أخبار العالم وأخبار الأنبياء والملوك وعجائب البر والبحر وجوامع التاريخ للفرس والروم والقبط وشهور الروم والقبط ، وما كان من مولد النبى صلى الله عليه وسلم إلى مبعثه ، ومن آمن به قبل رسالته ، وقد قدمنا فى هذا الكتاب من كان بينه وبين المسيح من أهل الفترة ، فلنذكر الآن مولده ، إذ كان طاهرا مطهرا الأغر الأزهر ، الذى اتسعت أعلام نبوته ، وتواترت دلائل رسالته ، ونطقت له السموات قبل بعثته

نسب النبى عليه السلام

وهو محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معدبن عدنان بن أد بن أدد ابن ناحور بن يعور بن يعرب بن يشجب بن ثابت بن إسمعيل بن إبراهيم خليل الرحمن بن تارح بن آزر بن ماخور بن ساروغ بن ارعواء بن فالغ بن عابر بن شالخ ابن إرفخشذ بن سام بن نوح بن لَمَك بن متُّو شلَخ بن أخنوخ بن برد بن مهلاييل ابن معسوف بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام[1]

هذا مافى نسخة ابن هشام فى كتاب جمهرة النسب ، والنسخ مختلفة الأسماء فى النسب من نزار ، وفى نسخة أن نزار بن معد بن عدنان بن أدد بن نام بن يشجب بن يعرب بن الهميسع بن صانوع بن يافث بن فيدر بن إسمعيل بن إبراهيم ابن تارخ بن ناخور بن أرعواء بن أسروح بن فالح بن شالخ بن إرفخشذ بن سام بن نوح بن متولشخ بن خنوخ بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث ابن آدم

وفى رواية ابن الأعرابى عن هشام بن محمد الكلبى هو نزار بن معد عدنان

(١) الأسماء من بعد عدنان فيها اختلاف كثير فى العدة والضبط، وانظر سيرة ابن هشام أول الجزء الأول

ابن أدبن أدد بن الهميسع بن تبت بن سلامان بن فيدر بن إسمعيل بن إبراهيم الخليل بن تارخ بن ناخور بن ساروخ بن ارعواء بن فالغ بن عابر بن شالخ بن إرفخشذ بن سام بن نوح بن لمك بن متوشلخ بن خنوخ بن برد بن مهلاييل ابن معسوف بن شيث بن آدم عليه السلام

وفى التوراة أن آدم عليه السلام عاش تسعمائة سنة وثلاثين سنة ، فيجب والله أعلم أن آدم عليه السلام كان عند مولد لمك ـ وهو أبو نوح النبى عليه السلام ـ ابن ثمانمائة سنة وأربع وستين سنة ، وشيث ابن سبعمائة وأربع وأربعين سنة ، فيجب على هذا الوصف من الحساب أن مولد نوح عليه السلام كان بعد وفاة آدم بمائة وست وعشرين سنة

وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم على حسب ماذكرنا من نهيه أن يتجاوز عن معد ، فقد ثبت أن نتوقف فى النسب على ماذكرنا ؛ فالواجب الوقف عند أمره عليه السلام ونهيه

قال المسعودى : وقد وجدت نسب ابن عدنان فى السفر الذى أثبته تاروح ابن باريا كاتب أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن معدًا ابن عدنان بن أدبن الهميسع ابن سلامان بن عوص بن بردبن فسماويل بن أبى العوامر بن ناسك بن حرابن لمدارم بن بدلان بن كالح بن فاحم بن ناسح بن صاعى بن عنصى بن عنف بن عبيد بن الرعى بن حمران بن سيس بن قنرى بن نحرى بن بلخى بن ارعوا ابن عنقاء بن حسان بن عيسى بن اقياد بن ايهامز بن معصر بن ماحب بن رواح ابن سماى بن مر بن عوص بن عوامر بن فيدر بن إسمعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام

وقد كان لأرمياء مع معد بن عدنان أخبار يطول ذكرها وما كان من أمرهما بالشام ، وقد أتينا على ذكر ذلك فيما سلف من كتبنا ، وإنما ذكرنا هذا النسب من هذا الوجه ليعلم تنازع الناس فى ذلك

وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن تجاوز معد لعلمه من تباعد الأنساب

وكثرة الآراء فى طول هذه المدة والأعصار

كنيته عليه السلام

وكنيته صلى الله عليه وسلم أبو القاسم ، وفى ذلك يقول الشاعر : —

لله ممن قد برا صَفْوَةً ... وصفوة الخلق بنو هاشم

وصفوة الصفوة من هاشم ... محمد النور أبو القاسم

أسماؤه عليه السلام

وهو محمد ، وأحمد ، والماحى الذى يمحو الله به الذنوب ، والعاقب ، والحاشر الذى يحشر الناس على عقبه صلى الله عليه وسلم

زمن مولده عليه السلام

وكان مولده عليه السلام عام الفيل ، و بين عام الفيل وعام الفجار عشرون سنة ، والفجار [1] حرب كانت بين قيس عيلان و بين كنانة ، استحلوا فيها القتال فى الأشهر الحرم ، فسميت الفجار ، وكنانة بن خزيمة بن مدركة هو عمرو ابن الياس بن مضر بن نزار ، وكان ولد الياس عمراً وعامراً وعميراً [2] فعمرو هو مدركة ، وعامر هو طابخة ، وعمير هو قمعة ، وكانت أمهم ليلى بنت حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، وهى خندف ، فغلب على من ذكرنا الألقاب ، ونسب ولد الياس إلى أمهم خندف ، وفى ذلك يقول قصى بن كلاب بن مرة :—

إنى أرى الحرب لحيى وأبى ... عند تناديهم بآل وهب

معترم الصولة عالى النسب ... أمىَ خندف والياس أبى

---

(١) قال الجوهرى: الفجار يوم من أيام العرب وهى أربعة أفجرة كانت بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان فى الجاهلية وكانت الدبرة على قيس وإنما سمت قريش هذه الحرب فجارا لأنها كانت فى الأشهر الحرم فلما قاتلوا فيها قالوا قد فجرنا فسميت فجارا اه

(٢) قوله وكان ولد الياس الخ قال المجد: وولد الياس بن مضر عمرا وهو مدركة وعامرا وهو طابخة وعميرا وهو قمعة وأمهم خندف كزبرج وهى ليلة بنت حلوان بن عمران وكان الياس خرج فى نجعة ففرت إبله من أرنب فخرج إليها عمرو فأدركها وخرج عامر فتصيدها وطبخها واقتمع عمير فى الجباء وخرجت أمهم تسرع فقال لها الياس: أين تخندفين؟ فقالت : مازلت أخندف فى أثركم، فلقبوا مدركة وطابخة وقمعة وخندف اه

وقريش خمسة وعشرون بطنا [١] وهم بنو هاشم بن عبد مناف ، بنو الحرث ابن عبد المطلب ، بنو أسد بن عبد العزى ، بنو عبد الدار بن قصى ، وهم حجبة الكعبة ، بنو زهرة بن كلاب ، بنو تميم بن مرة ، بنو مخزوم ، بنو يقظة ، بنو مرة ، بنو عدى بن كعب ، بنو سهم ، بنو جمح ، وإلى هنا تنتهى قريش البطاح على حسب ما قدمناه فيما سلف من هذا الكتاب ، بنو مالك بن حنبل ، بنو معيط ابن عامر ، بنو لؤى ، بنو أسامة بن لؤى ، بنو الأدرم ، وهم تميم بن غالب ، بنو محارب بن فهم ، بنو الحرث بن عبد الله بن كنانة ، بنو عائذة ، وهم خزيمة بن لؤى ، بنو نباتة ، وهم سعيد بن لؤى ، ومن بنى مالك إلى آخر القبائل من قريش الظواهر على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا للمطيبين وغيرهم من قريش

وكان من حرب الفجار ما ذكرنا للمتفاخرين بالعشائر والتكاثر ، وكان الفجار فى شوال ، وكان حِلْفُ الفضول بعد منصرفهم من الفجار ، فقال بعضهم :-

نحن كنا الملوك من آل نجد ... وحماة الذمار عند الدمار
ومنعنا الحجون من كل حى ... ومنعنا الفجار يوم الفجار

وفى ذلك قال خداش بن زهير العامرى : —

فلا توعدينى بالفجار فانه ... أحل ببطحاء الحجون المخازيا

وقد كان الحِلْفُ فى ذى القعدة بسبب رجل من زبيد من اليمن ، وكان باع سلعة له من العاص بن وائل السهمى ، فمطله بالثمن حتى يئس ، فعلا جبل أبى قبيس ، وقريش فى مجالسها حول الكعبة ، فنادى بشعر يصف فيه ظلامته رافعا صوته مناديا يقول : —

ياللرجال لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نَائى الْحَىِّ والنفر
إن الحرام لمن تمت كرامته ... ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فمشت قريش بعضها إلى بعض ، وكان أول من سعى فى ذلك الزبير بن

(١) قد ترك المؤلف تسمية بعض هذه البطون

عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، واجتمعت قبائل قريش فى دار الندوة ، وكانت للحل والعقد ، وكان ممن اجتمع بها من قريش بنو هاشم بن عبد مناف وبنو المطلب بن عبد مناف وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة وبنو الحرث بن فهر ، فاتفقوا على أنهم ينصفون المظلوم من الظالم ، فساروا إلى دار عبد الله بن جدعان ، فتحالفوا هنالك ، ففى ذلك يقول الزبير بن عبد المطلب : —

حلفت لَنَعْقِدَنْ حلفا عليهم ... وإن كنا جميعاً أهل دار

نسميه الفضول إذا عقدنا ... يعز به الغريب لدى الجوار

ويعلم مَنْ حوالى البيت أنا ... أباة الضيم نهجر كل عار

حروب الفجار

وقد قدمنا فى كتابنا الأوسط أخبار الأحلاف والفجارات الأربعة : فجار الرجل ، وفجار بدر[1] بن معشر ، وفجار القرد[2] ، وفجار المرأة ، والفجار الرابع هو فجار البراض ، ومن الفجار الرابع وحضور النبى صلى الله عليه وسلم ومشاهدته الفجار الرابع إلى أن خرج إلى الشأم فى تجارة خديجة ونظر نسطور الراهب إليه وهو فى صومعته والنبى صلى الله عليه وسلم مع ميسرة وقد أظلته غمامة فقال : هذا نبى ، وهذا آخر الأنبياء — أربع سنين وتسعة أشهر وستة أيام ، وإلى أن تزوج خديجة بنت خويلد شهران وأربعة وعشرون يوما ، وإلى أن شهد بنيان الكعبة وحضر منازعة قريش فى وضع الحجر الأسود عشر سنين .

وقد كان السيل هدم الكعبة فبرق منها لما انهدمت غزال من الذهب وحلى وجواهر فنقضتها قريش ، وكان فى حيطانها صور كثيرة بأنواع من الأصابع عجيبة : منها صورة إبراهيم الخليل فى يده الأزلام ، ويقابلها صورة إسمعيل ابنه على فرس

(١) فى أصول هذا الكتاب « زيد بن معشر » والتصويب عن الأغانى (١٩ : ٧٤) .

(٢) فى أصول هذا الكتاب «وفجار ألف ود وفجار المرأة» ولا معنى له ، وانظر الأغانى . واعلم أن الفجارات التى ذكرها المؤلف أربعة منها هى أيام الفجار الأول ، وخامس ما ذكره هو يوم من أيام الفجار الثانى . واطلب تفصيل ذلك من الأغانى (١٩ : ٧٤ وما بعدها طبع بولاق) .

يخبر الناس مقبضا والعاروب قائم على وفد الناس يقسم فيهم ، و بعد هذه الصورة صور كثير من أولادهم إلى قصى بن كلاب وغيرهم ، فى نحو من ستين صورة مع كل واحد من تلك الصور آلة صاحبها وكيفية عبادته وما اشتهر من فعله .

اختلاف قريش فى وضع الحجر الاسود

ولما بنت قريش الكعبة و رفعت سمكها وتأتى لها ما أرادت فى بنيانها من الخشب الذى ابتاعوه من السفينة التى رمى بها البحر إلى ساحلهم التى بعث بها ملك الروم من القلزم من بلاد مصر إلى الحبشة لتبنى هنالك له كنيسة وانتهوا إلى موضع الحجر وتنازعوا على ما ذكرنا أيهم يضعه ، فاتفقوا على أن يرضوا بأول من يطلع عليهم من باب بنى شيبة ، فكان أول من ظهر لأبصارهم النبى صلى الله عليه وسلم من ذلك الباب ، وكانوا يعرفونه بالأمين لوقاره وهديه وصدق لهجته واجتنابه القاذورات والأدناس ، فحكموه فيما تنازعوا فيه ، وانقادوا إلى قضائه ، فبسط ما كان عليه من رداء ، وقيل : كساء ، وأخذ عليه السلام الحجر فوضعه فى وسطه ثم قال لأربعة رجال من قريش وأهل الرياسة فيهم والزعماء منهم ، وهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، والأسود بن عبد المطلب بن أسد ابن عبد العزى بن قصى ، وأبو حذيفة بن المغيرة بن عمرو بن مخزوم ، وقيس بن عدى السهمى : ليأخذ كل واحد منهم بجنب من جنبات هذا الرداء ، فشالوه حتى ارتفع من الأرض ، وأدنوه من موضعه ، فأخذ عليه السلام الحجر ووضعه فى مكانه وقريش كلها حضور ، وكان ذلك أول ما ظهر من فعله وفضائله وأحكامه ، فقال قائل لمن حضر من قريش متعجبا من فعلهم وانقيادهم إلى أصغرهم سنا : واعجبا لقوم أهل شرف ورياسة وشيوخ وكهول عمدوا إلى أصغرهم سنا وأقلهم مالا فجعلوه عليهم رئيساً وحاكما !! أما واللات والعزى ليفوقنهم سبقا وليقسمن بينهم حظوظا وجدودا ، وليكونن له بعد هذا اليوم شأن ونبأ عظيم .

وقد تنوزع فى هذا القائل : فمن الناس من رأى أنه إبليس ظهر فى ذلك اليوم فى جمعهم فى صورة رجل من قريش كان قد مات ، وزعموا أن اللات والعزى أحيتاه لذلك المشهد ، ومنهم من رأى أنه بعض رجالهم وحكمائهم ومن كانت له فطنة

فلما استتمت قريش بناء الكعبة كستها أردية الزعماء ، وهى الوصائل ، وأعادوا الصور التى كانت مصورة فى الكعبة ، وأبقوا شكل ذلك وأحكامه

فخر أبي طالب بحكم النبى عليه السلام

وكان أبو طالب حاضرا ، فلما سمع هذا الكلام من هذا القائل فى النبى صلى الله عليه وسلم وما يكون من أمره فى المستقبل أنشأ يقول :

إن لنا أوله وآخره ... فى الحكم العدل الذى لا ننكره

وقد جهدنا جهدنا ليغمره ... وقد عهدنا أوله وآخره

* فان يكن حقا ففينا أكثره *

وكان من بناء الكعبة إلى أن بعثه الله صلى الله عليه وسلم خمس سنين ، ومن مولده إلى يوم مبعثه أربعون سنة ويوم .

تحديد يوم مولده عليه السلام

والذى صح من مولده عليه السلام أنه كان بعد قدوم أصحاب الفيل بمكة بخمسين يوما ، وكان قدومهم مكة يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة ثمانمائة واثنتين وثمانين من عهد ذى القرنين ، وكان قدوم أبرهة مكة لسبع عشرة خلت من المحرم لست عشرة ومائتين من تاريخ العرب الذى أوله حجة العدة ولسنة أربعين من ملك كسرى أنوشروان .

وكان مولده عليه السلام لثمان خلون من ربيع الأول من هذه السنة بمكة فى دار ابن يوسف ، ثم بعد ذلك بنتها الخيزران أم الهادى والرشيد مسجدا وكان أبوه عبد الله غائباً بأرض الشام فانصرف مريضاً فمات بالمدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم حمل ، وقد تنوزع فى ذلك : فمنهم من قال : إنه مات بعد مولد النبى صلى الله عليه وسلم بشهر ، ومنهم من قال : إنه مات فى السنة الثانية من مولده وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب

جماع الحوادث من مبدأ مولده عليه السلام

وفى السنة الأولى من مولده رفع إلى حليمة بنت عبد الله بن الحرث ترضعه وفى السنة الثانية من كونه فى بنى سعد كان أبوه يقول : —

الحمد لله الذى أعطانى ... هذا الغلام الطيب الأردان

قد ساد فى المهد على الغلمان أعيذه بالبيت ذى الأركان

وفى رواية أن عبد المطلب قال :

لاهم رب الراكب المسافر يحمد قلب بخير طائر

تنح عن طريقه الفواجر وحيه برصد الطواهر

واحبس كل حلف فاجر فى درج الريح والأعاصر

وفى السنة الثالثة من مولده شق الملكان بطنه واستخرجا قلبه فشقاه وأخرجا منه علقة سوداء ثم غسلا بطنه وقلبه بالثلج ، وقال أحدهما لصاحبه : زنه بعشرة من أمته ، فوزنه ، ثم قال : ما زال يزيد حتى بلغ الألف ، فقال : والله لو وزنته بأمته لوزنها

وفى السنة الرابعة ردته إلى أمه مرضعته حليمة ، وقيل : فى مستهل السادسة و بين ذلك و بين عام الفيل خمس سنين وشهران وعشرة أيام

وفى السنة السابعة من مولده خرجت به أمه إلى أخواله تزورهم فتوفيت بالأبواء ، وقدمت به أم أيمن إلى مكة بعد خامسة من موت أمه

وفى السنة الثامنة من مولده توفى جده عبد المطلب وضمه عمه أبو طالب إليه ، وكان فى حجره ، وخرج معه عمه إلى الشأم وله ثلاث عشرة سنة ، ثم خرج فى تجارة لخديجة بنت خويلد إلى الشأم مع غلامها ميسرة وهو ابن خمس وعشرين سنة

قال المسعودى : وقد أتينا على مبسوط هذا الباب فى كتابنا « أخبار الزمان »

ذكر مبعثه صلى الله عليه وسلم

وما جاء فى ذلك إلى هجرته

بعثته صلى الله عليه وسلم

ثم بعث الله رسوله وأكرمه بما اختصه به من نبوته ، بعد بنيان الكعبة بخمس على ما قدمنا آنفا ، وهو ابن أربعين سنة كاملة ، فأقام بمكة ثلاث عشرة سنة ، وأخفى أمره ثلاث سنين ، ونكح خديجة بنت خويلد ، وأنزل عليه بمكة من القرآن اثنتان وثمانون سورة ، ونزل تمام بعضها بالمدينة ، وأول ما نزل عليه من القرآن (اقرأ باسم ربك الذى خلق) وأتاه جبريل صلى الله عليه وسلم فى ليلة السبت ، ثم فى ليلة الأحد ، وخاطبه بالرسالة فى يوم الاثنين ، وذلك بحراء ، وهو أول موضع نزل فيه القرآن ، وخاطبه بأول السورة إلى قوله : (علم الانسان ما لم يعلم) ونزل تمامها بعد ذلك ، وخوطب بفرض الصلوات ركعتين ركعتين ، ثم أمر بإتمامها بعد ذلك ، وأقرت ركعتين فى السفر وزيد فى صلاة الحضر

وكان مبعثه صلى الله عليه وسلم على رأس عشرين سنة من ملك كسرى أبرويز وذلك على رأس مائتى سنة من يوم التحالف بالربذة ، وذلك لستة آلاف ومائة وثلاث عشرة سنة من هبوط آدم عليه السلام ، وقد ذكر مثل هذا عن بعض حكماء العرب فى صدر الاسلام ممن قرأ الكتب السالفة على حسب ما استخرج من عاد الكبير ، وفى ذلك يقول الشاعر : —

فى رأس ألف من السنين ... إلى ثلاث حصلت يقين
والمائة المعدودة التمام ... إلى ألوف سدست نظام
أرسله الله لنا رسولا ... وكان فينا هادى السبيلا

إسلام علي بن أبى طالب

وقد تنوزع فى على بن أبى طالب كرم الله وجهه و إسلامه : فذهب كثير من الناس إلى أنه لم يشرك بالله شيئا فيستأنف الاسلام ، بل كان تابعا للنبى

صلى الله عليه وسلم فى جميع أفعاله مقتديا به ، و بلغ وهو على ذلك ، وأن الله عصمه وسدده ووفقه لتبعيته لنبيه عليه السلام ، لأنهما كانا غير مضطرين ولا مجبورين على فعل الطاعات ، بل مختارين قادرين فاختارا طاعة الرب وموافقة أمره واجتناب منهياته ، ومنهم من رأى أنه أول من آمن ، وأن الرسول دعاه وهو موضع التكليف فظاهر قوله جل وعز (وأنذر عشيرتك الأقربين) وكان بدؤه بعلى إذ كان أقرب الناس إليه وتبعهم له ، ومنهم من رأى غير ما وصفنا ، وهذا موضع قد تنازع الناس فيه من الشيعة ، وقد احتج كل فريق لقوله ، ومنهم من قال بالنص فى الامامة والاختيار وأرض كل فريق وكيفية إسلامه ومقدار سنيه قد أتينا على الكلام فى ذلك على الشرح والايضاح فى كتابنا المترجم بـ « كتاب الصفوة فى الامامة » وفى كتاب « الاستنصار » وفى كتاب « الزاهى » وغيره من كتبنا فى هذا المعنى

اسلام أبى بكر ومن أسلم باسلامه

ثم أسلم أبو بكر رضى الله عنه ، ودعا قومه إلى الإسلام ، فأسلم على يديه عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، فجاءهم النبى صلى الله عليه وسلم فأسلموا ، فهؤلاء النفر سبقوا الناس بالإيمان ، وقد قال بعض من تقدم من الشعراء فى صدر الاسلام يذكرهم : —

فياسائلى عن خيار العبا ... د صادفت ذا العلم والخبرَهْ
خيارُ العباد جميعا قريشٌ ... وخيرُ قريش ذَوُو الهجرهْ
وخيرُ ذوى الهجرة السابقونَ ... ثمانيةٌ وحدهم نصره
علىٌّ وعثمان ثم الزُّبَيْر ... وطَلْحَة واثنان من زُهْره
وشَيْخان قد جاورا أحمدا ... وجاور قبراهما قَبْرَهْ
فمن كان بعدهما فاخرا ... فلا تذكروا عندهم فخره

وقد اختلف فى أول من أسلم : فمنهم من رأى أن أبا بكر الصديق كان أول

الناس إسلاما ، وأسبقهم إيمانا ، ثم بلال بن حمامة ، ثم عمرو بن عنبسة ، ومنهم من ذهب إلى أن أول من أسلم من النساء خديجة ، ومن الرجال[1] على ، ومنهم من رأى أن أول من أسلم زيد بن حارثة حِبُّ النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم خديجة ، ثم على كرم الله وجهه ، وقد ذكرنا ماأحببنا من القول فى ذلك فيما قدمنا ذكره فى هذا المعنى ، والله تعالى ولى التوفيق

ذكر هجرته ، وجوامع مما كان فى أيامه صلى الله عليه وسلم إلى وقت وفاته

فرض الجهاد

أمر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم بالهجرة ، وفرض عليه الجهاد ، وذلك فى سنة إحدى من الهجرة ، وهى السنة التى نزل فيها الأذان ، وكانت سنة أربع عشرة من المبعث ،

وكان ابن عباس يقول : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين سنة ، وأقام بمكة ثلاث عشرة سنة ، وهاجر عشرا ، وقبض وهو ابن ثلاث وستين سنة

تاريخ الهجرة

وكانت سنة إحدى من الهجرة — وهى سنة اثنتين وثلاثين من ملك كسرى أبرويز ، وسنة تسع من ملك هرقل ملك النصرانية ، وسنة تسعمائة وثلاث وثلاثين من ملك الاسكندر المقدونى

قال المسعودى : وقد ذكرنا فى الكتاب الأوسط كيفية فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خروجه من مكة ، ودخوله الغار ، واستئجار على[2] له الابل ، ونومه

---

(١) كان على رضى الله عنه يوم أسلم صبيا يكفله رسول الله ، وتمام هذا القول أن أول من أسلم من النساء خديجة ، ومن الرجال ، أبو بكر ، ومن الصبيان على ، ومن الموالى زيد ، رضى الله عنهم أجمعين

(٢) فى ابن هشام وغيره أنه خرج على راحلة لابى بكر ، وأنه اشتراها منه

على فراشه ، فخرج النبى صلى الله عليه وسلم من مكة ، ومعه أبو بكر وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر وعبد الله بن أريقط الديلمى دليل لهم على الطريق ، ولم يكن مسلما ، وكان مقام على بن أبى طالب بعده بمكة ثلاثة أيام إلى أن أدّى ما أمر بأدائه ، ثم لحق بالرسول صلى الله عليه وسلم

قدومه المدينة وبقاؤه فيها

وكان دخوله عليه السلام إلى المدينة يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة مضت من ربيع الأول ؛ فأقام بها عشر سنين كوامل ، وكان نزوله عليه السلام فى حال موافاته المدينة بقباء على سعد بن خثيمة ، وكان مقامه بقباء يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وسار يوم الجمعة ارتفاع النهار ، وأتته الأنصار حيا حيا يسأله كل فريق النزول عليه ، ويتعلقون بزمام راحلته وهى تجذبه ، فيقول عليه السلام : « خلوا عنها فانها مأمورة » حتى أدركته الصلاة فى بنى سالم ، فصلى بهم يوم الجمعة ، وكانت تلك أول جمعة صليت فى الاسلام ، وهذا موضع تنازع الفقهاء فى العدد الذى بهم تتم صلاة الجمعة : فذهب الشافعى فى آخرين معه إلى أن الجمعة لاتجب إقامتها حتى يكون عدد المصلين أربعين فصاعدا ، وأقل من ذلك لا يجزى ، وخالفه غيره من الفقهاء من أهل الكوفة وغيرهم ، وكان فى بطن الوادى المعروف بوادى رانوناء إلى هذه الغاية ، ثم استوى على ناقته ، فسارت لا تُعَرِّجُ على شىء ، ولا يردها راد ، حتى أتت إلى موضع مسجده عليه السلام ، والموضع يومئذ لغلامين يتيمين من بنى النجار ، فبركت ، ثم سارت غير بعيد ، ثم عادت إلى مبركها فبركت واطمأنت ، والنبى صلى الله عليه وسلم يراعى مكارم البارى منه ، وتوفيقه له ، فنزل عنها ، وسار إلى منزل أبى أيوب الأنصارى — وهو خالد بن كليب بن ثعلبة بن عوف بن سحيم بن مالك بن النجار — فأقام فى منزله شهرا حتى ابتنى المسجد من بعد ابتياعه الموضع ، وأحدقت به الأنصار ، واشتد سرورهم به ، وأظهروا التأسف على ما فاتهم من نصرته ، وفى ذلك يقول صرمة بن أنس أحد بنى عدى بن النجار من قصيدة : —

ثوى فى قريش بضع عشرة حجة ... يُذَكِّر لا يلقى صديقا مواتيا
ويعرض فى أهل المواسم نفسه ... فلم ير من يوفى ولم ير داعيا
فلما أتانا أظهر الله دينه ... وأصبح مسرورا بطَيْبَةَ راضيا
وأصبح لا يخشى من الناس واحدا ... بعيدا ، ولا يخشى من الناس دانيا
بذلنا له الأموال فى كل ملكنا ... وأنفُسَنَا عند الوغى والتآسيا
ونعلم أن الله لا رب غيره ... وأن رسول الله للحق رائيا
نعادى الذى عادى من الناس كلهم ... جميعا ، وإن كان الحبيب المصافيا

فافترض شهر رمضان ، وحولت القبلة إلى الكعبة ، بعد قدومه بثمانية عشر شهرا ، وقد قيل : إنه أنزل عليه بالمدينة من القرآن اثنتان وثلاثون سورة ، ثم قبضه الله يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة مضت من ربيع الأول سنة عشر ، فى الساعة التى دخل فيها المدينة ، فى منزل عائشة رضى الله عنها ، وكانت علته اثنى عشر يوما

زمن وفاته عليه السلام

وكانت غزواته صلى الله عليه وسلم بنفسه ستا وعشرين غزوة ، ومنهم من رأى أنها سبع وعشرون ، الأولون جعلوا منصرف النبى صلى الله عليه وسلم من خيبر إلى وادى القرى غزوة واحدة ، والذين جعلوها سبعا وعشرين جعلوا غزوة خيبر مفردة ووادى القرى منصرفه إليها غزوة أخرى غير خيبر ، فوقع التنازع فى أعداد الغزوات من هذا الوجه ، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم حين فتح الله خيبر انصرف منها إلى وادى القرى من غير أن يأتى المدينة ،

عدة غزواته عليه السلام

وكان أول غزواته صلى الله عليه وسلم من المدينة بنفسه إلى وَدَّان ، وهى المعروفة بغزوة الأبواء ، ثم غزوة بُوَاط إلى ناحية رَضْوَى ، ثم غزوة العشيرة من بطن ينبع ، ثم غزوة بدر الأولى ، وكان خروجه طلبا لكرز بن جابر ، ثم غزوة بدر الكبرى ، وهى بدر الثانية التى قتل فيها صناديد قريش وأشرافها وأسر من أسر من زعمائهم ، ثم غزوة بنى سليم حتى بلغ الموضع المعروف بالكدر ماء لبنى

ترتيب المغازى

سليم ، ثم غزوة السويق طلبا لأبى سفيان بن حرب فبلغ فيها الموضع المعروف بقرقرة الكدر ، ثم غزوة غطفان إلى نجد وتعرف هذه الغزوة بغزوة ذى أمر ، ثم غزوة بحران وهو موضع بالحجاز من فوق الفرع ، ثم غزوة أحد ، ثم غزوة حمراء الأسد ، ثم غزوة بنى النضير ، ثم غزوة ذات الرقاع من نجد ، ثم غزوة بدر الأخيرة ، ثم غزوة دومة الجندل ، ثم غزوة المُرَيْسيع ، ثم غزوة الخندق ، ثم غزوة بنى قريظة ، ثم غزوة بنى لحيان بن هذيل بن مدركة ، ثم غزوة ذى قرد ، ثم غروة بنى المصطلق من خزاعة ، ثم غزوة الحديبية لا يريد قتالا فصده المشركون ، ثم غزوة خيبر ، ثم اعتمر عليه السلام عمرة القضاء ، ثم غزوة مكة ، ثم غزوة حنين ، ثم غزوة الطائف ، ثم غزوة تَبُوك

قاتل منها فى تسع غزوات : بدر ، وأحد ، والخندق ، وقريظة ، وخيبر ، والفتح ، وحنين ، والطائف ، وتبوك

هذا قول محمد بن إسحق : فأما ماذهب إليه الواقدى فانه وافق ابن إسحق فى قتال النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه التسع الغزوات ، وزاد أن النبى صلى الله عليه وسلم قاتل فى غزوات وادى القرى ، وذلك أن غلامه المعروف بمدعم رمى بسهم فقتل ، وقاتل فى يوم الغابة فقتل من المشركين ستة نفر ، وقتل يومئذ محرز ابن نضلة ، ففى قول الواقدى أنه قاتل فى إحدى عشرة غزوة ، وفى قول ابن إسحق فى تسع ؛ فقتاله فى التسع باتفاق منهما ، وزاد الواقدى على ما ذكر .

وقد قيل : إن أول غزوة غزاها عليه السلام ذات العشيرة

السرايا والبعوث

وقد تنازع من سلف من أهل السير والأخبار فى عدة سراياه و بعوثه : فقال قوم : إن عدة سراياه و بعوثه بين أن قدم المدينة و بين أن قبضه الله خمس وثلاثون بعثا وسرية ، وذكر محمد بن جرير الطبرى فى كتابه فى التاريخ قال : حدثنى الحرث ، قال : حدثنا ابن سعد ، قال : قال محمد بن عمرو الواقدى : كانت سرايا

النبى صلى الله عليه وسلم ثمانيا وأربعين سرية ، وقيل : إن سراياه عليه السلام وبعوثه كانت ستة وستين

وقبض صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وستين سنة على حسب ما تقدم فى صدر هذا الكتاب من قول ابن عباس ، ولم يخلف من الولد إلا فاطمة عليها السلام ، وتوفيت بعده بأربعين يوماً ، وقيل : سبعين يوما ، وقيل غير ذلك

وكان تزويج على بن أبى طالب لفاطمة عليهما السلام بعد سنة مضت من الهجرة ، وقيل أقل من ذلك

وكانت أول امرأة تزوج بها النبى صلى الله عليه وسلم خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، وكانت وفاتها فى شوال بعد مبعثه بثلاث سنين وأسرى به وهو ابن إحدى وخمسين سنة وثمانية أشهر وعشرين يوما

وكانت وفاة عمه أبى طالب - واسمه عبد مناف - بعد وفاة خديجة بثلاث أيام ، وهو ابن تسع وأربعين سنة وثمانية أشهر ، وقد قيل : إن أبا طالب اسم له.

وتزوج بعد وفاة خديجة بسَوْدَة بنت زَمْعة بن قيس بن عبدود بن نصر بن مالك بن حسل

وتزوج بعائشة رضى الله عنها بعد الهجرة بسبعة أشهر وتسعة أيام ، وقد أتينا على ذكر سائر أزواجه فى الكتاب الأوسط فأغنى عن إعادته

روى جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن على عن أبيه على الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال: إن الله عز وجل أدب محمدا صلى الله عليه وسلم فأحسن تأديبه ، فقال (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) فلما كان كذلك قال الله تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم) فلما قبل من الله فوض إليه فقال (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وكان يضمن على الله الجنة فأجيزله ذلك

وكان عدة من تزوج من النساء خمس عشرة : دخل بأحدى عشرة منهن ولم يدخل بأربع ، وقبض عليه السلام عن تسع

النزاع فى عمره عليه الصلاة والسلام

قال المسعودى : وقد تنوزع فى مقدار عمره عليه السلام ، وقد قدمنا ما روى فى ذلك عن ابن عباس ، وهو ما ذكره حماد بن سلمة عن أبى حمزة عن ابن عباس ، وقد روى عن أبى هريرة مثل قول ابن عباس ، وذكر عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن وهو ابن ثلاث وأربعين سنة ، وأقام بمكة عشرا ، وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وكذلك ذكر عن عائشة قالت : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وقد روى عن ابن عباس من وجه آخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض وهو ابن خمس وستين سنة ، وكذلك ذكر ابن هشام قال : حدثنا على بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس ، وذكر قتادة عن الحسن عن دحيل[1] - يعنى ابن حنظلة - أن النبى صلى الله عليه وسلم توفى وهو ابن خمس وستين ، وقد قيل : إنه قبض وهو ابن ستين، وذكر ذلك عن ابن عباس وعائشة وعروة بن الزبير ، وذكر حماد قال : أخبرنا عمرو ابن دينار ، عن عروة بن الزبير ، قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين سنة ، ومات وهو ابن ستين ، وذكر شيبان عن يحيى بن أبى كثير ابن أبى سلمة قال : حدثتنى عائشة رضى الله عنها وابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث وهو ابن أربعين سنة ، فلبث بمكة عشر سنين ، وبالمدينة عشر سنين ، وقبض وهو ابن ستين صلى الله عليه وسلم

وإنما حكينا هذا الخلاف ليعلم من نظر فى كتابنا هذا أنا لم نغفل شيئا مما قالوه ، ولا تركنا شيئا ذكروه ، إلا ذكرنا منه ما يتأتى لنا ذكره وأشرنا إليه ؛ ميلا إلى الاختصار وطلبا للايجاز ، والذى وجدنا عليه آل محمد عليه الصلاة والسلام أنه ابن ثلاث وستين سنة ، ولما غسل عليه السلام كفن فى ثلاثة أثواب ثوبين صحاريين وثوب حبرة أدرج فيها إدراجا ، ونزل فى قبره على بن أبى طالب والفضل وقثم بن العباس

وفاته وتكفينه ودفنه عليه السلام

(١) كذا ، ولعله دغفل بن حنظلة الشيبانى الذهلى ، أحد العلماء بالنسب ، يروى عنه الحسن وابن سيرين

وشقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر فى مقدار الثياب للكفن غير ما ذكرنا ، والله أعلم بكيفية ذلك

ولنرجع الآن إلى ذكر لمع من أموره وأخبار كانت من مولده إلى وفاته صلى الله عليه وسلم وشرف وعظم

ذكر امور واحوال من مولده إلى وفاته صلى الله عليه وسلم

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب من ذكر مولده عليه السلام ومبعثه ووفاته جوامع يكتفى بها العالم المستبصر ، ويتنبه بها الطالب المسترشد ، وذكرنا جملا من الكوائن والأحداث فى تضاعيف ذلك ، وأفردنا هذا الباب لذكر ترتيب جمل من السنين من مولده إلى وفاته ، وجمل أحداث وكوائن كانت فى أيامه ، ليقرب تناول ذلك على مريده ، ويسهل مأخذه على الطالب له ، وإن كنا قد أتينا على لمع من مبسوط هذا الباب فيما تقدمه من الأبواب إن شاء الله تعالى

السنة الأولى من مولده

فى أول سنة من مولده دفع إلى حليمة بنت عبد الله بن الحرث بن شِجْنة[1] ابن جابر بن رزام بن نصر بن معد بن عدنان[2]

السنة الخامسة

وفى السنة الخامسة من مولده ردته حليمة إلى أمه ، على حسب ماذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب

السنة السادسة

وفى السنة السادسة أخرجته أمه إلى أخواله زائرة فتوفيت بالأبواء بين مكة والمدينة ، ونمى ذلك إلى أم أيمن ، فخرجت إليه وقدمت به إلى مكة ، وكانت مولاةً له قد ورثها عن أمه

السنة التاسعة

وفى السنة التاسعة خرج مع عمه أبى طالب إلى الشأم ، وقيل : إنه خرج مع عمه أبى طالب إلى الشأم وله ثلاث عشرة سنة ، وقد كان أبو طالب أخا

(١) فى الأصول « بن سحنة » بالسين والحاء المهملتين . والتصويب عن ابن اسحاق

(٢) كذا ، وليس بصواب ، قال ابن إسحاق « حليمة بنت عبد الله بن بن الحارث بن شجنة بن جابر بن رزام بن ناصرة بن قصية بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان » .

عبدالله أبى النبى صلى الله عليه وسلم لأبيه وأمه ، فلذلك كفل بأمر النبى صلى الله عليه وسلم من بين سائر إخوته ، وهم : العباس ، وحمزة ، والزبير ، وحجل ، والمقوم ، وضرار ، والحرث ، وأبو لهب ، وهم عشرة بنو عبد المطلب ، وكان لعبد المطلب ستة عشر ولدا : عشرة ذكور ،وهم من سمينا ، وستة إناث ، هن : عاتكة ، وصفية ، وأميمة ، والبيضاء ، وبَرَّة ، وأروى ، ولم يسلم منهن إلاصفية أم الزبير بن العوام ، وقد تنوزع فى أروى : فمنهم من قال : إنها أسلمت

أعمام النبى عليه السلام وعماته

وفى خروجه عليه السلام مع عمه فى هذه السنة نظر إليه بحيرا الراهب ، وأوصاهم بمراعاته من اليهود فانهم أعداؤه لعلمهم بما يكون من نبوته على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا لخبر بحيرا الراهب وما كان من إخباره بنبوة النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك فى باب أهل الفترة ممن كان بين المسيح ومحمد عليهما السلام

وقد قدمنا أنه عليه السلام شهد يوم حرب الفجار ، وذلك فى سنة إحدى وعشرين ، وأنها حرب كانت بين قريش وقيس عيلان ، فيما سلف من هذا الكتاب وغيره ، وأنها إنما سميت بهذا الاسم الذى هو الفجار لأنها كانت فى الأشهر الحرم ، وكانت لقيس على قريش ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم لما شاهدها صارت لقريش على قيس ، وكان على قريش يومئذ عبد الله بن جُدْعان التيمى ، وكان نخاسا للجاهلية بيَّاعا للجوارى ، وكانت هذه إحدى الدلائل المنذرة بنبوته عليه السلام والتيمن بحضوره

سنة ست وعشرين

وفى سنة ست وعشرين كان تزويجه بخديجه بنت خويلد ، وهى يومئذ بنت أربعين ، وقيل فى سنها غير هذا

سنة ست وثلاثين

وفى سنة ست وثلاثين بنت قريش الكعبة ، وتراضت به ، فوضع الحجر على حسب ما قدمنا

سنة إحدى وأربعين

وفى سنة إحدى وأربعين بعثه الله نبيا ورسولا إلى كافة الناس ، وذلك

لعشر خلون من ربيع الأول ، على حسب تنازع الناس فى تاريخ مبعثه عليه السلام

سنة ست وأربعين

وفى سنة ست وأربعين كان حصار قريش للنبى صلى الله عليه وسلم وبنى هاشم وبنى عبد المطلب فى الشِّعْب

سنة خمسين

وفى سنة خمسين كان خروجه عليه السلام ومن تبعه إلى الطائف

وفى هذه السنة كانت وفاة خديجة زوجه ، على حسب ما ذكرنا على غير هذا التفصيل

سنة إحدى وخمسين

وفى سنة إحدى وخمسين كان الإسراء به صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ، على حسب مانطق به التنزيل

سنة أربع وخمسين

وفى سنة أربع وخمسين كانت هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وفيها بنى صلى الله عليه وسلم مسجده ، وفيها دخل بعائشة بنت أبى بكر رضى الله عنها وهى ابنة تسع ، وتزوج بها بعد الهجرة بسبعة أشهر ، وقيل عن عائشة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض وهى بنت ثمان عشرة سنة ، وكانت وفاتها سنة ثمان وخمسين من الهجرة ، وفيها أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأذان ، وأرى عبد الله بن زيد كيفية الأذان فى منامه ؛ وفيها كان تزوج على بن أبى طالب بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم على حسب ماذكرنا من التنازع فى التاريخ

سنة اثنتين من الهجرة

وفى سنة اثنتين من الهجرة افترض على المؤمنين صوم شهر رمضان ؛ وفى هذه السنة أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالتوجه إلى الكعبة ، وفيها توفيت ابنته رقية ، وفى آخر هذه السنة — وهى سنة اثنتين من الهجرة — كان دخول على بن أبى طالب بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وفيها كانت وقعة بدر ، وذلك فى يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان

سنة ثلاث من الهجرة

وفى سنة ثلاث كان تزويجه بزينب بنت خزيمة ، وكانت وفاتها بعد شهرين

وفى هذه السنة كان تزويجه بحفصة بنت عمر بن الخطاب ؛ وفيها كان تزويج عثمان ابن عفان بأم كلثوم ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وفيها كان مولد الحسن ابن على بن أبى طالب على مافى ذلك من التنازع فى التاريخ ؛ وفيها كانت غزوة أحد ؛ وفى هذه السنة استشهد حمزة بن عبد المطلب

سنة أربع من الهجرة

وفى سنة أربع كانت غزوته المعروفة بذات الرقاع ، وفى هذه الغزاة صلى صلاة الخوف بالناس ، على حسب ماذكرنا فى كيفية ذلك من التنازع ؛ وفيها كان تزويجه بأم سلمة بنت أمية ؛ وفيها كانت غزوته إلى اليهود من بنى النضير ، وامتنعوا منه بحصونهم ، فقطعوا نخلهم وشجرهم ، وأضرموا النار عليهم ، فلما رأى ذلك صالحهم ؛ وفيها كانت غزوته إلى بنى المصطلق ؛ وفيها — وهى سنة أربع — كان مولد الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ، وقد قيل : إن مولد فاطمة رضى الله تعالى عنها قبل الهجرة بثمان سنين

سنة خمس من الهجرة

وفى سنة خمس كانت غزوة الخندق وما كان من حفر الخندق ؛ وفيها غزا اليهود من بنى قريظة ، وكان من أمرهم ماقد شهر ؛ وفيها كان تزويجه بزينب بنت جحش ؛ وفيها كان تَقَوُّلُ أهل الافك على عائشة رضى الله تعالى عنها

سنة ست من الهجرة

وفى سنة ست كان استسقاؤه عليه السلام لما لحق الناس من الضر والجدب ؛ وفيها اعتمر عمرته المعروفة بعمرة الحديبية وواعد المشركين ، وفيها أخذ فدك ؛ وفيها تزوج أم حبيبة بنت أبى سفيان ، ووجه بالرسل إلى كسرى وقيصر ، وكان فيها أداؤه لكتابة جويرية بنت الحرث وتزويجه بها

سنة سبع من الهجرة

وفى سنة سبع غزا خيبر فافتتحها ، واصطفى صفية بنت حيى بن أخطب لنفسه ؛ وفيها تزوج ميمونة بنت الحرث الهلالية خالة عبد الله بن عباس فى سفره حين اعتمر فى عمرة القضاء ، على ماذكرنا من التنازع فى نكاحه لها أفى حال حله نكحها أم فى حال إحرامه ، وما قال الفقهاء فى ذلك ، وتنازع الناس فى نكاح المحرم ؛ وفيها كان قدوم حاطب بن أبى بلتعة من مصر من عند المقوقس ملكها

ومعه مارية القبطية أم إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من هدايا المقوقس إليه ؛ وفيها كان قدوم جعفر بن أبى طالب من أرض الحبشة وركوبهم البحر

سنة ثمان من الهجرة

وفى سنة ثمان استشهد جعفر بن أبى طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة بأرض مؤتة من أرض البلقاء من أرض الشأم وأعمال دمشق فى وقعتهم مع الروم ؛ وفيها كانت وفاة زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : غير ذلك من التاريخ

وفى سنة ثمان كان افتتاح النبى صلى الله عليه وسلم مكة ، وقد تنازع الناس فى فتحها أصلحا كان أم غيره ، وفيها كسرت الأصنام ، وهدمت العرائم ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « يامعشر قريش ، ماترون أنى فاعل بكم » ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ؛ وفيها غزا غزوة حنين ، وكان على هوازن مالك بن عوف النضرى ومعه دريد بن الصمّة ؛ وفيها كانت غزوة الطائف ، وفيها كان إعطاؤه للمؤلفة قلوبهم وفيهم أبو سفيان صخر بن حرب وابنه معاوية ؛ وفيها كان مولد إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم من مارية القبطية

سنة تسع من الهجرة

وفى سنة تسع حج أبو بكر الصديق رضى الله عنه بالناس ، وقرأ على بن أبى طالب عليهم سورة براءة ، وأمر أن لا يحج مشرك ، وأنه لا يطوف بالبيت عريان ؛ وفيها كانت وفاة أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم

سنة عشر من الهجرة

وفى سنة عشر حج رسول الله عليه الصلاة والسلام حجة الوداع ، وقال : « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » ؛ وفيها كانت وفاة إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وله سنة وعشرة أشهر وثمانية أيام ، وقيل غير ذلك ؛ وفيها كان بعثه عليه السلام بعلى إلى اليمن ، وأحرم كإحرام النبى صلى الله عليه وسلم ، على حسب ماقدمنا فيما سلف من هذا الكتاب

قبل هذا الباب من ذكر وفاته ومقدار عمره وما قاله الناس فى ذلك ، وفى وفاة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم على حسب ما ذكرنا من تنازع الناس فى مقدار عمرها ومدة بقائها بعد أبيها ومن الذى صلى عليها : العباس بن عبد المطلب أم بعلها على، ولما قبضت جزع عليها جزعا شديداواشتد بكاؤه وظهر أنينه وحنينه ، وقال فى ذلك : —

لكل اجتماع من خليلين فرقة وكل الذى دون الممات قليل
وإن افتقادى فاطما بعد أحمد دليل على أن لا يدوم خليل

أولاد النبى صلى الله عليه وسلم

وكان أولاده صلى الله عليه وسلم من خديجة خلا إبراهيم ؛ ولد له صلى الله عليه وسلم القاسم وبه يكنى ، وكان أكبر بنيه سنا ، ورقية وأم كلثوم ، وكانتا تحت عتبة وعتيبة ابنى أبى لهب فطلقاهما لخبر يطول ذكره ، فتزوجهما عثمان بن عفان واحدة بعد واحدة ، وزينب ، وكانت تحت أبى العاص بن الربيع ، وفرق الاسلام بينهما ، ثم أسلم فردها عليه بالنكاح الأول ، وهذا موضع خلاف بين أهل العلم فى كيفية رده عليه السلام لزينب على أبى العاص ، وولدت من أبى العاص أمامة وتزوجها على بعد موت فاطمة عليهما السلام .

وولد له عليه الصلاة والسلام بعد ما بعث عبد الله وهو الطيب والطاهر ، الثلاثة الأسماء له لأنه ولد فى الإسلام ، وفاطمة ، وإبراهيم ، وقد أتينا فى كتابنا « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط على ما كان من سنة مولده عليه السلام إلى مبعثه ، ومن مبعثه إلى هجرته ، ومن هجرته إلى وفاته ، ومن وفاته إلى وقتنا هذا ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ـ وما كان من ذلك من المغازى والسرايا والبعوث والطرائق والأحداث ، وإنما نذكر فى هذا الكتاب لمعا منبهين بذلك على ما سلف من كتبنا ومذكرين لما تقدم من تصنيفنا ، وبالله التوفيق .

ذكر ما بدأ به عليه الصلاة والسلام من الكلام مما لم يحفظ قبله عن أحد من الأنام

قال أبو الحسن على بن الحسين بن على بن عبدالله المسعودى : بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ، ومبشرا للناس أجمعين ، وقربه الله بالآيات ، والبراهين النيرات ، وأتى بالقرآن المعجز فتحدّى به قوما وهم الغاية فى الفصاحة ، والنهاية فى البلاغة ، وأولو العلم باللغة والمعرفة بأنواع الكلام من الرسائل والخطب والسجع والمقفى والمنثور والمنظوم والأشعار فى المكارم وفى الحب والزجر والتحضيض والإغراء والوعد والوعيد والمدح والتهجين ، فقرع به أسماعهم ، وأعجم به أذهانهم وقبح به أفعالهم ، وذم به آراءهم ، وسفه به أحلامهم ، وأزال به دياناتهم ، وأبطل سنتهم ، ثم أخبر عن عجزهم مع تظاهرهم أن لا يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً مع كونه عربياً مبينا .

وقد تنازع الناس فى نظم القرآن وإعجازه ، وليس الغرض من هذا وصف أقاويل المختلفين ، والإخبار عن كلام المتنازعين ؛ إذ كان كتاب خبر لا كتاب بحث ونظر .

ثبت عنه عليه السلام بالعلم الموروث ونقل إلينا الباقى عن الماضى من بعد قيام الأدلة على صدقه وما أورد من المعجزات والدلائل والعلامات التى أظهر الله على يديه ليؤدى رسالات ربه إلى خلقه أنه قال : أوتيت جوامع الكلم ، وقال : اختصر لى الكلام ، مخبرا عما أوتيه من الحكمة والنطق اليسير ، والكلام القصير البعيد المعانى الكثيرة الوجوه المتفرقة ، مع ما فيه من الحكمة وتمام المصلحة .

وكان كلامه صلى الله عليه وسلم أحسن المقال وأوجزه ، لقلة ألفاظه وكثرة معانيه

فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم عند عرضه لنفسه على القبائل بمكة

وأبو بكر وقومه على بكر بن وائل وتقدم أبى بكر إليهم وماجرى بينه و بين دغفل من الكلام فى النسب « البلاء موكل بالمنطق » وهذا مما سبق إليه من الكلام ولم يضف إلى غيره من الأنام ، ثم إخباره عن الحرب وقوله « الحرب خدعة » فعلم بهذا اللفظ اليسير والكلام الوجيز أن آخر مكايد الحرب القتال بالسيف إذ كان بدوها خدعة كما قال عليه السلام ، وهذا يعرفه كل ذى رأى صحيح وذى رياسة وسياسة ، ثم قال : « العائد فى هبته كالعائد فى قيئه » زاجرا بهذا القول نلواهب أن لايسترجع شيئا وهبه ؛ إذ كان القىء لايرجع فيه من قاءه

وللناس فى هذا المعنى كلام كثير وخطب طويل ، وإنما الغرض فيما نذكر إيراد كلامه صلى الله عليه وسلم ووصف قوله الذى لم يتقدمه به أحد من الناس

وقوله « احثوا فى وجوه المداحين التراب » المراد من ذلك إذا كذب المادح ، ولم يرد عليه السلام إذا شكر الانسان غيره بما أولاه أو وصفه بما هو فيه أو قال ماله أن يقول أن يحثى فى وجهه التراب ، ولو كان هذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم إذا مامدح أحد أحدا إذا كان هذا النهى عموما للصادق والكاذب وأن يحثى فى وجه الجميع التراب ، وهذا خلاف ماجاء به التنزيل حيث يقول عز وجل مخبرا عن نبيه يوسف وقوله للملك : (اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم) فقدم مدح نفسه ووصف حاله ، وجميع مايذكر فى هذا مستفيض فى السير والأخبار ، متقارب عند العلماء ، متداول بين الحكماء ، يتمثل به كثير من الناس ، وتستعمل العوام كثيرا منه فى ألفاظها ، وتورده فى أمثالها وخطاباتها ، والأكثر منهم لايعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله

وقال عليه الصلاة والسلام : مَطْلُ الغني ظلم ، ومن أتبع على ملىء فليتبع .

وقوله : الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف .

رأس الحكمة معرفة الله . ياخيل الله اركبي و بشرى بالجنة . الآن حمى الوطيس .

لا ينتطح فيها عنزان . لايُلْدَغ المؤمن من جحر مرتين . لايجنى على المرء

إلا يده . ليس الخبر كالمعاينة . السديد من غلب نفسه . بورك لأمتى فى بكورها . ساق القوم آخرهم شربا . المجالس بالأمانات . لو بغى جبل على جبل لدك الباغى منهما . ابدأ بمن تعول . مات حَتْفَ أنفه ، يريد بذلك الفجأة وأنه مات من غير علة . ولا تزال أمتى بخير مالم تر الأمانة مغنما والزكاة مغرما . قيدوا العلم بالكتابة . خير المال عين ساهرة لعين نائمة . المسلم مرآة المسلم . رحم الله من قال خيرا فغنم أو سكت عن شر فسلم . المرء كثير بأخيه . اليد العليا خير من اليد السفلى . ترك الشر صدقة . فضل العلم خير من فضل العبادة . الغنى غنى النفس . الأعمال بالنيات . أى داء أدوأ من البخل . الحياء خير كله . الخيل معقود بنواصيها الخير . السعيد من وعظ بغيره . عِدَةُ المؤمن كأخذ باليد . إن من الشعر لحكمة ومن البيان لسحرا . عفو الملوك بقاء للملك . ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء . المكر والخديعة فى النار . المرء مع من أحب ، وله ما اكتسب . ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا . المستشار مؤتمن . من قتل دون ماله فهو شهيد . لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث . الدال على الخير كفاعله . الندم توبة . الولد للفراش وللعاهر الحجر . كل معروف صدقة . لا يشكر الله من لا يشكر الناس . لا يؤوى الضالة إلا ضال . حبك الشىء يعمى ويصم . السفر قطعة من العذاب ؛ وقوله للأنصار : إنكم لتقلون عند الطمع ، وتكثرون عند الفزع ؛ وقوله : المسلمون عند شروطهم إلا شرطا أحل حراما أو حرَّم حلالا . الرجل أحق بصدر مجلسه وصدر دابته . الناس معادن كمعادن الذهب والفضة . الظلم ظلمات يوم القيامة . تمام التحية المصافحة . جبلت القلوب على حب من أحسن إليها . أمنك من أعتبك . ما نقص مال من صدقة . التائب من الذنب كمن لا ذنب له . الشاهد يرى مالا يرى الغائب . خذ حقك فى عفاف واف أو غير واف . اعطوا الأجير أجرته قبل أن يجف عرقه . أهل المعروف فى الدنيا أهل المعروف يوم القيامة . الجنة تحت ظلال السيوف . ليس بمؤمن من خاف جاره بوائقه . اتقوا النار ولو بشق تمرة . أعروا النساء يلزمن

الحجاب . الكلمة الطيبة صدقة . لا خير لك فى صحبة من لا يرى لك ما يرى لنفسه . الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر . ما أملق تاجر صدق . الدعاء سلاح المؤمن . خير الأمور أوسطها . إذا أتاكم الزائر فأكرموه . اشفعوا تحمدوا وتؤجروا . الإيمان الصبر والسماحة . أفضلكم أفضلكم معرفة . ما هلك امرؤ عن مشورة . ما عال امرؤ اقتصد . ما هلك امرؤ عرف قدره . شر العمى عمى القلب . الكذب مجانب للايمان . ما قل وكفى خير مما كثر وألهى . من أثنى فقد كفى . قلة الحياء كفر . المؤمنون هينون لينون . شر الندامة يوم القيامة . شر المعذرة عند الموت . أقيلوا عثرات الكرام . اطلبوا الخير عند صباح الوجوه . الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستعملكم فيها فينظر كيف تعملون . انتظار الفرج عبادة . كادت الفاقة أن تكون كفرا . لم يبق من الدنيا إلا بلاء وفتنة . فى كل عام تزدلون . زرغبا تزدد حبا . الصحة والفراغ نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس ، أو قال : جميع الناس ؛ وقوله : لا يلقى الله أحد إلا نادما : من عمل خيرا قال يا ليتنى ازددت ، ومن عمل غير ذلك قال يا ليتنى قصرت ، وهذا مثل قوله : إياكم والتسويف وطول الأمل ؛ فانه كان سبب هلاك الأمم ، وقوله : ليس منا من غشنا ، وهذا القول يحتمل معانى كثيرة منها أن يكون إخبارا أن من غش المسلمين على حسب الحال فى الوقت أن بعض أهل الكتاب أو المنافقين أخبر عنه بما كان من فعله ، ويحتمل أن يكون على طريق الزجر والنهى عن الغش ، وقد قيل غير ذلك ، والله أعلم ، مثل ما روى عنه أبو مسعود البدرى قال : لا يبقى على وجه الأرض بعد مائة أحد إلا مات ، فاستفاضت هذه الرواية عن أبى مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فجزع الأكثر ، فأفضى ذلك إلى على رضى الله عنه فقال : صدق أبو مسعود فيما قال ، وذهب عنه المراد بذلك ، وإنما مراد النبى صلى الله عليه وسلم أن لا يبقى على وجه الأرض أحد بعد رأس مائة ممن رأى النبى صلى الله عليه

وسلم إلا مات ، وقوله : استعينوا على أموركم بالكتمان وعلى قضاء حوائجكم بالأسرار .

قال المسعودى : وقد جمع كثير ممن تقدم ومن شاهدناه كثيرا من ألفاظ النبى صلى الله عليه وسلم ، وكذلك ذكر أبو إسحق الزجاجى النحوى صاحب أبى العباس المبرد وأبو عبد الله نفطويه وجعفر بن محمد بن حمدان الموصلى وغير هؤلاء ممن تقدمهم وتأخر عنهم ، أوردنا من ذلك فى هذا الكتاب ما سهل إيراده وتأتى لنا ذكره ، على حسب الحاجة إليه واستحقاق الموضع له ، وإن كنا قد أتينا على جميع ما يحتاج إليه فى هذه المعانى فيما سلف من كتبنا وتقدم من تصنيفنا ، فأغنى ذلك عن إعادتها ، والله تعالى ولى التوفيق

باب ذكر خلافة أبى بكر الصديق

رضى الله تعالى عنه

قال المسعودى : ثم بايع النـاس أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، فى سقيفة بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج الأنصارى ، فى يوم الاثنين الذى توفى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوفى أبو بكر ليـلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة ، وهو ابن ثلاث وستين سـنة ، مستوفيا لعمر النبى صلى الله عليه وسلم ، وهـذا اتفاق فى سائر الروايات على ما ذكرنا ، وكان مولد أبى بكر بعد الفيل بثلاث سنين ، وكانت ولايتـه سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام ، ودفن إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كذلك قالت عائشة ، وقد قيل : إن أبا بكر كانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشرين يوما ، وسنذكر فيما يرد من هـذا الكتاب جملا من أيامهم ومقادير ولايتهم ، وكذلك نفرد بعد ما نورده فى هذا الكتاب بعد ذكرنا لأيام بنى أمية وبنى العباس بابا نذكر فيه جميع التاريخ الثانى من الهجرة إلى هذا الوقت - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة - فى خلافة أبى إسحق المتقى بالله أو بعد ذلك من الأوقات إلى حيث ينتهى بنا التصنيف ، وما ذكره أصحاب الزيجات فى النجوم ، وما أرخوه فى مقادير السنين والشهور والأيام ، ونبين تاريخ أصحاب السير والأخبار بين وغـيرهم ؛ إذ كان التفاوت بين الفريقين ومُعَوَّلنـا فى ذلك على ما ذكره أصحاب الزيجات

ذكر نسبه ، ولمع من أخباره وسيره

اسمه ونسبه

كان اسم أبى بكر رضى الله عنه عبد الله بن عثمان ، وهو أبو قحافة بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب ، وفى مرة يجتمع برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقبه عتيق لبشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه عتيق الله من النار فسمى يومئذ عتيقا ، وقيل : إنما سمى عتيقا لعتق أمهاته ، واستخلف وأبوه فى الحياة

وكان أزهد الناس ، وأكثرهم تواضعا فى أخلاقه ولباسه ومطعمه ومشربه ، وكان لبسه فى خلافته الشملة والعباءة

تواضعه ولباسه

وقدم إليه زعماء العرب وأشرافهم وملوك اليمن وعليهم الحلل وبرد الوشى المثقل بالذهب والتيجان والحبرة فلما شاهدوا ما عليه من اللباس والزهد والتواضع والنسك وما هو عليه من الوقار والهيبة ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم

وفد ذو الكلاع ملك حمير على أبي بكر

وكان ممن وفد عليه من ملوك اليمن ذو الكلاع ملك حمير ، ومعه ألف عبد دون ما كان معه من عشيرته ، وعليه التاج وما وصفنا من البرود والحلى ، فلما شاهد من أبى بكر ما وصفنا ألقى ما كان عليه وتزيًّا بزيه ، حتى إنه رؤى يوما فى سوق من أسواق المدينة على كتفيه جلد شاة ، ففزعت عشيرته ، وقالوا له : فضحتنا بين المهاجرين والأنصار ، قال : فأردتم أن أكون ملكا جبارا فى الجاهلية جبارا فى الاسلام ، لاها الله ، لاتكون طاعة الرب إلا بالتواضع لله والزهد فى هذه الدنيا ، وتواضعت الملوك ومن ورد عليه من الوفود بعد التكبر وتذللوا بعد التجبر

أبو بكر وأبو سفيان

وبلغ أبا بكر رضى الله عنه عن أبى سفيان صخر بن حرب أمر فأحضره وأقبل يصيح عليه وأبو سفيان يتملقه ويتذلل له ، وأقبل أبو قحافة فسمع صياح أبى بكر ، فقال لقائده : على من يصيح ابنى ؟ فقال له : على أبى سفيان ، فدنا من أبى بكر وقال له : أعلى أبى سفيان ترفع صوتك ياعتيق ؟ لقد تعديت طَوْرَك

وجزت مقدارك ، فتبسم أبو بكر ومن حضره من المهاجرين والأنصار ، وقال له : يا أبت ، إن الله قد رفع بالاسلام قوما وأذلّ به آخرين .

ولم يتقلد الخلافة وأبوه باق غير أبى بكر .

نسبه من جهة أمه

وأم أبى بكر سَلْمَى وتكني أم الخير بنت صخر بن عمرو بن عامر بن كعب ابن سعد بن تيم بن مرة

وارتدت العرب بعد استخلافه بعشرة أيام .

أولاده

وكان له من الولد عبد الله ، وعبد الرحمن ، ومحمد ؛ فأما عبد الله فانه شهد يوم الطائف مع النبى صلى الله عليه وسلم فلحقه جراحة وبقى إلى خلافة أبى بكر ومات فى خلافته ، وخلف سبعة دنانير فاستكثرها أبو بكر ، ولاعقب لعبد الله ، وأما عبدالرحمن بن أبى بكر فانه شهد مع المشركين ثم أسلم فحسن إسلامه ؛ ولعبدالرحمن أخبار وله عقب كثير بدو وحضر من ناحية الحجاز مما يلى الجادة من طريق العراق فى الموضع المعروف بالضفيسان والمسح ، ومحمد بن أبى بكر أمه أسماء بنت عميس الخثعمية ، ومنها عقب جعفر بن أبى طالب ، وخلف عليها حين استشهد عبد الله[1] وعونا ومحمدا ابنى جعفر ، فقتل عون ومحمد ابنا جعفر بالطف مع الحسين بن على ، ولا عقب لهما ، وعقب عبد الله بن جعفر على وإسمعيل وإسحق ومعاوية ، وتزوجها بعده أبو بكر الصديق ، فخلف منها محمدا ، ثم تزوجها على بن أبى طالب فأولدها أولادا درجوا ولا عقب له منها ، وأم أسماء العجوز الحرشية كان لها أربع بنات ، وهذه العجوز أكثر الناس أصهارا ، كانت ميمونة الهلالية تحت النبي صلى الله عليه وسلم ، وأم الفضل تحت العباس بن عبد المطلب ، وسلمى تحت حمزة بن عبد المطلب ، وخلف منها بنتا ، وأسماء تحت من ذكرنا ، وأم جعفر بن

(١) كذا ، والصواب « وخلف عليها (أبو بكر) حين استشهد جعفر ، وقد ولدت لجعفر عبد الله وعونا ومحمدا أبناء جعفر » وانظر الاصابة فى ترجمة أسماء بنت عميس

محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر ، وكان محمد بن أبى بكر يدعى عابد قريش لنسكه وزهده ، ورباه على بن أبى طالب ، وسنذكر خبره فيما يرد من هذا الكتاب ومقتله فى أيام معاوية بن أبى سفيان

موت أبى قحافة

ومات أبو قحافة فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وذلك فى سنة ثلاث عشرة من الهجرة ، وهى السنة التى استخلف فيها عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد قيل : إنه مات فى سنة أربع عشرة

ولما بويع أبو بكر فى يوم السقيفة وجددت البيعة له يوم الثلاثاء على العامة خرج على فقال : أفسدت علينا أمورنا ، ولم تستشر ، ولم ترع لنا حقا ، فقال أبو بكر : بلى ، ولكن خشيت الفتنة ، وكان للمهاجرين والأنصار يوم السقيفة خطب طويل ، ومحادثة فى الإمامة ، وخرج سعد بن عبادة ولم يبايع ، فصار إلى الشام ، فقتل هناك فى سنة خمس عشرة ، وليس كتابنا هذا موضعا لخبر مقتله ، ولم يبايعه أحد من بنى هاشم حتى ماتت فاطمة رضى الله تعالى عنها

عدى بن حاتم

ولما ارتدت العرب إلا أهل المستنجدين ومن بينهما وأناسا من العرب قدم عدى بن حاتم بأهل الصدقة إلى أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، ففى ذلك يقول الحرث بن مالك الطائى : —

وفينا وفاء لم ير الناس مثله ... وسَرْبَلَنَا مجداً عدىُّ بن حاتم

مرض أبى بكر

وكان أبو بكر رضى الله عنه قد سَمَّتْه اليهود فى شىء من الطعام ، وأكل معه الحرث ابن كلدة فعمى ، وكان السم لسنة ، ومرض أبو بكر قبل وفاته بخمسة عشر يوما ، ولما احتضر قال : ما أنا إلا على ثلاث فعلتها وددت أنى تركتها ، وثلاث تركتها وددت أنى فعلتها ، وثلاث وددت أنى سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها ، فأما الثلاث التى فعلتها ووددت أنى تركتها فوددت أنى لم

أكن فتشت بيت فاطمة ، وذكر فى ذلك كلاما كثيرا ، ووددت أنى لم أكن حرقت الفجاءة وأطلقته نجيحا أو قتلته صريحا ، ووددت أنى يوم سقيفة بنى ساعدة قد رميت الأمر فى عنق أحد الرجلين فكان أميرا وكنت وزيرا ، والثلاث التى تركتها ووددت أنى فعلتها وددت أنى يوم أتيت بالأشعث بن قيس أسيرا ضربت عنقه فانه قد خيل لى أنه لا يرى شرا إلا أعانه ، ووددت أنى كنت قد قذفت المشرق لعمر بن الخطاب فكنت قد بسطت يمينى وشمالى فى سبيل الله ، ووددت أنى يوم جهزت جيش الردة ورجعت أقمت مكانى فان سلم المسلمون سلموا ، وإن كان غير ذلك كنت صدر اللقاء أو مددا ، وكان أبو بكر قد بلغ مع الجيش مرحلة من المدينة وهو الموضع المعروف بذى القصة ، والثلاث التى وددت أنى سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها : وددت أنى سألته عن ميراث العمة و بنت الأخ فان بنفسى منهما حاجة ، ووددت أنى سألته هل للأنصار فى هذا نصيب فنعطيهم إياه

بنات أبى بكر

وخلف من البنات أسماء ذات النطاقين ، وهى أم عبد الله بن الزبير ، وعمرت مائتى سنة حتى عميت ، وعائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم

بيعة على أبابكر

وقد تنوزع فى بيعة على بن أبى طالب إياه : فمنهم من قال : بايعه بعدموت فاطمة بعشرة أيام ، وذلك بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بنيف وسبعين يوما ، وقيل : بثلاثة أشهر ، وقيل : ستة ، وقيل غير ذلك

وصية أبى بكر ليزيد بن أبى سفيان

ولما نفذ أبو بكر الأمراء إلى الشأم كان فيماوصى به يزيد بن أبى سفيان وهو مشيع له فقال له : إذا قدمت على أهل عملك فعدهم الخير وما بعده ، و إذا وعدت فأنجز ، ولاتكثر عليهم الكلام ، فان بعضه ينسى بعضا ، وأصلح نفسك تصلح الناس لك ، و إذا قدمت عليك رسل عدوك فأكرم منزلتهم ، فانه أول خبرك إليهم ، وأقلل جلوسهم حتى يخرجوا وهم جاهلون بما عندك ، وامنع من قبلك من محادثتهم ،

وكن أنت الذى تلى كلامهم ، ولا تجعل سرك مع علانيتك فيخرج عملك ، وإذا استشرت فاصدق الخبر تصدق لك المشورة ، ولا تكتم المستشار فتؤتى من قبل نفسك ، وإذا بلغك عن العدو عَوْرَة فاكتمها حتى تعاينها ، واستوف عسكرك ، وأدل حرسك ، وأكثر مفاجأتهم فى ليلك ونهارك ، واصدق اللقاء إذا لقيت ، ولاتجبن فيجبن من سواك

ثبت جماع الحوادث فى عهد أبى بكر

وقد أعرضنا عن ذكر كثير من الأخبار فى هذا الكتاب طلبا للاختصار والايجاز : منها خبر لعيسى الكذاب المعروف بلهيعة ، وما كان من خبره باليمن وصنعاء ، وتنبئه ومقتله ، وما كان من فيروز ، وغيره من الأنباء فى أمرهم ، وخبر طليحة وتنبئه ، وخبر سَجَاح بنت الحرث بن سويد ، وقيل : بنت غطفان ، وتكنى أم صادرة ، وهى التى يقول فيها قيس بن عاصم : —

أضحت نبيتُنَا أنثى نطيف بها وأصبحت أنبياء الناس ذُكْرَانَا

وفيها يقول الشاعر : —

أضلَّ الله سعى بنى تميم كما ضلت بخطبتها سجاح

وقد كانت مع ادعائها النبوة مكذبة بنبوة مسيلمة الكذاب ، ثم آمنت بنبوته ، وكانت قبل ادعائها النبوة متكهنة تزعم أن سبيلها سبيل سطيح والمأمون الحارثى وعمرو بن يحيى وغيرهم من الكهان ، وصارت إلى مسيلمة فنكحها ، وما كان من خبر مسيلمة كذاب اليمامة وحربه لخالد بن الوليد وقتل وَحْشِىٍّ له مع رجل من الأنصار ، وذلك فى سنة إحدى عشرة ، وما كان من أمره مع الأنصار فى يوم سقيفة بنى ساعدة والمهاجرين ، وقول المنذر بن الحباب : أبا جُذَيْلها المحكّكُ وعُذَيْقُها المرجَّب ، أما والله إن شئتم لنعيدنها جَذَعَة ، وقصة سعد بن عبادة ، وما كان من بشر بن سعد ، وتخلى الأوس عن معاضدة سعد خوفا أن يفوز[1] بها الخزرج ، وأخبار من قعد عن البيعة ومن بايع ، وما قالت بنو هاشم ،

(١) فى الأصول أن يغور » بغين معجمة وآخره راء مهملة

وما كان من قصة فدك ، وما قاله أصحاب النص والأخبار فى الامامة ، وما قالوه فى إمامة المفضول وغيره ، وما كان من فاطمة وكلامها متمثلة حين عدلت إلى قبر أبيها عليه السلام من قبر صفية بنت عبد المطلب : —

قد كان عندك أنباء وهينمة لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب

إلى آخر الشعر ، إلى غير ذلك مما تركنا ذكره من الأخبار فى هذا الكتاب ، إذ كنا قد أتينا على جميع ذلك فى كتابنا « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط ، فأغنى ذلك عن ذكره هاهنا ، والله أعلم

ذكر خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه

وبويع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فلما أن دخلت سنة ثلاث وعشرين خرج حاجا ؛ فأقام الحج فى تلك السنة ، ثم أقبل حتى دخل المدينة ، فقتله فيروز أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين ، فكانت ولايته عشر سنين وستة أشهر وأربع ليال ، وقتل فى صلاة الصبح ، وهو ابن ثلاث وستين سنة ، ودفن مع النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر ، عند رجلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقيل : إن قبورهم مسطرة : أبو بكر إلى جنب النبى صلى الله عليه وسلم ، وعمر إلى جنب أبى بكر ، وحج فى خلافته تسع حجج ، وبعد أن قتل صلى بالناس عبد الرحمن بن عوف ، وجعلها شورى إلى ستة ، وهم على ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وصلى عليه صهيب الرومى ، وكانت الشورى بعد [ه] ثلاثة أيام .

ونذكر نسبه ولمعا من اخباره وسيره

نسب عمر من جهة أبيه وأمه

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن قرط [١] بن رباح بن عبد الله بن رزاح بن عدى بن كعب ، وفى كعب يجتمع نسبه مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وأمه حنتمة بنت هشام [٢] بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وكانت سوداء وإنما سمى الفاروق لأنه فَرَقَ بين الحق والباطل ، وكنيته أبو حفص ، وهو أول من سمى بأمير المؤمنين ، سماه عدى بن حاتم ، وقيل غيره ، والله أعلم ، وكان أول من سلم عليه بها المغيرة بن شعبة ، وأول من دعاله بهذا الاسم على المنبر أبو موسى الأشعرى ،

(١) هكذا ورد فى أصول الكتاب ، والذى فى الاصابة أنه عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب ، وفى أصول هذا الكتاب أن اسم أمه « خيثمة » وهو تصحيف ، والتصويب عن الاصابة (٤ : ٢٧٩) (٢) ويقال : حنتمة بنت هاشم بن المغيرة

فلما قرىء ذلك على عمر قال : إنى لعبدالله و إنى لأمير المؤمنين ، الحمدالله رب العالمين

أخلاقه وتواضعه

وكان متواضعا خشن الملبس شديدا فى ذات الله ، واتبعه عماله فى سائر أفعاله وشيمه وأخلاقه ، كل يتشبه به ممن غاب أو حضر ، وكان يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم ، و يشتمل بالعباءة ، و يحمل القربة على كتفه ، مع هَيْبة قد رُزِقَها ، وكان أكثر ركابه الابل ، ورحله مشدودة بالليف ، وكذلك عماله ، مع ما فتح الله عليه من البلاد وأوسعهم من الأموال

سعد بن عامر أحد عمال عمر

وكان من عماله سعد بن عامر بن خريم ، فشكاه أهل حمص إليه ، وسألوه عزله ، فقال عمر : اللهم لا تقل فراستى فيهم ، ماذا تشكون منه ؟ قالوا : لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار ، ولا يجيب أحدا بليل ، وله يوم فى الشهر لا يخرج إلينا ، فقال عمر : على به ، فلما جمع بينهم و بينه ، فقال : ما تنقمون منه ؟ قالوا : لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار ، فقال : ما تقول ياسعد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إنه ليس لأهلى خادم ، فأعجن عجينى ، ثم أجلس حتى يختمر ، ثم أخبز خبزى ، ثم أتوضأ وأخرج إليهم ، قال : وماذا تنقمون منه ؟ قالوا : لا يجيب بليل ، قال : قد كنت أكره أن أذكر هذا ، إنى جعلت الليل كله لربى ، وجعلت النهار لهم ، قال : وماذا تنقمون منه ؟ قالوا : له يوم فى الشهر لا يخرج إلينا ، قال : نعم ليس لى خادم فأغسل ثوبى ثم أجففه فأمسى ، فقال عمر : الحمد لله الذى لم يقل فراستى فيكم يا أهل حمص ، فاستوصوا بواليكم خيرا ، قال : ثم بعث إليه عمر بألف دينار ، وقال : استعن بها ، فقالت له امرأته : قد أغنانا الله عن خدمتك ، فقال لها : ألا ندفعها إلى من يأتينا أحوج ما كنا إليه ؟ قالت : بلى ، فَصَرَّهَا صررا ثم دفعها إلى من يثق به ، وقال : انطلق بهذه إلى فلان ، و بهذه إلى يتيم بنى فلان ، ومسكين آل فلان ، حتى بقى منها شىء يسير ، فدفعه إلى امرأته ، وقال : أنفقى هذه ، ثم عاد إلى خدمته ، فقالت له امرأته : ألا تبعث بذلك المال فتشترى لنا منه خادما ، فقال : سيأتيك أحوج ما تكونين إليه .

ومن عماله على المدائن سلمان الفارسى ، وكان يلبس الصوف ، ويركب الحمار ببرذعته بغير إكاف ، ويأكل خبز الشعير ، وكان ناسكا زاهدا ، فلما احتضر بالمدائن قال له سعد بن أبى وقاص : يا أبا عبدالله ، قال : نعم ، قال : اذكر الله عند همّك إذا هممت ، وعند لسانك إذا حكمت ، وعند يدك إذا قسمت ، فجعل سلمان يبكى ، فقال له : يا أبا عبد الله ، ما يبكيك ؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن فى الآخرة عقبة لا يقطعها إلا المخفون » وأرى هذه الأساودة حولى ، فنظروا فلم يجدوا فى البيت إلا دواة وركوة ومطهرة

سلمان الفارسى أحد عمال عمر

وكان عامله على الشام أبا عبيدة بن الجراح ، وكان يظهر للناس وعليه الصوف الجافى ، فعذل على ذلك ، وقيل له : إنك بالشام و [والى] أمير المؤمنين ، وحولنا الأعداء فغير من زيك ، وأصلح من شارتك ، فقال : ما كنت بالذى أترك ما كنت عليه فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم

أبو عبيدة أحد عمال عمر

وذكر الواقدى فى كتابه فى فتوح الأمصار أن عمر قام فى المسجد ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم دعاهم إلى الجهاد ، وحثهم عليه ، وقال : إنكم قد أصبحتم فى غير دار مقام بالحجاز ، وقد وعدكم النبى صلى الله عليه وسلم فتح بلاد كسرى وقيصر ، فسيروا إلى أرض فارس ، فقام أبو عبيدة فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا أول من انتدب من الناس ، فلما انتدب أبو عبيدة انتدب الناس ، وقيل لعمر : أمّر على الناس رجلا من المهاجرين أو الأنصار ، فقال : لا أؤمر عليهم إلا أوّل من انتدب ، فأمّر أبا عبيدة ، وفى حديث آخر أنه قيل له : أتؤمر رجلا من ثقيف على المهاجرين والأنصار ؟ فقال : كان أول من انتدب فوليته ، وقد أمرته أن لا يقطع أمرا دون سلمة بن أسلم بن حريش [1] وسليط بن قيس ، وأعلمته أنهما من أهل بدر ، وخرج فلقى جمعا من العجم عليهم رجل يقال له جالينوس ، فانهزم ، وسار أبو عبيدة حتى عبر الفرات ، وعقد له بعض الدهاقين جسرا ، فلما خلف الفرات وراءه أمر بقطع الجسر ، فقال له سلمة بن أسلم : أيها الرجل ، إنه ليس

عمر يحرض على الجهاد ويؤمر أبا عبيدة

(١) فى الاصول « بن حويس » وهو خطأ ، والتصويب عن سيرة ابن إسحاق

لك علم بما نرى ، وأنت تخالفنا ، وسوف تهلك من معك من المسلمين بسوء سياستك ، تأمر بجسر قد عقد أن يقطع فلا يجد المسلمون ملجأ من هذه الصحارى والبرارى ، فلا تريد إلا أن تهلكهم فى هذه القطعة ، فقال : أيها الرجل ، تقدم فقاتل فقد حُمَّ ماترى ، وقال سليط : إن العرب لم تلق مثل جمع فارس قط ، ولا كان لهم بقتالهم ، فاجعل لهم ملجأ ومرجعا من هزيمة إن كانت ، فقال : والله لافعلت ، جَبُنْتَ ياسليط ، فقال سليط : والله ماجبنت ، وأنا أجرأ منك نفسا وقبيلا ، ولكن والله أشرت بالرأى ، فلما قطع أبو عبيدة الجسر والتحم الناس واشتد القتال نظرت العرب إلى الفيلة عليها التحافيف فرَأَوْا شيئا لم يروا مثله قط ، فانهزم الناس جميعا ثم مات بالفرات أكثر ممن قتل بالسيف ، وخالف أبو عبيدة سليطا ، وقد كان عمر أوصاه أن يستشيره ولا يخالفه ، وكان رأى سليط أن لا يغير حتى يغيروا[1] عليه ، ولا يقطع الجسر ، فخالفه ، وقال سليط فى بعض قوله : لولا أنى أكره خلاف الطاعة لانحزت بالناس ، ولكنى أسمع وأطيع ، وإن كنت قد أخطأتَ وأشركنى عمر معك ، فقال له أبو عبيدة : تقدم أيها الرجل ، فقال : أفعل ، فتقدما فقتلا جميعا ، وقد كان أبو عبيدة فى هذا اليوم ترجَّل ، وقد قتل من الفرس نحو ستة آلاف ، فدنا من الفيل ورمحه فى يده فطعنه فى عينه ، فقتل الفيل أبا عبيدة بيده ، وجال الناس ، وتراجعت رجال فارس ، فأخذ الناس السيف لما قتل أبو عبيدة ، وبادر رجل من بكر بن وائل والمثنى بن حارثة فحمى الناس حتى عقدوا الجسر فعبروا ومعهم المثنى بن حارثة ، وقد فقد من الناس أربعة آلاف غرقا وقتلا ، وكان على جيش فارس فى هذا اليوم حادويه ، ومعه راية فارس التى كانت لأفريدون ، حتى ثار الناس من الوهاد ، وهى المعروفة بدرفس كاسان ، وكانت من جلود النمور طولها اثنا عشر ذراعا فى عرض ثمانية أذرع على خشب طوال موصل ، وكانت فارس تتيمن بها وتظهرها فى الأمر الشديد ، وقد قدمنا الخبر عن هذه الراية فى أخبار الفرس الأول فيما سلف من هذا الكتاب ، ولما

(١) كذا ، ولعله « حتى يعبروا عليه »

قتل أبو عبيدة الثقفى بالجسر شق ذلك على عمر وعلى المسلمين ، فخطب عمر بالناس وحثهم على الجهاد ، وأمرهم بالتأهب لأرض العراق ، وعسكر عمر وهو يريد الشخوص ، وقد استعمل على مقدمته طلحة بن عبيدالله ، وعلى ميمنته الزبير بن العوام ، وعلى ميسرته عبد الرحمن بن عوف ، ودعا الناس فاستشارهم فأشاروا عليه بالمسير ، ثم قال لعلى : ماترى يا أبا الحسن ؟ أسِيرُ أم أبعثُ ؟ قال : سر بنفسك فانه أهيب للعدو وأرهب له ، فخرج من عنده ، فدعا العباس فى جل مشيخة قريش وشاورهم ، فقالوا : أقم وابعث غيرك ليكون للمسلمين إن انهزموا فئة ، وخرجوا ، فدخل إليه عبد الرحمن بن عوف ، فاستشاره ، فقال عبد الرحمن : فُديتَ بأبى وأمى ، أقم وابعث فانه إن انهزم جيشك فليس ذلك كهزيمتك ، وإنك إن تهزم أو تقتل يكفر المسلمون ولا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبدا ، قال : أشر علىَّ من أبعث ، قال : قلت : سعد بن أبى وقاص ، قال عمر : أعلم أن سعدا رجل شجاع ، ولكنى أخشى أن لا يكون له معرفة بتدبير الحرب ، قال عبد الرحمن : هو على ما تصف من الشجاعة ، وقد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد بدرا ، فاعهد إليه عهدا وشاورنا فيما أردت أن تحدث إليه فانه لن يخالف أمرك ، ثم خرج فدخل عثمان عليه فقال له : يا أبا عبدالله ، أشر على أسير أم أقيم ، فقال عثمان : أقم يا أمير المؤمنين وابعث بالجيوش فانه لا آمن إن أتى عليك آت أن ترجع العرب عن الاسلام ، ولكن ابعث الجيوش وداركها بعضها على بعض ، وابعث رجلا له تجربة بالحرب ومضربها ، قال عمر : ومن هو ؟ قال : على بن أبى طالب ، قال : فالقه وكلمه وذاكره ذلك فهل تراه مسرعا إليه أولا ؛ فخرج عثمان فلقى عليا ، فذاكره ذلك ، فأبى على ذلك وكرهه ، فعاد عثمان فأخبره ، فقال له عمر : ومن ترى ؟ قال : سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، قال : ليس بصاحب ذلك ، قال عثمان : وطلحة ابن عبيدالله ، قال له عمر : أين أنت من رجل شجاع ضروب بالسيف رامٍ بالنبل ولكنى أخشى أن لا يكون له معرفة بتدبير الحرب ؟ قال : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟

قال : سعد ، قال عثمان : هو صاحب ذاك ولكنه رجل غائب فى عمل ، قال عمر : أرى أن أوجهه وأكتب إليه أن يسير من وجهه ذلك ، قال عثمان : ومُرْهُ فليشاور قوما من أهل التجربة والتبصر بالحرب ولا يقطع الأمور حتى يشاورهم ، ففعل عمر ذلك ، وكتب إلى سعد بالتوجه نحو العراق

جرير بن عبد الله البجلى والمثنى بن حارثة

وقد كان جرير بن عبد الله البجلى قدم على عمر — وقد اجتمعت إليه بجيلة — فسرحهم نحو العراق ، وجعل لهم ريعا ، فأظهروا عليه من السواد ، وساهمهم مع المسلمين ، وخرج عمر فشيعهم ، ولحق جرير بناحية الأبلة ثم صاعد إلى ناحية المدائن ، ونمى قدوم جرير إلى مرزبان المدائن وكان فى عشرة آلاف من فارس من الأساورة ، وذلك بعد يوم الجسر ومقتل أبى عبيدة وسليط ، فقال بجيلة لجرير : اعبر الدجلة إلى المدائن ، فقال جرير : ليس ذلك بالرأى ، وقد مضى لكم فى ذلك عبرة من قتل إخوانكم يوم الجسر ، ولكن أمهلوا القوم فان جمعهم كثير حتى يعبروا إليكم فإن فعلوا فهو الظفر إن شاء الله تعالى ، فأقامت الفرس أياما بالمدائن ، ثم أخذوا فى العبور ، فلما عبر منهم النصف أو نحوه حمل عليهم جرير فيمن سرع معه من بجيلة ، فثبتوا ساعة ، فقتل المرزبان ، وأخذهم السيف وغرق أكثرهم فى دجلة وأخذ المسلمون ما كان فى عسكرهم ، وسار جرير فاجتمع مع المثنى بن حارثة الشيبانى بالبجلة ، فأقبل إليهما مهران فى جيوشه فامتنع المسلمون من العبور إليهم ، فعبر مهران ، فقتله جرير بن عبد الله البجلى وحسان بن المنذر ابن ضرار الضبى : ضربه البجلى ، وطعنه الضبى ، وفاز جرير بمنطقته وسلبه ، وتنازع جرير وحسان فى أيهما القاتل لمهران ، وقد كان جرير ضربه بعد أن طعنه حسان ، ولحسان فى ذلك أبيات : —

ألم ترنى خالَسْتُ مهران نَفْسَه ... بأسْمَرَ فيه كالخلال طرير

فخر صريعا والْتَقَانى برجله ... وبادر فى رأس الهمام جرير

فقال قتيلى والحوادث جمة ... وكاد جرير للسرور يطير

فقال أباعمرو وقتلى قتلته ومثلى قليل والرجال كثير
فأرسل يمينا أن رمحك ناله وأكرم ان تحلف وأنت أمير

وقد تنازع أهل الأخبار والسير فى جرير والمثنى : فمن الناس من ذهب إلى أن جريرا كان المولى على الجيش ، ومنهم من رأى أن جريرا على قومه والمثنى على قومه .

وفاة المثنى بن حارثة بسيراف

ولما قتل مهران أعظمت الفرس ذلك ، وسار شيراز فى جمع فارس الأعظم ويقال له بوران ، وقد كانت جمهرة الأساورة تقدمت وتقدم أمامهم رستم ، فتنحى المسلمون لما بلغهم مسيره فلحق جرير بكاظمة فنزلها ، وسار المثنى بقومه من بكر ابن وائل فنزل بسيراف ، وبها آثار كثيرة وهى من الكوفة على ثلاثة أميال من المنزل المعروف بواقصة ، وكان المثنى قد أصيب بجراحات كثيرة فى بدنه فى يوم الجسر وغيره فمات بسيراف رحمه الله تعالى .

سعد بن أبى وقاص

ولما ورد كتاب عمر على سعد بن أبى وقاص فنزل زُبالة على حسب ما أمره به عمر ، ثم أتى سيراف ، وأتاه الناس من الشأم وغيرها ، ثم سار فنزل العذيب وهو على فم البر وطرف السواد مما يلى القادسية ، فالتقى جيش المسلمين وجيش الفرس وعليهم رستم ، والمسلمون يومئذ فى ثمانية وثمانين ألفا ، وقيل : إن من أُسْهِمَ له ثلاثون ألفا ، والمشركون فى ستين ألفا أمام جيوشهم الفيلة عليها الرجال ، وحرض الناس بعضهم بعضا ، وبرز أهل النجدات ، فأشبُوا القتال ، وخرج إليهم أقرانهم من صناديد قريش ، فاعتور الضرب والطعن ، وخرج غالب بن عبد الله الأسدى فى ذلك اليوم وهو يقول : —

قد علمت واردة المسالح ذات البيان واللسان الواضح
أنى سمام البطل المشايح وفارج الأمر المهم الفادح

فخرج إليه هرمز — وكان من ملوك الباب والأبواب ، وكان متوجا — فأسره غالب أسرا ، فأتى سعدا وكر راجعا إلى المطاردة ، وحمى الوطيس ، وخرج عاصم ابن عمرو وهو يقول : —

قد علمت بيضاء صفراء اللبب مثل اللجين يتغشاه الذهب
أنى امرؤ لا من يعينه السبب مثلى على مثلك يغريه العتب

عاصم بن عمرو

فبرز إليه عظيم من أساورتهم ، فجالا ، ثم إن الفارسى ولّى واتبعه عاصم حتى لجأ إلى صفوفهم وعموه وغاص عاصم بينهم حتى أيس الناس منه ، ثم خرج فى مجنبات القلب وقدامه بغل عليه صناديق موكبية بآلة حسنة ، فأتى به سعد بن مالك ، وعلى البغل رجل عليه مقطعات ديباج وقلنسوة مذهبة ، و إذا هو خباز الملك ، وفى الصناديق لطائف الملك من الأخبصة والعسل المعقود ، فلما نظر إليه سعد قال : انطلقوا إلى أهل موقفه وقولوا : إن الأمير قد نفلكم هذا فكلوه

يوم أغواث

وكانت وقعة القادسية فى المحرم سنة أربع عشرة ، ومال سبعة عشر فيلا على كل فيل عشرون رجلا وعلى الفيلة تحافيف الحديد والقرون مجللة بالديباج والحرير نحو بجيلة ، وحول الفيلة الرجال والخيول ، فبعث إلى بنى أسد لما نظر إلى الموكب والفيول قد مالت إلى بجيلة ، فأمرهم بمعونتهم ، ومالت عشرون فيلا نحو القلب ؛ فخرج طلحة بن خويلد الأسدى مع فرسان بنى أسد ، فقتل منهم خمسمائة رجل سوى من قتل من غيرهم ، فباشروا قتال الفيلة حتى أوقفوها ، واشتد الجلاد على بنى أسد فى هذا اليوم من سائر الناس ، وهذا اليوم يعرف بيوم أغواث

فلما أصبح الناس فى اليوم الثانى أشرف على الناس خيول المسلمين من الشام ، والأمداد سائرة قد غطت بأسنتها الشمس عليها هاشم بن عتبة بن أبى وقاص فى خمسة آلاف فارس من بنى ربيعة ومضر وألف من اليمن ، ومعه القعقاع بن عمرو ، وذلك بعد فتح دمشق بشهر ، وقد كان عمر رضى الله عنه كتب إلى أبى عبيدة بن الجراح بصرف أصحاب خالد بن الوليد إلى العراق ، ولم يذكر فى كتابه خالدا ، فشح أبو عبيدة بتخلية خالد عن يده ، و بعث برجاله

وعليهم هاشم بن عتبة على ما ذكرنا ، وقد كان فى نفس عمر على خالد أشياء من أيام أبى بكر فى قصة مالك بن نويرة وغير ذلك ، وكان خالد بن الوليد خال[1] عمر ، فتقدم القعقاع فى أوائل المدد ، فأيقن أهل القادسية بالنصر على فارس وزال عنهم ما لحقهم بالأمس من القتل والجراح ، وبرز القعقاع حين وروده أمام الصف ونادى : هل من مبارز ؟ فبرز إليه عظيم منهم ، فقال له القعقاع : من أنت ؟ قال: أنا بهمن حادويه ، وهو المعروف بذى الحاجب ، فنادى القعقاع : يالثارات أبى عبيدة وسليط وأصحابهم يوم الجسر ! ! وقد كان ذو الحاجب مبارزا لهم على ما ذكرنا من قتله إياهم ، فجالا ، فقتله القعقاع ، ويقال : إن القعقاع حمل فى ذلك اليوم ثلاثا وثلاثين حملة ، كل حملة يقتل فيها ، وكان آخر من قتل عظيما من عظمائهم يقال له بزرجمهر ، ففيه يقول القعقاع : —

حَبَوْتُهُ جَيَّاشة بالنفس هدارة مثل شعاع الشمس
فى أغواث فَلَيْل الفرس أنخس بالقوم أشد نخس
حتى يفيض معشرى ونفسى

وبارز فى ذلك اليوم الأعور بن قطنة شهريار سجستان فقتل كل واحد منهما صاحبه ، فقال أخو الأعور فى ذلك : —

لم أر يوما كان أحلى وأمر من يوم أغواث إذا فَتَرَّ الثَّغَر
* من غير ضحك كان أسوا وأبر *

واعتل سعد فتخلف فى حصن العذيب ، وجلس فى أعلاه يشرف على الناس ، وقد تواقف الفريقان جميعا وأمسى الناس ينتمون ، فلما سمع ذلك سعد قال لمن كان عنده فى أعلى القصر : إن تم الناس على الانتماء فلا توقظونى فإنهم أقوياء على عدوهم ، وإن سكتوا فأيقظونى فان ذلك شر ، واشتد القتال فى الليل

(١) فى الأصول « وكان خالد بن الوليد بن خالد بن عمر » وهو لا أصل له فأصلحناه كما ترى ؛ لأن خالدا هو ابن الوليد بن المغيرة وأم عمر هى حنتمة بنت هشام (أوهاشم) بن المغيرة ؛ فخالد ابن عم أم عمر؛ فهو خال عمر بنوع من التجوز

أبو محجن الثقفى

وكان أبو محجن الثقفى محبوسا فى أسفل القصر ؛ فسمع انتماء الناس فى آبائهم وعشائرهم ووقع الحديد وشدة البأس ، فتأسف على ما يفوته من تلك المواقف ، فجبا حتى صعد إلى سعد يستشفعه ويستقيله ويسأله أن يخلى عنه ليخرج ، فرآه سعد وردّه ، فانحدر راجعا ، فنظر إلى سلمى بنت حفصة زوجة المثنى بن حارثة الشيبانى ، وقد كان سعد تزوجها بعده ، فقال : يا بنت حفصة ، هل لك فى خير ؟ فقالت : وما ذاك ؟ قال : تخلين عنى وتعيرينى البلقاء ولله على إن سلمنى الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلى فى القيد ، فقالت : وما أنا وذلك ؟ فرجع يرسف فى قيده وهو يقول : -

كفى حزنا أن ترتدى الخيل بالقنا ... وأُتْرَكَ مشدوداً على وثاقيا
إذا قمت عنّانى الحديد فأغلقت ... مصاريع من دونى تُصِمُّ المناديا
وقد كنت ذا مال كثير وثروة ... فقد تركونى واحداً لا أخاليا
فلله عهد لا أخيس بعهده ... لئن فرجت أن لا أزور الحوانيا

فقالت سلمى : إنى استخرت الله ورضيت بعهدك ، فأطلقته ، وقالت : شأنك وما أردت ، فاقتاد بلقاء سعد ، وأخرجها من باب القصر الذى يلى الخندق ، فركبها ثم دَبَّ عليها ، حتى إذا كان بحيال ميمنة المسلمين كبّر ، ثم حمل على ميسرة القوم يلعب برمحه وسلاحه بين الصفين ، فأوقف ميسرتهم وقتل رجالا كثيرا من نساكهم ، ونكس آخرين ، والفريقان يرمقونه بأبصارهم ؛ وقد تنوزع فى البلقاء فمنهم من قال : إنه ركبها عريا ، ومنهم من قال : بل ركبها بسرج ، ثم غاص فى المسلمين ، فخرج فى ميسرتهم ، وحمل على ميمنة القلب فأوقفهم ، وجعل يلعب برمحه وسلاحه لا يبدو له فارس إلا هتكه ، فأوقفهم ، وهابته الرجال ، ثم رجع فغاص فى قلب المسلمين ، ثم برز أمامهم ووقف بازاء قلب المشركين ، ففعل مثل أفعاله فى الميمنة والميسرة ، وأوقف القلب حتى لم يبرز منهم فارس إلا اختطفه ، وحمل عن المسلمين الحرب ، فتعجب الناس منه ، وقالوا : من هذا الفارس الذى لم نره فى يومنا ؟ فقال بعضهم : هو ممن قدم علينا من إخواننا من الشأم من

أصحاب هاشم بن عتبة المرقال ، وقال بعضهم : إن كان الخضر عليه السلام شهد الحرب فهذا هو الخضر قد مَنَّ الله به علينا وهو علم نصرنا على عدونا ، وقال قائل منهم : لو لا أن الملائكة لا تباشر الحروب لقلنا إنه ملك . وأبو محجن برز كالليث الضرغام قد هتك الفرسان كالعقاب يجول عليهم ، ومن حضر من فرسان المسلمين مثل عمرو بن معد يكرب وطليحة بن خويلد والقعقاع وهاشم بن عتبة المرقال وسائر قبائل العرب وأبطالها ينظرون إليه ، وقد حارت فى أمره ، وجعل سعد يفكر ويقول وهو مشرف على الناس من فوق القصر : والله لو لا محبس أبى محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء ، فلما انتصف الليل تحاجز الناس ، وتراجعت الفرس على أعقابها ، وتراجع المسلمون إلى مواضعهم على بقيتهم ومصافهم ، وأقبل أبو محجن حتى دخل القصر من حيث خرج ولا يعلم به ، وردَّ البلقاء إلى مربطها ، ووضع رجله فى القيد ، ورفع عقيرته وهو يقول :-

لقد علمت ثقيف غَيْرَ فخر ... بأنَّا نحنُ أكْرَمُهُمْ سيوفا
وأكرمهم دُرُوعاً سابغات ... وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا
وليلة فارس لم يشعروا بى ... ولم أشعر بمَخْرَجَىَ الزحوفا
وأنا وفدهم فى كل يوم ... فان عتبوا فسل بهمو عريفا
فإن أحبس فذلكم بلائى ... وإن أترك أذيقهم الحتوفا

فقالت له سلمى : يا أبا محجن ، فى أى شىء حبسك هذا الرجل ؟ تعنى سعدا ، قال : والله ما حبسنى بحرام أكلته ولا شربته ، ولكنى كنت صاحب شراب فى الجاهلية ، وأنا أمرؤ شاعر يدب الشعر على لسانى فأصف القهوة وتداخلنى أريحية فألتذ بمدحى إياها ، فلذلك حبسنى لأنى قلت فيها :-

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمة ... تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفنى بالفلاة فانى ... أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

وهى أبيات

وقد كان بين سلمى وسعد كلام كثير أوجب غضبه عليها ، لذكرها المثنى عند مختلف القنا ، فأقامت مغاضبة له عشية أزمار وليلة الهدار وليلة السواد ، حتى إذا أصبحت أتته فرضته وصالحته ، ثم أخبرته خبرها مع أبى محجن ، فدعا به ، فأطلقه ، وقال : اذهب فما أنا مؤاخذك بشىء تقوله حتى تفعله ، قال : لا جرم والله لا أجبت لسانى إلى صفة قبيح أبدا

يوم عماس

وأصبح الناس فى اليوم الثالث وهم على مصافهم ، وهو يوم عماس ، وأصبحت الأعاجم على مواقفها ، وأصبح بين الفريقين كالدجلة الغوراء والفرات فى عرض ما بين الصفين ، وقد قتل من المسلمين ألفان وخمسمائة ما بين رثيث وميت ، وقتل من الأعاجم مالا يحصى ، فقال سعد : أيها الناس ، من شاء غسل الشهيد الميت والرثيث ، ومن شاء فليدفنهم بدمائهم ، وأقبل المسلمون على قتلاهم فأحرزوهم وجعلوهم وراء ظهورهم ، وكان النساء والصبيان يدفنون الشهيد ويحملون الرثيث إلى النساء ويعالجن فى كلومهم ، وكان بين موضع الوقعة مما يلى القادسية وبين حصن العذيب نخلة ، فإذا حمل الجريح وفيه تمييز وعقل ونظر إلى تلك النخلة — ولم يكن هنالك يومئذ نخلة غيرها ، واليوم بها نخل كثير — قال لحامله : قد قربت من السواد فأريحونى تحت ظل هذه النخلة ، فيرتاح تحتها ساعة ، فسمع رجل من الجرحى يقول :-

ألا فاسلمى يانخلة بين قادس ... وبين العذيب لايجاورك النخل [1]

وسمع آخر من بنى تيم الله وقد أريح تحتها وحُشْوَته خارجة من جوفه وهو يقول :-

أيا نخلة الْجَرْعَا ويانخلة العدا ... سقتك الغوادى والغيوث الهواطل [2]

---

(١) فى الأصول « بين فارس » والتصويب عن الطبرى (٤ : ١٢٥)

(٢) فى بعض الأصول « أيا نخلة الجرحى » وفى الطبرى : —

* أيا نخلة الجرعاء ياجرعة العدى *

وأثخن الأعور بن قطنة[1] فحمل من المعركة فسأل حماله أن يريحه تحتها حتى إذا بلغ إليها قال : —

أيا نخلة بين العذيب فتلعة سقتك الغوادى الداجنات من النخل[2]

وأصبح النـاس صبيحة يوم القادسية ، وهى صبيحة ليلة الهرير ، وهى تسمى ليلة القادسية من تلك الأيام ، والناس حيارى ولم يغمضوا ليلتهم كلها ، وحرض رؤساء القبائل عشائرهم ، واشتد الجلاد إلى أن جاء وقت الزوال ، فكان أول من زال حين قام قائم الظهيرة الهرمزان ، فتأخر وسار حتى انتهى ، وانفرج القلب حين قام قائم الظهيرة ، وهبت ريح عاصف فقطعت طيارة رستم عن سريره فهوت فى نهر العقيق والريح دبور فمال الغبار عليهم ، وانتهى القعقاع وأصحابه إلى سرير رستم فعثروا به وقد قام رستم عنه حين طارت الريح بالطيارة إلى بغال قد قدمت عليهم بمال يومئذ فهى واقفة فاستظل فى ظل بغل منها وحمله ، وضرب هلال بن علقمة الجمل الذى رستم فى ظله فقطع حباله ، ووقع على رستم أحد العدلين ولا يراه هلال ولا يشعر به ، فأزال من ظهره فقارة ، ومضى رستم إلى نحو نهر العقيق فرمى بنفسه فيه ، واقتحم هلال عليـه فتناوله برجله ، ثم خرج به إلى الخندق وضربه بالسيف حتى قتله ، ثم جاء به يجره حتى رماه بين أرجل البغال وصعد السرير ونادى : قتلت رستم ورب الكعبة ، إلىَّ إلىَّ ، فطاف به الناس لا يحسون السرير ولا يرونه ، وتنادوا ، وتجبّنت قلوب المشركين عندها وانهزموا وأخذهم السيف ، فمن غريق وقتيل ، وقد كان ثلاثون ألفا منهم قرنوا أنفسهم بعضهم إلى بعض بالسلاسل والحبال وتحالفوا بالنور و بيوت النيران لا يبرحون حتى يقتحموا أو يقتلوا ، فجثوا على الركب ، وقرع بين أيديهم قناديل النشاب ، فقتل القوم جميعاً .

---

(١) الذى فى الطبرى (٤ : ١٢٥) « الأعور بن قطبة »

(٢) فى الطبرى (٤ : ١٢٥) يروى البيت هكذا :-

أيا نخلة دون العذيب بتلعة سقيت الغوادى المدجنا من النخل

وقد تنوزع فيمن قتل رستم : فذهب الأكثر إلى أن قاتله هلال بن علقمة ابن تيم الرباب على ما قدمنا ، ومنهم من رأى أن قاتله رجل من بنى أسد ، ولذلك يقول شاعرهم فى ذلك اليوم - وهو عمرو بن شاس الأسدى من أبيات - :

جلبنا الخيل فى أكناف هف ... إلى كسرى يوافقها رعالا
تركن بهم على الأصنام سحرا ... وبالحقوين أياما طوالا
قتلنا رستما وبنيه قسرا ... تثير الخيل فوقهم الهمالا
تركنا منهم حيث التقينا ... قياما لا يريدون ارتحالا

وأخذ ضرار بن الخطاب فى ذلك اليوم من فارس الراية العظمى المقدم ذكرها أنها من جلود النمور المعروفة بدرفس كاسان ، وكانت مرصعة بالياقوت واللؤلؤ وأنواع الجواهر ، فعوض منها بثلاثين ألفا ، وكانت قيمتها ألفى ألف ومائتى ألف ، وقتل فى ذلك اليوم حول هذه الراية غير ما ذكرنا من المقربين[1] وغيرهم عشرة آلاف .

تمصير البصرة والكوفة

وقد تنازع الناس ممن سلف وخلف فى عام القادسية والعذيب : فذهب كثير من الناس إلى أن ذلك كان فى سنة خمس عشرة ، ومنهم من رأى أنه كان فى سنة أربع عشرة ، والذى قطع عليه محمد بن إسحق أنها كانت فى خمس عشرة ، وقال : فى سنة أربع عشرة أمر عمر بن الخطاب بالقيام فى شهر رمضان لصلاة التراويح ، وذهب كثير من الناس منهم المدائنى وغيره أن عمر أنفذ عتبة ابن غزوان فى سنة أربع عشرة إلى البصرة فنزلها ومصّرها ، وذهب كثير من الناس أنها مصرت فى ربيع سنة ست عشرة ، وأن عتبة بن غزوان إنما خرج إليها من المدائن بعد فراغ سعد بن أبى وقاص من حرب جلولاء وتكريت ، وأن عتبة قدم البصرة وهى يومئذ تدعى أرض الهند وفيها حجارة بيض فنزل موضع الحربية ، ومصّر سعد بن أبى وقاص الكوفة فى سنة خمس عشرة ، ودلهم على موضعها نفيلة الغسانى ، وقال لسعد : أدلك على أرض ارتفعت عن

(١) لعله « من المقرنين » لأنهم قرنوا أنفسهم كما تقدم

البر وانحدرت عن الفلاة ، فدله على موضع الكوفة إلى اليوم

أبو لؤلؤة غلام المغيرة قاتل عمر

قال المسعودى : وكان عمر لا يترك أحدا من العجم يدخل المدينة ، فكتب إليه المغيرة بن شعبة إن عندى غلاما نقاشا نجارا حدادا فيه منافع لأهل المدينة ، فان رأيت أن تأذن لى فى الإرسال به فعلت ، فأذن له ، وقد كان المغيرة جعل عليه كل يوم درهمين ، وكان يدعى أبا لؤلؤة ، وكان مجوسيا من أهل نهاوند فلبث ما شاء الله ، ثم أتى عمر يشكو إليه ثقل خراجه ، فقال له عمر : وما تحسن من الأعمال ؟ قال : نقاش نجار حداد ، فقال له عمر : ما خراجك بكثير فى كنه ما تحسن من الأعمال ، فمضى عنه وهو مدبر ، قال : ثم مر بعمر يوما آخر وهو قاعد ، فقال له عمر : ألم أُحدَّثْ عنك أنك تقول : لو شئت أن أصنع رَحاً تطحن بالريح لفعلت ، فقال أبو لؤلؤة : لأصْنَعَنَّ لك رحاً يتحدث الناس بها ، ومضى أبو لؤلؤة فقال عمر : أما العلج فقد توعدنى آنفا ، فلما أزمع بالذى أوعد به أخذ خِنْجَراً فاشتمل عليه ثم قعد لعمر فى زاوية من زوايا المسجد فى الغلس ، وكان عمر يخرج فى السحر فيوقظ الناس ، فمر به ، فثار إليه فطعنه ثلاث طعنات إحداهن تحت سرته وهى التى قتلته ، وطعن اثنى عشر رجلا من أهل المسجد فمات منهم ستة وبقى ستة ، ونحر نفسه بخنجره فمات ، فدخل عليه ابنه عبد الله ابن عمر وهو يجود بنفسه ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، استخلف على أمة محمد فانه لو جاءك راعى إبلك أو غنمك وترك إبله أو غنمه لا راعى بها لَمُتَهُ وقلت له : كيف تركت أمانتك ضائعة ؟ فكيف يا أمير المؤمنين بأمة محمد ؟ فاستخلف عليهم ، فقال : إن أستخلف عليهم فقد استخلف أبو بكر ، وإن أتركهم فقد تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيئس منه عبد الله حين سمع ذلك منه

أولاد عمر

وكان إسلام عمر قبل الهجرة بأربع سنين ، وكان يخضب بالحناء والكتم ، وكان له من الولد : عبد الله ، وحفصة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، وعاصم ،

وفاطمة ، وزيد ، من أم ، وعبد الرحمن ، وفاطمة ، و بنات أخر ، وعبد الرحمن الأصغر - وهو المحدود فى الشراب ، وهو المعروف بأبى شحمة - من أم

عمر وعبد الله ابن العباس

وذكر عبد الله بن عباس أن عمر أرسل إليه فقال : يا ابن عباس ، إن عامل حمص هلك وكان من أهل الخير ، وأهل الخير قليل ، وقد رجوت أن تكون منهم ، وفى نفسى منك شىء لم أره منك ، وأعيانى ذلك ، فما رأيك فى العمل ؟ قال : لن أعمل حتى تخبرنى بالذى فى نفسك ، قال : وما تريد إلى ذلك ؟ قال : أريده ، فان كان شىء أخاف منه على نفسى خشيت منه عليها الذى خشيت ، و إن كنت بريئا من مثله علمت أنى لست من أهله ، فقبلت عملك هنالك ؛ فانى قلما رأيت أو ظننت شيئا إلا عاينته ، فقال : يا ابن عباس ، إنى خشيت أن يأتى علىّ الذى هو آت وأنت فى عملك فتقول : هلم إلينا ، ولا هلم إليكم دون غيركم ، إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وتركك ، قال : والله قد رأيت من ذلك فلم تراه فعل ذلك ؟ قال : والله ما أدرى أضنّ بكم عن العمل فأهل ذلك أنتم ، أم خشى أن تبايعوا بمنزلتكم منه فيقع العقاب ، ولا بد من عتاب فقد قرعت لك ، قال : فما رأيك ؟ قال : قلت : أرانى لا أعمل لك ، قال : ولم ؟ قلت : إن عملت لك وفى نفسك مافيها لم أبرح قذًى فى عينك ، قال : فأشر على ، قلت : إنى أرى أن تستعمل صحيحا منك صحيحا لك

خبر وقعة نهاوند

وذكر علقمة بن عبدالله المرى ، عن معقل بن يسار ، أن عمر بن الخطاب شاور الهرمزان فى فارس و إصبهان وأذربيجان ، فقال له : أصبهان الرأس ، وفارس وأذربيجان الجناحان ؛ فان قطعت أحد الجناحين نأى الرأس بالجناح الآخر ، و إن قطعت الرأس وقع ، فابدأ بالراس ، فدخل المسجد فاذا هو بالنعمان ابن مقرن يصلى ، فقعد إلى جنبه ، فلما قضى صلاته قال : ما أرانى إلا مستعملك ؛ قال : أما جابيا فلا ، ولكن غازيا ، قال : فانك غاز ، فوجّهه وكتب إلى أهل الكوفة أن يمدوه ، و بعث معه الزبير بن العوام ، وعمرو بن معديكرب ، وحذيفة ،

وابن عمر ، والأشعث بن قيس ، فأرسل النعمان المغيرة بن شعبة إلى ملكهم ، وهو يقال له ذو الجناحين ، فقطع إليهم نهرهم ، فقيل لذى الجناحين : إن رسول العرب هاهنا ، فشاور أصحابه ، فقال : ماترون ؟ فقالوا : اقعدله فى بهجة الملك ، فصعد على سريره ووضع التاج على رأسه وأقعد أبناء الملوك سماطين عليهم الأقراط وأسورة الذهب والديباج ، وأذن للمغيرة ، فأخذ بضبعيه رجلان ومعه سيفه ورمحه ؛ قال : فجعل المغيرة يطعن برمحه فى بسطهم يخرقها لينظروا فيغضبهم بذلك ، حتى قام بين يديه وجعل يكلمه والترجمان يترجم بينهما ، فقال : إنكم معشر العرب أصابكم جهد ، فان شئتم مِرْنا كم ورجعتم ، فتكلم المغيرة فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال: إنا معشر العرب كنا أذلة يطؤنا الناس ولا نطؤهم ، ونأكل الكلاب والجيف ، ثم إن الله تعالى بعث منا نبيا فى شرف منا أوسطنا حسبا وأصدقنا حديثا ، و بعث النبى صلى الله عليه وسلم ببعثه ، وأخبرنا بأشياء وجدناها كما قال لنا ، و إنه وعدنا فيما وعدنا به أنا سنملك ماهاهنا ونغلب عليه ، و إنى أرى هاهنا هيئة وبزة مامَنْ خلفى بتاركيها [حتى] يصيبوها أو يموتوا ، فقالت لى نفسى لو جمعت جراء مئزرى ووثبت فقعدت مع العلج على سريره حتى يتطير ، قال : فوثبت وثبة فاذا أنا معه على سريره ، فجعلوا يلكزوننى بأرجلهم و يجذبوننى بأيديهم ، فقلت لهم : إنا لا نفعل برسلكم هكذا ، و إن كنت قد فجرت واستخففت فلا تؤاخذونى ؛ فان الرسل لا يصنع بها هكذا ، فقال الملك : إن شئتم قطعنا إليكم و إن شئتم قطعتم إلينا ، قلت : بل نقطع إليكم ، فقطعنا إليهم ، قال : فتسللوا كل خمسة وستة حتى لا تغزو ، فدنونا إليها فضايقناهم ، فرشقونا حتى أسرعوا فينا ، فقال المغيرة للنعمان : إنه قد أسرع فى الناس وقد جرحوا ، فلو حملت ، فقال النعمان : إنك لذو مناقب ، وقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم القتال ، وكان إذا لم يقاتل أول النهار انتظر حتى تزول الشمس وتهب الرياح و ينزل النصر ، ثم قال : إنى هاز لوائى ثلاث مرات ، فأما أول هزة فليقض الرجل حاجته وليتوضأ

وأما الثانية فاينظر الرجل إلى شِسْعِهِ وليلزم سلاحه ، فاذا هززت الثالثة فاحملوا ولا يَلْوِيَنَّ أحد على أحد ، و إن قتل النعمان ، و إنى داع إلى الله بدعوته ، وأقسمت على كل امرىء منكم لما أمن عليها ، وقال : اللهم ارزق النعمان اليوم شهادة فى نصر وفتح عليهم ، فأمن القوم ، فهز ثلاثا ، ثم أدنى درعه وحمل ، ثم حمل الناس فكان أول صريع ، قال معقل : فأتيت عليه فذكرت عزمة لا أقف عليها ، وعلمت علما لا أعرف مكانه ، ووضعنا القتل فيهم ، ووقع ذو الجناحين عن بغلة له شهباء فانشق بطنه ، وفتح الله على المسلمين ؛ فأتيت إلى مكان النعمان فصادفته و به رمق ، فأتيته بأداوة فغسلت وجهه ، فقال : من هذا ؟ قلت : معقل ابن يسار ، قال : ما فعل الله بالناس ؟ قلت : فتح الله عليهم ، قال : الحمد لله كثيرا اكتبوا بذلك إلى عمر ، وفاضت نفسه ، واجتمع الناس إلى الأشعث بن قيس ، وأرسلوا إلى أم ولده : هل عهد إليك النعمان عهدا له أم عندك كتاب ؟ قالت : سقط فيه كتاب ، فأخرجوه فاذا فيه : إن قتل فلان فلان ، و إن قتل فلان فلان ، فاقتتلوا ، وفتح الله على المسلمين فتحا عظيما

قال المسعودى رحمه الله : وهذه وقعة نهاوند ، وقد كان للأعاجم جمع كثير وقتل هنالك من المسلمين خلق كثير : منهم النعمان بن مقرن ، وعمرو بن معديكرب ، وغيرهم ، وقبورهم إلى هذا الوقت مبنية معروفة على نحو فرسخ من نَهَاوَنْدَ فيما بينها و بين الدِّينَوَر ، وقد أتينا على وصف هذه الوقعة فيما سلف من كتبنا

عمرو بن معديكرب يصف قومه لعمر بطنا فبطنا

وذكر أبو مخنف لوط بن يحيى قال : لما قدم عمرو بن معديكرب من الكوفة على عمر سأله عن سعد بن أبى وقاص ، فقال فيه ما قال من الثناء ، ثم سأله عن السلاح ، فأخبره بما علم ، ثم سأله عن قومه ، فقال له : أخبرنى عن قومك مذحج ودع طيئا ، قال : سلنى عن أيهم شئت ، قال : أخبرنى عن ملة بن خالد ، قال : هم فرسان أغراضنا ، وشفاة أمراضنا ، وهم أعتقنا ، وأنجبنا ، وأسرعنا طلبا ، وأقلنا هربا ، وهم أهل الصباح والسماح والرماح ، قال عمر : فما أبقيت لسعد العشيرة ؟

قال: هم أعظمنا خميسا ، وأسخانا نفوسا ، وخيرنا رئيسا ، قال : فما أبقيت لمراد ؟ قال: هم أوسعنا دارا ، وخيرنا جارا ، وأبعدنا ثارا ، وهم الأتقياء البررة ، والساعون الفخرة ، قال : فأخبرنى عن بنى زبيد ، قال : أنا عليهم ضنين ، ولو سألت الناس عنهم لقالوا هم الرأس والناس الأذناب ، قال : فأخبرنى عن طيء ، قال : خُصُوا بالجود ، وهم جمرة العرب ، قال : فما تقول فى عبس ؟ قال : حجم عظيم ، وزبن أثير ، قال : أخبرنى عن حمير ، قال : رَعَوُا العفو ، وشربوا الصفو ، قال : فأخبرنى عن كندة ، قال : ساسوا العباد ، وتمكنوا من البلاد ، قال : فأخبرنى عن: همدان ، قال : أبناء الليل ، وأهل النيل ، يمنعون الجار ، ويوفون الذمار ، قال فأخبرنى عن الأزد ، قال : هم أقدمنا ميلادا ، وأوسعنا بلادا ، قال : فأخبرنى عن الحرث بن كعب ، قال : هم الحسكة المسكة ، تلقى المنايا على أطراف رماحهم ، قال : فأخبرنى عن لخم ، قال : آخرنا ملكا ، وأولنا هلكا ، قال : فأخبرنى عن جذام ، قال : أولئك كالعجوز العيراء ، وهم أهل مقال وفعال ، قال : فأخبرنى عن غسان قال : أرباب فى الجاهلية ، نجوم فى الاسلام ، قال : فأخبرنى عن الأوس والخزرج ، قال : هم الأنصار ، وهم أعزنا دارا ، وأمنعنا ذمارا ، وقد كفانا الله مدحهم إذ يقول : (والذين تبوؤا الدار والايمان - الآية) قال : فأخبرنى عن خزاعة ، قال : أولئك مع كنانة لنا نسبهم ، وبهم نصرنا ، قال : فأى العرب أبغض إليك أن تلقاه ؟ قال : أما من قومى فوادعة من همدان ، وغطيف من مراد ، وبلحرث من مذحج ، وأما من معد فعدى من فزارة ، ومرة من ذبيان ، وكلاب من عامر ، وشيبان من بكر بن وائل ، ثم لو جُلْتُ بفرسى على مياه معد ماخفت هَيْجَ أحد مالم يلقنى حُرَّاها وعَبْدَاها ، قال : ومن حُرَّاها وعبداها ؟ قال : أما حراها فعامر ابن الطفيل وعيينة بن الحرث بن شهاب التيمى ، وأما عبداها فعنترة وسليك ، ثم سأله عن الحرب فقال : سألت عنها خبيرا ، هى : والله يا أمير المؤمنين مرة المذاق ، إذا شمرت عن ساق ، من صبر فيها ظفر ، ومن ضعف فيها هلك ، قلت : ولقد أحسن واصفها وأجاد : —

الحرب أول ماتكون فتية تبدو بزينتها لكل جهول
حتى إذا حميت وشب ضرامها عادت عجوزا غير ذات حليل
شمطاء جزت رأسها وتنكرت مكروهة للثم والتقبيل

ثم سأله عن السلاح ، فأخبره حتى بلغ السيف ، قال : هنالك قارعتك أمك عن ثكلها ، فعلاه عمر بالدرة ، وقال : بل أمك قارعتك ، والله إنى لأهم أن أقطع لسانك ، فقال : الحمى أضرعتنى اليوم ، وخرج من عنده وهو يقول : —

أتوعدنى كأنك ذو رعين بأنعم عيشة أوذو نواس
فكم قد كان قبلك من مليك عظيم ظاهر الجبروت قاسى
فأصبح أهله بادوا ، وأمسى يُنقّلُ من أناس فى أناس
فلايغررك مُلْكُكَ كل ملك يصير مذلة بعد الشماس

قال : فاعتذر عمر إليه ، وقال : مافعلت مافعلته إلا لتعلم أن الاسلام أفضل وأعز من الجاهلية ، وفضله على الوفد

عمرو بن معديكرب وربيعة بن مكدم

وقد كان عمر آنس عمرا بعد ذلك ، وأقبل يسأله ويذاكره الحروب وأخبارها فى الجاهلية ، فقال له عمر : ياعمرو ، هل انصرفت عن فارس قط فى الجاهلية هيبةً له ؟ قال : نعم ، والله ما كنت أستحل الكذب فى الجاهلية فكيف أستحله فى الاسلام ؟ لأحدثنك حديثا لم أحدث به أحدا قبلك . خرجت فى جريدة خيل لبنى زبيد أريد الغارة ، فأتينا قوما سراة ، فقال عمر : كيف عرفت أنهم سراة ، قال : رأيت مزاود وقدورا مكفأة وقباب أدم حمر ونعما كثيرا وشاء ، قال عمرو : فأهويت إلى أعظمها قبة بعد ماحوينا السبى وكان متبددا من البيوت ، وإذا امرأة بادية الجمال على فرش لها ، فلما نظرت إلى وإلى الخيل استعبرت ، فقلت : مايبكيك ؟ قالت : والله ماأبكى على نفسى ، ولكنى أبكى حسدًا لبنات عمى يسلمن وأبتلى أنا من بينهن ، فظننت والله أنها صادقة ، فقلت : وأين هن ؟ قالت : فى هذا الوادى ، فقلت لأصحابى : لاتحدثوا شيئا حتى آتيكم ، ثم همزت

فرسى حتى علوت كثيبا ؛ فاذا أنا بغلام أصهب الشعر أهذب أقْنَى أقَبْ يخصف نعاله وسيفه بين يديه وفرسه عنده ، فلما نظر إلى رمى النعل من يده ثم أحضر غير مكترث ، فأخذ سلاحه وأشرف على ثنية ، فلما نظر إلى الخيل محيطة ببيته ركب ، ثم أقبل نحوى وهو يقول : —

أقول لما مَنَحَتْنِى فاها وألبستنى بُكْرَةً رداها
إنى سأحوى اليوم من حواها فليت شعرى اليوم من دهاها

فحملت عليه وأنا أقول :

عَمْرٌو على طول الردى دهاها بالخيل تتبعها على هواها
* حتى إذا حل بها حواها *

فاذا هو أزوغ من هر ، فزاغ عنى ، ثم حمل على فضربنى بسيفه ضربة جرحنى ، فلما أفقت من ضربتى حملت عليه ، فزاغ والله ، ثم حمل على ، ثم صرعنى ، ثم استاق ما فى أيدينا ، ثم استويت على فرسى ، فلما رآنى أقبل وهو يقول : —

أنا عبيد الله محمود الشيم وخير من يمشى بساق وقدم
عدوه يفديه من كل السقم

فحملت عليه وأنا أقول : —

أنا ابن ذى التقليد فى الشهر الأصم أنا ابن ذى الإكليل قتال البهم
من يلقنى يودى كما أودى إرم أتركه لحما على ظهر وضم

فزاغ والله عنى ، ثم حمل على فضربنى ضربة أخرى ، ثم صرخ صرخة ، ورأيت الموت والله يا أمير المؤمنين ليس دونه شىء ، وخفته خوفا لم أخف قط أحدا مثله ، وقلت له : من أنت ثكلتك أمك ؟ فوالله ما اجترأ على أحد قط إلا عامر بن الطفيل لإعجابه بنفسه ، وعمرو بن كلثوم لسنه وتجربته ، فمن أنت ؟ قال : بلى من أنت ؟ خبرنى وإلا قتلتك ، قلت : أنا عمرو بن معد يكرب ، قال : وأنا ربيعة بن مكدم ، قلت : اخْتَرْ منى إحدى ثلاث خصال : إن شئت اجتلدنا

بسيفينا حتى يموت الأعجز منا ، وإن شئت اصطرعنا ، وإن شئت السلم ، وأنت يا ابن أخى حدث قد جرحتنى جراحتين ولا يزالان بى ، فوالله ما كف غنى حتى نزلت عن فرسى ، فأخذ بعنانه ، ثم أخذ بيدى فى يده وانصرفنا إلى الحى وأنا أجر رجلى ، حتى طلعت علينا الخيل ، فلما رأونى غمزوا خيولهم إلى فناديتهم إليكم ، وأرادوا ربيعة ، فمضى والله كأنه ليث حتى شقهم ، ثم أقبل على فقال : يا عمرو ، لعل أصحابك يريدون غير الذى تريد ، فصمت والله القوم ما فيهم أحد ينطق ، وأعظموا ما رأوا منه ، فقلت : يار بيعة بن مكدم لا يريدون إلا خيرا ، وإنما سميته ليعرفه القوم ، فقال لهم : ما تريدون ؟ فقالوا : وما نريد ؟ قد جرحت فارس العرب ، وأخذت سيفه وفرسه ، ومضى ومضينا معه ، حتى نزل ، فقامت إليه صاحبته وهى ضاحكة تمسح وجهه ، ثم أمر بإبل فنحرت ، فضربت علينا قباب ، فلما أمسينا جاءت الرعاء ومعهم أفراس لربيعة لم أر مثلها قط ، قال: أما لو كان عندى بعضها ما لبثت فى الدنيا إلا قليلا ، فضحك وما ينطق أحد من أصحابى ، فأقمنا عنده يومين ثم انصرفنا

قال : وقد كان عمرو بن معد يكرب بعد ذلك بزمان أغار على كنانة فى صناديد قومه ، فأخذ غنائمهم ، وأخذ امرأة ربيعة بن مكدم ، فبلغ ذلك ربيعة وكان غير بعيد ، فركب فى الطلب على فرس عرى ومعه رمح بلا سنان ، حتى لحقه ، فلما نظر إليه قال : يا عمرو ، خل عن الظعينة وما معك ، فلم يلتفت إليه ؛ ثم أعاد إليه ، فلم يلتفت إليه ، فقال : يا عمرو ، إما أن تقف ، فوقف عمرو ، وقال : لقد أنصف القارة من راماها ، قف لى يا ابن أخى ، فوقف له ربيعة ، فحمل عليه عمرو وهو يقول : -

أنا ابن ثوار ووقاف الزلق لست بمأمون ولا فى حرق
وأسد القوم إذا احمر الحدق إذا الرجال عضّهم ناب الفُرَق
وجدتنى بالسيف هتاك الخلق

حتى إذا ظن أنه قد خالطه السنان إذا هو لبب لفرسه ، ومر السنان على ظهر الفرس ، ثم وقف له عمرو ، فحمل عليه ربيعة وهو يقول : -

أنا الغلام ابن الكنانى لابذخ كم من هزبر قد رآنى فانشدخ

فقرع بالرمح رأسه ، ثم قال : خذها إليك يا عمرو ، ولولا أنى أكره قتل مثلك لقتلتك ، فقال عمرو : لا ينصرف إلا أحدنا ، فقف لى ، فحمل عليه حتى إذا ظن أنه قد خالطه السنان إذا هو حزام لفرسه ، ثم حمل عليه ربيعة فقرع بالرمح رأسه أيضا ، وقال : خذها إليك يا عمرو ثانية ، وإنما العفو مرتان ، وصاحت به امرأته : السنان لله درك ، فأخرج سنانا من مسبج إزاره كأنه شعلة نار ، فركبه على رمحه ، فلما نظر إليه عمرو ، وذكر طعنته بلا سنان قال له عمرو: خذ الغنيمة ، قال : دعها وانج ، فقالت بنوز بيد : أتترك غنيمتنا لهذا الغلام ؟ فقال لهم عمرو : يا بنى زبيد ، والله لقد رأيت الموت الأحمر فى سنانه ، وسمعت صريره فى تركيبه ، فقالت بنوز بيد : لا يتحدث العرب أن قوما من بنى زبيد فيهم عمرو بن معد يكرب تركوا غنيمتهم لمثل هذا الغلام ، قال عمرو : إنه لا طاقة لكم به ، وما رأيت مثله قط ، فانصرفوا عنه ، وأخذ ربيعة امرأته والغنيمة وعاد إلى قومه

قال المسعودى رحمه الله تعالى : ولعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أخبار كثيرة فى أسفاره فى الجاهلية إلى الشأم والعراق مع كثير من ملوك العرب والعجم وسير فى الاسلام وأخبار وسياسات حسان ، وما كان فى أيامه من الكوائن والأحداث وفتوح مصر ، قد أتينا على مبسوطها فى كتابنا « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط ، وإنما نذكر فى هذا الكتاب لمعا مما لم نذكره فيما سلف من كتبنا ، وبالله التوفيق

ذكر خلافة عثمان بن عفان

رضى الله تعالى عنه

بويع يوم الجمعة غرة محرم سنة ثلاث وعشرين ، وقيل غير ذلك مما سنورده بعد هذا الموضع ، إلى اثنين وعشرين من ذى الحجة سنة أربع وثلاثين ، فجميع ما ولى اثنتا عشرة سنة إلا ثمانية أيام ، وقتل وهو ابن اثنتين وستين سنة ، ودفن بالمدينة بموضع يعرف بحش كوكب ، وكانت خلافته رضى الله تعالى عنه اثنتى عشرة سنة إلا ثمانية أيام [1]

ونذكر نسبه ، ولمعا من اخباره وسيره

نسبه من جهة أبيه وأمه وذكر أولاده

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ويكنى بأبى عبد الله ، وأمه أروى بنت بكر بن جابر بن حبيب بن عبد شمس ، وكان له من الولد عبد الله الأكبر ، وعبد الله الأصغر ، أمهما رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبان ، وخالد ، وسعيد ، والوليد ، والمغيرة ، وعبد الملك ، وأم أبان وأم سعيد وأم عمر [2] وعائشة ، وكان عبد الله الأكبر يلقب بالظرف [3] لجماله وحسنه ، وكان كثير التزوج كثير الطلاق ، وكان أبان أبرص أحول ، قد حمل عنه أصحاب الحديث عدة من السنن ، وولى لبنى مروان مكة وغيرها ، وكان الوليد صاحب شراب وفتوة ومجون ، وقتل أبوه وهو مخلق الوجه سكران عليه مصبغات واسعة ، وبلغ عبد الله من السن ستا وسبعين عاما فنقره ديك فى عينه فكان ذلك سبب موته ، وعبد الله مات صغيرا ولا عقب له

---

(١) ثبتت هذه العبارة فى الأصول ، وهى مكررة مع ما ذكر قبلها بسطر واحد .

(٢) لم يذكر عمر فى الذين ذكرهم من أولاده (٣) لعله « بالظريف »

أخلاقه

وكان عثمان فى نهاية الجود والكرم والسماحة والبذل فى القريب والبعيد ، فسلك عماله وكثير من أهل عصره طريقته ، وتأسوا [به] فى فعله ، و بنى داره فى المدينة ، وشيدها بالحجر والكلس ، وجعل أبوابها من الساج والعرعر ، واقتنى أموالا وجنانا وعيونا بالمدينة

ثروته

وذكر عبد الله بن عتبة أن عثمان يوم قتل كان عند خازنه من المال خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم ، وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار ، وخلف خيلا كثيرا و إبلا

الزبير بن العوام وثروته

وفى أيام عثمان اقتنى جماعة من أصحابه الضِّيَاعَ والدور : منهم الزبير بن العوام ، بنى داره بالبصرة ، وهى المعروفة فى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — تنزلها التجار وأر باب الأموال وأصحاب الجهات من البحرين وغيرهم ، وابتنى أيضا دورا بمصر والكوفة والاسكندرية ، وما ذكر من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول إلى هذه الغاية

و بلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف الزبير ألف فرس ، وألف أمة ، وخططا بحيث ذكرنا من الأمصار

طلحة بن عبيد الله التيمى وثروته

وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمى : ابتنى داره بالكوفة المشهورة به هذا الوقت ، المعروفة بالكناس بدار الطلحتين ، وكان غلته من العراق كل يوم ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك ، و بناحية سراة أكثر مما ذكرنا ، وشيد داره بالمدينة ، و بناها بالآجر والجص والساج

عبد الرحمن ابن عوف وثروته

وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهرى : ابتنى داره ووسعها ، وكان على مربطه مائة فرس ، وله ألف بعير ، وعشرة آلاف من الغنم ، و بلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله أربعة وثمانين ألفا

سعد بن أبى وقاص

وابتنى سعد بن أبى وقاص داره بالعقيق ؛ فرفع سَمكها ، ووسع فضاءها ، وجعل أعلاها شرفات

زيد بن ثابت وثروته

وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس ، غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمه مائة ألف دينار

المقداد

وابتنى المقداد داره بالمدينة فى الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة وجعل أعلاها شرفات ، وجعلها مجصصة الظاهر والباطن

يعلى بن أمية وثروته

ومات يعلى بن أمية وخلف خمسمائة ألف دينار ، وديونا على الناس ، وعقارات ، وغير ذلك من التركة ما قيمته مائة ألف دينار

وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه ، فيمن تملك من الأموال فى أيامه ، ولم يكن مثل ذلك فى عصر عمر بن الخطاب ، بل كانت جادة واضحة وطريقة بينة

شدة عمر بن الخطاب فى مصلحة الرعية

وحج عمر فأنفق فى ذهابه ومجيئه إلى المدينة ستة عشر دينارا ، وقال لولده عبد الله : لقد أسرفنا فى نفقتنا فى سفرنا هذا ، ولقد شكا الناس أميرهم سعد بن أبى وقاص - وذلك فى سنة إحدى وعشرين - فبعث عمر محمد بن مسلمة الأنصارى حليف بنى عبد الأشهل ، فحرق عليه باب قصر الكوفة ، وجمعهم فى مساجد الكوفة يسألهم عنه ؛ فحمده بعضهم ، وساءه بعض ، فعزله و بعث إلى الكوفة عمار بن ياسر على الثغر ، وعثمان بن حنيف على الخراج ، وعبد الله بن مسعود على بيت المال ، وأمره أن يعلم الناس القرآن و يفقههم فى الدين ، وفرض لهم فى كل يوم شاة : فجعل شطرها وسواقطها لعمار بن ياسر ، والشطر الآخر بين عبد الله بن مسعود وعثمان بن حنيف ، فأين عمر ممن ذكرنا وأين هو عمن وصفنا

بعض عمال عثمان على الأمصار

وقدم على عثمان عمه الحكم بن أبى العاص وعمه مروان وغيرهما من بنى أمية - ومروان هو طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى غربه عن المدينة ، ونفاه عن جواره - وكان عماله جماعة منهم الوليد بن عقبة بن أبى معيط على الكوفة ، وهو ممن أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أنه من أهل النار ، وعبدالله بن أبى سرح

على مصر ، ومعاوية بن أبي سفيان على الشأم ، وعبد الله بن عامر على البصرة ، وصرف عن الكوفة الوليد بن عقبة ، وولاها سعيد بن العاص .

الوليد بن عقبة

وكان السبب فى صرف الوليد وولاية سعيد — على ماروى — أن الوليد بن عقبة كان يشرب مع ندمائه ومغنيه من أول الليل إلى الصباح ، فلما آذنه المؤذنون بالصلاة خرج منفصلا فى غلائله ، فتقدم إلى المحراب فى صلاة الصبح ، فصلى بهم أربعا ، وقال : تريدون أن أزيدكم ؟ وقيل : إنه قال فى سجوده وقد أطال : اشرب واسقنى ، فقال له بعض من كان خلفه فى الصف الأول : ماتريد لازادك الله من الخير[1] ، والله لا أعجب إلا ممن بعثك إلينا واليا وعلينا أميرا ، وكان هذا القائل عتاب بن غيلان الثقفى .

وخطب الناس الوليد فحصبه الناس بحصباء المسجد ، فدخل قصره يترنح ، ويتمثل بأبيات لتأبط شرا : —

ولست بعيدا عن مدام وقينة ... ولا بصفا صلد عن الخير معزل
ولكننى أروى من الخمر هامتى ... وأمشى الملا بالساحب المتسلسل

وفى ذلك يقول الحطيئة : —

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه ... أن الوليد أحق بالعذر
نادى وقد تمت صلاتهم ... أأزيدكم ؟ ! ثملا وما يدرى
ليزيدهم أخرى ولو قبلوا ... لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك فى الصلاة ولو ... خلوا عنانك لم تزل تجرى

وأشاعوا بالكوفة فعله ، وظهر فسقه ومداومته شرب الخمر ، فهجم عليه جماعة من المسجد منهم أبو زينب بن عوف الأزدى وأبو جندب بن زهير الأزدى وغيرهما ، فوجدوه سكران مضطجعا على سريره لايعقل ، فأيقظوه من رقدته ، فلم يستيقظ ، ثم تقايأ عليهم ما شرب من الخمر ، فانتزعوا خاتمه من يده وخرجوا من فورهم إلى المدينة ، فأتوا عثمان بن عفان ، فشهدوا عنده على

(١) فى بعض الأصول « مزيد الخير »

الوليد أنه شرب الخمر ، فقال عثمان : وما يدريكما أنه شرب خمرا ؟ فقالا : هى الخمر التى كنا نشربها فى الجاهلية ، وأخرجا خاتمه فدفعاه إليه ، فرزأها ودفع فى صدورهما ، وقال : تنحيا عنى ، فخرجا وأتيا على بن أبى طالب رضى الله عنه وأخبراه بالقصة ، فأتى عثمان وهو يقول : دفعت الشهود ، وأبطلت الحدود ، فقال له عثمان : فما ترى ؟ قال : أرى أن تبعث إلى صاحبك ؛ فان أقاما الشهادة عليه فى وجهه ولم يدْل بحجة أقمت عليه الحد ، فلما حضر الوليد دعاهما عثمان فأقاما الشهادة عليه ولم يدْل بحجة ، فألقى عثمان السوط إلى على ، فقال على لابنه الحسن : قم يابنى فأقم عليه ما أوجب الله عليه ، فقال : يكفيه بعض ما ترى ، فلما نظر إلى امتناع الجماعة عن إقامة الحد عليه توقيًا لغضب عثمان لقرابته منه أخذ علىٌّ السوط ودنا منه ، فلما أقبل نحوه سبه الوليد ، وقال : يا صاحب مكس ، فقال عقيل بن أبى طالب وكان ممن حضر : إنك لتتكلم يا ابن أبى معيط كأنك لا تدرى من أنت ، وأنت علج من أهل صَفُورِيَّةَ — وهى قرية بين عَكَّةَ واللَّجُّون ، من أعمال الأردن ، من بلاد طبرية ، كان ذكر أن أباه كان يهوديا منها — فأقبل الوليد يزوغ من على ، فاجتذبه فضرب به الأرض ، وعلاه بالسوط ، فقال عثمان : ليس لك أن تفعل به هذا ، قال : بلى ، وشر من هذا إذا فسق ومنع حق الله تعالى أن يؤخذ منه

سعيد بن العاص والى الكوفة

وولى الكوفة بعده سعيد بن العاص ، فلما دخل سعيد الكوفة واليا أبى أن يصعد المنبر حتى يغسل ، وأمر بغسله ، وقال : إن الوليد كان نجسا رجسا ، فلما اتصلت أيام سعيد بالكوفة ظهرت منه أمور منكرة ، واشتبه بالأموال ، وقال فى بعض الأيام وكتب به إلى عثمان : إنما هذا السواد فطير لقريش ، فقال له الأشتر وهو مالك ابن الحرث النخعى : أتجعل ماأفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستانا لك ولقومك ؟ ثم خرج إلى عثمان فى سبعين راكبا من

أهل الكوفة ، فذكرواسوء سيرة سعيدبن العاص ، وسألوا عزله عنهم ، فمكث الأشتر وأصحابه أياما لا يخرج لهم من عثمان فى سعيد شىء ، وامتدت أيامهم بالمدينة ، وقدم على عثمان أمراؤه من الأمصار منهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح من مصر ومعاوية من الشأم وعبد الله بن عامر من البصرة وسعيد بن العاص من الكوفة ، فأقاموا بالمدينة أياما لا يردهم إلى أمصارهم كراهةَ أن يرد سعيدا إلى الكوفة ، وكره أن يعزله ، حتى كتب إليه من بأمصارهم يشكون كثرة الخراج وتعطيل الثغور ، فجمعهم عثمان وقال : ما ترون ؟ فقال معاوية : أما أنا فراضٍ بى جندى ، وقال عبد الله بن عامر بن كريز : ليكفك امرؤ ما قبله أكفك ما قبلى ، وقال عبد الله بن سعد بن أبى سرح : ليس بكثير عزل عامل للعامة وتولية غيره ، وقال سعيد بن العاص : إنك إن فعلت هذا كان أهل الكوفة هم الذين يولون ويعزلون ، وقد صاروا حلقا فى المسجد ليس لهم غير الأحاديث والخوض ، فجهزهم فى البعوث حتى يكون هَمُّ أحدهم أن يموت على ظهر دابته ، قال : فسمع مقالته عمرو بن العاص فخرج إلى المسجد ، فاذا طلحةوالز بير جالسان فى ناحية منه ، فقالا له : إلينا ، فصار إليهما ، فقالا : فما وراءك ؟ قال : الشر ، ما ترك شيئا من المنكر إلا أتى به وأمر به ، وجاء الأشتر فقالا له : إن عاملكم الذى قمتم فيه خطباء قد رُدَّ عليكم وأمر بتجهيزكم فى البعوث وبكذا وكذا ، فقال الأشتر : والله قد كنا نشكو سوء سيرتهوما قمنا به خطباء ، فكيف وقدقمنا ؟ ! وايم الله على ذلك لولا أنى أنفدت النفقة وأنضيت الظهر لسبقته إلى الكوفة حتى أمنعه دخولها ، فقالا له : فعندنا حاجتك التى تفوتك فى سفرك ، قال : فأسلفانى إذا مائة ألف درهم ، قال : فأسلفه كل واحد منهما خمسين ألف درهم ، فقسمها بين أصحابه ، وخرج إلى الكوفة ، فسبق سعيدا ، وصعد المنبر وسيفه فى عنقه ما وضعه بعد ، ثم قال : أما بعد ، فان عاملكم الذى أنكرتم تعديه وسوء سيرته قد رد عليكم ، وأمر بتجهيزكم فى البعوث ، فبايعونى على أن لا يدخلها ،

فبايعه عشرة آلاف من أهل الكوفة ، وخرج راكبا متخفيا يريد المدينة أو مكة ، فلقى سعيدا بواقصة ، فأخبره بالخبر ، فانصرف إلى المدينة ، وكتب الأشتر إلى عثمان : إنا والله ما منعنا عاملك إلا ليفسد عليك عملك ، ولَ من أحببت . فكتب إليهم : انظروا من كان عاملكم أيام عمر بن الخطاب فولوه ، فنظروا فاذا هو أبو موسى الأشعرى ، فولّوه

أسباب الانكار على عثمان

وفى سنة خمس وثلاثين كثر الطعن على عثمان رضى الله عنه ، وظهر عليه النكير ؛ لأشياء ذكروها من فعله

منها ما كان بينه و بين عبد الله بن مسعود ، وانحراف هذيل عن عثمان من أجله

ومن ذلك ما نال عمار بن ياسر من الفتن والضرب ، وانحراف بنى مخزوم عن عثمان من أجله

ومن ذلك فعل الوليد بن عقبة فى مسجد الكوفة ، وذلك أنه بلغه عن رجل من اليهود من ساكنى قرية من قرى الكوفة مما يلى جسر بابل يقال له زرارة يعمل أنواعا من الشعبذة والسحر يعرف بمطروى ، فأحضر [ه] فأاه فى المسجد ضربا من التخييل ، وهو أن أظهر له فى الليل فيلا عظيما على فرس فى صحن المسجد ، ثم صار اليهودى ناقة يمشى على حبل ، ثم أراه صورة حمار دخل من فيه ثم خرج من دبره ، ثم ضرب عنق رجل ففرق بين جسده ورأسه ، ثم أمرّ السيفَ عليه فقام الرجل ، وكان جماعة من أهل الكوفة حضورا منهم جندب بن كعب الأزدى فجعل يستعيذ بالله من فعل الشيطان ومن عمل يبعد من الرحمن ، وعلم أن ذلك هو ضرب من التخييل والسحر ، فاخترط سيفه وضرب به اليهودى ضربة أدار رأسه ناحية من بدنه ، وقال : (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) وقد قيل : إن ذلك كان نهارا ، وإن جندبا خرج إلى السوق ودنا من بعض الصياقلة وأخذ

سيفا ودخل فضرب به عنق اليهودى ، وقال : إن كنت صادقا فأحْيِ نفسك ، فأنكر عليه الوليد ذلك ، وأراد أن يقيِدَه به ، فمنعه الأزد ، فحبسه ، وأراد قتله غيلَةً ، ونظر السجان إلى قيامه ليله إلى الصبح فقال له : انج بنفسك ، فقال له جندب : تُقْتَلُ بى ، قال : ليس ذلك بكثير فى مرضاة الله والدفع عن ولى من أولياء الله ، فلما أصبح الوليد دعا به وقد استعد لقتله فلم يجده ، فسأل السجان فأخبره بهربه ، فضرب عنق السجان ، وصلبه بالكناس

أبوذر وعثمان

ومن ذلك مافعل بأبى ذر ، وهو أنه حضر مجلسه ذاتَ يومٍ فقال عثمان : أرأيتم من زكى ماله هل فيه حق لغيره ؟ فقال كعب : لا ياأمير المؤمنين ، فدفع أبو ذر فى صدر كعب ، وقال له : كذبت ياابن اليهودى ، ثم تلا (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ـ الآية) فقال عثمان : أترون بأسا أن نأخذ مالا من بيت مال المسلمين فننفقه فيما ينو بنا من أمورنا ونعطيكموه ؟ فقال كعب : لابأس بذلك ، فرفع أبو ذر العصا فدفع بهافى صدر كعب ، وقال : ياابن اليهودى ، ماأجرأك على القول فى ديننا ! فقال له عثمان : ماأكثر أذاك لى ! غَيِّبْ وجهك عنى فقد آذيتنى ، فخرج أبو ذر إلى الشام ، فكتب معاوية إلى عثمان : إن أبا ذر تجتمع إليه الجموع ، ولا آمن أن يفسدهم عليك ، فان كان لك فى القوم حاجة فاحمله إليك ، فكتب إليه عثمان بحمله ، فحمله على بعير عليه قتب يابس معه خمسة من الصقالبة يطيرون به ، حتى أتوا به المدينة قد تسلخت بواطن أفخاذه وكاد أن يتلف ، فقيل له : إنك تموت من ذلك ، فقال : هيهات لن أموت حتى أُنفى ، وذكر جوامع مانزل به بعد ، ومن يتولّى دفنه ، فأحسن إليه فى داره أياما ، ثم دخل إليه فجلس على ركبتيه وتكلم بأشياء ، وذكر الخبر فى ولد أبى العاص إذا بلغوا ثلاثين رجلا اتخذوا عباد الله خَوَلاً ، ومر فى الخبر بطوله ، وتكلم بكلام كثير ، وكان فى ذلك اليوم قد أتى عثمان بتركة عبد الرحمن بن عوف الزهرى من المال ، فنضت البدر حتى حالت بين عثمان وبين الرجل القائم ، فقال

عثمان : إنى لأرجو لعبد الرحمن خيرا ؛ لأنه كان يتصدق ، ويقْرى الضيف ، وترك ماترون ، فقال كعب الأحبار : صدقت ياأمير المؤمنين ، فشال أبو ذر العصا فضرب بها رأس كعب ، ولم يشغله ما كان فيه من الألم ، وقال : يا ابن اليهودى تقول لرجل مات وترك هذا المال : إن الله أعطاه خير الدنيا وخير الآخرة ، وتقطع على الله بذلك ، وأنا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مايسرنى أن أموت وأدع مايزن قيراطا » فقال له عثمان : وَارِ عَنِّى وجهك ، فقال : أسير إلى مكة ، قال : لا والله ، قال : فتمنعنى من بيت ربى أعبده فيه حتى أموت ، قال: إى والله ، قال : فإلى الشام ؛ قال : لا والله ، قال : البصرة ، قال : لاوالله ، فاختر غير هذه البلدان ، قال : لا والله ما أختار غير ماذكرت لك ، ولو تركتنى فى دار هجرتى ما أردت شيئا من البلدان ، فَسَيِّرْنى حيث شئت من البلاد ، قال : فانى مسيرك إلى الربذة ، قال : الله أكبر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد أخبرنى بكل ما أنا لاق ، قال عثمان : وما قال لك ؟ قال : أخبرنى بأنى أمنع عن مكة والمدينة وأموت بالربذة ، ويتولى موارَاتى نفرممن يردون من العراق نحو الحجاز ، وبعث أبو ذر إلى جمل له فحمل عليه امرأته ـ وقيل : ابنته ـ وأمر عثمانُ أن يتجافاه الناس حتى يسير إلى الزبدة ، فلما طلع عن المدينة ومَرْوَان يسيره عنها طلع عليه على بن أبى طالب رضى الله عنه ومعه ابناه وعقيل أخوه وعبدالله بن جعفر وعمار بن ياسر ، فاعترض مروان فقال : ياعلى ، إن أمير المؤمنين قد نهى الناس أن يصحبوا أباذر فى مسيره ويشيعوه ، فان كنت لم تدر بذلك فقد أعلمتك ، فحمل عليه على بن أبى طالب بالسوط بين أذنى راحلته ، وقال : تَنَحَّ نحاك الله إلى النار ، ومضى مع أبى ذر فشيعه ثم ودعه وانصرف ، فلما أراد على الانصراف بكى أبو ذر ، وقال : رحمكم الله أهل البيت ، إذا رأيتك ياأبا الحسن وولدك ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشكا مروان إلى عثمان مافعل به على بن أبى طالب ، فقال عثمان : يامعشر المسلمين ، من يعذرنى من على ، رَدَّ رسولى عما وجهته له ، وفعل

كذا ، والله لنعطينه حقه ، فلما رجع على استقبله الناس ، فقالوا له : إن أمير المؤمنين عليك غضبان لتشييعك أبا ذر ، فقال على : غضب الخيل على اللجم ، ثم جاء

الجفاء بين على وعثمان

فلما كان بالعشى جاء إلى عثمان فقال له : ماحملك على ماصنعت بمروان واجترأت على ورددت رسولى وأمرى ؟ ! قال : أما مروان فانه استقبلنى يردنى فرددته عن ردى ، وأما أمرك فلم أرده ، قال عثمان : أولم يبلغك أنى قد نهيت الناس عن أبى ذر وعن تشييعه ، فقال على : أو كل ما أمر تنابه من شىء يرى طاعة الله والحق فى خلافه اتبعنا فيه أمرك بالله لانفعل ، قال عثمان : أقد مروان ، قال : وما أقيده ؟ قال : ضربت بين أذنى راحلته ، قال على : أما راحلتى فهى تلك فان أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل ، وأما أنا فوالله لئن شتمنى لأشتمنك أنت مثلها بما لا أكذب فيه ، ولا أقول إلا حقا ، قال عثمان : ولم لايشتمك إذ شتمته ؛ فوالله ما أنت عندى بأفضل منه ؟ فغضب على بن أبى طالب ، وقال : ألى تقول هذا القول ؟ و بمروان تعدلنى ؟ فأنا والله أفضل منك ، وأبى أفضل من أبيك ، وأمى أفضل من أمك ، وهذه نبلى قد نثلتها ، وهلم فأقبل بنبلك ، فغضب عثمان واحمر وجهه ؛ فقام ودخل داره ، وانصرف على ، فاجتمع إليه أهل بيته ورجال من المهاجرين والأنصار

فلما كان من الغد واجتمع الناس إلى عثمان شكا إليهم عليًا وقال : إنه يعيبنى و يظاهر من يعيبنى ، يريد بذلك أباذر وعمار بن ياسر وغيرهما ، فدخل الناس بينهما وقال له على : والله ما أردت تشييع أبى ذر إلا لله .

عمار بن ياسر والمقداد ابن عمرو يظاهرون على بنى أمية

وقد كان عمار حين بويع عثمان بلغه قول أبى سفيان صخر بن حرب فى دار عثمان عقيب الوقت الذى بويع فيه عثمان ودخل داره ومعه بنو أمية فقال أبو سفيان : أفيكم أحد من غيركم ؟ وقد كان عمى ، قالوا : لا ، قال : يابنى أمية ، تلقفوها تلقف الكرة ، فوالذى يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة ، فانتهره عثمان ، وساءه ما قال ، ونمى هذا القول إلى المهاجرين

والأنصار ، وغير ذلك من الكلام ، فقام عمار فى المسجد فقال : يامعشر قريش ، أما إذ صرفتم هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ههنا مرة وههنا مرة فما أنا بآمن من أن ينزعه الله فيضعه فى غيركم كما نزعتموه من أهله و وضعتموه فى غير أهله ، وقام المقداد فقال : ما رأيت مثل ما أوذى به أهل هـذا البيت بعد نبيهم ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : وما أنت وذاك يامقداد بن عمرو ؟ فقال : إنى والله لأحبهم بحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و إن الحق معهم وفيهم ياعبد الرحمن أعجب من قريش وأنت تطولهم على النـاس ، أهل هـذا البيت قد اجتمعوا على نزع سلطان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده من أيديهم ، أما وأيم الله ياعبدالرحمن لو أجد على قريش أنصارا لقاتلتهم كقتالى إياهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، وجرى بينهم من الكلام خطب طويل قد أتينا على ذكره فى كتابنا « أخبار الزمان » فى أخبار الشورى والدار .

قدوم الثائرين على عثمان من الأمصار

ولما كان سنة خمس وثلاثين سار مالك بن الحرث النخعى من الكوفة فى مائتى رجل ، وحكيم بن جبلة العبدى فى مائة رجل من أهل البصرة ، ومن أهل مصر ستمائة رجل عليهم عبد الرحمن بن عديس الشلوى ، وقد ذكر الواقدى وغيره من أصحاب السير أنه ممن بايع تحت الشجرة ، إلى آخرين ممن كان بمصر مثل عمرو بن الجموح الخزاعى وسودان بن أحمد التجيبى ، ومنهم محمد بن أبى بكر الصديق ، وقد كان تكلم بمصر وحرض الناس على عثمان لأمر يطول ذكره كان السبب فيه مروان بن الحكم ، فنزلوا فى الموضع المعروف بخُشُب ، فلما علم عثمان بنزولهم بعث إلى على بن أبى طالب فأحضره ، وسأله أن يخرج إليهم و يضمن لهم عنه كل ما يريدون من العدل وحسن السيرة ، فسار على إليهم ، فكان بينهم خطب طويل ، فأجابوه إلى ما أراد وانصرفوا ، فلما صاروا إلى الموضع المعروف بحمس إذا هم بغلام على بعير وهو مقبل من المدينة ، فتأملوه فاذا هو ورش غلام عثمان ، فقرروه ، فأقر وأظهر كتابا إلى ابن أبى سرح صاحب مصر « إذا قدم

عليك الجيش فاقطع يد فلان ، واقتل فلانا ، وافعل بفلان كذا ، وأحصى أكثر من فى الجيش وأمر فيهم بما أمر » وعلم القوم أن الكتاب بخط مروان ، فرجعوا إلى المدينة ، واتفق رأيهم ورأى من قدم من العراق ، ونزلوا المسجد وتكلموا ، وذكروا ما نزل بهم من عمالهم ، ورجعوا إلى عثمان فحصروه فى داره ، ومنعوه الماء ، فأشرف على الناس وقال : ألا أحد يسقينا ، وقال : بم تستحلون قتلى وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يحل دم امرىء مسلم إلا باحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، أو زنا بعد إحصان ، أو قتل نفس بغير نفس » ؟ ووالله ما فعلت ذلك فى جاهلية أو إسلام ، فبلغ عليا طلبه للماء ، فبعث إليه بثلاث قرب ماء فما وصل إليه ذلك حتى خرج جماعة من موالى بنى هاشم و بنى أمية ، وارتفع الصوت وكثر الضجيج ، وأحدقوا بداره بالسلاح ، وطالبوه بمروان ، فأبى أن يخلى عنه ، وفى الناس بنو زهرة لأجل عبد الله بن مسعود لأنه كان من أحلافها ، وهذيل لأنه كان منها ، و بنو مخزوم وأحلافها لعمار ، وغفار وأحلافها لأجل أبى ذر ، وتيم بن مرة مع محمد بن أبى بكر ، وغير هؤلاء ممن لا يحمل ذكره كتابنا ، فلما بلغ عليا أنهم يريدون قتله بعث بابنيه الحسن والحسين ومواليه بالسلاح إلى بابه لنصرته ، وأمرهم أن يمنعوه منهم ، و بعث الزبير ابنه عبد الله ، و بعث طلحة ابنه محمدا ، وأكثر أبناء الصحابة أرسلهم آباؤهم اقتداء بمن ذكرنا ، فصدوهم عن الدار ، فرمى من وصفنا بالسهام ، واشتبك القوم ، وجرح الحسن ، وشج قنبر ، وجرح محمد بن طلحة ، فخشى القوم أن يتعصب بنو هاشم و بنو أمية فتركوا القوم فى القتال على الباب ، ومضى نفر منهم إلى دار قوم من الأنصار فتسوروا عليها ، وكان ممن وصل إليه محمد بن أبى بكر ورجلان آخران ، وعند عثمان زوجته وأهله ومواليه مشاغيل بالقتال ، فأخذ محمد بن أبى بكر بلحيته ، فقال : يامحمد ، والله لو رآك أبوك لساءه مكانك ، فتراخت يده ، وخرج عنه إلى الدار ، ودخل رجلان فوجداه فقتلاه ، وكان المصحف بين يديه

حصار الثوار دار عثمان

يقرأ فيه فصعدت امرأته فصرخت وقالت : قد قتل أمير المؤمنين ، فدخل الحسن والحسين ومن كان معهما من بني أمية ، فوجدوه قد فاضت نفسه رضى الله عنه ، فبكوا فبلغ ذلك عليا وطلحة والزبير وسعدا وغيرهم من المهاجرين والأنصار فاسترجع القوم ، ودخل على الدار ، وهو كالواله الحزين ، فقال لابنيه : كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب ؟ ولطم الحسن ، وضرب الحسين ، وشتم محمد بن طلحة ، ولعن عبد الله بن الزبير ، فقال له طلحة : لا تضرب يا أبا الحسن ، ولا تشتم ، ولا تلعن ، لو دفع مروان ما قتل . وهرب مروان وغيره من بنى أمية ، وطلبوا ليقتلوا فلم يوجدوا ، وقال على لزوجته نائلة بنت الفرافصة : من قتله وأنت كنت معه ؟ فقالت : دخل إليه رجلان ، وقصّت خبر محمد بن أبى بكر ، فلم ينكر ما قالت ، وقال : والله لقد دخلت عليه وأنا أريد قتله ، فلما خاطبنى بما قال خرجت ، ولا أعلم بتخلف الرجلين عنى ، والله ما كان لى فى قتله سبب ، ولقد قتل وأنا لا أعلم بقتله

مقتل عثمان

وكان مدة ما حوصر عثمان فى داره تسعا وأربعين يوما ، وقيل أكثر من ذلك .

وقتل فى ليلة الجمعة لثلاث بقين من ذى الحجة ، وذكر أن أحد الرجلين كنانة بن بشر التجيبى ، ضربه بعمود على جبهته ، والآخر منهما سودان بن حمران المرادى ، ضربه بالسيف على حبل عاتقه فحله

قتلة عثمان

وقد قيل : إن عمرو بن الحمق طعنه بسهام تسع طعنات ، وكان فيمن مال عليه عمير بن ضابىء البرجمى التميمى ، وخضخض بسيفه بطنه

ودفن على ما وصفنا فى الموضع المعروف بحش كوكب ، وهذا الموضع فيه مقابر بني أمية ، ويعرف أيضا بحل ، وصلى عليه جبير بن مطعم وحكيم بن حزام وأبو جهم بن حذيفة

مدفن عثمان والذين صلوا عليه

ولما حوصر عثمان كان أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه يصلى بالناس ، ثم

الذين صلوا بالناس أيام حصار عثمان

امتنع ، فصلى بهم سهل بن حنيف ، فلما كان يوم النحر صلى بهم على ، وقيل : إن عثمان قتل ومعه فى الدار من بنى أمية ثمانية عشر رجلا فيهم مروان ابن الحكم

وفى مقتله تقول زوجته نائلة بنت الفرافصة : —

ألا إن خير الناس بعد ثلاثة قتيل التجيبى الذى جاء من مصر
وما لِيَ لا أبكى وتبكي قرابتى وقد غيبوا عنا فضول أبى عمرو

وقال حسان بن ثابت فيمن تخلف عنه وخذله من الأنصار وغيرهم وأعان على قتله والله أعلم بما قاله من أبيات : ـ

خذلتـه الأنصار إذ حضر المو ت وكانت ولاية الأنصار
من عذيرى من الزبير ومن طلـ ـحة إذجا أمر له مقـدار
فتولى محمد بن أبى بكـ ـر عيانا وخلفـه عمّار

فى شعر له طويل يذكر فيه غير من ذكرنا ، وينسبهم إلى التمالؤ على قتله والرضا بما فعل به ، والله أعلم ، وكان حسان عثمانيا منحرفا عن غيره ، وكان عثمان إليه محسنا ، وهو المتوعد للأنصار فى قوله فى شعره : ـ

ياليت شعرى وليت الطير تخبرنى ما كان شأن على وابن عفّانا
لَنَسْمَعَنَّ وشيكاً فى ديارهم الله أكبر يا ثارات عثمانا

وكان عثمان رضى الله عنه كثيرا ما ينشد أبياتا قالها ويطيل ذكرها ما لا يعرف لغيرها منه ، وهى : —

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها من الحرام ويبقى الإثم والعار
يلقى عواقب سـوء من مَغَبَّتها لا خير فى لذة من بعدها النار

وكان الوليد بن عقبة بن أبى معيط أخا عثمان لأمه ، فسمع فى الليلة الثانية من مقتل عثمان يندبه وهو يقول : ـ

بنى هاشم ، إيه فما كان بيننا وسيف ابن أروى عندكم وحرائبه

بنى هاشم رُدُّوا اسلاح ابن أختكم ولا تنهبوه ما تحل مناهبه
غدرتم به كيما تكونوا مكانه كما غدرت يوما بكسرى مَرَازِبُهْ

وهى أبيات

فأجابه عن هذا الشعر وفيما رمى به بنى هاشم ونسب إليهم الفضلُ بن العباس ابن أبى لهب فقال : —

فلا تسألونا سيفكم إن سيفكم أُضِيعَ وألْقَاهُ لدى الرَّوْع صاحبُهْ
سلوا أهل مصر عن سلاح ابن أختنا فهم سَلَبُوه سَيفه وحرائبه
وكان ولى العهد بعد محمد على وفى كل المواطن صاحبه
على ولىّ الله أظهر دينه وأنت مع الأشْقَيْنَ فيما تحاربه
وأنت امرؤ من أهل صيفور مارح فمالك فينا من حميم تعاتبه
وقد أنزل الرحمن أنك فاسق فمالك فى الاسلام سهم تطالبه

قال المسعودى رحمه الله : ولعثمان أخبار وسيرو مآثر حسان قد أتينا على ذكرها فى كتابنا « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط ، وكذلك ما كان فى أيامه من الكوائن والأحداث والفتوح والحروب مع الروم وغيرهم ، والله ولى التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

ذكر خلافة أمير المؤمنين على بن أبى طالب

كرم الله وجهه

بويع على بن أبى طالب فى اليوم الذى قتل فيه عثمان بن عفان رضى الله عنه فكانت خلافته إلى أن استشهد أربع سنين وتسعة أشهر وثمانية أيام ، وقيل : أربع سنين وتسعة أشهر إلا يوما ، وكانت الفرقة بينه و بين معاوية على ما ذكرنا فى خلافته ، وكان مولده فى الكعبة ، وقيل : إن خلافته كانت خمس سنين وثلاثة أشهر وسبع ليال ، واستشهد وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وعاش بعد الضربة الجمعةَ والسبتَ ، وتوفى ليلة الأحد ، وقد قيل فى مقدار عمره أقل مما ذكرنا ، وقد تنوزع فى موضع قبره : فمنهم من قال : إنه دفن فى مسجد الكوفة ، ومنهم من قال : إنه حمل إلى المدينة فدفن عند فاطمة ، ومنهم من قال : حمل فى تابوت على جمل و إن الجمل تاه و وقع إلى وادى طيىء ، وقد قيل من الوجوه غير ماذكرنا ، وقد أتينا على ذلك فى كتابنا فى « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط

موضع قبر على

ونذكر نسبه ولمعا من أخباره وسيره

نسبه من جهة أبيه وأمه

وهو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، ويكنى أبا الحسن ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ، ولم يكن من عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى وقتنا هذا من خلافة المتقى من اسمه على غيره ، والمكتفى بالله على بن المعتضد ، وكان أول من ولد هاشمياً من الخلفاء ، وقد قيل : إنه بويع البيعة العامة بعد قتل عثمان بأربعة أيام ، وقد ذكرنا البيعة الأولى فيما سلف من هذا الكتاب ، وتنازع الناس فى اسم أبى طالب أبيه ، وولَدُ أبى طالب بن عبد المطلب أربعة ذكور وابنتان ، فطالب وعقيل وجعفر وعلى وفاختة وحمانة

إخوته

لأب وأم ، أمهم فاطمة بنت أسد بن هاشم ، و بين كل واحد من البنين عشر سنين : بين جعفر وعلى عشر سنين ، و بين جعفر وعقيل عشر سنين ، و بين عقيل

وطالب عشر سنين ، وأخرج مشركو قريش طالب بن أبى طالب يوم بدر إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم كرها ، ومضى ولم يعرف له خبر ، وحفظ من قوله هذا اليوم : —

يا رب إما خرَجُوا بطـالب ... فى مِقْنَب من تلـكم الْمَقَانب

فاجعلهم المغلوبَ غيرَ الغالب ... والرجلَ المسلوبَ غير السالب

وكان زوج فاختة بنت أبى طالب أبو وهب هبيرة بن عمرو بن عابد بن عمر (١) ابن مخزوم ، وخلف عليها ابنا و بنتا ، وهاجرت ، ومات زوجها بنجران مشركا وفيها يقول ببلاد نجران من أبيات كثيرة : —

أشاقَتْكَ هندٌ أم نآك سؤالها ... كذاك النَّوَى أسبابها وانتقالُهَا

وأرَّقنى فى رأس حصن مُمَرَّدٍ ... بنَجْران يَسْرى بعد نوم خيالُهَا

فإن تَكُ قـد تابَعْتِ دين محمد ... وقطعت الأرحام منك حبالها

وهى طويلة ، وكانت تـكنى أم هانىء ، وقد استعمل على ـ حين أفضت الخلافة إليه ـ ابنها جعدة بن هبيرة ، وجعدة هو القائل : —

وإنِّى من مخزوم إنْ كُنْتَ سائلا ... ومن هاشم أمِّى لخير قبيل

فمنْ ذَا الذى يناأى على بخاله ... وخالى على ذو النـدى وعَقيل

وحمانة بنت أبى طالب كان بعلها سفيان بن الحرث بن عبد المطلب ، وهى أول هاشمية ولدت بها شمى ، كذلك ذكر الزبير بن بكار فى كتابه فى أنساب قريش وأخبارها ، وهاجرت وماتت بالمدينـة فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم

مسيره إلى البصرة

وكان مسيرعلى إلى البصرة فى سنة ست وثلاثين ، وفيها كانت وقعة الجمل ، وذلك فى يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى منها ، وقتل فيها من أصحاب الجمل وأهل البصرة وغيرهم ثلاثة عشر ألفا ، وقتل من أصحاب على خمسة آلاف ، وقد تنازع الناس فى مقدار ماقتل من الفريقين : فمن مقلل ومكثر ؛ فالمقل يقول :

(١) فى بعض الأصول « بن عمرو بن مخزوم »

قتل بينهم سبعة آلاف ، على حسب ميل الناس وأهوائهم إلى كل فريق منهم ، وكانت وقعة واحدة فى يوم واحد

ثبت الحوادث وتواريخها

وقيل : إنه كان بين خلافة على إلى وقعة الجمل و بين أول الهجرة خمس وثلاثون سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام ، و بين دخول على إلى الكوفة و بين التقائه مع معاوية للقتال بصفين ستة أشهر وثلاثة عشر يوما ، و بين ذلك وأول الهجرة ست وثلاثون سنة وثلاثة عشر يوما

وقتل بصفين سبعون ألفا من أهل الشأم ، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفا ، وكان المقام بصفين مائة يوم وعشرة أيام ، وقتل بها من الصحابة ممن كان مع على خمسة وعشرون رجلا : منهم عمار بن ياسر أبو اليقظان المعروف بابن سمية ، وهو ابن ثلاث وسبعين سنة ، وكانت عدة الوقائع بين أهل العراق والشأم سبعون وقعةً

وفى سنة ثمان وثلاثين كان التقاء الحكمين وهما عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعرى بأرض البلقاء من أرض دمشق ، وقيل : بدومة الجندل ، وهى على عشرة أميال من دمشق ، وكان من أمرهما ماقد شهر ، وسنورد فى هذا الكتاب جوامع ماذكرنا ، و إن كنا قد أتينا على مبسوط ذلك فيما سلف من كتبنا

وفى هذه السنة حملت الخوارج ، وهم الشراة

شهود وقائعه من الصحابة

وكان ممن شهد صفين مع على من أصحاب بدر سبعة وثمانون رجلا منهم سبعة عشر من المهاجرين وسبعون من الأنصار ، وشهد معه من الأنصار ممن بايع تحت الشجرة وهى بيعة الرضوان من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعمائة ، وكان جميع من شهد معه من الصحابة ألفين وثمانمائة

القاعدون عن بيعته من الصحابة

وفى سنة ثمان وثلاثين كان خروجه مع أهل النهر وان من الخوارج ، وقعد عن بيعته جماعة عثمانية لم يروا إلا الخروج عن الأمر : منهم سعد بن أبى وقاص ،

وعبدالله بن عمر ، وبايع يزيد بعد ذلك والحجاج لعبد الملك بن مروان ، ومنهم قدامة بن مظعون ، ووهبان بن صيفى ، وعبد الله بن سلام ، والمغيرة بن شعبة الثقفى ، وممن اعتزل من الأنصار كعب بن مالك ، وحسان بن ثابت ، وكانا شاعرين ، وأبو سعيد الخدرى ، ومحمد بن مسلمة حليف بنى عبد الأشهل ، وفضالة ابن عبيد ، وكعب بن عجرة ، ومسلمة بن خالد ، فى آخرين ممن لم نذكرهم من العثمانية من الأنصار وغيرهم من بنى أمية وسواهم

وانتزع على أملاكا كانت لعثمان أقطعها جماعة من المسلمين ، وقسم ما فى بيت المال على الناس ، ولم يفضل أحدا على أحد ، وبعث أم حبيبة بنت أبى سفيان إلى أخيها معاوية بقميص عثمان مخضبا بدمائه مع النعمان بن بشير الأنصارى ، واتصلت بيعة على بالكوفة وغيرها من الأمصار ، وكانت أهل الكوفة أسرع إجابة إلى بيعته ، وأخذ له البيعة على أهلها أبو موسى الأشعرى ، حتى تكاثر الناس عليه ، وكان عليها عاملا لعثمان

وأتاه جماعة ممن تخلف عن بيعته من بنى أمية : منهم سعيد بن العاص ، ومروان بن الحكم ، والوليد بن عقبة بن أبى معيط ، فجرى بينه وبينهم خطب طويل ، وقال له الوليد : إنا لم نتخلف عنك رغبة عن بيعتك ، لكنا قومٌ وترَنا الناس ، وخفنا على نفوسنا ، فعذرنا فيما نقول واضح ، أما أنا فقتلت أبى صبرا ، وضربتنى حدا ، وقال سعيد بن العاص كلاما كثيرا ، وقال له الوليد : أما سعيد فقتلت أباه صبرا ، وأهنت مثواه ، وأما مروان فانك شتمت أباه ، وكبت عثمان فى صنعه إياه

وقد ذكر أبو مخنف لوط بن يحيى أن حسان بن ثابت وكعب بن مالك والنعمان بن بشير قبل نفوذه بالقميص أتوا عليا فى آخرين من العثمانية فقال كعب ابن مالك : يا أمير المؤمنين ، ليس مسيئاً من أعتب ، وخير كفاء ماحاه عذر ، فى كلام كثير ، ثم بايع وبايع من ذكرنا جميعا .

عمرو بن العاص

وقد كان عمرو بن العاص انحرف عن عثمان لانحرافه وتولية مصر غيره ، فنزل الشأم ، فلما اتصل به أمر عثمان وما كان من بيعة على كتب إلى معاوية يهزه ويشير عليه بالمطالبة بدم عثمان ، وكان فيما كتب به إليه : ما كنت صانعا إذا قشرت من كل شيء تملكه فاصنع ما أنت صانع ، فبعث إليه معاوية ، فسار إليه ، فقال له معاوية : بايعنى ، قال : والله لا أعينك من دينى حتى أنال من دنياك ، قال : سل ، قال : مصر طعمة ، فأجابه إلى ذلك ، وكتب له به كتابا ، وقال عمرو بن العاص فى ذلك : —

مُعَاوِيَ لا أعطيك دينى ولم أنل ... بهمنك دُنْيَا فانْظُرَنْ كيف تصنع

فان تُعْطِنِى مصرا فأربح صفقة ... أخذت بها شيخا يضر وينفع

المغيرة بن شعبة

وأتى المغيرة بن شعبة عليا فقال له : إن حق الطاعة النصيحة ، وإن الرأى اليوم تحوز به ما فى غد ، وإن التصارع اليوم تضيع به ما فى غد ، أقْرِرْ معاوية على عمله ، وأقرر ابن عامر على عمله ، وأقرر العمال على أعمالهم ، حتى إذا أتتك طاعتهم وطاعة الجنود استبدلت أو تركت ، قال : حتى أنظر ، فخرج من عنده وعاد إليه من الغد ، فقال : إنى أشرت عليك بالأمس برأى وتعقبته ، وإنما الرأى أن تعالجهم بالنزع فتعرف السامع من غيره ويستقل أمرك ، ثم خرج فتلقاه ابن عباس خارجا وهو داخل ، فلما انتهى إلى على قال : رأيت المغيرة خارجا من عندك ففيم جاءك ؟ قال : جاءنى أمس بكيت وكيت ، وجاءنى اليوم بذيت وذيت ، فقال : أما أمس فقد نصحك ، وأما اليوم فقد غشك ، قال : فما الرأى ؟ قال : كان الرأى أن تخرج حين قتل عثمان ، أو قبل ذلك ، فتأتى مكة فتدخل دارك فتغلق عليك بابك فان العرب كانت لجائلة مضطرة فى أثرك لا تجد غيرك ، فأما اليوم فان بنى أمية سيحسنون الطلب بأن يلزموك شعبة من هذا الأمر ويشبهون فيك على الناس ، وقال المغيرة : نصحته فلم يقبل فغششته ، وذكر أنه قال :

وأما أنا فنصحته قبلها ولا أنصحه بعدها

قال المسعودى : وجدت فى وجه آخر من الروايات أن ابن عباس قال : قدمت من مكة بعد مقتل عثمان بخمس ليال ، فجئت عليا أدخل عليه ، فقيل لى : عنده المغيرة بن شعبة ، فجلست بالباب ساعة ، فخرج المغيرة فسلم على وقال : متى قدمت ؟ قلت : الساعة ، ودخلت على على وسلمت عليه فقال : أين لقيت الزبير وطلحة ؟ قلت : بالنواصف ، قال : ومن معهما ؟ قلت : أبو سعيد بن الحرث بن هشام بن قتيبة من قريش ، فقال على : أما إنهم لم يكن لهم بد أن يخرجوا يقولون نطلب بدم عثمان والله يعلم أنهم قتلة عثمان ، فقلت : أخبرنى عن شأن المغيرة ، ولِمَ خلا بك ؟ قال : جاءنى بعد مقتل عثمان بيومين فقال : أخلنى [1] ، ففعلت ، فقال : إن النصح رخيص ، وأنت بقية الناس ، وأنا لك ناصح ، وأنا أشير عليك أن لا ترد عمال عثمان عامك هذا ، فاكتب إليهم باثباتهم على أعمالهم فاذا بايعوا لك واطمأن أمرك عزلت من أحببت وأقررت من أحببت ، فقلت له : والله لا أداهن فى دينى ، ولا أعطى الرياء فى أمرى ، قال : فان كنت قد أبيت فانزع من شئت واترك معاوية فان له جراءة وهو فى أهل الشام مسموع منه ولك حجة فى إثباته فقد كان عمر ولاه الشام كلها ، فقلت له : لا والله لا أستعمل معاوية يومين أبدا ، فخرج من عندى على ما أشار به ، ثم عاد فقال : إنى أشرت عليك بما أشرت به وأبيت على فنظرت فى الأمر وإذا أنت مصيب لا ينبغى أن تأخذ أمرك بخدعة ولا يكون فيه دنسة ؛ قال ابن عباس : فقلت له : أما أول ما أشار عليك فقد نصحك ، وأما الآخر فقد غشك ، وأنا أشير عليك أن تثبت معاوية فان بايع لك فعلى أن أقلعه من منزله ، قال : لا والله لا أعطيه إلا السيف ، ثم تمثل

فما منة إن منَّها غير عاجز ... بعار إذا ما غالت النفس غالها

---

(١) يريد كن معى فى خلوة

فقال : يا أمير المؤمنين ، أنت رجل شجاع ، أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقل « الحرب خدعة » فقال على : بلى ، قلت : أما والله لئن أطعتنى لأصدرن بهم بعد ورود ، ولأتركنهم ينظرون فى آثارهم الأمور ولا يدرو ما كان وجهها ، من غير نقص لك ولا إثم عليك ، فقال : يا ابن عباس ، لست من هنياتك وهنيات معاوية فى شىء يسير مالك عندى الطاعة والله ولى التوفيق

ذكر الأخبار عن يوم الجمل وبدئه

وما كان فيه من الحرب وغيره

ودخل طلحة والزبير مكة ، وقد كانا استأذنا عليا فى العمرة ، فقال : لعلكما تريدان البصرة والشأم ، فأقسما أنهما لا يقصدان غير مكة ، وقد كانت عائشة رضى الله عنها بمكة ، وقد كان عبد الله بن عامر عامل عثمان على البصرة هرب عنها حين أخذ البيعة لعلى بها على الناس حارثة بن قدامة السعدى ، ومصير عثمان بن حنيف الأنصارى إليها على خراجها من قبل على رضى الله عنه ، وانصرف عن اليمن عامل عثمان ، وأعطى عائشة وطلحة والزبير أربعمائة درهم وكراعا وسلاحا ، وبعث إلى عائشة بالجمل المسمى عسكرا وكان شراؤه عليه باليمن مائتى دينار ، فأرادوا الشأم ، فصدهم ابن عامر ، وقال : إن به معاوية ولا ينقاد إليكم ولا يطيعكم ، لكن هذه البصرة لى بها صنائع وعدد ، فجهزهم بألف ألف درهم ومائة من الإبل وغير ذلك ، وسار القوم نحو البصرة فى ستمائة راكب ، فانتهوا فى الليل إلى ماء لبنى كلاب يعرف بالحوأب ، عليه ناس من بنى كلاب ، فعوت كلابهم على الركب ، فقالت عائشة : ماسم هذا الموضع ؟ فقال لها السائق لجملها : الحوأب ، فاسترجعت وذكرت ماقيل لها فى ذلك ، فقالت : ردونى إلى حرم

مسير طلحة والزبير وعائشة

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لاحاجة لى فى المسير ، فقال ابن الزبير : بالله ماهذا الحوأب ، ولقد غلط فيما أخبرك به ، وكان طلحة فى ساقة الناس ، فلحقها فأقسم أن ذلك ليس بالحوأب ، وشهد معهما خمسون رجلا ممن كان معهم ، فكان ذلك أول شهادة زور أقيمت فى الإسلام ، فأتوا البصرة فخرج إليهم عثمان بن حنيف فمانعهم ، وجرى قتال ، قال : ثم إنهم اصطلحوا بعد ذلك على كف الحرب إلى قدوم على ، فلما كان فى بعض الليالى بيَّتُوا عثمان بن حنيف فأسروه وضربوه ونتفوا لحيته ، ثم إن القوم استرجعوا وخافوا على مخلفيهم بالمدينة من أخيه سهل ابن حنيف وغيره من الأنصار ، فخلوا عنه ، وأرادوا بيت المال فمانعهم الخزان والموكلون به وهم السالحون ، فقتل منهم سبعون رجلا غير من جرح ، وخمسون من السبعين ضربت رقابهم صبرا من بعد الأسر ، وهؤلاء أول من قتلوا ظلما فى الاسلام وصبرا ، وقتلوا حكيم بن جبلة العبدى ، وكان من سادات عبدالقيس وزهاد ربيعة ونساكها ، وتشاح طلحة والزبير فى الصلاة بالناس ، ثم اتفقوا على أن يصلى بالناس عبد الله بن الزبير يوما ، ومحمد بن طلحة يوما ، فى خطب طويل كان بين طلحة والزبير إلى أن اتفقا على ما وصفنا .

مسير على من المدينة

وسار على من المدينة بعد أربعة أشهر ، وقيل غير ذلك ، فى سبعمائة راكب منهم أربعمائة من المهاجرين والأنصار منهم سبعون بدريا وباقيهم من الصحابة ، وقد كان استخلف على المدينة سهل بن حنيف الأنصارى ، فانتهى إلى الربذة بين الكوفة ومكة من طريق الجادة ، وفاته طلحة والزبير ، وقد كان على أرادهم فانصرف حين فاتوه إلى العراق فى طلبهم ، ولحق بعلى من أهل المدينة جماعة من الأنصار فيهم خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين ، وأتاه من طيء ستمائة راكب ، وكاتب على من الربذة أبا موسى الأشعرى ليستنفر الناس ، فثبطهم أبو موسى ، وقال : إنما هى فتنة ، فنمى ذلك إلى على ، فولى على الكوفة قرظة بن كعب الأنصارى ، وكتب إلى أبى موسى : اعتزل عملنا يا ابن الحائك مذموما مدحورا ،

فما هذا أول يومنا منك ، و إن لك فيها لهنات وهنيات ، وسار على يمن معه حتى نزل بذى قار ، و بعث بابنه الحسن وعمار إلى الكوفة يستنفر الناس ، فسارا عنها ومعهما من أهل الكوفة نحو من سبعة آلاف ، وقيل : ستة آلاف وخمسمائة وستون رجلا ، فانتهى إلى البصرة وراسل القوم وناشدهم الله ، فأبوا إلا قتاله .

دخول على البصرة وأنصاره من الصحابة

وذكر عن المنذر بن الجارود فيما حدث به أبو حنيفة الفضل بن الحباب الجمحى عن ابن عائشة عن معن بن عيسى عن المنذر بن الجارود قال : لما قدم على رضى الله عنه البصرة دخل مما يلى الطف ، فأتى الزاوية ، فخرجت أنظر إليه ، فورد موكب نحو ألف فارس يقدمهم فارس على فرس أشهب عليه قلنسوة وثياب بيض متقلد سيفا معه راية و إذا تيجان القوم الأغلب عليها البياض والصفرة مدججين فى الحديد والسلاح ، فقلت : من هذا ؟ فقيل : أبو أيوب الأنصارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء الأنصار وغيرهم ، ثم تلاهم فارس آخر عليه عمامة صفراء وثياب بيض متقلد سيفا متنكب قوسا معه راية على فرس أشقر فى نحو ألف فارس ، فقلت : من هذا ؟ فقيل : هذا خزيمة بن ثابت الأنصارى ذو الشهادتين ، ثم مر بنا فارس آخر على فرس كميت معتم بعمامة صفراء من تحتها قلنسوة بيضاء وعليه قباء أبيض مصقول متقلد سيفا متنكب قوسا فى نحو ألف فارس من الناس ومعه راية ، فقلت : من هذا ؟ فقيل لى : أبو قتادة بن ربعى ، ثم مر بنا فارس آخر على فرس أشهب عليه ثياب بيض وعمامة سوداء قد سدلها بين يديه ومن خلفه ، شديد الأدمة عليه سكينة و وقار رافع صوته بقراءة القرآن متقلد سيفا متنكب قوسا معه راية بيضاء فى ألف من الناس مختلفى التيجان حوله مشيخة وكهول وشباب كأنْ قَدْ أوقفوا للحساب ، أثر السجود قد أثر فى جباههم ، فقلت : من هذا ؟ فقيل : عمار بن ياسر فى عدة من الصحابة من المهاجرين والأنصار وأبنائهم ، ثم مر فارس على فرس أشقر عليه ثياب بيض وقلنسوة بيضاء وعمامة صفراء

متنكب قوسا متقلد سيفا تخط رجلاه فى الأرض فى ألف من الناس الغالب على تيجانهم الصفرة والبياض معه راية صفراء ، قلت : من هذا ؟ قيل : هذا قيس بن سعد بن عبادة فى الأنصار وأبنائهم وغيرهم من قحطان ، ثم مر بنا فارس على فرس أشهل مارأينا أحسن منه عليه ثياب بيض وعمامة سوداء قد سدلها بين يديه بلواء ، قلت : من هذا ؟ قيل : هو عبدالله بن العباس فى عدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم تلا موكب آخر فيه فارس أشبه الناس بالأولين ، قلت : من هذا ؟ قيل : قثم بن العباس ، أو سعيد ابن العاص ، ثم أقبلت المواكب والرايات يقدم بعضها بعضا ، واشتبكت الرماح ، ثم ورد موكب فيه خلق من الناس عليهم السلاح والحديد مختلفو الرايات فى أوله راية كبيرة يقدمهم رجل كانما كسروجبر (قال ابن عائشة : وهذه صفة رجل شديد الساعدين نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى فوق ، كذلك تخبر العرب فى وصفها إذا أخبرت عن الرجل أنه كسروجبر) كأنما على رؤسهم الطير ، وعن ميسرتهم شاب حسن الوجه قلت : من هؤلاء ؟ قيل : هذا على بن أبى طالب ، وهذان الحسن والحسين عن يمينه وشماله ، وهذا محمد بن الحنفية بين يديه معه الراية العظمى ، وهذا الذى خلفه عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وهؤلاء ولد عقيل وغيرهم من فتيان بنى هاشم ، وهؤلاء المشايخ أهل بدر من المهاجرين والأنصار

فساروا حتى نزلوا الموضع المعروف بالزاوية ، فصلى أربع ركعات ، وعفّر خديه على التربة ، وقد خالط ذلك دموعه ، ثم رفع يديه يدعو : اللهم رب السموات وما أظلت ، والأرضين وما أقلت ، ورب العرش العظيم ؛ هذه البصرة أسألك من خيرها ، وأعوذ بك من شرها ، اللهم أنزلنا فيها خير منزل وأنت خير المنزلين ، اللهم هؤلاء القوم قدخلعوا طاعتى ، و بغوا على ، ونكثوا بيعتى ، اللهم احقن دماء المسلمين .

وبعث إليهم من يناشدهم الله فى الدماء ، وقال : علام يقاتلوننى ؟ فأبوا إلا الحرب ، فبعث رجلا من أصحابه يقال له مسلم معه مصحف يدعو إلى الله ، فرموه بسهم فقتلوه ، فحمل إلى على وقالت أمه : —

يارب إن مسلما أتاهم يتلو كتاب الله لايخشاهم
فخضبوا من دمه لحاهم وأمه قائمة تراهم

وأمر على رضى الله عنه أن يصافوهم ، ولايبدءوهم بقتال ، ولايرموهم بسهم ، ولا يضربوهم ، ولا يطعنوهم برمح ، حتى جاء عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعى من الميمنة بأخ له مقتول ، وجاء قوم من الميسرة برجل قد رمى بسهم فقتل ، فقال على : اللهم اشهد ، وأعذروا إلى القوم

عمار بن ياسر يدعو إلى حقن الدماء

ثم قام عمار بن ياسر بين الصفين فقال : أيها الناس ، ماأنصفتم نبيكم حيث كففتم عتقاء تلك الخدور وأبرزتم عقيلته للسيوف ، وعائشة على جمل فى هودج من دفوف الخشب قد ألبسوه المسوح وجلود البقر وجعلوا دونه اللبود قد غشى على ذلك بالدروع ، فدنا عمار من موضعها فنادى : إلى ماذا تدعيننى ؟ قالت : إلى الطلب بدم عثمان ، فقال : قتل الله فى هذا اليوم الباغى والطالب بغير الحق ، ثم قال : أيها الناس ، إنكم لتعلمون أينا المالىء فى قتل عثمان ؟ ثم أنشأ يقول وقد رشقوه بالنبل : —

فمنك البكاء ومنك العويل ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الامام وقاتله عندنا من أمر

وتواتر عليه الرمى واتصل ، فحرك فرسه وزال عن موضعه ، فقال : ماذا تنتظر ياأمير المؤمنين وليس لك عند القوم إلا الحرب ؟ !

وصية على لأصحابه قبل الحرب

فقام على رضى الله عنه فقال : أيها الناس ، إذا هزمتموهم فلا تجهزوا على جريح ، ولا تقتلوا أسيرا ، ولا تتبعوا موليا ، ولا تطلبوا مدبرا ، ولا تكشفوا عورة ، ولاتمثلوا بقتيل ، ولاتهتكوا سترا ، ولا تقربوا من أموالهم إلا ماتجدونه

فى عسكرهم من سلاح أو كراع أوعبد أو أمة ، وماسوى ذلك فهو ميراث لورثتهم على كتاب الله

على يدعو الزبير لقتاله

وخرج على بنفسه حاسرا على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم لاسلاح عليه ، فنادى : ياز بير ، اخرج إلى ، فخرج شاكا فى سلاحه ، فقيل لعائشة ، فقالت : واحرباه بأسماء ، فقيل لها : إن عليا حاسر ، فاطمأنت ، واعتنق كل واحد منهما صاحبه ، فقال له على : ويحك ياز بير ماالذى أخرجك ؟ قال : دم عثمان ، قال : قتل الله أولانا بدم عثمان ، أما تذكر يوم لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى بياضة وهو راكب حماره ، فضحك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضحكت أنت معه ، فقلت أنت : يارسول الله ، مايدع على زهوه ، فقال لك : « ليس به زهو ، أتحبه ياز بير » ؟ فقلت : إنى والله لأحبه ، فقال لك : « إنك والله ستقاتله وأنت له ظالم » فقال الزبير : أستغفر الله ، لو ذكرتها ماخرجت ، فقال : ياز بير ارجع ، فقال : وكيف أرجع الآن وقد التقت حلقتا البطان ؟ هذا والله العار الذى لايغسل ، فقال : ياز بير ارجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار ، فرجع الزبير وهو يقول : —

اخترت عارا على نار مؤججة ... ما إن يقوم لها خلق من الطين
نادى علىٌّ بأمر لست أجهله ... عار لعمرك فى الدنيا وفى الدين
فقلت : حسبك من عَدْل أباحسن ... فبَعْضُ هذا الذى قد قلت يكفينى

انصراف الزبير عن القتال

فقال ابنه عبد الله : أين تدعنا ؟ فقال : يابنى أذكرنى أبوحسن بأمر كنت قد أنسيته ، فقال : لاوالله ، ولكنك فررت من سيوف بنى عبد المطلب ؛ فانها طوال حداد ، تحملها فتية أنجاد ، قال : لاوالله ، ولكنى ذكرت ماأنسانيه الدهر فاخترت العار على النار ، أبا لجبن تعيرنى لاأبالك ؟ ثم أمال سنانه وشد فى الميمنة فقال على : أفرجوا له فقدهاجوه ، ثم رجع فشد فى الميسرة ، ثم رجع فشد فى القلب ، ثم عاد إلى ابنه ، فقال : أيفعل هذا جبان ؟ ثم مضى منصرفا ، حتى أتى

وادى السباع والأحنف بن قيس معتزل فى قومه من بنى تميم ، فأتاه آت فقال له : هذا الزبير مار ، فقال : ماأصنع بالزبير وقد جمع بين فئتين عظيمتين من الناس يقتل بعضهم بعضا وهو مار إلى منزله سالما ؟! فلحقه نفر من بنى تميم ، فسبقهم إليه عمرو بن جرموز ، وقد نزل الزبير إلى الصلاة ، فقال : أتؤمنى أو أؤمك ؟ ! فأمنه فأمه الزبير ، فقتله عمرو فى الصلاة ، وقتل الزبير رضى الله عنه وله خمس وسبعون سنة ، وقد قيل : إن الأحنف بن قيس قتله بارسال من أرسل من قومه ، وقد رثته الشعراء وذكرت غدر ابن جرموز به ، وممن رثاه زوجته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل أخت سعيد بن زيد ، فقالت : —

مقتل الزبير

غدرَ ابن جرموز بفارس بُهْمَةٍ ... يوم اللقاء وكان غير مسدد
ياعمرو ، لو نبهته لوجدته ... لاطائشا رعش الجنان ولا اليد
هَبِلَتْكَ أمك إن قتلت لَمُسْلِماً ... حَلَّتْ عليك عقوبة المتعمد
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... فيمن مضى ممن يروح ويغتدى

وأتى عمرو عليا بسيف الزبير وخاتمه ورأسه ، وقيل : إنه لم يأت برأسه ، فقال على : سيف طالما جلا الكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكنه الجبن ومصارع السوء ، وقاتلُ ابن صفية فى النار ، ففى ذلك يقول عمرو بن جرموز التميمى : —

أتيت عليًّا برأس الزبير ... وقد كنت أرجو به الزلفهْ
فبشّرَ بالنار قبل العيان ... وبئس بشارة ذى التحفهْ
لَسِيّان عندى قتلُ الزبير ... وضرطة عنز بذى الجحفهْ

على يعاتب طلحة

ثم نادى على رضى الله عنه طلحة حين رجع الزبير : يا أبا محمد ، ما الذى أخرجك ؟ قال : الطلب بدم عثمان ، قال على : قتل الله أولانا بدم عثمان ، أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » وأنت أول من بايعنى ثم نكثت ، وقد قال الله عز وجل : (ومن نكث

فانما ينكث على نفسه) فقال : أستغفر الله ، ثم رجع ، فقال مروان بن الحكم : رجع الزبير ويرجع طلحة ، ما أبالى رَمَيْتُ ههنا أم ههنا ، فرماه فى أكحله فقتله ، فمر به على بعد الوقعة فى موضعه فى قنطرة قرة ، فوقف عليه ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله لكنت كارها لهذا ، أنت والله كما قال القائل : مقتل طلحة

فَتًى كان يدنيه الغنى من صديقه إذا ما هو استغنى ويُبْعِدُهُ الفقر
كأن الثريا علقت فى يمينه وفى خده الشعرى وفى الآخر البدر

وذكر أن طلحة رضى الله عنه لما ولى سمع وهو يقول : —

ندامة هاندمت وضل حلمى ولهفى ثم لهف أبى وأمى
ندمت ندامة الكسعى لما طلبت رضا بنى حَزْم بزعمى

وهو يمسح عن جبينه الغبار وهو يقول : (وكان أمر الله قدرا مقدورا) وقيل: إنه سمع وهو يقول هـذا الشعر وقد جرحه فى جبهته عبد الملك ورماه مروان فى أكحله ، وقد وقع صريعا يجود بنفسه

ترجمة طلحة ابن عبيد الله

وهو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عبيد الله بن عمر بن كعب بن سعيد ابن تيم الله ، وهو ابن عم أبى بكر الصديق ، ويكنى أبا محمد ، وأمه الصعبة ، وكانت ابنة أبى سفيان صخر بن حرب ، كذلك ذكر الزبير بن بكار فى كتابه فى أنساب قريش ، وقتل وهو ابن أربع وستين سنة ، وقيل غير ذلك ، ودفن بالبصرة ، وقبره ومسجده إلى هذه الغاية ، وقبر الزبير بوادى السباع

مقتل محمد ابن طلحة

وقتل محمد بن طلحة مع أبيه فى ذلك اليوم ، ومر به على فقال : هذا رجل قتله بره بأبيه وطاعته ، وكان يدعى بالسجاد ، وقد تنوزع فى كنيته : فقال الواقدى : كان يكنى بأبى سليمان ، وقال الهيثم بن عدى : كان يكنى بأبى القاسم ، وفيه يقول قاتله : —

وأشعث سجاد بآيات ربه قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
شككت له بالرمح جَيْبَ قميصه فخرَّ صريعا لليدين وللفم

على غير شيء غير أن لَيْسَ تابعا عليًّا ومن لا يتبع الحق يَنْدَم
يُذَكِّرُنى حَامِيمَ والرمْحُ شارع(١) فَهَلَّا تَلَا حاميم قبل التقدم

وقد كان أصحاب الجمل حملوا على ميمنة على وميسرته فكشفوها ، فأتاه بعض ولد عقيل وعلى يخفق نعاسا على قربوس سرجه ، فقال له : يا عم ، قد بلغت ميمنتك وميسرتك حيث ترى وأنت تخفق نعاسا ، قال : اسكت يا ابن أخى ؛ فان لعمك يوما لا يعدوه ، والله لا يبالى عمك وقع على الموت أو وقع الموت عليه ، ثم بعث إلى ولده محمد بن الحنفية ، وكان صاحب رايته : احمل على القوم ، فأبطأ محمد عليه ، وكان بازائه قوم من الرماة ينتظر نفاد سهامهم ، فأتاه على فقال: هلا حملت ، فقال : لا أجد متقدَّما إلا على سهم أو سنان ، وإنى لمنتظر نفاد سهامهم وأحمل ، فقال : احمل بين الأسنة ، فان للموت عليك جنة ، فحمل محمد ، فسكن بين الرماح والنشاب فوقف ، فأتاه على فضربه بقائم سيفه ، وقال : أدركك عرق من أمك ، وأخذ الراية وحمل وحمل الناس معه ، فما كان القوم إلا كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، وطافت بنو أمية بالجمل وأقبلوا يرتجزون ويقولون : —

بنو أمية يحيطون بالجمل

نحن بنو ضبة أصحاب الجمل نُنَازل الموت إذا الموت نزل
رُدُّوا علينا شيخنائم بجل عثمان ردوه بأطراف الأسل
والموت أحلى عندنا من العسل

وقطع على خطام الجمل سبعون يدا من بنى ضبة معهم كعب بن سور القاضى متقلدا مصحفا كلما قطعت يد واحد منهم قام آخر فأخذ الخطام وقال : أنا الغلام الضبى ، ورمى الهودج بالنشاب والنبل حتى صار كأنه قنفذ ، وعرقب الجمل وهو لا يقع ، وقد قطعت أعضاؤه وأخذته السيوف حتى سقط ، ويقال : إن عبدالله بن الزبير قبض على خطام الجمل وهو لا يقع وقد ناشده على فخلى عنه ، ولما سقط الجمل ووقع الهودج جاء محمد بن أبى بكر فأدخل يده فقالت : من أنت ؟ قال :

(١) يروى * يذكرنى حاميم والرمح شاجر *

أقرب الناس قرابة وأبغضهم إليك ، أنا محمد أخوك ، يقول لك أمير المؤمنين : هل أصابك شيء ؟ قالت : ما أصابنى إلا سهم لم يضرنى ، فجاء على حتى وقف عليها فضرب الهودج بقضيب ، وقال : يا حميراء ، رسول الله أمرك [1] بهذا ؟ ألم يامرك أن تقرى فى بيتك ، والله ما أنصفك الذين أخرجوك إذ صانوا عقائلهم وأبرزوك ، وأمر أخاها محمدا فأنزلها فى دار صفية بنت الحرث بن أبى طلحة العبدى وهى أم طلحة الطلحات ، ووقع الهودج والناس مفترقون يقتتلون ، والتقى الأشتر ابن مالك بن الحرث النخعى وعبد الله بن الزبير فاعتركا وسقطا إلى الأرض عن فرسيهما والناس حولهم يجولون وابن الزبير ينادى : —

عبد الله ابن الزبير والأشتر النخعى

اقتلونى ومالكا واقتلوا مالكا معى

فلا يسمعهما أحد لشدة الجلاد ووقع الحديد ، ولا يراهما راء لظلمة النقع وترادف العجاج ، وجاء ذو الشهادتين خزيمة بن ثابت إلى على فقال : يا أمير المؤمنين ، لا تنكس اليوم رأس محمد ، واردد إليه الراية ، فدعا به ، ورد عليه الراية ، وقال : —

اطعنهم طعن أبيك تحمد لاخير فى حرب إذا لم توقد
بالْمُشْرَفِيّ والْقَنَا المُسَرَّد

ثم استسقى ، فأُتى بعسل وماء ، فحسا منه حَسْوة ، وقال : هذا الطائفى وهو غريب البلد ، فقال له عبد الله بن جعفر : ما شغلك ما نحن فيه عن علم هذا ؟ قال : إنه والله يابنى ما حلا بصدر عمك شيء قط من أمر الدنيا .

ثم دخل البصرة ، وكانت الوقعة فى الموضع المعروف بالحربية يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين ، على حسب ماقدمنا آنفا من التاريخ ، وخطب الناس بالبصرة خطبته الطويلة التى يقول فيها : ياأهل المسجد ، يا أهل المؤتفكة ائتفكت بأهلك من الدهر ثلاثا ، وعلى الله تمام الرابعة ، يا جند

خطبة على بالبصرة

(١) كذا ، ولعله « يا حميراء رسول الله ، آلله أمرك بهذا ؟ »

المرأة ، يا أتباع البهيمة ، رغا فأجبتم ، وعقر فانهزمتم ، أخلاقكم رقاق ، وأعمالكم نفاق ، ودينكم زيغ وشقاق ، وماؤكم أجاج زعاق ، وقد ذم على أهل البصرة بعد هذا الموقف مرارا كثيرة .

ابن عباس وعائشة

و بعث بعبد الله بن عباس إلى عائشة يأمرها بالخروج إلى المدينة ، فدخل إليها بغير إذنها ، واجتذب وسادة فجلس عليها ، فقالت : يا ابن عباس ، أخطأت السنة المأمور بها ، دخلت إلينا بغير إذننا ، وجلست على رحلنا بغير أمرنا ، فقال لها : لو كنت فى البيت الذى خلفك فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما دخلنا إلا باذنك وما جلسنا على رحلك إلا باذنك ، إن أمير المؤمنين يأمرك بسرعة الأوبة ، والتأهب للخروج إلى المدينة ، فقالت : أبيت ماقلت ، وخالفت ماوصفت ؛ فمضى إلى على فخبره بامتناعها ، فرده إليها ، وقال : إن أمير المؤمنين يعزم عليك أن ترجعى ، فأنعمت وأجابت إلى الخروج ، وجهزها على وأتاها فى اليوم الثانى ودخل عليها ومعه الحسن والحسين و باقى أولاده وأولاد إخوته وفتيان أهله من بنى هاشم وغيرهم من شيعته من همدان ، فلما بصرت به النسوان صِحْنَ فى وجهه وقلن : ياقاتل الأحبة ، فقال : لو كنت قاتل الأحبة لقتلت من فى هذا البيت ، وأشار إلى بيت من تلك البيوت قد اختفى فيه مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عامر وغيرهم ، فضرب من كان معه بأيديهم إلى قوائم سيوفهم لما علموا من فى البيت مخافة أن يخرجوا فيغتالوهم ، فقالت لهم عائشة بعد خطب طويل كان بينهما : إنى أحب أن أقيم معك فأسير إلى قتال عدوك عند سيرك ، فقال : بل ارجعى إلى البيت الذى تركك فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألته أن يؤمن ابن أختها عبد الله بن الزبير ، فأمنه ، وتكلم الحسن والحسين فى مروان فأمنه ، وأمن الوليد بن عقبة وولد عثمان وغيرهم من بنى أمية ، وأمن الناس جميعا ، وقد كان نادى يوم الوقعة : من ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن دخل داره فهو آمن .

واشتد حزْن علىّ على من قتل من ربيعة قبل ورود البصرة وهم الذين قتلهم طلحة والزبير من عبد القيس وغيرهم من ربيعة ، وجدد حزنه قتل زيدبن صوحان ، قتله فى ذلك اليوم عمرو بن سبرة ، ثم قتل عمار بن ياسر عمرو بن سبرة فى ذلك اليوم أيضا ، وكان على يكثر من قوله :

يا لهف نفسى على ربيعه ربيعة السامعة المطيعه

امرأة من عبد القيس

وخرجت امرأة من عبد القيس تطوف القتلى فوجدت ابنين لها قد قتلا ، وقد كان قتل زوجها وأخوان لها فيمن قتل قبل مجىء على البصرة فأنشأت تقول : —

شَهِدْتُ الحروب فَشَيَّبْنى فلم أر يوما كيَوْمِ الجمل
أضر على مؤمن فتنةً وأقتله لشُجَاع بطل
فليت الظعينة فى بيتها وليتك عَسْكَرُ لم ترتحل

عمير بن الأهلب الضبى

وقد ذكر المدائني أنه رأى بالبصرة رجلا مصطلم الأذن ، فسأله عن قصته، فذكر أنه خرج يوم الجمل ينظر إلى القتلى ، فنظر إلى رجل منهم يخفض رأسه ويرفعه وهو يقول : —

لقد أوردتنا حومة الموت أمنا فلم تنصرف إلا ونحن رِواء
أطعنا بنى تَيْمٍ لشقْوة جدِّنا وما تيم إلا أعْبُدٌ وإماء

فقلت : سبحان الله ، أتقول هذا عند الموت ، قل لا إله إلا الله ، فقال : يا ابن اللخناء ، إياى تأمر بالجزع عند الموت ، فوليت عنه متعجبا منه ، فصاح بى : ادن منى لَقِّنى الشهادة ، فصرت إليه ، فلما قربت منه استدنانى ، ثم التقم أذنى فذهب بها ، فجعلت ألعنه وأدعو عليه ، فقال : إذا صرت إلى أمك فقالت من فعل هذا بك فقل عمير بن الأهلب الضبى مخدوع المرأة التى أرادت أن تكون أمير المؤمنين

عودة عائشة

وخرجت عائشة من البصرة ، وقد بعث معها على أخاها عبد الرحمن بن أبى

بكر وثلاثين رجلا وعشرين امرأة من ذوات الدين من عبد القيس وهمدان وغيرهما ، ألبسهن العمائم ، وقلدهنَّ السيوف ، وقال لهن : لا تعلمن عائشة أنكن نسوة كأنكن رجال ، وكن اللاتى تلين خدمتها وحملها ، فلما أتت المدينة قيل لها : كيف رأيت مسيرك ؟ قالت : كنت بخير والله ، لقد أعطى على بن أبى طالب فأكثر ولكنه بعث معى رجالا ، فعرفها النسوة أمرهن ، فسجدت ، وقالت : ما ازددت والله يا ابن أبى طالب إلا كرما ، ووددت أنى لم أخرج وإن أصابتنى كيت وكيت من أمور ذكرتها ، وإنما قيل لى : تخرجين فتصلحين بين الناس ، فكان ما كان ، وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب أن الذى قتل من أصحاب على فى ذلك اليوم خمسة آلاف ، ومن أصحاب الجمل وغيرهم من أهل البصرة وغيرهم ثلاثة عشر ألفا ، وقيل غير ذلك

عبد الرحمن ابن عتاب

ووقف على على عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد بن أبى العاص بن أمية وهو قتيل يوم الجمل فقال : لهفى عليك يَعْسُوبَ قريش ، قتلت الغطاريف من بنى عبد مناف ، شفيت نفسى ، وجدعت أنفى ، فقال له الأشتر : ما أشد جزعك عليهم يا أمير المؤمنين وقد أرادوا بك ما نزل بهم ! ! فقال لى : إنه قامت عنى وعنهم نسوة لم يقمن عنك ، وأصيب كف ابن عتاب بمنى ألقاها عقاب وفيها خاتم نقشه عبد الرحمن بن عتاب ، وكان اليوم الذى وجد فيه الكف بعد يوم الجمل بثلاثة أيام

استيلاء على على أموال البصرة

ودخل على بيت مال الكوفة فى جماعة من المهاجرين والأنصار فنظر إلى مافيه من العين والوَرِق فجعل يقول : ياصفراء ، غُرِّى غيرى ، وأدام النظر إلى المال مفكراً ؛ ثم قال : اقسموه بين أصحابى ومن معى خمسمائة خمسمائة ، ففعلوا فما نقص درهم واحد ، وعدد الرجال اثنا عشر ألفا .

وقبض ما كان فى عسكرهم من سلاح ودابة ومتاع وآلة وغيرذلك ، فباعه وقسمه بين أصحابه وأخذ لنفسه ما أخذ لكل واحد ممن معه من أصحابه

وأهله خمسمائة درهم ، فأتاه رجل من أصحابه فقال : ياأمير المؤمنين ، إنى لم آخذ شيئا ، وخلفنى عن الحضور كذا ، وأدلى بعذر ، فأعطاه الخمسمائة التى كانت له

وقيل لأبى لبيد الجهمى من الأزد : أتحب عليا ؟ قال : وكيف أحب رجلا قتل من قومى فى بعض يوم ألفين وخمسمائة ، وقتل من الناس حتى لم يكن أحد يعزى أحدا ، واشتغل أهل كل بيت بمن لهم .

على يولى على البصرة ابن عباس

وولى علىٌّ عَلَى البصرة عبدَ الله بن عباس ، وسار إلى الكوفة ، فكان دخوله إليها لاثنتي عشرة ليلة مضت من رجب ، وبعث إلى الأشعث بن قيس يعزله عن أذربيجان وأرمينية ، وكان عاملا لعثمان ، فكان فى نفس الأشعث على علىٍّ ما ذكرنا من العزل وما خاطبه به حين قدم عليه فيما اقتطع هنالك من الأموال

على يبعث جرير ابن عبدالله إلى معاوية

ووجه بجرير بن عبد الله إلى معاوية وقد كان جرير قال لعلى : ابعثنى إليه ؛ فانه لم يزل لى مستنصحا ووادا ، فآتيه وأدعوه إلى أن يسلم هذا الأمر ، وأدعو أهل الشأم إلى طاعتك ، فقال الأشتر : لا تبعثه ولا تصدقه ، فوالله إنى لأظن هواه هواهم ونيته نيتهم ، فقال على : دعه حتى ننظر ما يرجع به إلينا ، فبعث به وكتب إلى معاوية معه يعلمه مبايعة المهاجرين والأنصار إياه واجتماعهم عليه ، ونكث الزبير وطلحة ، وما أوقع الله بهما ، ويأمره بالدخول فى طاعته ويعلمه أنه من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ؛ فلما قدم عليه جرير دافعه وساءله أن ينتظره وكتب إلى عمرو بن العاص على ماقدمنا فى صدر هذا الباب ، فأشار عليه عمرو بالبعث إلى وجوه الشام وأن يلزم عليا دم عثمان ، ويقاتلهم به ؛ فقدم جرير على على فأخبره خبرهم ، واجتماع أهل الشام مع معاوية على قتاله ، وأنهم يبكون على عثمان ويقولون : إن عليا قتله وأوى قتلته ومنع منهم ، وإنهم لا بد لهم من قتاله حتى يفنوه أو يفنيهم ، فقال الأشتر : قد كنت أخبرتك ياأمير المؤمنين بعداوته وغشه ، لو بعثتنى لكنت خيرا من هذا الذى أرخى خناقه وأقام حتى لم يدع بابا نرجو منه إلا فتحه ولا

بابا يخاف منه إلا أغلقه ، فقال جرير : لو كنت ثَمَّ لقتلوك ، والله لقد ذكروا أنك من قتلة عثمان ، قال الأشتر : لو أتيتهم والله ياجرير لم يعيني جوابهم ، ولا ثقل على خطابهم ، ولحملت معاوية على خطة أعجلته فيها عن الفكر ، ولو أطاعني أمير المؤمنين قبل لحبسك وأشباهك فى محبس فلا تخرجون منه حتى يستقيم هذا الأمر

فخرج جرير عند ذلك إلى بلاد قرقيسيا والرحبة من شاطىء الفرات ، وكتب إلى معاوية يعلمه مانزل به ، وأنه أحب مجاورته والمقام فى داره ، فكتب إليه معاوية بالمسير إليه

معاوية والمغيرة ابن شعبة

وبعث معاوية إلى المغيرة بن شعبة الثقفى - عند مُنْصَرَفه على من الجمل ، وقبل مسيره إلى صفين - بكتاب يقول فيه : قد ظهر من رأى ابن أبى طالب ما كان يقدم من وعده لك فى طلحة والزبير ، فما الذى بقى من رأيه فينا ؟ وذلك أن المغيرة بن شعبة لما قتل عثمان وبايع الناس عليا دخل عليه المغيرة فقال : ياأمير المؤمنين ، إن لك عندى نصيحة ، فقال : وما هى ؟ قال : إن أردت أن يستقيم لك ماأنت فيه فاستعمل طلحة بن عبيد الله على الكوفة ، والزبير بن العوام على البصرة ، وابعث إلى معاوية بعهده على الشأم حتى تلزمه طاعتك ، فاذا استقر قرارها رأيت فيه رأيك ، قال : أما طلحة والزبير فسأرى رأيى فيهما ، وأما معاوية فلا والله لايرانى الله أستعين به مادام على أبدا ، ولكنى أدعوه إلى ماعرفته ؛ فان أجاب وإلا حاكمته إلى الله ، فانصرف المغيرة وقال : —

نَصَحْتُ عليًا فى ابن هند مقالةً ... فردت فلا يسمع لها الدهر ثانيه

وقلت له : أرسل إليه بعهده ... على الشام حتى يستقر معاويه

ويعلم أهل الشام أن قد ملكته ... وأم ابن هند عند ذلك هاويه

فلم يقبل النصح الذى جئته به ... وكانت له تلك النصيحة كافيه

قال المسعودى رحمه الله : وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب ما كان

من المغيرة مع على ، وما أشار به ، وهذا أحد الوجوه المروية فى ذلك

فهذه جوامع مايحتاج إليه من أخبار يوم الجمل وما كان فيه ، دون الاكثار والتطويل وتكرار الأسانيد فى ذلك ، والله ولى التوفيق .

ذكر جوامع مما كان بين أهل العراق وأهل الشام بصفين

قال المسعودى رحمه الله : وقد ذكرنا جُمَلاً وجوامع من أخبار على رضى الله عنه بالبصرة وما كان يوم الجمل ؛ فلنذكر الآن جوامع من سيره إلى صفين وما كان فيها من الحروب ، ثم نعقب ذلك بشأن الحكمين والنَّهْرَوَان ومقتله عليه السلام

وقف مسيره إلى صفين

وكان سير على من الكوفة إلى صِفِّين لخمس خَلَوْنَ من شوال سنة ست وثلاثين ، واستخلف على الكوفة أبا مسعود عقبة بن عامر الأنصارى ، فاجتاز فى مسيره بالمدائن ، ثم أتى الأنبار ، وسار حتى نزل الرقة ، فعقد له هناك جسرا فعبر إلى جانب الشام

عدة جيشه

وقد تنوزع فى مقدار ما كان معه من الجيش فمكثر ومقلل ، والمتفق عليه من قول الجميع تسعون ألفا ، وقال رجل من أصحاب على لما استقروا مما يلى الشام من أبيات كتب بها إلى معاوية : —

اثْبُتْ مُعَاوِىَ قد أتاك الحافل تسعون ألفا كلهم مقاتل

* عما قليل يَضْمَحِلُّ الباطل *

عدة جيش معاوية ومنزله للقتال

وسار معاوية من الشام ، وقد تنوزع فى مقدار من كان معه فمكثر ومقلل ، والمتفق عليه من قول الجميع خمس وثمانون ألفا ، فسبق عليا إلى صِفِّين ، وعسكر فى موضع سهل أفيح اختاره قبل قدوم على ، على شريعة لم يكن على الفرات فى

معاوية يمنع القوم الماء

ذلك الموضع أسهل منها للوارد إلى الماء ، وما عداها أخراق عالية ، ومواضع إلى الماء وَعْرة ، ووكل أبا الأعور السلمى بالشريعة مع أربعين ألفا ، وكان على مقدمته؛ وبات على وجيشه فى البر عطاشاً قد حيل بينهم و بين الورود إلى الماء ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية : إن عليا لايموت عطشا هو وتسعون ألفا من أهل العراق وسيوفهم على عواتقهم ، ولكن دعهم يشربون ونشرب ، فقال معاوية : لا والله أو يموتوا عطشا كما مات عثمان ، وعلى يدور فى عسكره بالليل ، فسمع قائلا وهو يقول : —

أيمنعنا القومُ ماء الفرات ... وفينا الرماحُ وفينا الحجف
وفينا علىٌّ له صَوْلة ... إذا خوَّفوه الرَّدى لم يخف
ونحن غداةَ لقينا الزُّبَيْرَ ... وطلحةَ خُضْنَا غِمارَ التلف
فما بالنا الأمس أسْدَ العرين ... وما بالنا اليوم شاةَ النجف

وألقى فى فسطاط الأشعث بن قيس رقعة فيها : —

لئن لم يُجَلِّ الأشعث اليوم كربة ... من الموت عنا للنفوس تعلت
ونشرب من ماء الفرات بسيفه ... فهينا أناساً قَبْلُ كانوا فمرت

فلما قرأها حمى وأتى عليا رضى الله عنه ، فقال له : اخرج فى أربعة آلاف من الخيل حتى تهجم فى وسط عسكر معاوية فتشرب وتستق لأصحابك أو تموتوا عن آخركم ، وأنا أسير فى خيل ورجالةٍ وراءك ، فسار الأشعث وهو يقول مرتجزا : —

لأوردَنَّ خَيْلَىَ الفُرَاتَا ... شُعْثَ النواصى أوْ يُقَالَ ماتَا

ثم دعا علىٌّ الأشتر فسرحه فى أربعة آلاف من الخيل والرجالة ، فصار يؤم الأشعث صاحب رايته وهو رجل من النخع [وهو] يرتجز ويقول : —

ياأشتر الخيرات يَاخَيْرَ النَّخَعْ ... وصاحبَ النصر إذا عال الفزع
قد خرج القوم وعالوا بالفزع ... إن تَسْقِنَا اليومَ فما هو بالبدع

ثم سار على رضى الله عنه وراء الأشتر بباقى الجيش ، ومضى الأشعث فما رَدَّ وجهه حتى هجم على عسكر معاوية ، فأزال أبا الأعور عن الشريعة ، وغرَّقَ منهم بشرا وخيلا ، وأورد خيله الفرات ، وذلك أن الأشعث داخلته الحمية فى هذا اليوم ، وكان يقدم رمحه ثم يحث أصحابه فيقول : ارجموهم مقدار هذا الرمح ، فيزيلوهم عن ذلك المكان ، فبلغ ذلك من فعل الأشعث عليا فقال : هذا اليوم نصرنا فيه بالحمية ، وفى ذلك يقول رجل من أهل العراق : —

كشف الأشعث عنّا كُرْبَةَ الموت عيانا
بعد ماطارت كلانا طيرةً مست لهانا
فَلهُ المنُّ علينا وبه دارت رحانا

جيش على يرد الماء

وارتحل معاوية عن الموضع ، وورد الأشتر ، وقد كشف الأشعث القوم عن الماء ، وأزالهم عن مواضعهم ، وورد على فنزل فى الموضع الذى كان فيه معاوية فقال معاوية لعمرو بن العاص : ياأبا عبد الله ، ما ظنك بالرجل أتراه يمنعنا الماء لمنعناإياه ؟ وقد انحاز بأهل الشام إلى ناحية فى البر نائيا عن الماء ؛ فقال له عمرو : لا ، إن الرجل جاء لغير هذا ، وإنه لا يرضى حتى تدخل فى طاعته أو يقطع حبال عاتقك ، فأرسل إليه معاوية يستأذنه فى وروده مشرعته واستقاء الناس من طريقه ، ودخل رسله عسكره ، فأباحه على كُلِّ ما سأل وطلب منه .

الكف عن الحرب مدة شهر المحرم

ولما كان أول يوم من ذى الحجة بعد نزول على على هذا الموضع بيومين بعث إلى معاوية يدعوه إلى اتحاد الكلمة والدخول فى جماعة المسلمين ، وطالت المراسلة بينهما ، فاتفقوا على الموادعة إلى آخر المحرم فى سنة سبع وثلاثين ، وامتنع المسلمون عن الغزو فى البحر والبر لشغلهم بالحروب . وقد كان معاوية صالح ملك الروم على مال يحمله إليه لشغله بعلى ، ولم يتم بين على ومعاوية صلح على غير ما اتفقا عليه من الموادعة فى المحرم ، وعزم القوم على الحرب بعد انقضاء المحرم ؛ ففى ذلك يقول حابس بن سعد الطائى صاحب راية معاوية : —

فَمَا دُونَ المنايَا غَيْرُ سَبْعٍ بَقِينَ من المحـــرم أو ثمانِ

ولما كان فى اليوم الآخر من المحرم قبل غروب الشمس بعث إلى أهل الشام: إنى قد احتججت عليكم بكتاب الله، ودعوتكم إليه، و إنى قد نبذت إليكم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين، فلم يردوا عليه جوابا إلا السيف بيننا و بينك أو يهلك الأعجز منا.

مبدأ القتال

وأصبح على يوم الأربعاء - وكان أول يوم من صفر - فعبّأ الجيش، وأخرج الأشتر أمام الناس، وأخرج إليه معاوية - وقد تصافّ أهل الشام وأهل العراق - حبيبَ بن مسلم الفهرى، وكان بينهم قتال شديد، وأسفرت عن قتلى من الفريقين جميعا، وانصرفوا.

اليوم الثانى

فلما كان يوم الخميس - وهو اليوم الثانى - أخرج على هاشم بن عتبة بن أبى وقاص الزهرى المرْقال، وهو ابن أخى سعد بن أبى وقاص، و إنما سمى المرْقَال لأنه كان يرقل فى الحرب، وكان أعور ذهبت عينه يوم اليرموك، وكان من شيعة على، وقد أتينا على خبره فى اليوم الذى ذهبت فيه عينه وحسن بلائه فى ذلك اليوم فى الكتاب الأوسط فى فتوح الشأم، فأخرج إليه معاوية أبا الأعور السلمى، وهو سفيان بن عوف، وكان من شيعة معاوية والمنحرفين عن على، وكانت بينهم الحرب سجالا، وانصرفوا فى آخر يومهم عن قتلى كثير.

اليوم الثالث

وأخرج على فى اليوم الثالث - وهو يوم الجمعة - أبا اليقظان عمار بن ياسر فى عدة من البدريين وغيرهم من المهاجرين والأنصار فيمن شرع معهم من الناس وأخرج إليه معاوية عمرو بن العاص فى تَنُوخ ونهد وغيرهما من أهل الشام، وكانت بينهم سجالا إلى الظهر، ثم حمل عمار بن ياسر فيمن ذكرنا، فأزال عمرا عن موضعه، وألحقه بعسكر معاوية، وأسفرت عن قتلى كثيرة من أهل الشأم، ودونهم من أهل العراق.

اليوم الرابع

وأخرج على فى اليوم الرابع - وهو يوم السبت - ابنه محمد بن الحنفية فى

همدان وغيرها ممن خف معه من الناس ، فأخرج إليه معاوية عبيد الله بن عمر ابن الخطاب فى حمير ولخم وجذام ، وقد كان عبيد الله بن عمر لحق بمعاوية خوفا من على أن يقيده بالهرمزان ، وذلك أن أبا لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة قاتل عمر كان فى أرض العجم غلاما للهرمزان ، فلما قُتل عمر شدّ عبيدُ الله على الهرمزان فقتله ، وقال : لا أترك بالمدينة فارسيا ولا فى غيرها إلا قتلته ، وكان الهرمزان عليلا فى الوقت الذى قتل فيه عمر ، فلما صارت الخلافة إلى على أراد قَتْلَ عبيد الله بن عمر بالهرمزان لقتله إياه ظلما من غير سبب استحقه ، فلجأ إلى معاوية ، فاقتتلوا فى ذلك اليوم ، وكانت على أهل الشأم ، ونجا ابن عمر فى آخر النهار هربا

عبيد الله ابن عمر ابن الخطاب

وأخرج على فى اليوم الخامس - وهو يوم الأحد - عبد الله بن العباس ، فأخرج إليه معاوية الوليد بن عقبة بن أبى معيط ، فاقتتلوا ، وأكثر الوليد من سَبِّ بنى عبد المطلب بن هاشم ، فقاتله ابن عباس قتالا شديدا ، وناداه : ابرز إلى يا صفوان ، وكان لَقَبَ الوليد ، وكانت الغلبة لابن عباس ، وكان يوما صعبا

اليوم الخامس

وأخرج على فى اليوم السادس — وهو يوم الاثنين — سعيد بن قيس الهمدانى ، وهو سيد همدان يومئذ ، فأخرج إليه معاوية ذا الكلاع ، وكانت بينهما إلى آخر النهار ، وأسفرت عن قتلى ، وانصرف الفريقان جميعا

اليوم السادس

وأخرج على فى اليوم السابع - وهو يوم الثلاثاء - الأشتر فى النخع وغيرهم فأخرج إليه معاوية حبيبَ بن سلمة الفهرى ؛ فكانت بينهم سجالا ، وصبر كلا الفريقين وتكاثروا وتواقفوا للحرب ، وأسفرت عن قتلى منهما ، والجراح فى أهل الشأم أعم

اليوم السابع

وخرج فى اليوم الثامن - وهو يوم الأربعاء - على رضى الله تعالى عنه بنفسه فى الصحابة من البدريين وغيرهم من المهاجرين والأنصار وربيعة وهمدان

اليوم الثامن

قال ابن عباس : رأيت فى هذا اليوم عليا وعليه عمامة بيضاء وكأن عينيه سراجا سليط ، وهو يقف على طوائف الناس فى مراتبهم يحثهم ويحرضهم ، حتى انتهى إلى وأنا فى كثيف من الناس ، فقال : يا معشر المسلمين ، عموا الأصوات، وأكملوا الملاءمة ، واستشعروا الخشية ، وأقلقوا السيوف فى الأجفان قبل السلة ، والحظوا الشزر ، واطعنوا الهبر ، وناخوا الصبا ، وصلوا السيوف بالخطا ، والنبال بالرماح ، وطيبوا عن أنفسكم نَفْساً فانكم بعين الله ، ومع ابن عم رسول الله ، عاودوا الكر ، واستقبحوا الفر ؛ فانه عار فى الأحقاب ، ونار يوم الحساب ، ودونكم هذا السواد الأعظم ، والرِّوَاق المُطنَّب ، فاضربوا نهجه ؛ فان الشيطان راكب صعيده ، معترض ذراعيه ، قد قدم للوثبة يدا وأخر للنكوص رجلا ، فصبرا جميلا حتى تنجلى عن وجه الحق ، وأنتم الأعلَوْنَ والله معكم ولن يتِركُم أعمالكم

وتقدم على للحرب على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم الشهباء ، وخرج معاوية فى عدد أهل الشأم ، فانصرفوا عند المساء وكل غير ظافر

اليوم التاسع

وخرج فى اليوم التاسع على - وهو يوم الخميس - وخرج معاوية ، فاقتتلوا إلى ضَحْوَة من النهار ، وبرز أمام الناس عبيدُ الله بن عمر بن الخطاب فى أربعة آلاف من الحضرية معممين بشقق الحرير الأخضر متقدمين للموت يطلبون بدم عثمان ، وابنُ عمر يقدمهم وهو يقول : -

أنا عُبَيْدُ الله يَنْمِينى عُمَرْ خَيْرُ قريش مَنْ مَضَى ومن غَبَرْ
غير نبىِّ الله والشيخ الأَغَرّ قد أبطأت فى نصر عثمان مُضَرْ
والربعيون فَلَا أُسْقُوا المَطَرْ

فناداه على : ويحك يا ابن عمر ، علام تقاتلنى ؟ والله لو كان أبوك حيا ما قاتلنى ، قال : أطلب بدم عثمان ، قال : أنت تطلب بدم عثمان والله يطلبك

بدم الهرمزان ، وأمر على الأشتر النخعى بالخروج إليه ، فخرج الأشتر إليه وهو يقول : —

إنى أنا الأشتَرُ معروف السِّيَرْ إنى أنا الأفعَى العِراقى الذَّكَرْ
لست من الحى ربيع أو مضر لكننى من مَذْحِج البِيضِ الغُرَرْ

فانصرف عنه عبيد الله ولم يبارزه ، وكثرت القتلى يومئذ

وقال عمار بن ياسر : إنى لأرى وجوه قوم لا يزالون يقاتلون حتى يرتاب المبطلون ، والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لكنا على الحق وكانوا على الباطل

مقتل عمار بن ياسر وترجمته

وتقدم عمار فقاتل ثم رجع إلى موضعه فاستسقى ، فأتته امرأة من نساء بنى شيبان من مصافهم بعُسٍّ فيه لبن ، فدفعته إليه ، فقال : الله أكبر الله أكبر ، اليوم ألقى الأحبة تحت الأسنة ، صدق الصادق ، وبذلك خبر الناطق ، وهو اليوم الذى وعدت فيه ، ثم قال : أيها الناس ، هل من رابح إلى الله تحت العوالى ؟ والذى نفسى بيده لنقاتلنكم على تأويله كما قاتلناهم على تنزيله ، وتقدم وهو يقول : —

نحن ضربناكم عَلَى تنزيله فاليوم نضربكم على تأويله
ضَرْبا يزيل الهام عن مَقِيله ويُذْهِلُ الخليلَ عن خليله
أو يرجعَ الحقُّ إلى سبيله

فتوسط القوم ، واشتبكت عليه الأسنة ، فقتله أبو الهادية العاملى وأبو حواء السكسكى ، واختلفا فى سلبه فاحتكما إلى عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقال لهما : اخرجا عنى فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أو قال رسول الله صلى الله عليه وسلم و بغت قريش بعمار : « ما لهم ولعمار ؟ يدعوهم إلى الجنة و يدعونهم إلى النار » وكان قتله عند المساء وله ثلاث وتسعون سنة ، وقبره بصفين وصلى عليه على عليه السلام ولم يغسله ، وكان يغير شيبه . وقد تنوزع فى نسبه

فمن الناس من ألحقه ببنى مخزوم ، ومنهم من رأى أنه من حلفائهم ، ومنهم من رأى غير ذلك ، وقد أتينا على خبره فى كتاب «مزاهر الأخبار وظرائف الآثار» عند ذكرنا لاشتراط الخمسين الذين بايعوا عليا على الموت ؛ وفى قتله يقول الحجاج ابن عربة الأنصارى أبياتا رثاه بها : -

مخزية

يَا لَلرِّجَال لعين دَمْعُهَا جارى ... قَدْ هَاجَ حُزْنِى أبو اليقظان عَمَّارُ
أهوى إليه أبوحوا فوارسه ... يدعو السكون وللجيشين إعصار
فاختل صدر أبى اليقظان معترضا ... للرمح قد وَجَبَتْ فينا له النار
الله عن جمعهم لا شك كان عفا ... أتت بذلك آيات وآثار
من ينزع الله غلا من صدورهم ... على الأسرة لم تمسسهم النار
قال النبى له تقتلك شرذمة ... سيطت لحومهم بالبغى فُجَّار
فاليوم يعرف أهل الشام أنهم ... أصحاب تلك وفيها النار والعار

ولما صرع عمار تقدم سعيد بن قيس الهمدانى فى همدان ، وتقدم سعد بن عبادة الأنصارى فى الأنصار ور بيعة ، وعدى بن حاتم فى طيء ، وسعيد بن قيس الهمدانى فى أول الناس ، فخلطوا الجمع بالجمع ، واشتد القتال ، وحطمت همدان أهل الشام حتى قذفتهم إلى معاوية ، وقد كان معاوية صمد فيمن كان معه لسعيد بن قيس ومن معه من همدان ، وأمر على الأشتر أن يتقدم باللواء إلى أهل حمص وغيرهم من أهل قنسرين ، فأكثر القتل فى أهل حمص وقنسرين بمن معه من القراء ، وأتى المرقال يومئذ بمن معه فلا يقوم له شىء ، وجعل يرقل كما يرقل الفحل فى قيده ، وعلى وراءه يقول : يا أعور ، لا تكن جبانا ، تقدم ، والمرقال يقول : -

قد أكثر القوم وما أقلاّ ... أعور يبغى أهله محلا
قد عالج الحياة حتى مَلاّ ... لا بُدَّ أنْ يَفُلَّ أوْ يُفلاّ
أسُلّهُمْ بذى الكعوب سَلاّ

ثم قصد هاشم بن عتبة المرقال لذى الكلاع وهو من حمير فحمل عليه صاحب لواء ذى الكلاع وكان رجلا من عذرة وهو يقول : —

اثْبُتْ فانى لست من فَزْعَى مُضَرْ نحن اليمانيون ما فينا ضَجَرْ
كيف ترى وقع غلام من عذر ينمى ابن عفان ويَلْحَى من غَدَرْ
يا أعور العين رَمَى فيها العور سيان عندى من سَعَى ومن أمَرْ

فاختلفا طعنتين فطعنه هاشم المرقال فقتله ، وقتل بعده سبعة عشر رجلا ، وحمل هاشم المرقال وحمل ذو الكلاع ومع المرقال جماعة من أسلم قد آلوا أن لا يرجعوا أو يفتحوا أو يقتلوا ، فاجتلد الناس ، فقتل هاشم المرقال ، وقتل ذو الكلاع جميعاً ، فتناول ابن المرقال اللواء حين قتل أبوه فى وسط المعركة ، وكَرَّ فى العَجَاج وهو يقول : —

يا هاشِمَ بْنَ عتبةَ بْنِ مالك أعِزَّ بشيخ من قريش هالك
يخبط الخيلين بالسنابك أبشر بحور العين فى الأرائك
والروح والريحان عند ذلك

ووقف على رضى الله عنه عند مصرع المرقال ومن صرع حوله من الأسلميين وغيرهم ؛ فدعا لهم وترحَّم عليهم ، وقال من أبيات : —

جزى الله خيرا عصبة أسْلَمِيَّةً صِبَاحَ الوجود صُرِّعُوا حَوْلَ هاشم
يزيد وعبد الله بشر بن معبد وسفيان وابنا هاشم ذى المكارم
وعروة لا ينفد ثناه وذكره إذا سل بالبيض الخفاف الصوارم

واستشهد فى ذلك اليوم صَفْوَان وسعد ابنا حذيفة بن اليمان ، وقد كان حذيفة عليلا بالكوفة فى سنة ست وثلاثين ، فبلغه قتل عثمان وبيعة الناس لعلى ، فقال : أخرجونى وادعوا « الصلاةَ جامعة » فوضع على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى وعلى آله ، ثم قال : أيها الناس ، إن الناس قد بايعوا عليا فعليكم بتقوى الله وانصروا عليا ووازروه ؛ فوالله إنه لعلى الحق آخرا وأولا ، وإنه لخير

حذيفه بن اليمان

من مضى بعد نبيكم ومن بقى إلى يوم القيامة ، ثم أطبق يمينه على يساره ثم قال: اللهم اشهد ، إنى قد بايعت عليا ، وقال : الحمد لله الذى أبقانى إلى هـذا اليوم ، وقال لابنيـه صفوان وسعد : احملانى وكونا معـه فسيكون له حروب كثيرة فيهلك فيها خلق من الناس ، فاجتهدا أن تستشهدا معه ، فانه والله على الحق ، ومن خالفه على الباطل ، ومات حذيفة بعد هذا اليوم بسبعة أيام ، وقيل : بأربعين يوما ، واستشهد عبدالله بن الحرث النخعى أخو الأشتر ، واستشهد فيه عبدالله وعبدالرحمن ابنا بديل بن ورقاء الخزاعى ، فى خلق من خزاعة ، وكان عبد الله فى ميسرة على وهو يرتجز ويقول : —

لم يبق إلا الصبر والتوكُّلْ وأخْذُكَ الترسَ وسيفٌ مُصْقَلْ
ثم التمشى فى الرَّعيل الأوَّلْ

معاوية والنعمان ابن جبلة التنوخى

فقتل ، ثم قتل عبد الرحمن أخوه بعده ، فيمن ذكرنا من خزاعة

ولما رأى معاوية القتل فى أهل الشأم وكَلَبَ أهل العراق عليهم استدعى بالنعمان بن جبلة التنوخى — وكان صاحب راية قومه فى تنوخ ونهد — وقال له : لقد هممت أن أولى قومك من هو خير منك مقدَماً ، وأنصح منك دينا ، فقال له النعمان : إنا لو كنا ندعى إلى جيش ممنوع لكان فى لكع بعد الأناة ، فكيف ونحن ندعوهم إلى سيوف قاطعة ، وردينية شاجرة ، وقوم ذوى بصائر نافذة ، والله لقد نصحتك على نفسى ، وآثرت ملكك على دينى ، وتركت لهواك الرشد وأنا أعرفه ، وحِدْتُ عن الحق وأنا أبصره ، وما وفقت لرشد حين أقاتل عن ملكك ابنَ عَمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأول مؤمن به ومهاجر معه ، ولو أعطيناه ما أعطيناك لكان أرأف بالرعية وأجزل فى العطية ، ولكن قد بذلنا لك ، الأمر ولا بد من إتمامه كان غيا أو رشدا ، وحاشا أن يكون رشدا ، وسنقاتل عن تين الغُوطة وزيتونها إذا حرمنا أثمار الجنة وأنهارها ، وخرج إلى قومه ، وصمد إلى الحرب .

مقتل عبيد الله ابن عمر

وكان عبيد الله بن عمر إذا خرج إلى القتال قام إليه نساؤه فشددن عليه سلاحه ، ما خلا الشيبانية بنت هانىء بن قبيصة ، فخرج فى هذا اليوم وأقبل على الشيبانية ، وقال لها : إنى قد عبأت اليوم لقومك وايم الله إنى لأرجو أن أربط بكل طُنُب من أطناب فسطاطى سيدا منهم ، فقالت : ما أبغض إلا أن تقاتلهم ، قال : ولم ؟ قالت : لأنه لم يتوجه إليهم صنديد إلا أبادوه ، وأخاف أن يقتلوك ، وكأنى بك قتيلا وقد أتيتهم أسألهم أن يهبوا لى جيفتك ، فرماها بقوس فشجَّها وقال لها : ستعلمين بمن آتيك من زعماء قومك ، ثم توجه فحمل عليه حُرَيْث ابن جابر الجعفى فطعنه فقتله ، وقيل : إن الاشتر النخعى هو الذى قتله ، وقيل : إن عليا ضربه فقطع ما عليه من الحديد حتى خالط سيفه حشوة جوفه ، وإن عليا قال حين هرب فطلبه ليقيد منه بالهرمزان : لئن فاتنى فى هذا اليوم لا يفوتنى فى غيره ، وكان نساؤه معاوية فى جيفته فأمر أن تأتين ربيعة فتبذلن فى جيفته عشرة آلاف ، ففعلن ذلك ، فاستأمرت ربيعة عليا ، فقال : إنما جيفته جيفة كلب لا يحل بيعها ، ولكن قد أجبتهم إلى ذلك فاجعلوا جيفته لبنت هانىء بن قبيصة الشيبانى زوجته ، فقالوا لنسوة عبيد الله : إن شئتن شَدَدْناه إلى ذنب بغل ثم ضربناه حتى يدخل إلى عسكر معاوية ، فصرخن وقلن : هذا أشد علينا ، وأخبرن معاوية بذلك ، فقال لهن : ائتوا الشيبانية فسلوها أن تكلمهم فى جيفته ، ففعلن ، وأتت القوم وقالت : أنا بنت هانىء بن قبيصة وهذا زوجى القاطع الظالم قد حذرته ماصار إليه فهَبُوا لى جيفته ، ففعلوا ، وألقت إليهم بمطرف خز فأدرجوه فيه ودفعوه إليها قد شدَّ فى رجله إلى طنب فسطاط من فساطيطهم

ولما قتل عمار ومن ذكرنا فى هذا اليوم حرَّضَ على عليه السلام الناس وقال لربيعة : أنتم دِرْعى ورُمْحى ، فانتدب له ما بين عشرة آلاف إلى أكثر من ذلك من ربيعة وغيرهم ، قد جادوا بأنفسهم لله عز وجل ، وعلى أمامهم على البغلة الشهباء ، وهو يقول :—

مِنْ أىِّ يَوْمَىَّ من الموت أفِرّْ أيَوْمَ لَمْ يُقْدَرَ أمْ يَوْمَ قُدِرْ

وحمل وحملوا معه حملة رجل واحد ، فلم يبق لأهل الشأم صف إلا انتقض ، وأهمدوا كل ما أتوا عليه ، حتى أتوا إلى قبة معاوية ، وعلى لايمر بفارس إلا قدّه وهو يقول : —

أضْرِبُهُمْ ولا أرى معاويه الأخزر العين العظيم الهاويه

* تهوى به فى النار أم هاويه *

وقيل : إن هذا الشعر لبديل بن ورقاء قاله فى ذلك اليوم

على يدعو معاوية للقتال

ثم نادى على : يامعاوية ، علام يقتل الناس بينى و بينك هلم أحاكمك إلى الله فأينا قَتَلَ صاحبه استقامت له الأمور ، فقال له عمرو : قد أنصفك الرجل ، فقال له معاوية : ماأنصفت و إنك لتعلم أنه لم يبارزه رجل قط إلا قتله أو أسره ، فقال له عمرو : وما تجمل بك إلا مبارزته ، فقال له معاوية : طمعت فيها بعدى ، وحقدها عليه

خروج عمرو ابن العاص لقتال على

وقد قيل فى بعض الروايات : إن معاوية أقسم على عمرو لما أشار عليه بهذا أن يبرز إلى على ، فلم يجد عمرو من ذلك بدا ، فبرز ، فلما التقيا عرفه على وشال السيف ليضربه به ، فكشف عمرو عن عورته ، وقال : مكرَهَ أخُوك لا بَطَل ، فحوّل على وجهه ، وقال : قبحت ، ورجع عمرو إلى مصافه

وقد ذكر هشام بن محمد الكلبى عن الشرقى بن القطامى أن معاوية قال لعمرو بعد انقضاء الحرب : هل غششتنى منذ نصحتنى ؟ قال : لا ، قال : بلى والله يوم أشرت على بمبارزة على وأنت تعلم ماهو ، قال : دعاك إلى المبارزة فكنت من مبارزته على إحدى الحسنيين : إما أن تقتله فتكون قد قتلت قاتل الأقران وتزداد شرفا إلى شرفك ، و إما أن يقتلك فتكون قداستعجلت مرافقة الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، فقال معاوية : ياعمرو ، الثانية أشر من الأولى وكان فى هذا اليوم من القتال مالم يكن قبل ، ووجدت فى بعض النسخ من

أخبار صفين أن هاشما المرقال لما وقع إلى الأرض وهو يجود بنفسه رفع رأسه فاذا عبيد الله بن عمر مطروح إلى قربه جريحا ، فجثا حتى دنا منه ، فلم يزل يعض على ثدييه حتى ثبتت فيه أسنانه لعدم السلاح والقوة لأنه أصيب فوقه ميتا هو ورجل من بكر بن وائل قد زحف إلى عبيد الله فحشأه ، وانصرف القوم إلى مواضعهم ، وخرج كل فريق منهم يحملون من أمكن من قتلاهم

ومر معاوية فى خواص من أصحابه فى الموضع الذى كان ميمنته فنظر إلى عبدالله بن بديل بن ورقاء الخزاعى معفّرا بدمائه ، وقد كان على ميسرة على ؛ فحمل على ميمنة معاوية فأصيب على ماقدمنا آنفا ، فأراد معاوية أن يمثل به ، فقال عبدالله بن عامر وكان صديقا لابن بديل : والله لاتركتك وإياه ، فوهبه له ، فغطاه بعمامته فواراه ، فقال له معاوية : قد والله واريت كبشا من كباش القوم وسيدا من سادات خزاعة غير مدافع لو ظفرت بنا خزاعة لأكلونا ، ولو أنا فى جندل دون هذا الكبش ، وأنشأ يقول متمثلا :

أخوالحرب إن عَضّتْ به الحرب عضّها ... وإن شمرت يوماً به الحرب شمرا

كليث هزَبْرٍ كان يَحْمِى ذِمَاره ... رمتـه المنـايا قَصْدَها فتقطرا

على يحرض على غسان

ونظر على إلى غسان فى مصافهم لا يزولون ، فحرض أصحابه عليهم ، وقال : إن هؤلاء لن يزولوا عن موقفهم دون طعن يخرج منه النسيم ، وضرب يفلق الهام ويطفح الطعام ، وتسقط منه المعاصم والأكف ، وحتى تشدخ جباههم بعدد الحديد وتنشر حواجبهم على الصدور والأذقان ، أين أهل الصبر وطلاب الأجر ؟ فثاب إليه عصابة من المسلمين من سائر الناس ، فدعا ابنه محمدا ، فدفع إليه الراية ، وقال : امش بها نحو هذه الراية مَشْيًا رُوَيْداً ، حتى إذا أشرعت فى صدورهم الرماح فأمسك حتى يأتيك أمرى ، ففعل ؛ وأتاه على ومعه الحسن والحسين وشيوخ بدر وغيرهم من الصحابة ، وقد كردس الخيل ، فحملوا على غسان ومن يليها فقتلوا منها بشرا كثيرا ، وعادت الحرب فى آخر النهار كحانها فى أوله ، وحملت

ميمنة معاوية وفيها عشرة آلاف من مذحج وعشرون ألفا مقنّعون فى الحديد على ميسرة على ؛ فاقتطعوا ألف فارس ، فانتدب من أصحاب على عبد العزيز ابن الحرث الجعفى وقال لعلى : مرنى بأمرك ، فقال : شد الله ركبك ، سِرْ حتى تنتهى إلى إخواننا المحاط بهم ، وقل لهم : يقول لكم على كبروا ثم احملوا ونحمل حتى نلتقى ، فحمل الجعفى فطعن فى عرضهم حتى انتهى إليهم فأخبرهم بمقالة على ، فكبروا ثم شدّوا حتى التقوا بعلى ، وشدخوا سبعمائة من أهل الشام ، وقتل حوشب ذو ظليم ، وهو كبش من كباش اليمن فى أهل الشأم ، وكان على راية هذيل بن سنان وغيرها من ربيعة الحصينُ بن المنذر بن الحرث بن وعلة الذهلى وفيه يقول على فى هذا اليوم : —

لِمَنْ رايةٌ سوداء يخفق ظلها إذا قلت قَدِّمْها حُصَيْنُ تَقَدَّما

ليلة الهرير فأمره بالتقدم ، واختلط الناس و بطل النبل ، واستعملت السيوف ، وجَنَّهم الليل وتنادوا بالشعار ، وتقصفت الرماح ، وتصادم القوم ، وكان يعتنق الفارس الفارس و يقعان جميعا إلى الأرض عن فرسيهما ، وكانت ليلة الجمعة — وهى ليلة الهرير — فكان جملة من قتل على بكفه فى يومه وليلته خمسمائة وثلاثة وعشرين رجلا أكثرهم فى اليوم ؛ وذلك أنه كان إذا قتل رجلا كبر إذا ضرب ، ولم يكن يضرب إلا قتل ، ذكر ذلك عنه من كان يليه فى حربه ولا يفارقه من ولده وغيرهم

وأصبح القوم على قتالهم ، وكسفت الشمس ، وارتفع القتام ، وتقطعت الألوية ، ولم يعرفوا مواقيت الصلاة ، وغدا الأشتر يرتجز وهو يقول : —

نحن قتلنا حَوْشَبا لما غدا قد أعلما
وذا الكلاع قبله ومعبدا إذ قدما
إن تقتلوا منا أبا الـ يقظان شيخا مُسْلِما
فقد قتلنا منكم سبعين رأسا مجرما
أضْحَوْا بصفين وقد لاقَوْا نكالا مؤلما

وكان الأشتر فى هذا اليوم - وهو يوم الجمعة - على ميمنة على ، وقد أشرف على الفتح ، ونادت مشيخة أهل الشام : الله الله فى الحرمات والنساء والبنات ، وقال معاوية : هلم مخبآتك يا ابن العاص فقد هلكنا ، وتذكر ولاية مصر ، فقال عمرو : أيها الناس ، من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه ، فكثر فى الجيش رفع المصاحف ، وارتفعت الضجة ونادوا : كتاب الله بيننا و بينكم ، من لثغور الشام بعد أهل الشام ؟ ومن لثغور العراق بعد أهل العراق ؟ ومن لجهاد الروم ؟ ومن للترك ؟ ومن للكفار ؟ ورفع فى عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف ، و فى ذلك يقول النجاشى بن الحرث : —

خديعة المصاحف

فأصبح أهل الشام قد رفعوا القنا ... عليها كتابُ الله خَيْرُ قُرَانِ
ونَادَوْا عليًّا يا ابن عم محمد ... أما تَتَّقِى أن يهْلِكَ الثقلان

فلما رأى كثير من أهل العراق ذلك قالوا : نجيب إلى كتاب الله ونتوب إليه وأحبَّ القوم الموادعة ، وقيل لعلى : قد أعطاك معاوية الحق ، دعاك إلى كتاب الله فاقبل منه ، وكان أشدهم فى ذلك اليوم الأشعث بن قيس ، فقال على : أيها الناس ، إنه لم يكن من أمركم ما أحب حتى قرحتكم الحرب ، وقد والله أخذت منكم وتركت ، و إنى كنت أمس أميرا فأصبحت اليوم مأمورا ، وقد أحببتم البقاء فقال الأشتر : إن معاوية لا خَلَفَ له من رجاله ولك بحمد الله الخلف ، ولو كان له مثل رجالك لما كان له مثل صبرك ولا نصرك ؛ فاقْدَع الحديد واستعذ بالله ، وتكلم رؤساء أصحاب على بنحو من كلام الأشتر ، فقال الأشعث بن قيس : إنا لك اليوم على ما كنا عليه أمس ، وليس ندرى ما يكون غدا ، وقد والله فل الحديد ، وكلت البصائر ؛ وتكلم معه غيره بكلام كثير ، فقال على : ويحكم ما رفعوها لأنكم تعلمونها ولا يعلمون بها ، وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهاء ومكيدة ، فقالوا له : إنه ما يسعنا أن نُدْعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله ، فقال : ويحكم إنما قاتلتهم ليدينوا بحكم الكتاب فقد عَصَوْا الله فيما أمرهم به ونبذوا

انخداع أهل العراق

كتابه ، فامضوا على حقكم وقصدكم ، وخذوا فى قتال عدوكم ، فان معاوية وابن العاص وابن أبى معيط وحبيب بن مسلمة وابن النابغة وعدة غيرهؤلاء ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، وأنا أعرف بهم منكم : صحبتهم أطفالا ورجالا ، فهم شر أطفال ورجال ، وجرى له مع القوم خطب طويل قد أتينا ببعضه ، وتهددوه أن يصنع به ما صنع بعثمان ، وقال الأشعث : إن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد ، قال : ذلك إليك ، فأته إن شئت ، فأتاه الأشعث فسأله ، فقال له معاوية : نرجع نحن وأنتم إلى كتاب الله وإلى ما أمر به فى كتابه : تبعثون منكم رجلا ترضونه وتختارونه ، ونبعث برجل ، ونأخذ عليهما العهد والميثاق أن يعملا بما فى الكتاب ولا يخرجا عنه ، وننقاد جميعا إلى ما اتفقا عليه من حكم الله ، فصوّب الأشعث قوله ، وانصرف إلى على ، فأخبره بذلك ، فقال أكثر الناس : رضينا وقبلنا وسمعنا وأطعنا ، فاختار أهل الشأم عمرو بن العاص ، وقال الأشعث ومن ارتد بعد ذلك إلى رأى الخوارج : رضينا نحن بأبى موسى الأشعرى ، فقال على : قد عصيتمونى فى أول الأمر فلا تعصونى الآن ، إنى لا أرى أن أولى أبا موسى الأشعرى ؛ فقال الأشعث ومن معه : لا نرضى إلا بأبى موسى الأشعرى ، قال : ويحكم ليس بثقة ، قد فارقنى وخذل الناس وفعل كذا وكذا ، وذكر أشياء فعلها أبو موسى ، ثم إنه هرب شهوراً حتى أمنته ، لكن هذا عبد الله بن عباس أوليه ذلك ، فقال الأشعث وأصحابه : والله لا يحكم فينا مضرى ، قال على : فالأشتر ، قالوا : وهل هاج هذا الأمر إلا الأشتر ، قال : فاصنعوا الآن ما أردتم ، وافعلوا ما بدا لكم أن تفعلوه ، فبعثوا إلى أبى موسى وكتبوا له القضية ، وقيل لأبى موسى : إن الناس قد اصطلحوا ، قال : الحمد لله ، وقد جعلوك حكما ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون

ذكر الحكمين وبدء التحكيم

كان أبو موسى الأشعرى يحدث قبل وقعة صفين ويقول : إن الفتن لم تزل فى بنى إسرائيل ترفعهم وتخفضهم حتى يبعثوا الحكمين يحكمان بما لايرضى به من اتبعهما ، فقال سويد بن علقمة : إياك إن أدركت ذلك الزمان أن تكون أحد الحكمين ، قال : أنا ؟ قال : نعم أنت ، فكان يخلع قميصه ويقول : لاجعل الله لى إذا فى السماء مَصْعَداً ، ولا فى الأرض مَقْعَداً ؛ فلقيه سويد بن علقمة بعد ذلك فقال : ياأبا موسى ، أتذكر مقالتك ؟ قال : سل ربك العافية

مبدأ التحاكم

وكان فيما كتب فى الصحيفة أن يُحْيِى الحكمان ماأحيا القرآن ، ولايتبعان الهوى ، ولا يداهنان فى شىء من ذلك ، فان فعلا فلا حكم لهما ، والمسلمون من حكمهما برآء ، وقال على للحكمين حين أكره على أمرهما ورد الأشتر وكان قد أشرف فى ذلك اليوم على الفتح فأخبره مخبر بما قالوا فى على وأنه إن لم يرده سلم إلى معاوية وفعل به مافعل بابن عفان ، فانصرف الأشتر خوفا على على على أن تحكما بما فى كتاب الله ، وكتاب الله كله لى ، فان لم تحكما بما فى كتاب الله فلا حكم لكما ، وصيَّروا الأجل إلى شهر رمضان على اجتماع الحكمين فى موضع بين الكوفة والشأم ، وكان الوقت الذى كتبت فيه الصحيفة لأيام بقين من صفر سنة سبع وثلاثين ، وقيل : بعد هذا الشهر منها ، ومر الأشعث بالصحيفة يقرؤها على الناس فرحا مسرورا ، حتى انتهى إلى مجلس لبنى تميم فيه جماعة من زعمائهم منهم عروة بن الزبير التميمى ، وهو أخو بلال الخارجى ، فقرأها عليهم ، فجرى بين الأشعث وبين أناس منهم خطب طويل ، وإن الأشعث كان بدء هذا الأمر والمانع لهم من قتال عدوهم حتى يفيئوا إلى أمر الله ، وقال عروة بن أدية : أتحكمون فى دين الله وأمره ونهيه الرجال ؟ لاحكم إلا لله ، فكان أول من قالها ، وحكم بها ، وقد تنوزع فى ذلك ، وشد بسيفه على الأشعث فضم فرسه عن الضربة ، فوقعت فى عجز

الفرس ونجا الأشعث ، وكادت العصبية أن تقع بين النزارية واليمانية ، لولا اختلاف كلمتهم فى الديانة والتحكيم ؛ وفى فعل عروة بن أدية بالأشعث يقول رجل من بنى تميم فى أبيات : —

عُرْوَ يَا عُرْوَ كلُّ فتنة قوم ... سَلَفَتْ إنّمَا تكون فَتِيَّهْ
ثم تنمى ويَعْظُمُ الخطب فيها ... فاحْذَرَنْ غِبَّ ما أتيت عُرَيَّهْ
أعلى الأشعث المعصَّب بالتا ... ج حَمَلْتَ السلاح يا ابن أَدِيَّهْ
إنها فتنة كفتنة ذى العجـ ... ـل أيا عُرْوَةَ العصا والعُصَيَّهْ
فانظر اليوم ما يقول على ... واتّبِعْه فذاك خير البريه

وقد تنوزع فى مقدار من قتل من أهل الشأم والعراق بصفين : فذكر أحمد ابن الدورقى عن يحيى بن معين أن عدة من قتل بها من الفريقين فى مائة يوم وعشرة أيام مائة ألف وعشرة آلاف من الناس : من أهل الشأم تسعون ألفاً ، ومن أهل العراق عشرون ، ونحن نذهب إلى أن عدد من حضر الحرب من أهل الشأم بصفين أكثر مما قيل فى هذا الباب ، وهو خمسون ومائة ألف مقاتل ، سوى الخدم والأتباع ، وعلى هذا يجب أن يكون مقدار القوم جميعا من قاتل منهم ومن لم يقاتل من الخدم وغيرهم ثلثمائة ألف بل أكثر من ذلك ؛ لأن أقل من فيهم معه واحد يخدمه ، وفيهم من معه الخمسة والعشرة من الخدم والأتباع وأكثر من ذلك ، وأهل العراق كانوا فى عشرين ومائة ألف مقاتل دون الأتباع والخدم ، وأما الهيثم بن عدى الطائى وغيره مثل الشرقى بن القطامى وأبى مخنف لوط بن يحيى فذكروا ما قدمنا ، وهو أن جملة من قتل من الفريقين جميعا سبعون ألفا : من أهل الشأم خمسة وأربعون ألفا ، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفا ، فيهم خمسة وعشرون بدريا ، وأن العدد كان يقع بالقضيب والاحصاء للقتلى فى كل وقعة ، وتحصيل هذا يتفاوت ؛ لأن فى قتلى الفريقين من يعرف ومن لا يعرف ، وفيهم من غرق ، وفيهم من قتل فى البر ؛ فأكلته السباع فلم يدركهم

عدة القتلى أيام صفين

الإحصاء ، وغير ذلك مما يعسر ماوصفنا ، وسمعت امرأة بصفين وقد قتل لها ثلاثة أولاد وهى تقول : -

أعينىَّ جُودا بدمع سَرِبْ ... على فتية من خيار العرب
وما ضرَّهم غير جنى النفوس ... بأى امرىء من قريش غلب

اختلاف أهل العراق فى التحكيم

ولما وقع التحكيم تباغض القوم جميعا ، يتبرأ الأخ من أخيه والابن من أبيه وأمر على بالرحيل ؛ لعلمه باختلاف الكلمة ، وتفاوت الرأى ، وعدم النظام لأمورهم ، وما لحقه من الخلاف منهم ، وكثرة التحكيم فى جيش أهل العراق ، وتضارب القوم بالمقارع ونعال السيوف ، وتسابوا ، ولام كل فريق منهم الآخر فى رأيه ، وسار على يؤم الكوفة ، ولحق معاوية بدمشق من أرض الشأم ، وفرق عساكره فلحق كل جند منهم ببلده ، ولما دخل على رضى الله عنه الكوفة انحاز عنه اثنا عشر ألفا من القراء وغيرهم فلحقوا حَرُورَى قرية من قرى الكوفة ، وجعلوا عليهم شبيب بن ربعى التميمى ، وعلى صلاتهم عبد الله بن الكواء اليشكرى من بكر ابن وائل ، فخرج على إليهم وكانت له معهم مناظرات فدخلوا جميعا الكوفة ، وإنما سموا الحرورية لاجتماعهم فى هذه القرية وانحيازهم إليها

الحرورية

وقد ذكر يحيى بن معين قال : حدثنا وهب بن جابر بن حازم ، عن الصلت ابن بهرام ، قال : لما قدم على الكوفة جعلت الحرورية تناديه وهو على المنبر : جزعت من البلية ، ورضيت بالقضية ، وقبلت الدنية ، لا حكم إلا لله ، فيقول : حكم الله أنتظر فيكم ، فيقولون (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) فيقول على : (فاصبر إن وعد الله حق ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون)

أول التقاء الحكمين

وفى سنة ثمان وثلاثين كان التقاء الحكمين بدومة الجندل ، وقيل : بغيرها على ما قدمنا فى وصف التنازع فى ذلك ، وبعث على بعبد الله بن العباس وشريح ابن هانىء الهمدانى فى أربعمائة رجل فيهم أبو موسى الأشعرى ، وبعث معاوية

بعمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن الصمة فى أربعمائة ، فلما تدانى القوم من الموضع الذى كان فيه الاجتماع قال ابن عباس لأبى موسى : إن عليا لم يرض بك حكما لفضل غيرك والمتقدمون عليك كثير ، وإن الناس أبوا غيرك ، وإنى لأظن ذلك لشر يُرَاد بهم ، وقد ضم داهية العرب معك ، إن نسيت فلا تنس أن عليا بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، وليس فيه خصلة تباعده من الخلافة ، وليس فى معاوية خصلة تقربه من الخلافة ، ووصّى معاوية عمرا حين فارقه وهو يريد الاجتماع بأبى موسى ، فقال : يا أبا عبد الله ، إن أهل العراق قد أكرهوا عليا على أبى موسى ، وأنا وأهل الشأم راضون بك ، وقد ضم إليك رجل طويل اللسان قصير الرأى ، فأخذ الجد ، وطبق المفصل ، ولا تلقه برأيك كله ، ووافاهم سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن عوف الزهرى والمغيرة بن شعبة الثقفى وغيرهم ، وهؤلاء ممن قعد عن بيعة على فى آخرين من الناس ، وذلك فى شهر رمضان ، فلما التقى أبو موسى وعمرو قال عمرو لأبى موسى : تكلم وقل خيرا فقال أبو موسى : بل تكلم أنت ياعمرو ، فقال عمرو : ما كنت لأفعل وأقدم نفسى قبلك ولك حقوق كلها واجبة لسنك وصحبتك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت ضيف ، فحمد الله أبو موسى وأثنى عليه ، وذكر الحديث الذى حل بالاسلام ، والخلاف الواقع بأهله ، ثم قال : ياعمرو ، هلم إلى أمر يجمع الله فيه الألفة ، ويلم الشعث ، ويصلح ذات البين ، فجزّاه عمرو خيرا ، وقال : إن للكلام أولا وآخرا ومتى تنازعنا الكلام خُطَبًا لم نبلغ آخره حتى ننسى أوله ، فاجعل ما كان من كلام نتصادر عليه فى كتاب يصير إليه أمرنا ، قال : فاكتب ، فدعا عمرو بصحيفة وكاتب ، وكان الكاتب غلاما لعمرو ، فتقدم إليه ليبدأ به أولا دون أبى موسى لما أراد من المكر به ، ثم قال له بحضرة الجماعة : اكتب فانك شاهد علينا ، ولا تكتب شيئا يأمرك به أحدنا حتى تستأمر الآخر فيه ، فاذا أمرك فاكتب ، وإذا نهاك فانته حتى يجتمع رأينا ، اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ماتقاضى

وصية ابن عباس لأبى موسى

وصية معاوية لعمرو

كتابة الحكمين كتاب التحكيم

عليه فلان وفلان، فكتب ، وبدأ بعمرو ، فقال له عمرو : لاأم لك !! أتقدمنى قبله كأنك جاهل بحقه ؟ فبدأ باسم عبد الله بن قيس ، وكتب : تقاضيا على أنهما يشهدان أن لاإله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، ثم قال عمرو : نشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم عمل بكتاب الله وسنة رسول الله حتى قبضه الله إليه ، وقد أدى الحق الذى عليه ، قال أبو موسى : اكتب ، ثم قال فى عمر مثل ذلك ، ثم قال عمرو : واكتب : وأن عثمان ولى هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضا منهم ، وأنه كان مؤمنا ، فقال أبو موسى الأشعرى : ليس هذا مما قعدنا له ، قال عمرو : والله لا بد من أن يكون مؤمنا أو كافرا ، قال أبو موسى : اكتب ، قال عمرو : فظالما قتل عثمان أومظلوما ؟ قال أبوموسى : بل قتل مظلوما ، قال عمرو : أفليس قد جعل الله لولى المظلوم سلطانا يطلب بدمه ؟ قال أبوموسى : نعم ، قال عمرو : فهل تعلم لعثمان وليا أولى من معاوية ؟ قال أبو موسى : لا ، قال عمرو : أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجز ؟ قال أبو موسى : بلى ، قال عمرو للكاتب : اكتب ، وأمره أبوموسى فكتب ، قال عمرو : فإنا نقيم البينة أن عليا قتل عثمان ، قال أبوموسى : هذا أمر قد حدث فى الإسلام ، وإنما اجتمعنا لله ، فهلم إلى أمر يصلح الله به أمة محمد ، قال عمرو : وما هو ؟ قال أبو موسى : قد علمت أن أهل العراق لا يحبون معاوية أبدا ، وأن أهل الشأم لا يحبون عليا أبدا ؛ فهل نخلعهما جميعا ونستخلف عبد الله بن عمر ؟ وكان عبدالله ابن عمر على بيت أبى موسى ، قال عمرو : أيفعل ذلك عبد الله بن عمر ؟ قال أبو موسى : نعم إذا حمله الناس على ذلك فعل ، فعمد عمرو إلى كل ما مال إليه أبو موسى فصوبه ، وقال له : هل لك فى سعد ؟ قال له أبوموسى : لا ، فعدد له عمرو جماعة وأبو موسى يأبى ذلك إلا ابن عمر ، فأخذ عمرو الصحيفة وطواها

وجعلها تحت قدمه بعد أن ختمها جميعاً ، وقال عمرو : أرأيت إن رضى أهل العراق بعبد الله بن عمر وأبى أهل الشام أيقاتل أهل الشام ؟ قال أبو موسى : لا ، قال عمرو : فان رضى أهل الشام وأبى أهل العراق أيقاتل أهل العراق ؟ قال أبو موسى : لا ، قال عمرو : أما إذا رأيت الصلاح فى هذا الأمر والخير المسلمين فقم فاخطب الناس ، واخلع صاحبينا ، وتكلم باسم هذا الرجل الذى تستخلف ، فقال أبو موسى : بل أنت قم فاخطب فأنت أحق بذلك ، قال عمرو : ما أحب أن أتقدمك ، وما قولى وقولك للناس إلا قول واحد ، فقم راشدا

عمرو يقدم أبا موسى للكلام

فقام أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أيها الناس ، إنا قد نظرنا فى أمرنا فرأينا أقرب ما يحضرنا من الأمن والصلاح ولم الشعث وحقن الدماء وجمع الألفة خلعنا عليا ومعاوية ، وقد خلعت عليا كما خلعت عمامتى هذه ، وأهوى إلى عمامته فخلعها ، واستخلفنا رجلا قد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وصحب أبوه النبى صلى الله عليه وسلم فبرز فى سابقته ، وهو عبد الله بن عمر ، وأطراه ، ورغب الناس فيه ، ونزل

أبو موسى يتقدم فيخلع الرجلين ويرشح ابن عمر

فقام عمرو فحمد الله وأثنى عليه ، وصل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أيها الناس ، إن أبا موسى عبد الله بن قيس خلع عليا وأخرجه من هذا الأمر الذى يطلب ، وهو أعلم به ، ألا و إنى خلعت عليا معه ، وأثبتُ معاوية علىّ وعليكم ، و إن أبا موسى قد كتب فى الصحيفة إن عثمان قد قتل مظلوما شهيدا و إن لوليه أن يطلب بدمه حيث كان ، وقد صحب معاوية رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وصحب أبوه النبي صلى الله عليه وسلم ، وأطراه ، ورغب الناس فيه ، وقال : هو الخليفة علينا ، وله طاعتنا و بيعتنا على الطلب بدم عثمان ، فقال أبو موسى : كذب عمرو ، ولم نستخلف معاوية ولكنا خلعنا معاوية وعليا معا ، فقال عمرو : بل كذب عبد الله بن قيس ، قد خلع عليا ولم يخلع معاوية

عمرو يخطب فيخلع عليا ويثبت معاوية

قال المسعودى رحمه الله : ووجدت فى وجه آخر من الروايات أنهما اتفقا على

خلع على ومعاوية ، وأن يجعلا الأمر بعد ذلك شورى يختار الناس رجلا يصلح لها ، فقدم عمرو أبا موسى ، فقال أبو موسى : إنى قد خلعت عليا ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم ، وتنحّى ، وقام عمرو من مكانه فقال : إن هذا قد خلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبى معاوية ، فقال أبو موسى : مالك لاوفقك الله غدرت وفجرت ؟ إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا ، فقال له عمرو : بل إياك يلعن الله ، كذبت وغدرت ، إنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ثم وكز أبا موسى فألقاه لجنبه ، فلما رأى ذلك شريح بن هانىء قنع عَمْراً بالسوط ، وتحول أبو موسى فاستوى على راحلته ولحق بمكة ، ولم يعد إلى الكوفة وقد كانت خطته وأهله وولده بها ، وآلى أن لا ينظر إلى وجه على ما بقى ، ومضى ابن عُمَرَ وسعد إلى بيت المقدس

وفى فعل الحكمين يقول أيمن بن خزيم بن فاتك الأسدى : —

لو كان للقوم رأى يعظمون به ... عند الخطوب رَمَوْكم بابن عباس
لكن رموكم بوغد من ذوى يمن ... لم يدر ما ضرب أخماس بأسداس

وفى اختلاف الحكمين والمحكمة يقول بعض من حضر ذلك : —

رضينا بحكم الله لا حكم غيره ... وبالله ربا والنبى وبالذكر
وبالأصلع الهادى علىٍّ إمامنا ... رضينا بذاك الشيخ فى العسر واليسر
رضينا به حيًّا وميتا فإنه ... إمام الهدى فى موقف النهى والأمر

ولأبى موسى يقول ابن العباس : —

أبا موسى ، بُليتَ وكنت شَيْخاً ... قريبَ العفو مَخْزُونَ اللسان
وما عمرو صفاتك يا ابن قيس ... فيالله من شيخ يمانى
فأمسَيْتَ العشية ذا اعتذار ... ضعيف الركن منكوب العنان
تَعَضُّ الكفَّ من ندم ، وماذا ... يردُّ عليك عضك للبنان ؟

وقيل : إنه لم يكن بينهما غير ما كتباه فى الصحيفة و إقرار أبى موسى بأن عثمان قتل مظلوما وغير ذلك مما قدمنا ، و إنهما لم يخطبا ، وذلك أن عمرا قال لأبى موسى : سم من شئت حتى أنظر معك ، فسمى أبو موسى ابن عمر وغيره ، ثم قال لعمرو : قد سميت أنا فسم أنت ، قال : نعم ، أسمى لك أقوى هذه الأمة عليها ، وأسدها رأيا ، وأعلمها بالسياسة ، معاوية بن أبى سفيان ، قال : لا والله ، ما هو لذلك بأهل ، قال : فآتيك بآخر ليس هو بدونه ، قال : من هو ؟ قال : أبو عبد الله عمرو بن العاص ، فلما قالها علم أبو موسى أنه يلعب به ، فقال : فعلتها لعنك الله ، فتسابا ، فلحق أبو موسى بمكة

فلما انصرف أبو موسى انصرف عمرو بن العاص إلى منزله ، ولم يأت إلى معاوية ، فأرسل إليه معاوية يدعوه ، فقال : إنما كنت أجيئك إذ كانت لى إليك حاجة ، فاما إذا كانت الحاجة إلينا فأنت أحق أن تأتينا ، فعلم معاوية ما قد وقع إليه ، فحد الرأى وأعمل الحيلة وأمر معاوية بطعام كثير فصنع ، ثم دعا بخاصته ومواليه وأهله ، فقال : إنى سأغدو إلى هذا فإذا دعوته فادعوا مواليه وأهله فليجلسوا قبلكم ، فاذا شبع رجل وقام فليجلس رجل منكم مكانه ، فاذا خرجوا ولم يبق فى البيت أحد فأغلقوا باب البيت ، واحذروا أن يدخل أحد منهم إلا أن آمركم

مكر معاوية بعمرو

وغدا إليه معاوية وعمرو جالس على فرشه ، فلم يقم له عنها ، ولا دعاه إليها ، فجاء معاوية وجلس على الأرض ، واتكأ على الفرش ، وذلك أن عمراً كان يحدث نفسه أنه قد ملك الأمر و إليه العهد : يضعها فيمن يرى ، و يندب للخلافة من يشاء ، فجرى بينهما كلام كثير ، وكان مما قال له عمرو : هذا الكتاب الذى بينى و بينه عليه خاتمى وخاتمه ، وقد أقر بأن عثمان قتل مظلوما ، فأخرج عليا من هذا الأمر ، وعرض على رجالا لم أرهم أهلا لها ، وهذا الأمر إلى أستخلف من شئته ، قد أعطانى أهل الشام عهودهم ومواثيقهم ، فحادثه معاوية ساعة وأخرجه

عما كانوا عليه وضاحكه وداعبه ، ثم قال : يا أبا عبد الله ، هل من غداء ؟ قال : أما والله شيء يُشْبِعُ مَنْ ترى فلا ، فقال معاوية : هلم يا غلام غداءك ، فجيء بالطعام المستعد ، فوضع ، فقال : يا أبا عبد الله ، ادع مواليك وأهلك ، فدعاهم ثم قال له عمرو : وادع أنت أصحابك ، قال : نعم يأكل أصحابك ثم يجلس هؤلاء بعد ، فجعلوا كلما قام رجل من حاشية عمرو قعد موضعه رجل من حاشية معاوية ، حتى خرج أصحاب عمرو وجلس أصحاب معاوية ، فقام الذى وكله بغلق الباب ، فأغلق الباب ، فقال له عمرو : فعلتها ، فقال : إى والله بينى و بينك أمران اختر أيهما شئت : البيعة لى ، أو أقتلك ، ليس والله غيرهما ، قال عمرو : فأذن لغلامى وردان حتى أشاوره وأنظر رأيه ، قال : لا تراه والله ولا يراك إلا قتيلا أو على ما قلت لك ، قال : فأولنى إذا مصر ، قال : هى لك ماعشت ، فاستوثق كل واحد منهما من صاحبه ، وأحضر معاوية الخواص من أهل الشأم ، ومنع أن يدخل معهم أحد من حاشية عمرو ، فقال لهم عمرو : قد رأيت أن أبايع معاوية ، فلم أر أحداً أقوى على هذا الأمر منه ، فبايعه أهل الشام وانصرف إلى منزله خليفة

تأنيب على لأهل العراق وتحريضهم على الاستعداد

ولما بلغ عليا ما كان من أمر أبى موسى وعمرو قال : إنى كنت تقدمت إليكم فى هذه الحكومة ونهيتكم عنها فأبيتم إلا عصيانى ، فكيف رأيتم عاقبة أمركم إذا أبيتم على ؟ والله إنى لأعرف من حملكم على خلافى والترك لأمرى ، ولو أشاء أخذه لفعلت ، ولكن الله من ورائه ، يريد بذلك الأشعث بن قيس والله أعلم ، وكنت فيما أمرت به كما قال أخو بنى خثعم : —

أمرتُهُمُ أمرى بمُنعَرَجِ اللِّوَى فلم يستبينوا الرشد إلا ضُحَى الغد

من دعا إلى هذه الخصومة فاقتلوه قتله الله ولو كان تحت عمامتى هذه ، ألا إن هذين الرجلين الخاطئين اللذين اخترتموهما حكمين قد تركا حكم الله وحكما بهوى أنفسهما بغير حجة ولا حق معروف ، فأماتا ما أحيا القرآن ، وأحييا ما أماته ، واختلف فى حكمهما كلامهما ، ولم يرشدهما الله ولم يوفقهما ، فبرىء الله منهما ورسله

وصالح المؤمنين ؛ فتأهبوا للجهاد واستعدوا للمسير وأصبحوا فى عساكرهم إن شاء الله تعالى .

قال المسعودى : وقد اختلفت الفرق من أهل ملتنا فى الحكمين ، وقالوا فى ذلك أقاويل كثيرة ، وقد أتينا على ما ذهبوا إليه فى ذلك فى كتاب المقالات ، وما قاله كل فريق منهم ومن أيد قوله من الخوارج والمعتزلة والشيعة وغيرهم من فرق هذه الأمة فى كتابنا فى «المقالات فى أصول الديانات» وذكرنا فى كتاب «أخبار الزمان» قول على فى مواقفه وخطبه ، وما قاله فى ذلك ، وما أكره عليه ، وما بينه لهم بعد الحكومة ، وما تقدم الحكومة من تحذيره إياهم منها حين ألحوا فى تحكيم أبى موسى الأشعرى وعمرو حيث قال : ألا إن القوم قد اختاروا لأنفسهم أقرب الناس مما يحبون ، واخترتم لأنفسكم أقرب الناس مما تكرهون ، إنما عهدكم بعبد الله بن قيس بالأمس وهو يقول : ألا إنها فتنة فقطعوا فيها أوتاركم وكسروا قسيكم فان يك صادقا فقد أخطأ فى مسيره غير مستكره عليه ، وإن يك كاذبا فقد لزمته التهمة ، وهذا كلام أبى موسى فى تخذيله الناس وتحريضه على الجلوس عن أمير المؤمنين على فى حروبه ومسيره إلى الجمل وغيره ، ثم ما قاله فى بعض مقاماته فى معاتبته لقريش وقد بلغه عن أناس منهم ممن قعد عن بيعته ونافق فى خلافته كلام كثير فقال : وقد زعمت قريش أن ابن أبى طالب شجاع ولكن لا علم له بالحروب ، تربت أيديهم ، وهل فيهم أشد مراسا لها منى ، لقد نهضت فيها وما بلغت الثلاثين ، وها أنا ذا قد أربيت على نيف وستين ، ولكن لا رأى لمن لا يطاع

قال المسعودى : وإذ قد تقدم ذكرنا لجمل من أخبار الجمل وصفين والحكمين فلنذكر الآن جوامع من أخبار يوم النهروان ، ونعقب ذلك بذكر مقتله عليه السلام ، وإن كنا قد أتينا على مبسوط سائر ما تقدم لنا فى هذا الكتاب وما تأخر فيما سلف من كتبنا ، والله أعلم .

ذكر حروبه رضى الله عنه مع أهل النهروان

وما لحق بهذا الباب من مقتل محمد بن أبى بكر الصديق

رضى الله عنه ، والأشتر النخعى ، وغير ذلك

الخوارج وفعلهم بالمدائن

واجتمعت الخوارج فى أربعة آلاف فبايعوا عبد الله بن وهب الراسبى ، ولحقوا بالمدائن ، وقتلوا عبد الله بن خباب عامل على عليها : ذبحوه ذبحا ، و بقروا بطن امرأته وكانت حاملا ، وقتلوا غيرها من النساء ، وقد كان على انفصل عن الكوفة فى خمسة وثلاثين ألفا ، وأتاه من البصرة من قبل ابن عباس - وكان عامله عليها - عشرة آلاف فيهم الأحنف بن قيس وحارثة بن قدامة السعدى ، وذلك فى سنة ثمان وثلاثين ؛ فنزل على الأنبار ، والتأمت إليه العساكر ؛ فخطب الناس وحرضهم على الجهاد ، وقال : سيروا إلى قتلة المهاجرين والأنصار ، قدما طالما سعوا فى إطفاء نور الله وحرضوا على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه ، ألا إن رسول الله أمرنى بقتال القاسطين وهم هؤلاء الذين سرنا إليهم ، والناكثين وهم هؤلاء الذين فرغنا منهم ، والمارقين ولم نلقهم بعد ، فسيروا إلى القاسطين فهم أهم علينا من الخوارج ، سيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين يتخذهم الناس أربابا و يتخذون عباد الله خولا وما لهم دولا ، فأبوا إلا أن يبدؤا بالخوارج ، فسار على إليهم ، حتى أتى النهروان ، فبعث إليهم بالحرث بن مرة العبدى رسولا يدعوهم إلى الرجوع ، فقتلوه و بعثوا إلى على : إن تبت من حكومتك وشهدت على نفسك بايعناك ، و إن أبيت فاعتزلنا حتى نختار لأنفسنا إماما فانا منك برآء ، فبعث إليهم على أن ابعثوا إلى بقتلة إخوانى فأقتلهم ثم أثاركم إلى أن أفرغ من قتال أهل المغرب ، ولعل الله يقلب قلوبكم ، فبعثوا إليه : كلنا قتلة أصحابك ، وكلنا مستحل لدمائهم مشتركون فى قتلهم ،

مسير على إلى النهروان والتقاؤه بالخوارج

وأخبره الرسول — وكان من يهود السواد — أن القوم قد عبروا نهر طبرستان فى هذا الوقت ، وهذا النهر عليه قنطرة تعرف بقنطرة طبرستان بين حلوان و بغداد من بلاد خراسان ؛ فقال على : والله ماعبروه ولا يقطعونه حتى نقتلهم بالرميلة دونه ، ثم تواترت عليه الأخبار بقطعهم لهذا النهر وعبورهم هذا الجسر ، وهو يأبى ذلك ، ويحلف أنهم لم يعبروه ، وأن مصارعهم دونه ، ثم قال : سيروا إلى القوم فوالله لايفلت منهم إلا عشرة ، ولا يقتل منكم عشرة ، فسار على فأشرف عليهم وقد عسكروا بالموضع المعروف بالرميلة على ماقال لأصحابه ؛ فلما أشرف عليهم قال : الله اكبر ، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتصافّ القوم ووقف عليهم بنفسه فدعاهم إلى الرجوع والتوبة ، فأبوا ورموا أصحابه ، فقيل له : قد رَمَوْنا ، فقال : كُفُّوا ، فكرروا القول عليه ثلاثا وهو يأمرهم بالكف ، حتى أتى برجل قتيل متشحّط بدمه ، فقال على : الله أكبر ، الآن حل قتالهم ، احملوا على القوم ، فحمل رجل من الخوارج على أصحاب على فخرج فيهم وجعل يغشى كل ناحية ويقول : —

موقعة الرميلة

أَضْرِبُهُمْ ولو أرى عليًّا ... أَلْبَسْتُهُ أَبْيَضَ مَشْرَفِيًّا

فخرج إليه على رضى الله عنه وهو يقول : —

يا أَيُّهَذَا الْمُبْتَغِي عليًّا ... إنى أراك جاهلاً شَقِيًّا
قد كنتَ عن كِفَاحِهِ غَنِيًّا ... هَلُمَّ فابْرُزْ هاهُنَا إِلَيَّا

وحمل عليه على فقتله

ثم خرج منهم آخر فحمل على فقتله فيهم ، وجعل يكر عليهم وهو يقول : —

أضربهم ولو أرى أبا حَسَنْ ... أَلْبَسْتُهُ بِصَارِمِي ثَوْبَ غَبَنْ

فخرج إليه على وهو يقول : —

يا أَيُّهَذَا المبتغِي أبا حَسَنْ ... إِلَيْكَ فانظر أَيُّنَا يَلْقَى الْغَبَنْ

وحمل عليه على وشكه بالرمح وترك الرمح فيه ، فانصرف على وهو يقول : لقد رأيت أبا حسن فرأيت ما تكره .

وحمل أبو أيوب الأنصارى على زيد بن حصن فقتله ، وقتل عبد الله بن وهب الذى قتل هانىء بن حاطب الأزدى وزياد بن حفصة ، وقتل حرقوص بن زهير السعدى ، وكان جملة من قتل من أصحاب على تسعة ، ولم يفلت من الخوارج إلا عشرة وأتى على على القوم وهم أربعة آلاف فيهم المُخْدَج ذو الثُّدَيَّة إلا من ذكرنا من هؤلاء العشرة ، وأمر على بطلب المُخْدَج فطلبوه فلم يقدروا عليه ، فقام على وعليه أثر الحزن لفقد المخدج ، فانتهى إلى قتلى بعضهم فوق بعض ، فقال : افرجوا ، ففرجوا يمينا وشمالا واستخرجوه ، فقال على رضى الله عنه : الله أكبر ، ما كذبت على محمد ، وإنه لناقص اليد ، ليس فيها عظم ، طرفها حلمة مثل ثدى المرأة ، عليها خمس شعرات أو سبع رءوسها معقفة ، ثم قال : ائتونى به فنظر إلى عضده فاذا لحم مجتمع على منكبه كثدى المرأة عليه شعرات سود إذا مدت اللحمة امتدت حتى تحاذى بطن يده الأخرى ثم تترك فتعود إلى منكبه ، فثنى رجله ونزل وخر لله ساجدا ثم ركب ومر بهم وهم صرعى فقال : لقد صرعكم من غركم ، قيل : ومن غرهم ؟ قال : الشيطان وأنفُسُ السوء ، فقال أصحابه : قد قطع الله دابرهم إلى آخر الدهر ، فقال : كلا والذى نفسى بيده إنهم لفى أصلاب الرجال وأرحام النساء لا تخرج خارجة إلا خرجت بعدها مثلها حتى تخرج خارجة بين الفرات ودجلة مع رجل يقال له الأسمط يخرج إليه رجل منا أهلَ البيت فيقتلهم ، ولا يخرج بعدها خارجة إلى يوم القيامة .

ذو الثدية المخدج

وجمع على ما كان فى عسكر الخوارج فقسم السلاح والدواب بين المسلمين ، ورد المتاع والعبيد والإماء إلى أهليهم ، ثم خطب الناس فقال : إن الله قد أحسن إليكم ، وأعز نصركم ، فتوجهوا من فَوْرِكم هذا إلى عدوكم ، فقالوا : يا أمير المؤمنين قد كلت سيوفنا ، ونفدت نبالنا ، ونصلت أسنة رماحنا ، فدعنا نستعد بأحسن

غنائم على ودعوته إلى السير للحرب

عدتنا ، وكان الذى كلمه بهذا الأشعث بن قيس ؛ فعسكر على بالنخيلة ، فجعل أصحابه يتسللون ويلحقون بأوطانهم ، فلم يبق معه إلا نفر يسير ، ومضى الحرث ابن راشد الناجى فى ثلاثمائة من الناس فارتدوا إلى دين النصرانية ، وهم من ولد سامة بن لؤى عند أنفسهم ، وقد أبى ذلك كثير من الناس ، وذكروا أن سامة بن لؤى ما أعقب ، وقد حكى عن على فيهم ما قد ذكرنا فى كتابنا فى « أخبار الزمان » .

بعض جيش على يرتدون عن الاسلام

ولست ترى ساميا إلا منحرفا عن على : من ذلك ماظهر عن على بن الجهم الشاعر السامى من التعصب والانحراف ، وقد أتينا على لُمَع من شعره وأخباره فى الكتاب الأوسط ، ولقد بلغ من انحرافه ونصبه العداوة لعلى عليه السلام أنه كان يلعن أباه ، فسئل عن ذلك وبم استحق اللعن منه ، فقال : بتسميته إياى عليا .

فسرح عليهم على معقل بن قيس الرياحى ؛ فقتل الحرث ومن معه من المرتدين بسيف البحر ، وسبى عيالهم وذراريهم ، وذلك بساحل البحرين ، فنزل معقل بن قيس بعض كُوَر الأهواز بسبى القوم ، وكان هنالك مصقلة بن هُبيرة الشيبانى عاملا لعلى ؛ فصاح به النسوة : امنن علينا ، فاشتراهم بثلثمائة ألف وأعتقهم وأدى من المال مائتى ألف وهرب إلى معاوية ، فقال على : قبح الله مصقلة فعل فعل السيد وفر فرار العبد ، لو أقام أخذنا ما قدرنا على أخذه فان أعسر أنظرناه وإن عجز لم نؤاخذه بشىء ، وأنفذ العتق ، وفى ذلك يقول مصقلة بن هبيرة من أبيات : —

على يرسل من يحارب المرتدين

تركتُ نساء الحى بكر بن وائل ... وأعْتَقْتُ سَبْيًا من لؤى بن غالب
وفارقت خير الناس بعد محمد ... لمال قليلٍ لا محالةَ ذاهب

وفى ذلك يقول الآخر :

ومَصْقَلَةَ الذى قد باع بَيْعًا ... ربيحا يوم ناجية بن سام

ولمصقلة أفعال أتاها وحيل عملها قد ذكرناها وما قال فى ذلك من الشعر فى الكتاب الأوسط

وقال على بن محمد بن جعفر العلوى فيمن انتمى إلى سامة بن لؤى بن غالب ابن محمد : —

وسَامَةُ منَّا فأمَّا بنوه ... فأمرُهُمُ عندَنَا مُظْلِمُ
أناس أتونا بأنسابهم ... خرافة مضطجع يَحْلُمُ
وقلنا لهم مثل قول الوصى ... وكل أقاويله محكم
إذا ماسئلتَ فلم تدرما ... تقول فقل رَبُّنَا أعْلَمُ

وفى سنة ثمان وثلاثين وجه معاوية عَمْرَو بن العاص إلى مصر فى أربعة آلاف ، ومعه معاوية بن خديج وأبو الأعور السلمى ، واستعمل عمرا عليها حياته ، ووفى له بما تقدم من ضمانه ، فالتقوا هم ومحمد بن أبى بكر — وكان عامل على عليها — بالموضع المعروف بالمنشأة ، فاقتتلوا ، فانهزم محمد لاسلام أصحابه إياه وتركهم له ، وصار الى موضع بمصر فاختفى فيه ، فأحيط بالدار ، فخرج إليهم محمد ومن معه من أصحابه فقاتلهم حتى قتل ، فأخذه معاوية بن خديج وعمرو بن العاص وغيرهما فجعلوه فى جلد حمار وأضرموه بالنار ، وذلك بموضع فى مصر يقال له كوم شريك ، وقيل : إنه فعل به ذلك وبه شىء من الحياة ، وبلغ معاوية قتل محمد وأصحابه فأظهر الفرح والسرور ، وبلغ عليا قتل محمد وسرور معاوية فقال : جزعنا عليه على قدر سرورهم ، ثما جزعتُ على هالك منذ دخلت هذه الحرب جزَعى عليه ، كان لى ربيبا ، وكنت أعده ولدا ، كان بى برا ، وكان ابن أخى ، فعلى مثل هذا نحزن ، وعند الله نحتسبه

عمرو بن العاص يسير إلى مصر

مقتل محمد بن أبى بكر وتحريقه

وولى على الأشْتَرَ مصر وأنفذه إليها فى جيش ، فلما بلغ ذلك معاوية دس إلى دِهْقَان وكان بالعريش فأرغبه ، وقال : أترك خراجك عشرين سنة فاحتل للأشتر بالسم فى طعامه ، فلما نزل الأشتر العريش سأل الدهقان : أى الطعام

على يولى الاشتر مصر فيدس له السم رجل بالعريش

والشراب أحب إليه ؟ قيل : العسل ، فأهدى له عسلا ، وقال : إن من أمره وشأنه كذا وكذا ، ووصفه للأشتر ، وكان الأشتر صائما ، فتناول منه شربة فما استقرت فى جوفه حتى تلف ، وأتى من كان معه على الدهقان ومن كان معه ، وقيل : كان ذلك بالقلزم ، والأول أثبت ، فبلغ ذلك عليا ، فقال : لليدين وللفم ، وبلغ ذلك معاوية فقال : إن لله جندا من العسل ، وقبض أصحابه عن على فى هذه السنة ثلاثة أرزاق على حسب ما كان يحمل إليه من المال من أعماله ، ثم ورد عليه مال من أصبهان فخطب الناس وقال : اغدوا إلى عطاء رافع ، فوالله ما أنا لكم بخازن ، وكان فى عطائه يأخذ كما يأخذ الواحد منهم

ولم يكن بين على ومعاوية من الحرب إلا ما وصفنا بصفين ، وكان معاوية فى بقية أعمال على يبعث سرايا تغير ، وكذلك على كان يبعث من يمنع سرايا معاوية من أذية الناس ، وقد أتينا على ذكر السرايا والغارات فيما سلف من كتبنا .

الفرق بين صفين والجمل

قال المسعودى رحمه الله : وقد تكلم طوائف من الناس ممن سلف وخلف من أهل الآراء فى الخوارج وغيرهم من فعل على يوم الجمل وصفين وتباين حكمه فيهما وفيمن قتل من أهل صفين مقبلين ومدبرين وإجهازه على جرحاهم ويوم الجمل لم يتبع مولياً ولا أجهز على جريح ، ومن ألقى سلاحه أو دخل داره كان آمنا ، وما أجابهم به شيعة على فى تباين حكم على فى هذين اليومين لاختلاف حكمهما ، وهو أن أصحاب الجمل لما انكشفوا لم يكن لهم فئة يرجعون إليها ، وإنما رجع القوم إلى منازلهم غير محاربين ولا منابذين ولا لأمره مخالفين ، فرضوا بالكف عنهم ، وكان الحكم فيهم رفع السيف ؛ إذ لم يطلبوا عليه أعوانا ، وأهل صفين كانوا يرجعون إلى فئة مستعدة وإمام منتصب : يجمع لهم السلاح ، ويُسنى لهم الأعطية ، ويقسم لهم الأموال ، ويجبر كسيرهم ، ويحمل راجلهم ، ويردهم فيرجعون إلى الحرب ، وهم إلى إمامته منقادون ، ولرأيه متبعون ، ولغيره

مخالفون ، ولامامته تاركون ، ولحقه جاحدون ، وبأنه يطلب ما ليس له قائلون ؛ فاختلف الحكم لما وصفنا ، وتباين حكماهما لما ذكرنا ، ولكل فريق من السائل والمجيب كلام يطول ذكره ويتسع شرحه : قد أتينا على استيعابه وما ذكره كل فريق منهم فيما سلف من كتبنا ، فأغنى ذلك عن إعادته ، والله أعلم

ذكر مقتل على بن أبى طالب

رضى الله عنه

تعاهد ثلاثة من الخوارج على قتل على ومعاوية وعمرو

وفى سنة أربعين اجتمع بمكة جماعة من الخوارج ، فتذاكروا الناس وما هم فيه من الحرب والفتنة ، وتعاهد ثلاثة منهم على قتل على ومعاوية وعمرو بن العاص ، وتواعدوا واتفقوا على أن لا ينكص رجل منهم عن صاحبه الذى يتوجه إليه حتى يقتله أو يُقتَل دونه ، وهم : عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله ، وكان من تجيب ، وكان عدادهم فى مُراد ، فنسب إليهم ، وحجاج بن عبد الله الصُّريمى ، ولقبه البرك ، وزادويه مولى بنى العنبر ، فقال ابن ملجم : أنا أقتل عليا ، وقال البرك : أنا أقتل معاوية ، وقال زادويه : أنا أقتل عمرو بن العاص ، واتعدوا أن يكون ذلك ليلة سبع عشرة من شهر رمضان ، وقيل : ليلة إحدى وعشرين.

ابن ملجم قاتل على

فخرج عبد الرحمن بن ملجم المرادى إلى على ، فلما قدم الكوفة أتى قَطَام بنت عمه ، وكان على قتل أباها وأخاها يوم النهروان ، وكانت أجمل أهل زمانها فخطبها ، فقالت : لا أتزوج حتى تسمى لى ، قال : لا تسألينى شيئا إلا أعطيته ، فقالت : ثلاثة آلاف وعبدا وقينة ، وقتل على ، فقال : ما سألت هو لك مهر ، إلا قتل على فلا أراك تدركينه ، قالت : فالتمس غِرَّة ، فان أصبته شَفَيْتَ نفسى ونفعك العيش معى ، وإن هلكت فما عند الله خير لك من الدنيا ، فقال : والله ما جاء بى إلى هذا المصر وقد كنت هاربا منه إلا ذلك ، وقد أعطيتك ما سألت وخرج من عندها وهو يقول : —

ثَلَاثَةُ آلافٍ وعَبْدٌ وقَيْنَةٌ وقَتْلُ علي بالحسام المُصَمِّمِ

فلا مَهْرَ أغلى من علي وإن علا ولا فَتْكَ إلا دون فَتْكِ ابن مُلْجَمِ

فلقيه رجل من أشجع يقال له شَبيب بن بجيرة من الخوارج ، فقال له : هل لك فى شرف الدنيا والآخرة ؟ فقال : وما ذاك ؟ قال : أتساعدنى على قتل على ؟ قال : ثكلتك أمك ، لقد جئت شيئاً إدًّا ، قد عرفت غناءه فى الاسلام وسابقته مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال ابن ملجم : ويحك ، أما تعلم أنه قد حكّم الرجال فى كتاب الله ، وقتل إخواننا المصلين ؟ فنقتله ببعض إخواننا ، فأقبل معه حتى دخل على قَطَام ، وهى فى المسجد الأعظم ، وقد ضربت كِلَّةً به وهى معتكفة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة مضت من شهر رمضان ، فأعلمتهما أن مجاشع ابن وردان بن علقمة قد انتدب لقتله معهما ، فدعت لهما بحرير وعصبتهما وأخذوا أسيافهم ، وقعدوا مقابلين لباب السُّدَّة التى يخرج منها على للمسجد ، وكان على يخرج كل غداة أول الأذان للصلاة ، وقد كان ابن ملجم مر بالأشعث وهو فى المسجد ، فقال له : فَضَحَكَ الصبحُ ، فسمعها حُجْر بن عدى ، فقال : قتلته ياأعور قتلك الله ، وخرج على رضى الله عنه ينادى : أيها الناس ، الصلاة ، فشدّ عليه ابن ملجم وأصحابه وهم يقولون : الحكم لله لالك ، وضربه ابن ملجم على رأسه بالسيف فى قرنه ، وأما شبيب فوقعت ضربته بعُضادة الباب ، وأما ابن وردان فهرب ، وقال على : لايفوتنكم الرجل ، وشدَّ الناس على ابن ملجم يَرْمُونه بالحصباء ، ويتناولونه ، ويصيحون ، فضرب ساقه رجل من همدان برجله ، وضرب المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب وجهه فصرعه ، وأقبل به إلى الحسن ، ودخل شبيب بين الناس ، فنجا بنفسه وهرب ، حتى أتى رحله ، فدخل إليه عبد الله بن بجرة — وهو أحد بنى أبيه — فرآه ينزع الحرير عن صدره ، فسأله عن ذلك ، فخبره خبره ، فانصرف عبد الله إلى رحله وأقبل إليه بسيفه فضربه حتى قتله . وقيل : إن عليا لم ينم تلك الليلة ، وإنه لم يزل يمشى

بين الباب والحجرة ، وهو يقول : والله ما كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ ، وإنها لَلَّيلة التى وعدت ، فلما صرخ بَطٌّ كان للصبيان صاح بهن بعض من فى الدار ، فقال على : ويحك ، دعهن فانهن نوائح

وقد ذكر طائفة من الناس أن عليا رضى الله عنه أوصى إلى ابنيه الحسن والحسين لأنهما شريكاه فى آية التطهير ، وهذا قول كثير ممن ذهب إلى القول بالنص

ودخل عليه الناس يسألونه ، فقالوا : ياأمير المؤمنين ، أرأيت إن فقدناك ، ولانفقدك ، أنبايع الحسن ؟ قال : لا آمركم ولا أنهاكم ، أنتم أبصر ؛ ثم دعا الحسن والحسين ؛ فقال لهما : أوصيكما بتقوى الله وحده ، ولا تبغيا الدنيا وإن بَغَتكما ، ولا تأسفا على شىء منها ، قولا الحق ، وارحما اليتيم ، وأعينا الضعيف ، وكونا للظالم خصما ، وللمظلوم عَوناً ، ولا تأخذ كما فى الله لومة لائم ، ثم نظر إلى ابن الحنفية فقال : هل سمعت ما أوصيت به أخويك ؟ قال : نعم ، قال : أوصيك بمثله ، وأوصيك بتوقير أخويك ، وتزيين أمرهما ، ولا تقطعن أمراً دونهما ، ثم قال لهما : أوصيكما به ، فانه سيفكما وابن أبيكما ، فأكرماه واعرفا حقه

فقال لهرجل من القوم : ألا تعهد ياأمير المؤمنين ؟ قال : لا ، ولكن أتركهم كما تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فماذا تقول لربك إذا أتيته ؟ قال : أقول : اللهم إنك أبقيتنى فيهم ماشئت أن تبقينى ، ثم قبضتنى وتركتك فيهم ، فان شئت أفسدتهم ، وإن شئت أصلحتهم ، ثم قال : أما والله إنها لليلة التى ضرب فيها يوشع بن نون ليلة سبع عشرة ، وقبض ليلة إحدى وعشرين

وبقى علىٌّ الجمعة والسبتَ وقبض ليلة الأحد ، ودفن بالرحبة عند مسجد الكوفة وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب فى أخباره تنازع الناس فى موضع قبره ، وما قيل فى ذلك

وقبض وقد أتى عليه اثنتان وسبعون سنة ، وقيل : اثنتان وستون . وقد قدمنا تنازع الناس فى مقدار سنه ؛ وكان كما قال الحسن : والله لقد قبض فيكم الليلة رجل ما سبقه الأولون إلا بفضل النبوة ، ولا يدركه الآخرون ،

وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبعثه المبعث فيكتنفه جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فلا يرجع حتى يفتح الله عليه ، وكان الذى صلى عليه الحسن ابنه ، وكبر عليه سبعا ، وقيل غير ذلك

تركة على

ولم يترك صفراء ولا بيضاء ، إلا سبعمائة درهم بقيت من عطائه ، أراد أن يشترى بها خادما لأهله ، وقال بعضهم : ترك لأهله مائتين وخمسين درهما ومصحفه وسيفه .

قتل ابن ملجم وماقيل فيه

ولما أرادوا قتل ابن ملجم لعنه الله قال عبد الله بن جعفر : دعونى حتى أشفى نفسى منه ، فقطع يديه ورجليه وأحمى له مسمارا حتى إذا صار جمرة كحله به ، فقال : سبحان الذى خلق الانسان ، إنك لتكحل عمك بمُلول بصّاص ، ثم إن الناس أخذوه وأدرجوه فى بوارى ثم طلوها بالنفط وأشعلوا فيها النار فاحترق

وفيه يقول عِمْرَانُ بن حِطَّان الرقاشى يمدحه فى ضربته من شعر له طويل :ـ

يا ضَرْبَةً من تَقِيٍّ ما أراد بها ... إلا لِيَبْلُغَ من ذى العرش رضوانا

إنى لأذكره يَوْمًا فأحْسَبُهُ ... أوْفَى البرية عند الله مِيزَانَا

فأجابه القاضى أبو الطيب طاهر بن عبد الله الشافعى : —

إنى لأبرأ مما أنت قائله ... عن ابن ملجم الملعون بهتانا

يا ضربة من شقى ما أراد بها ... إلا ليهدم للإسلام أركانا

إنى لأذكره يوما فألعنه ... دنيا وألعن عمرانا وحطانا

عليه ثم عليه الدهر متصلا ... لعائن الله إسرارا وإعلانا

فأنتما من كلاب النار جاء به ... نص الشريعة برهانا وتبيانا

وزاد بعضهم على هذه الأبيات بيتا آخر وهو : —

عليكما لعنة الجبار ما طلعت ... شمس وما أوقدوا فى الكون نيرانا

معارضة لبيتى اللعين ابن حطان لعنه الله فى ابن ملجم أخزاه الله : ـ

قل لابن ملجم والأقدار غالبة ... هَدَمْتَ ويلك للإسلام أركانا

قتلت أفْضَلَ من يمشى على قَدَمٍ ... وأوَّلَ الناس إسلاما وإيمانا

وأعلم الناس بالقرآن ثم بما ... سَنَّ الرسول لنا شَرْعاً وتبيانا
صهر النبي ومولانا وناصره ... أضحت مناقبه نوراً وبُرْهانا
وكان منه على رغم الحسود له ... مكان هرون من موسى بن عمرانا
وكان في الحرب سيفا صارماً ذَكَرًا ... لَيْثاً إذا ما لقى الأقران أقرانا
ذكرت قاتله والدمع منحدر ... فقلت : سبحان رب الناس سبحانا
إني لأحسبه ما كان من بشر ... يخشى المعاد ولكن كان شيطانا
أشقى مراد إذا عُدَّت قبائلها ... وأخسر الناس عند الله ميزانا
كعاقر الناقة الأولى التي جلبت ... على ثمود بأرض الحجر خُسْرانا
قد كان يخبرهم أنْ سَوْفَ يخضبها ... قبل المنية أزمانا فأزمانا
فلا عفا الله عنه ما تحمله ... ولا سقى قبر عمران بن حطانا
لقوله في شقى ظل مجترما ... ونال ما ناله ظلما وعدوانا
يا ضربة من تقى ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
بل ضربة من غوى أورثته لَظَى ... مخلدا قد أتى الرحمن غضبانا
كأنه لم يرد قصدا بضربته ... إلا ليَصْلى عذاب الخلد نيرانا

ولعمران بن حطان ولأبيه حِطَّان أخبار كثيرة قد أتينا على ذكرها في كتابنا « أخبار الزمان » في باب أخبار الخوارج من الأزارقة والأباضية والحمرية والصفرية والهجرية وغيرهم من فرق الخوارج إلى سنة ثمان عشرة وثلثمائة ؛ وكان آخر من خرج منهم ربيعة المعروف بفروان ، فأدخل على المقتدر بالله ، بَعَثَ به ابن حمدان من هرموناء ، وقد كان خرج في أيامه أيضا المعروف بأبي شعيب

رثاء أبي الاسود لعلي رضي الله عنه

وقد رثى الناس أمير المؤمنين عليا رضي الله عنه في ذلك الوقت وإلى هذه الغاية ، وذكروا مقتله ، وممن رثاه في ذلك الوقت أبو الأسود الدؤلي من أبيات : ـ

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... فلا قَرَّتْ عُيُونُ الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتمونا ... بخير الناس طُرًّا أجمعينا

قتلتم خير من ركب المطايا وَذَلَّلَهَا ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها ومن قرأ المثانى والمبينا
إذا استقبلت وجه أبى حُسَيْن رأيت النور فوق الناظرينا
لقد علمت قريش حيث كانت بأنك خيرهم حسبا ودينا

البرك التميمى ضارب معاوية

وانطلق البرك الصريمى إلى معاوية فطعنه بخنجر فى أليته وهو يصلى ، فأخذ وأوقف بين يديه ، فقال له : ويلك ! ! وما أنت وما خبرك ؟ قال : لا تقتلنى ، وأخبره ، قال : إنا تبايعنا فى هذه الليلة عليك وعلى على وعلى عمرو ؛ فان أردت فاحبسنى عندك فان كانا قتلا و إلا خليت سبيلى فطلبت قتل على ولك على أن أقتله وأن آتيك حتى أضع يدى فى يدك ؛ فقال بعض الناس : قتله يومئذ ، وقال بعضهم : حبسه حتى جاءه خبر قتل على فأطلقه

زادويه ضارب عمرو

وانطلق زادويه عمرو بن بكر التميمى إلى عمرو بن العاص ، فوجد خارجة قاضى مصر جالسا على السرير يطعم الناس فى مجلس عمرو ، وقيل : بل صلى خارجة بالناس الغداة ذلك اليوم ، وتخلف عمرو عن الصلاة لعارض ؛ فضربه بالسيف ، فدخل عليه عمرو وبه رَمَق ، فقال له خارجة : والله ما أراد غيرك ، فقال عمرو : ولكن الله أراد خارجة ، وأوقف الرجل بين يدى عمرو ، فسأله عن خبره ، فقص عليه القصة ، وأخبره أن عليا ومعاوية قد قتلا فى هذه الليلة ، فقال : إن قتلا أولم يقتلا فلا بد من قتلك ، فبكى ، فقيل له : أجزعا من الموت مع هذا الاقدام ؟! فقال : لاوالله ، ولكن غما أن يفوز صاحباى بقتل على ومعاوية ولا أفوز أنا بقتل عمرو ؛ فضرب عنقه وصلب

وكان على رضى الله عنه كثيرا ما يتمثل :

تِلْكُمْ قريش تَمَنَّانى لتقتلنى فلا وربك ما بَرُّوا وما ظَفِرُوا
فان هلكتُ فَرَهْنٌ ذمتي لَهُمُ بذات وَدْقَين لايعفو لها أثر

وكان يكثر من ذكر هذين البيتين : ـ

أُشْدُدْ حِيَازِيمَكَ للموت فإنَّ الموتَ لاقيكا
ولا تَجْزَعْ من الموت إذا حَلَّ بِوَادِيكا

وسمعا منه فى الوقت الذى قتل فيه ، فإنه قد خرج إلى المسجد وقد عسر عليه فتح باب داره ، وكان من جذوع النخل ، فاقتلعه وجعله ناحية ، وانحل إزاره ، فشده وجعل ينشد هذين البيتين المتقدمين

معاوية بأمر أن يشيع مقتله فى الناس

وقد كان معاوية دس أناسا إلى الكوفة يشيعون موته ، وأكثر الناس القول فى ذلك حتى بلغ عليا فقال فى مجلسه : قد أكثرتم من نعى معاوية ، والله ما مات ولا يموت حتى يملك ما تحت قدمى وإنما أراد ابن آكلة الأكباد أن يعلم ذلك منى ، فبعث من يشيع ذلك فيكم ليعلم ويتيقن ماعندى فيه ، وما يكون من أمره فى المستقبل من الزمان ، ومر فى كلام كثير يذكر فيه أيام معاوية ومن تلاه من يزيد ومروان وبنيه وذكر الحجاج وما يسومهم من العذاب ، فارتفع الضجيج وكثر البكاء والشهيق ، فقام قائم من الناس فقال : ياأمير المؤمنين ، لقد وصفت أمورا عظيمة آلله إن ذلك كائن ؟ قال على : والله إن ذلك لكائن ، ما كذبت ولا كذبت ، فقال آخرون : متى ذلك ياأمير المؤمنين ؟ قال : إذا خضبت هذه من هذه ، ووضع إحدى يديه على لحيته والأخرى على رأسه ، فأكثر الناس من البكاء ، فقال : لاتبكوا فى وقتكم هذا فستبكون بعدى طويلا ، فكاتب أكثر أهل الكوفة معاوية سرا فى أمورهم ، واتخذوا عنده الأيادى ، فوالله ما مضت إلا أيام قلائل حتى كان ذلك ، وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب بعد ذكرنا لزهده ولمع من كلامه وجمل من أخباره أيضا أخبارَ معاوية بن أبى سفيان ، والله ولى التوفيق

ذكر لمع من كلامه واخباره وزهده

رضوان الله عليه

لم يلبس عليه السلام فى أيامه ثوبا جديدا ، ولا اقتنى ضيعة ولا ريعا ، إلا شيئا كان له بسرف مما تصدق به وحبسه ، والذى حفظ الناس عنه من خطبه فى سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيف وثمانون خطبة يوردها على البديهة ؛ تداول الناس ذلك عنه قولا وعملا

وقيل له : مَنْ خيار العباد ؟ قال : الذين إذا أحسنوا استبشروا ، وإذا أساؤا استغفروا ، وإذا ابتلوا صبروا ، وإذا غضبوا غفروا

وكان يقول : الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار عافية لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها ، الدنيا مسجد أحباء الله ، ومصلى ملائكة الله ، ومهبط وحيه ، ومتجر أوليائه ، اكتسبوا فيها الرحمة ، وربحوا فيها الجنة ، فمن ذا يذمها وقد آذنت ببينها ، ونادت بفراقها ، ونعت نفسها وأهلها ، ومثلت لهم ببلائها البلاء ، وشوقت بسرورها إلى السرور ، وراحت بفجيعة ، وابتكرت بعافية ؛ تحذيرا وترغيبا وتخويفا ، فذمها رجال غِبَّ الندامة ، وحمدها آخرون غب المكافأة ، ذكرتهم فذكروا تصاريفها ، وصدقتهم فصدقوا حديثها ، فيا أيها الذام للدنيا المغتر بغرورها ، متى استدامت لك الدنيا ؟ بل متى غرتك من نفسها ؟ أبمضاجع آبائك من البلى ؟ أم بمصارع أمهاتك من الثرى ؟ كم قد عَلَّلْتَ بكفك ومرضت بيدك من تبغى له الشفاء وتستوصف له الأطباء ؟ لم تنفعه بشفائك ، ولم تستعف له بطلبتك ، قد مثلت لك به الدنيا نفسك ، وبمصرعه مصرعك ، غَدَاةَ لا ينفعك بكاؤك ، ولا يغنى عنك أحباؤك . ولا تسمع فى مدح الدنيا أحسن من هذا

وصف الدنيا من كلام على

ومما حفظ من كلامه فى بعض مقاماته فى صفة الدنيا أنه قال : ألا إن الدنيا قد ارتحلت مُدْبرة ، وإن الآخرة قد دنت مقبلة ، ولهذه أبناء ، ولهذه أبناء ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، ألا وكونوا من الزاهدين فى الدنيا ،

والراغبين فى الآخرة ، إن الزاهدين فى الدنيا اتخذوا الأرض بساطا ، والتراب فراشا ، والماء طيبا ، وقوّضوا الدنيا تقويضا ، ألا ومن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات ، ومن راقب الخير سارع فى الخيرات ، ألا وإن لله عبادا يرون الموت أهل الجنة فى الجنة منعمين مخلدين ، قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، أنفسهم عفيفة ، وحاجتهم خفيفة ، صبروا أياما قليلة فصارت لهم العقبى ، راحة طويلة ، أما الليل فصافّوا أقدامهم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يجأرون إلى ربهم ، ويسعون فى فكاك رقابهم ، وأما النهار فعلماء حكماء برره أتقياء ، كأنهم القداح براهم الخوف والعبادة ، ينظر إليهم الناظر فيقول : مرضى ؛ وما بالقوم من مرض ، أم خولطوا فقد خالطهم أمر عظيم من ذكر النار ومن فيها

وقال لابنه الحسن : يا بنى ، استغن عمن شئت تكن نظيره ، وسل من شئت تكن حقيره ، وأعط من شئت تكن أميره

ودخل عليه رجل من أصحابه فقال : كيف أصبحت يا أمير المؤمنين ؟ قال : أصبحت ضعيفا مذنبا ، آكل رزقى ، وأنظر أجلى ، قال : وما تقول فى الدنيا ؟ قال : وما أقول فى دار أولها غم ، وآخرها موت ، من استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حزن ، حلالها حساب ، وحرامها عقاب ، قال : فأى الخلق أنعم ؟ قال : أجساد تحت التراب ، قد أمنت العقاب ، وهى تنتظر الثواب

ضرار بن حمزة يصف عليا لمعاوية

ودخل ضرار بن حمزة — وكان من خواص على — على معاوية وافدا ، فقال له : صف لى عليا ، قال : أعفنى يا أمير المؤمنين ، قال معاوية : لا بد من ذلك ، فقال : أما إذا كان لا بد من ذلك فانه كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يعجبه من الطعام ما خشن ، ومن اللباس ما قصر ، وكان والله يجيبنا إذا دعوناه ، ويعطينا إذا سألناه ، وكنا والله على تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه

هيبة له ، ولا نبتدئه لعظمه فى نفوسنا ، يبسم عن ثغر كاللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويرحم المساكين ، ويطعم فى المسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة يكسو العريان ، وينصر اللهفان ، ويستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل وظلمته ، وكأنى به وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، وهو فى محرابه قابض على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين ويقول: يا دنيا غُرِّى غَيْرِى ، ألى تعرضت أم إلى تشوفت ؟ هيهات هيهات !! لا حان حينك ، قد أبَنْتُكِ ثلاثا لا رجعة لى فيك ، عمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك يسير ، آهِ من قلة الزاد ، ووحشة الطريق

فقال له معاوية : زدنى شيئا من كلامه ، فقال ضرار : كان يقول : أعجب ما فى الانسان قلبه ، وله مواد من الحكمة ، وأضداد من خلافها ، فان سنح له الرجاء أماله الطمع ، وإن مال به الطمع أهلكه الحرص ، وإن ملكه القنوط قتله الأسف ، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ ، وإن أسعده الرضا نسى التحفظ ، وإن أماله الخوف فضحه الجزع ، وإن أفاد مالا أطغاه الغنى ، وإن عضته فاقة فضحه الفقر ، وإن أجهده الجوع أقعده الضعف ، وإن أفرط به الشبع كَظَّتْه البطنة ، فكل تقصير به مضر ، وكل إفراط له مفسد

فقال له معاوية : زدنى كلما وعيته من كلامه ، قال : هيهات أن آتى على جميع ما سمعته منه ، ثم قال : سمعته يوصى كميل بن زياد ، يا كُمَيْلُ ذُبَّ عن المؤمن فان ظهره حمى الله ، ونفسه كريمة على الله ، وظالمه خصم الله ، وأحذركم من ليس له ناصر إلا الله

قال : وسمعته يقول ذات يوم : إن هذه الدار إذا أقبلت على قوم أعارتهم محاسن غيرهم ، وإذا أدبرت عنهم سلبتهم محاسن أنفسهم

قال : وسمعته يقول : بَطَرُ الغنى يمنع من عز الصبر

قال : وسمعته يقول : ينبغى للمؤمن أن يكون نظره عبرة ، وسكوته فكرة، وكلامه حكمة

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن قتل جعفر بن أبى طالب الطيار بمؤتة من أرض الشام لا يبعث بعلى فى وجهة من الوجوه إلا يقول : « رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين »

وحمل على يوم أحد على كردوس من المشركين خشن ، فكشفهم ، فقال جبريل : يا محمد ، إن هذه لهى المواساة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن عليا منى » قال جبريل : وأنا منكم كذلك ، ذكره إسحق بن إبراهيم وغيره

ثقته بما عند الله

ووقف على على سائل فقال للحسن : قل لأمك تدفع إليه درهما ، فقال : إنما عندنا ستة دراهم للدقيق ، فقال على : لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده ، ثم أمر للسائل بالستة الدراهم كلها ، فمابرح على رضى الله عنه حتى مر به رجل يقود بعيرا ، فاشتراه منه بمائة وأربعين درهما ، وأنسأ أجله ثمانية أيام ، فلم يحل أجله حتى مر به رجل والبعير معقول فقال : بكم هذا ؟ فقال : بمائتى درهم ، فقال : قد أخذته ، فوزن له الثمن ، فدفع على منه مائة وأربعين درهما للذى ابتاعه منه ، ودخل بالستين الباقية على فاطمة عليها السلام ، فسألته : من أين هى ؟ فقال هذه تصديق لما جاء به أبوك صلى الله عليه وسلم (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها)

دفاع ابن عباس عن على

ومر ابن عباس بقوم ينالون من على و يسبونه ، فقال لقائده : أدننى منهم ، فأدناه ، فقال : أيكم الساب لله ؟ قالوا : نعوذ بالله أن نسب الله ، فقال : أيكم الساب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : نعوذ بالله أن نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أيكم الساب على بن أبى طالب ؟ قالوا : أما هذه فنعم ، قال : أشهد لقد سمعت رسول الله صلى عليه وسلم يقول : « من سبنى

فقد سب الله ، ومن سب عليا فقد سبنى » فأطرقوا ، فلما ولى قال لقائده : كيف رأيتهم ؟ فقال : —

نظروا إليك بأعين مزْوَرَّة نظر التيوس إلى شفَارِ الجازر

فقال : زدنى فداك أبى وأمى ، فقال : —

خُزْرَ العيون مُنَكَّسى أذقانهم نظر الذليل إلى العزيز القاهر

قال : زدنى فداك أبى وأمى ، قال : ماعندى مزيد ، ولكن عندى

أحياؤهم تجنى على أمواتهم والميتون فضيحة للغابر

مقالته صبيحة مقتله

وقد ذكر جماعة من أهل النقل عن أبى عبد الله جعفر بن محمد عن أبيه محمد ابن على بن الحسين بن على أن عليا قال فى صبيحة الليلة التى ضربه فيها عبد الرحمن ابن ملجم بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم : كل امرىء ملاقيه مايفر منه ، والأجل تساق النفس إليه ، والهرب منه موافاته ، كم اطردت الأيام أتحينها عن مكنون هذا الأمر فأبى الله عز وجل إلا إخفاءه ، هيهات علم مكنون ، أما وصيتى فلا تشركوا به شيئا ، ومحمد لاتضيعوا سنته ، أقيموا هذين العمودين ، حمل كل امرىء منكم مجهوده ، وخفف عن الحملة رب رحيم ، ودين قويم ، وإمام عليم ، كنافى إعصار ذى رياح تحت ظل غمامة اضمحل راكدها فحطها من الأرض حيا وبقى من بعدى خيرها واستكنه بعد حركة كاظمة بعد نطق ، ليعظكم هدوئى وخفوت أطرافى ، إنه أوعظ لكم من نطق البليغ ، ودعتكم وداع امرىء مرصد لتلاق ، وغدا ترون ويكشف عن ساق ، عليكم السلام إلى يوم المرام ، كنت بالأمس صاحبكم واليوم عظة لكم وغدا أفارقكم إن أفق فأنا ولى دمى ، وإن أمت فالقيامة ميعادى ، والعفو أقرب للتقوى ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم

ومن خطبه قبل هذا وتزهيده فى هذه الدنيا قوله فى بعض مقاماته وخطبه : إن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع ، وإن الآخرة قد أشرفت وأقبلت باطلاع

و إن المضمار اليوم والسباق غدا ، ألا إنكم فى أيام أمل وراءه أجل ؛ فمن أخلص فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد حسن عمله ، فاعملوا لله فى الرغبة ، كما تعملون فى الرهبة ، ألا و إنى لم أر كالجنة نام طالبها ، ولا كالنار نام هاربها ، ألا و إنه من لم ينفعه الحق يضره الباطل ، ومن لا يستقيم له الهدى يخزيه الضلال ، وقد أمرتم بالظعن ودللتم على الزاد ، فان أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل

وفضائل على ومقاماته ومناقبه ووصف زهده ونسكه أكثر من أن يأتى عليه كتابنا هذا أو غيره من الكتب ، أو يبلغه إسهاب مسهب ، أو إطناب مطنب ، وقد أتينا على جمل من أخباره وزهده وسيره ، وأنواع من كلامه وخطبه فى كتابنا المترجم بكتاب « حدائق الأذهان فى أخبار آل محمد عليه الصلاة والسلام » وفى كتاب « مزاهر الأخبار ، وظرائف الآثار ، للصفوة النورية والذرية الزكية أبواب الرحمة و ينابيع الحكمة »

قال المسعودى : والأشياء التى استحق بها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الفضل هى السبق إلى الايمان ، والهجرة ، والنصرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقربى منه ، والقناعة ، وبذل النفس له ، والعلم بالكتاب والتنزيل ، والجهاد فى سبيل الله ، والورع والزهد ، والقضاء والحكم ، والعفة والعلم ، وكل ذلك لعلى عليه السلام منه النصيب الأوفر ، والحظ الأكبر ، إلى ماينفرد به من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين آخى بين أصحابه « أنت أخى » وهو صلى الله عليه وسلم لاضد له ، ولا ند ، وقوله صلوات الله عليه « أنت منى بمنزلة هرون من موسى ، إلا أنه لا نبى بعدى » وقوله عليه الصلاة والسلام « من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » ثم دعاؤه عليه السلام وقد قدم إليه أنس الطائر : اللهم أدخل إلى أحب خلقك إليك يأكل معى من هذا الطائر ، فدخل عليه على ، إلى آخر الحديث ، فهذا وغيره من فضائله وما اجتمع

فيه من الخصال مما تفرق فى غيره ، ولكلٍّ فضائلُ ممن تقدم وتأخر ، وقبض النبى صلى الله عليه وسلم وهو راض عنهم مخبر عن بواطنهم بموافقتها لظواهرهم بالإيمان ، و بذلك نزل التنزيل ، وتولى بعضهم بعضا ، فلما قبض الرسول صلى الله عليه وسلم وارتفع الوحى حدثت أمور تنازع الناس فى صحتها ، ولا يقطع عليهم بها ، واليقين من أمورهم ماتقدم ، وما روى مما كان فى إحداثهم بعد نبيهم صلى الله عليه وسلم فغير متيقن ، بل هو ممكن ، ونحن نعتقد فيهم ماتقدم ، والله أعلم بما حدث والله ولى التوفيق

ذكر خلافة الحسن بن على بن ابى طالب

رضى الله عنه

وقت البيعة

ثم بويع الحسن بن على بن أبى طالب بالكوفة بعد وفاة على أبيه بيومين ، فى شهر رمضان من سنة أربعين ، ووجه عماله إلى السواد والجبل ، وقتل الحسنُ عبد الرحمن بن ملجم على حسب ما ذكرنا ، ودخل معاوية الكوفة بعد صلح الحسن بن على لخمس بقين من شهر ربيع فى سنة إحدى وأربعين ، وكانت وفاة الحسن - وهو يومئذ ابن خمس وخمسين سنة - بالسم ، ودفن بالبقيع مع أمه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله ولى التوفيق .

ذكر لمع من أخباره وسيره رضى الله عنه

سم الحسن

حدثنا جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جده على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، قال : دخل الحسين على عمى الحسن بن على لما سقى السم ، فقام لحاجة الإنسان ثم رجع ، فقال : لقد سقيت السم عدة مرار فما سقيت مثل هذه ، لقد لفظت طائفة من كبدى فرأيتنى أقلبه بعود فى يدى ، فقال له الحسين : ياأخى ، من سقاك ؟ قال : وما تريد بذلك ؟ فان كان الذى أظنه فالله حسيبه ،

وإن كان غيره فما أحب أن يؤخذ بي برىء ، فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثا حتى توفى رضى الله عنه .

امرأته هى التى سمته

وذكر أن امرأته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندى سقته السم ، وقد كان معاوية دس إليها : إنك إن احتلت فى قتل الحسن وجهت إليك بمائة ألف درهم ، وزوجتك يزيد ، فكان ذلك الذى بعثها على سمه ، فلما مات وفى لها معاوية بالمال ، وأرسل إليها : إنا نحب حياة يزيد ، ولولاذلك لوفينا لك بتزويجه

وذكر أن الحسن قال عند موته : لقد حاقت شربته ، وبلغ أمنيته ، والله ما وفى بما وعد ، ولا صدق فيما قال .

النجاشى يرثى الحسن رضى الله عنه

وفى فعل جعدة يقول النجاشى الشاعر وكان من شيعة على فى شعر له طويل : —

جعدة بَكِّيه ولا تسأمى ... بَعْدُ بُكاءَ الْمُعْوِلِ الثاكل
لم يُسْبَل الستر على مثله ... فى الأرض من حافٍ ومن ناعل
كان إذا شُبَّتْ له ناره ... يرفعها بالسند الغاتل
كيما يراها بائس مُرْمِلٌ ... وفرد قوم ليس بالآهل
يغلى بنىء اللحم حتى إذا ... أنضجه لم يغل من آكل
أعنى الذى أسْلَمَنَا هُلْكُهُ ... للزمن المستحرج الماحل

وفى ذلك يقول آخر من شيعة على رضى الله عنه : —

تأسَّ فكم لك من سَلْوَة ... تُفَرِّجُ عنك غليل الحزن
بموت النبى وقتل الوصىِّ ... وقتل الحسين وسَمِّ الحسن

قال المسعودى رحمه الله : ووجدت فى كتاب « الأخبار » لأبى الحسن على ابن محمد بن سليمان النوفلى عن صالح بن على بن عطية الأصم قال : حدثنا عبد الرحمن بن العباس الهاشمى ، عن أبى عون صاحب الدولة ، عن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، عن أبيه ، عن جده ، عن العباس بن عبد المطلب ، قال :

كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل على بن أبى طالب ، فلما رآه أسفر فى وجهه ، فقلت : يارسول الله ، إنكَ لتسفر فى وجه هذا الغلام ، فقال : ياعمَّ رسول الله والله لله أشد حبًّا له منى ، ولم يكن نبى إلا وذريته الباقية بعده من صلبه ، وإن ذريتى بعدى من صلب هذا ، إنه إذا كان يوم القيامة دعى الناس بأسمائهم وأسماء أمهاتهم سَتْرًا من الله عليهم ، إلا هـذا وشيعته فانهم يدعون بأسمائهم وأسماء أبائهم لصحة ولادتهم

رثاء ابن الحنفية للحسن

ولما دفن الحسن رضى الله عنه وقف محمد بن الحنفية أخوه على قبره فقال : لئن عزت حياتك ، لقد هدت وفاتك ، ولنعم الروح روح تضمنه كفنك ، ولنعم الكفن كفن تضمن بدنك ، وكيف لا تكون هكذا وأنت عقبة الهدى وخلف أهل التقوى وخامس أصحاب الكساء ؟ غذتك بالتقوى أكف الحق ، وأرضعتك ثُدِىُّ الإيمان ، وربيت فى حجر الاسلام ، فطبت حيا وميتا ، وإن كانت أنفسنا غير سخية بفراقك ، رحمك الله أبا محمد

ووجدت فى وجه آخر من الروايات فى أخبار أهل البيت أن محمدا وقف على قبره فقال : أبا محمد ، لئن طابت حياتك فقد فجع مماتك ، وكيف لا تكون كذلك وأنت خامس أهل الكساء ، وابن محمد المصطفى ، وابن على المرتضى ، وابن فاطمة الزهراء ، وابن شجرة طوبى ، ثم أنشأ يقول رضى الله عنه : —

أأدهن رأسى أم تطيب مجالسى ... وخدُّك معفورٌ وأنت سليب
أأشرب ماء المزن من غير مائه ... وقد ضُمِّنَ الأحشاء منك لهيب
سأبكيك ما ناحت حمامة أيكة ... وما اخضر فى دَوْحِ الحجاز قضيب
غريبٌ وأكناف الحجاز تحوطه ... ألا كلُّ من تحت التراب غريبُ

ووجدت فى بعض كتب التواريخ فى أخبار الحسن ومعاوية أن بخلافة الحسن صح الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «الخلافة بعدى ثلاثون سنة» لأن أبا بكر الصديق رضى الله عنه تقلدها سنتين وثلاثة أشهر وثمانية أيام ، وعمر

رضى الله عنه عشر سنين وأحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما ، وعثمان رضى الله عنه إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما ، وعلى رضى الله عنه أربع سنين وتسعة أشهر ويوما ، والحسن رضى الله عنه ثمانية أشهر وعشرة أيام ؛ فذلك ثلاثون سنة

سرور معاوية بموت الحسن ولوم ابن عباس إياه لذلك

وحدث محمد بن جرير الطبرى ، عن محمد بن حميد الرازى ، عن على بن مجاهد ، عن محمد بن إسحق ، عن الفضل بن عباس بن ربيعة ، قال : وفد عبد الله بن العباس على معاوية ، قال : فوالله إنى لفى المسجد إذ كبر معاوية فى الخضراء ، فكبر أهل الخضراء ، ثم كبر أهل المسجد بتكبير أهل الخضراء ، فخرجت فاختة بنت قرظة بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف من خوخة لها ، فقالت : سرك الله يا أمير المؤمنين ما هذا الذى بلغك فسررت به ؟ قال : موت الحسن بن على ، فقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم بكت وقالت : مات سيد المسلمين ، وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال معاوية : نعما والله مافعلت ، إنه كان كذلك أهلا أن يبكى عليه ، ثم بلغ الخبر ابن عباس رضى الله عنهما ، فراح فدخل على معاوية ، قال : علمت يا ابن عباس أن الحسن توفى ، قال : أذلك كبرت ؟ قال : نعم ، قال : والله ما موته بالذى يؤخر أجلك ، ولا حفرته بسادة حفرتك ، ولئن أصبنا به فقد أصبنا بسيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين ، ثم بعد بسيد الأوصياء ، فجبر الله تلك المصيبة ، ورفع تلك العبرة ، فقال : ويحك يا ابن عباس ما كلمتك إلا وجدتك معدا

سرور معاوية بصلح الحسن

وفى نسخة إنه لما صالح الحسن معاوية كبر معاوية فى الخضراء ، وكبر أهل الخضراء ، ثم كبر أهل المسجد بتكبير أهل الخضراء ، فخرجت فاختة بنت قرظة من خوخة لها ، فقالت : سرك الله يا أمير المؤمنين ما هذا الذى بلغك ؟ قال : أتانى البشير بصلح الحسن وانقياده ، فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم

« إن ابنى هذا سيد أهل الجنة ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المؤمنين » فالحمد لله الذى جعل فئتي إحدى الفئتين

خطبة الحسن بعد صلحه معاوية

ولما صالح الحسن معاوية لما ناله من أهل الكوفة وما نزل به أشار عمرو ابن العاص على معاوية وذلك بالكوفة أن يأمر الحسن فيقوم فيخطب الناس ، فكره ذلك معاوية ، وقال : ما أريد أن يخطب ، قال عمرو : لكني أريد أن يبدو عيٌّ فى الناس بأنه يتكلم فى أمور لا يدرى ما هى ، ولم يزل به حتى أطاعه ؛ فخرج معاوية فخطب الناس ، وأمر رجلا أن ينادى بالحسن بن على ، فقام إليه ، فقال : قم ياحسن فكلم الناس ، فتشهد فى بديهته ، ثم قال : أما بعد أيها الناس ؛ فان الله هدا كم بأولنا ، وحقن دماءكم بآخرنا ، و إن لهذا الأمر مدة ، والدنيا دول قال الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : (قل إن أدرى أقريب أم بعيد ماتوعدون إنه يعلم الجهر من القول و يعلم ماتكتمون و إن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين) ثم قال فى كلامه ذلك : ياأهل الكوفة ، لم تذهب نفسى عنكم إلا لثلاث خصال : أذهلت مقتلكم لأبى ، وسلبكم ثقلى ، وطعنكم فى بطنى ، و إنى قد بايعت معاوية فاسمعوا له وأطيعوا

وقد كان أهل الكوفة انتهبوا سرادق الحسن ورحله ، وطعنوا بالخنجر فى جوفه ، فلما تيقن مانزل به انقاد إلى الصلح

خطبة للحسن فى حياة أبيه

وقد كان على رضى الله عنه وكرم الله وجهه اعتلّ فأمر ابنه الحسن رضى الله عنه أن يصلى بالناس يوم الجمعة ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن الله لم يبعث نبيا إلا اختاره نفسا ورهطا و بيتا ، فوالذى بعث محمدا بالحق لاينتقص من حقنا أهل البيت أحد إلا نقصه الله من عمله مثله ، ولا يكون علينا دولة إلا وتكون لنا العاقبة ، ولتعلمن نبأه بعد حين

خطبة أخرى للحسن

ومن خطب الحسن رضى الله عنه فى أيامه فى بعض مقاماته أنه قال : نحن حزب الله المفلحون ، وعترة رسول الله صلى الله عليه وسلم الأقربون ، وأهل بيته

الطاهرون الطيبون ، وأحد الثقلين اللذين خلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والثانى كتاب الله فيه تفصيل كل شىء لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والمعول عليه فى كل شىء ، لا يخطئنا تأويله ، بل نتيقن حقائقه ، فأطيعونا فإطاعتنا مفروضة إذ كانت بطاعة الله والرسول وأولى الأمر مقرونة (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول . . . . ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) وأحذركم الاصغاء لهتاف الشيطان إنه لكم عدو مبين فتكونون كأوليائه الذين قال لهم : (لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون) فتلقون للرماح أزرا ، وللسيوف جزرا ، وللعمد خطأ ، وللسهام غرضا ، ثم لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا ، والله أعلم

ذكر خلافة معاوية بن أبى سفيان

زمان بيعته ووفاته ومدفنه

بويع معاوية فى شوال سنة إحدى وأربعين ببيت المقدس ، فكانت أيامه تسع عشرة سنة وثمانية أشهر ، وتوفى فى رجب سنة إحدى وستين ، وله ثمانون سنة ، ودفن بدمشق بباب الصغير ، وقبره يزار فى هذا الوقت - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة - وعليه بيت مبنى يفتح كل يوم اثنين وخميس

ذكر لمع من أخباره وسيره ونوادر من بعض أفعاله

مقتل حجر ابن عدى الكندى

وفى سنة ثلاث وخمسين قَتَلَ معاويةُ حجرَ بن عدى الكندى ، وهو أول من قتل صبرا فى الاسلام : حمله زياد من الكوفة ومعه تسعة نفر من أصحابه من أهل الكوفة وأربعة من غيرها ، فلما صار على أميال من الكوفة يراد به دمشق أنشأت ابنته تقول ولا عقب له من غيرها :

ترفع أيها القمر المنير لعلك أن ترى حجرا يسيرُ
يسير إلى معاوية بن حرب ليقتله ، كذا زعم الأمير
ويصلبه على بابى دمشق وتأكل من محاسنه النسور

تجبرت الجبابر تخيرت الجبائر بعد حجر وطاب لها الخورنق والسدير

ألا يا حجر حجر بنى عدى تلقتك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أرْدَى عليًّا وشَيْخًا فى دمشق له زئير
ألا ياليت حجرا مات موتا ولم يُنْحَرْ كما نُحِرَ البعير
فان تهلك فكل عميد قوم إلى هُلْكٍ من الدنيا يصير

ولما صار إلى مرج عذراء على اثنى عشر ميلا من دمشق تقدم البريد بأخبارهم إلى معاوية ، فبعث برجل أعور ، فلما أشرف على حجر وأصحابه قال رجل منهم : إن صدق الزجر فانه سيقتل منا النصف وينجو الباقون ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : أما ترون الرجل المقبل مصابا باحدى عينيه ، فلما وصل إليهم قال لحجر : إن أمير المؤمنين أمرنى بقتلك يارأس الضلال ومعدن الكفر والطغيان والمتولى لأبى تراب وقتل أصحابك ، إلا أن ترجعوا عن كفركم وتلعنوا صاحبكم وتتبرؤا منه ، فقال حجر وجماعة ممن كان معه : إن الصبر على حد السيف لأيسر علينا مما تدعونا إليه ، ثم القدوم على الله وعلى نبيه وعلى وصيه أحب إلينا من دخول النار ، وأجاب نصف من كان معه إلى البراءة من على ، فلما قدم حجر ليقتل قال : دعونى أصلى ركعتين ، فجعل يطول فى صلاته ، فقيل له : أجزعا من الموت ؟ فقال : لا ولكنى ما تطهرت للصلاة قط إلا صليت ، وما صليت قط أخف من هذه ، وكيف لا أجزع وإنى لأرى قبرا محفورا ، وسيفا مشهوراً ، ثم قدم فنحر ، وألحق به من وافقه على قوله من أصحابه ، وقيل : إن قتلهم كان فى سنة خمسين .

معاوية وعدى ابن حاتم الطائى

وذكر أن عدى بن حاتم الطائى دخل على معاوية ، فقال له معاوية : مافعلت الطرفات ؟ يعنى أولاده ، قال : قتلوا مع على ، قال : ما أنصفك على قَتْل أولادك و بقاء أولاده ، فقال عدى : ماأنصفك على إذ قتل و بقيت بعده ، فقال معاوية : أما إنه قد بقى قطرة من دم عثمان ما يمحوها إلا دم شريف من أشراف اليمن ، فقال عدى : والله إن قلوبنا التى أبغضناك بها لفى صدورنا ، و إن أسيافنا التى قاتلناك بها لعلى عواتقنا ، ولئن أدنيت إلينا من الغدر قتراً لندنين إليك من الشر شبرا ، و إن حزّ الحلقوم وحَشْرَجة الحيزوم لأهون علينا من أن نسمع المساءة فى على ، فسلم السيف يامعاوية لباعث السيف ، فقال معاوية : هذه كلمات حكم فاكتبوها ، وأقبل على عدى محادثا له كأنه ما خاطبه بشىء .

تنازع أسامة ابن زيد وعمرو ابن عثمان بن عفان إلى معاوية فحكم لأسامة

وذكر أن معاوية بن أبى سفيان تنازع إليه عمرو بن عثمان بن عفان وأسامة ابن زيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أرض ، فقال عمرو لأسامة : كأنك تنكرنى ، فقال أسامة : ما يسرنى نسبك بولائى ، فقام مروان بن الحكم فجلس إلى جانب الحسن ، وقام عبد الله بن عامر فجلس إلى جانب أسامة ، فقام سعيد بن العاص فجلس إلى جانب مروان ، فقام الحسين فجلس إلى جانب الحسن وقام عبد الله بن عامر فجلس إلى جانب سعيد ، فقام عبد الله بن جعفر فجلس إلى جانب الحسين ، وقام عبد الرحمن بن الحكم فجلس إلى جانب ابن عامر ، فقام عبد الله بن العباس فجلس إلى جانب ابن جعفر ، فلما رأى ذلك معاوية قال : لا تعجلوا ، أنا كنت شاهدا إذ أقطعها رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة ، فقام الهاشميون فخرجوا ظاهرين ، وأقبل الأمويون عليه فقالوا : ألا كنت أصلحت بيننا ، قال : دعونى فوالله ما ذكرت عيونهم تحت المغافر بصفين إلا لبس على عقلى ، و إن الحرب أولها نجوى ، وأوسطها شكوى ، وآخرها بلوى ، وتمثل بأبيات امرىء القيس المتقدمة فى هذا الكتاب فى أخبار عمر رضى الله عنه ، وأولها :

الحرب أول ما تكون فتية تدنو بزينتها لكل جهول

ثم قال : مافى القلوب يشب الحروب ، والأمر الكبير يدفعه الأمر الصغير ، وتمثل : —

قد يلحق الصغير بالجليل وإنما القَرْمُ من الأفيلِ

* وتسحق النخل من الفسيل *

إلحاق معاوية زيادا بنسب أبى سفيان

قال المسعودى : ولما هم معاوية بإلحاق زياد بأبى سفيان أبيه — وذلك فى سنة أربعين — شهد عنده زياد بن أسماء الحرمازى ومالك بن ربيعة السلولى والمنذر ابن الزبير بن العوام أن أبا سفيان أخبر أنه ابنه ، وأن أبا سفيان قال لعلى عليه السلام حين ذكر زياد عند عمر بن الخطاب : —

أما والله لولا خوف شخص يرانى يا علىُّ من الأعادى
لبيَّنَ أمره صخر بن حرب ولم يكن المحجم عن زياد (١)
ولكنى أخاف صروف كف لها نقم ونَفْيى عن بلادى
فقد طالت محاولتى ثقيفا وتركى فيهم ثمر الفؤاد

ثم زاده يقيناً إلى ذلك شهادة أبى مريم السلولى ، وكان أخبر الناس ببدء الأمر ، وذلك أنه جمع بين أبى سفيان وسُمَيَّة أم زياد فى الجاهلية على زنا ، وكانت سُمَيَّة من ذوات الرايات بالطائف تُؤدَّى الضريبة إلى الحرث بن كلدة ، وكانت تنزل بالموضع الذى ينزل فيه البغايا بالطائف خارجا عن الحضر فى محلة يقال لها حارة البغايا .

سمية أم زياد

سبب إلحاق زياد بأبى سفيان

وكان سبب ادعاء معاوية فيما ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى أن عليا كان ولاّه فارس حين أخرج منها سهل بن حنيف ، فضرب زياد ببعضهم بعضا حتى غلب عليها ؛ وما زال يتنقل فى كورها حتى صلح أمر فارس ؛ ثم ولاه على إصطخر وكان معاوية يتهدده ؛ ثم أخذ بُسْر بن أرطاة عبيد الله وسلمان ولديه وكتب إليه يقسم ليقتلنهما إن لم يرجع ويدخل فى طاعة معاوية ويرده على عمله ؛ فقدم زياد على معاوية ؛ وكان المغيرة بن شعبة قال لزياد قبل قدومه على معاوية : ارم

(١) لعله « ولم يكن المجمجم عن زياد » .

الغرض الأقصى ودع عنك الفضول؛ فان هذا الأمر لا يمد إليه أحد يدا إلا الحسن ابن على ، وقد بايع لمعاوية ، فخذها لنفسك قبل التوطين ، قال زياد : فأشر علىّ ، قال : أرى أن تنقل أصلك إلى أصله ، وتصل حبلك بحبله ، وتعير الناس منك أذنا صماء ، فقال زياد : يا ابن شعبة ، أأغرس عودا فى غير منبته ولا مدرة فتحييه ولا عرق فيسقيه ، ثم إن زيادا عزم على قبول الدعوى وأخذ برأى ابن شعبة ، وأرسلت إليه جويرية بنت أبى سفيان عن أمر أخيها ، فأتاها فأذنت له وكشفت عن شعرها بين يديه ، وقالت : أنت أخى ، أخبرنى بذلك أبو مريم ، ثم أخرجه معاوية إلى المسجد ، وجمع الناس ، فقام أبو مريم السلولى فقال: أشهد أن أبا سفيان قدم علينا بالطائف وأنا خمار فى الجاهلية فقال : ابغنى بغيا ، فأتيته وقلت : لم أجد إلا جارية الحرث بن كلدة سُمَية ، فقال : ائتنى بها على ذفرها وقذرها ، فقال له زياد : مهلا يا أبا مريم ، إنما بعثت شاهدا ولم تبعث شاتما ، فقال أبو مريم : لو كنتم أعفيتمونى لكان أحب إلى ، وإنما شهدت بما عاينت ورأيت ، والله لقد أخذ بكم درعها وأغلقتُ الباب عليهما وقعدت دهشانا ؛ فلم ألبث أن خرج علىّ يمسح جبينه ، فقلت : مه يا أبا سفيان ، فقال : ما أصبت مثلها يا أبا مريم ، لو لا استرخاء من ثديها وذفر من فيها ، فقام زياد فقال : أيها الناس، هذا الشاهد قد ذكر ما سمعتم ، ولست أدرى حق ذلك من باطله ، وإنما كان أبو عبيد عبد بنيا مبرورا أو وليا مشكورا ، والشهود أعلم بما قالوا ، فقام يونس بن عبيد أخو صفية بنت عبيد بن أسد بن علاج الثقفى — وكانت صفية مولاة سمية — فقال : يامعاوية ، قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الولد للفراش وللعاهر الحجر ، وقضيت أنت أن الولد للعاهر وأن الحجر للفراش ، مخالفة لكتاب الله تعالى ، وانصرافا عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بشهادة أبى مريم على زنا أبى سفيان ، فقال معاوية : والله يا يونس لتنتهين أو لأطيرن بك طيرة بطيئاً وقوعها ، فقال يونس : هل إلا إلى الله ثم أقع ؟ قال : نعم وأستغفر الله ، فقال

شهادة أبى مريم السلولى

اعتراض يونس ابن عبيد بن أسد على استلحاق معاوية لزياد

عبد الرحمن بن أم الحكم فى ذلك ، ويقال : إنه ليزيد بن مُفَرِّغ الحميرى : —

ألا أبلغ معاوية بن حرب مُغَلْغَلَةً عن الرجل اليمانى
أتغضب أن يقال : أبوك عف وترضى أن يقال : أبوك زانى
فأشهدُ أن رَحْمَكَ من زياد كَرَحْمِ الفيل من ولد الأتان

وفى زياد وإخوته يقول خالد النجارى : —

إن زيادا ونافعا وأبا بكرة عندى من أعجب العجب
إن رجالا ثلاثة خلقوا من رحم أنثى مخالفى النسب
ذا قرشى فيما يقول ، وذا مَوْلىً ، وذا ابن عمه عربى

ولما قتل على كرم الله وجهه كان فى نفس معاوية من يوم صفين على هاشم ابن عتبة بن أبى وقاص المرقال وولده عبد الله بن هاشم إحَنٌ ، فلما استعمل معاوية زيادا على العراق كتب إليه : أما بعد ، فانظر عبد الله بن هاشم بن عتبة ، فشُدَّ يده إلى عنقه ، ثم ابعث به إلى ، فحمله زياد من البصرة مقيدا مغلولا إلى دمشق ؛ وقد كان زياد طرقه بالليل فى منزله بالبصرة ، فأدخل إلى معاوية وعنده عمرو ابن العاص ، فقال معاوية لعمرو بن العاص : هل تعرف هذا ؟ قال : لا ، قال : هذا الذى يقول أبوه يوم صفين :

عبد الله بن هاشم بن عتبة وعمرو ابن العاص بين يدى معاوية

إنى شَرَيْتُ النفس لما اعتلاً وأكثر اللومَ وما أقلاً
أعْوَر يبغى أهله محلاً قد عالج الحياة حتى ملاً
لا بد أن يَفُلَّ أو يُفَلاً أُسلمهم بذى الكعوب سَلاً
لا خير عندى فى كريم وَلىً

فقال عمرو متمثلا : —

وقد يَنْبُتُ المَرْعَى على دِمَنِ الثرى وتَبْقَى حَزَازَاتُ النفوس كَمَاهِيَا

دونك يا أمير المؤمنين الضب الضب فاشخب أوداجه على أسباجه ، ولا ترده إلى أهل العراق ، فانه لا يصبر على النفاق ، وهم أهل غدر وشقاق ، وحزب إبليس ليوم هيجانه ، وإن له هوى سيوديه ، ورأيا سيطغيه ، و بطانة ستقويه ،

وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فقال عبد الله : ياعمرو ، إن أقتل فرجل أسلمه قومه ، وأدركه يومه ، أفلا كان هذا منك إذ تحيد عن القتال ونحن ندعوك إلى النزال ، وأنت تلوذ بشمال النطاف ، وعقائق الرصاف ، كالأمة السوداء ، والنعجة القوداء ، لا تدفع يد لامس ، فقال عمرو : أما والله لقد وقعت فى لهاذم شذقم للأقران ذى لبد ، ولا أحسبك منفلتا من مخاليب أمير المؤمنين ، فقال عبدالله : أما والله يا ابن العاص إنك لبطر فى الرخاء ، جبان عند اللقاء ، غشوم إذا وليت ، هيّاب إذا لقيت ، تهدر كما يهدر العود المنكوس المقيد بين مجرى الشول لا يستعجل فى المدة ولا يرتجى فى الشدة ، أفلا كان هذا منك إذ غمرك أقوام لم يعنفوا صغارا ، ولم يمزقوا كبارا ، لهم أيد شداد ، وألسنة حداد ، يدعمون العوج ، ويذهبون الحرج ، يكثرون القليل ، ويشفون الغليل ، ويعزون الذليل ، فقال عمرو : أما والله لقد رأيت أباك يومئذ تخفق أحشاؤه ، وتبق أمعاؤه ، وتضطرب أصلاؤه ، كأنما انطبق عليه ضمد ، فقال عبد الله : يا عمرو ، إنا قد بلوناك ومقالتك فوجدنا لسانك كذوبا غادرا ، خلوت بأقوام لا يعرفونك ، وجند لا يسأمونك ، ولو رمت المنطق فى غير أهل الشأم لجحظ إليك عقلك ، ولتلجلج لسانك ، ولاضطرب فخذاك اضطراب القعود الذى أثقله حمله ، فقال معاوية : أيها عنكما ، وأمر باطلاق عبد الله ، فقال عمرو لمعاوية : —

أمرتُكَ أمرًا حازما فعصيتنى ... وكان من التوفيق قتل ابن هاشم
أليس أبوه يا معاوية الذى ... أعان عليًّا يوم حزّ الغلاصم
فلم ينثنى حتى جرت من دمائنا ... بصفّين أمثال البحور الخضارم
وهذا ابنه والمرء يشبه شيخه ... ويوشك أن تقرع به سن نادم

فقال عبد الله يجيبه : —

معاوى إن المرء عمرًا أبتْ له ... ضغينةُ صدرٍ غشُّها غير نائم
يرى لك قتلى يا ابن هند ، وإنما ... يرى مايرى عمرٌو ملوك الأعاجم

على أنهم لا يقتلون أسيرهم ... إذا منعت منه عهود المسالم
وقد كان منا يوم صِفّين نقرة ... عليك جناها هاشم وابن هاشم
قضى ماقضى منها، وليس الذى مضى ... ولا ما جرى إلا كأضغاث حالم
فإن تَعْفُ عنى تَعْفُ عن ذى قرابة ... وإن تَرَ قَتْلِى تَسْتَحِلَّ محارمى

فقال معاوية : —

أرى العفو عن عليا قريش وسيلةً ... إلى الله فى يوم العصيب القماطر
ولستُ أرَى قتل العداة ابن هاشم ... بادراك ثارى فى لؤى وعامر
بل العفو عنه بعد ما بان جرمه ... وزلت به إحدى الجدود العواثر
فكان أبوه يوم صفين جمرة ... علينا فأردته رماح نهابر

عبد الله بن هاشم يفسر لمعاوية الجود والنجدة والمروءة

وحضر عبد الله بن هاشم ذات يوم مجلس معاوية ، فقال معاوية : من يخبرنى عن الجود والنجدة والمروءة ؟ فقال عبد الله : يا أمير المؤمنين ، أما الجود فابتذال المال ، والعطية قبل السؤال ، وأما النجدة فالجراءة على الإقدام ، والصبر عند ازورار الأقدام ، وأما المروءة فالصلاح فى الدين ، والإصلاح للحال ، والمحاماة عن الجار

كتاب من محمد ابن أبى بكر إلى معاوية

ولما صرف على رضى الله عنه قيس بن سعد بن عبادة عن مصر وَجَّه مكانه محمد بن أبى بكر ، فلما وصل إليها كتب إلى معاوية كتابا فيه : من محمد بن أبى بكر ، إلى الغاوى معاوية بن صخر ، أما بعد ؛ فان الله بعظمته وسلطانه خلق خلقه بلا عبث منه ، ولا ضعف فى قوته ، ولا حاجة به إلى خلقهم ؛ لكنه خلقهم عبيدا ، وجعل منهم غويا ورشيدا ، وشقيا وسعيدا ، ثم اختار على علم واصطفى وانتخب منهم محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ فانتخبه لعلمه ، واصطفاه لرسالته ، وائتمنه على وحيه ، وبعثه رسولا ومبشرا ونذيرا ، فكان أول من أجاب وأناب وآمن وصدق وأسلم وسلم أخوه وابن عمه على بن أبى طالب : صدقه بالغيب المكتوم ، وآثره على كل حميم ، ووقاه بنفسه كل هول ، وحارب حربه

وسالم سلمه ، فلم يبرح مبتذلا لنفسه فى ساعات الليل والنهار والخوف والجوع والخضوع حتى برز سابقاً لا نظير له فيمن اتبعه ، ولا مقارب له فى فعله ، وقد رأيتك تساميه وأنت أنت ، وهو هو أصدق الناس نية ، وأفضل الناس ذرية ، وخير الناس زوجة ، وأفضل الناس ابن عم : أخوه الشارى بنفسه يوم مؤتة ، وعمه سيد الشهداء يوم أحد ، وأبوه الذاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن حَوْزته ، وأنت اللعين ابن اللعين : لم تزل أنت وأبوك تَبْغِيان لرسول الله صلى الله عليه وسلم الغوائل ، وتجهدان فى إطفاء نور الله ، تجمعان على ذلك الجموع ، وتبذلان فيه المال ، وتؤلّبان عليه القبائل ، وعلى ذلك مات أبوك ، وعليه خلفته ، والشهيد عليك من تدنى ويلجأ إليك من بقية الأحزاب ورؤساء النفاق ، والشاهد لعلى مع فضله المبين القديم أنصاره الذين معه الذين ذكرهم الله بفضلهم وأثنى عليهم من المهاجرين والأنصار ، وهم معه كتائب وعصائب ، يرون الحق فى اتباعه والشقاء فى خلافه ، فكيف يالك الويل تعدل نفسك بعلى وهو وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ووصيه وأبو ولده : أول الناس له اتباعا ، وأقربهم به عهدا ، يخبره بسره ، ويطلعه على أمره ، وأنت عدوه وابن عدوه ، فتمتع فى دنياك ما استطعت بباطلك ، وليمددك ابن العاص فى غوايتك ، فكأن أجلك قد انقضى ، وكيدك قد وهى ، ثم يتبين لك لمن تكون العاقبة العليا ، واعلم أنك إنما تكايد ربك الذى آمنك كيده ويئست من رَوْحه فهو لك بالمرصاد ، وأنت منه فى غرور ، والسلام على من اتبع الهدى

جواب معاوية على كتاب محمد بن أبى بكر

فكتب إليه معاوية : من معاوية بن صخر ، إلى الزارى على أبيه محمد بن أبى بكر ، أما بعد فقد أتانى كتابك تذكر فيه ما الله أهله فى عظمته وقدرته وسلطانه ، وما اصطفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، مع كلام كثير لك فيه تضعيف ، ولأبيك فيه تعنيف ، ذكرت فيه فضل ابن أبى طالب ، وقديم سوابقه ، وقرابته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومواساته إياه فى كل

هول وخوف ، فكان احتجاجك علىّ وعيبك لى بفضل غيرك لا بفضلك ، فاحمد ربا صرف هذا الفضل عنك وجعله لغيرك ، فقد كنا وأبوك فينا نعرف فضل ابن أبى طالب وحقه لازما لنا مبرورا علينا ، فلما اختار الله لنبيه عليه الصلاة والسلام ما عنده وأتم له ما وعده وأظهر دعوته فأبلج حجته وقبضه الله إليه صلوات الله عليه كان أبوك وفاروقه أول من ابتزه حقه ، وخالفه على أمره ، على ذلك اتفقا واتسقا ، ثم إنهما دعواه إلى بيعتهما فأبطأ عنهما وتلكأ عليهما ، فهمّا به الهموم ، وأرادا به العظيم ، ثم إنه بايع لهما وسلم لهما ، وأقاما لا يشركانه فى أمرهما ولا يطلعانه على سرهما ، حتى قبضهما الله ، ثم قام ثالثهما عثمان فهدى بهديهما ، وسار بسيرهما ، فعبته أنت وصاحبك حتى طمع فيه الأقاصى من أهل المعاصى ، فطلبتما له الغوائل ، وأظهرتما عداوتكما ، حتى بلغتما فيه مناكما ، فخذ حذرك يا ابن أبى بكر ، وقس شبرك بفترك يقصر عن أن توازى أو تساوى من يزن الجبال بحلمه ، لا يلين عن قَسْرٍ قَنَاتَه ، ولا يدرك ذو مقال أناته ، مهد مهاده ، وبنى لملكه وشاده ، فان يك ما نحن فيه صوابا فأبوك استبدّ به ونحن شركاؤه ، ولولا ما فعل أبوك من قبل ما خالفنا ابن أبى طالب ولسلمنا إليه ، ولكنا رأينا أباك فعل ذلك به من قبلنا فأخذنا بمثله ، فعب أباك بما بدا لك أو دع ذلك ، والسلام على من أناب

كتاب من معاوية إلى على

ومما كتب به معاوية إلى على : أما بعد فلو علمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض ، وإنا وإن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقى لنا منها ما نرد به ما مضى ، ونصلح به ما بقى ، وقد كنت سألتك الشأم على أن لا تلزمنى لك طاعة ، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس ، فإنك لا ترجو من البقاء إلا ما أرجو ، ولا تخاف من القتال إلا ما أخاف ، وقد والله رقّت الأجناد ، وذهبت الرجال ، ونحن بنو عبد مناف ، وليس لبعضنا على بعض فضل يستذل به عزيز ويسترق به حر ، والسلام

جواب على عليه

فكتب إليه على كرم الله وجهه : من على بن أبى طالب إلى معاوية بن

أبى سفيان ، أما بعد ؛ فقد جاءنى كتابك تذكر فيه أنك لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض ، وأنا وإياك نلتمس منها غاية لم نبلغها بعد ، فأما طلبك منى الشأم فإنى لم أكن أعطيك اليوم مامنعتك أمس ، وأما استواؤنا فى الخوف والرجاء فلست بأمضى على الشك منى على اليقين ، وليس أهل الشأم على الدنيا بأحرص من أهل العراق على الآخرة ، وأما قولك نحن بنو عبد مناف فكذلك نحن ، وليس أمية كهاشم ، ولا حرب كعبد المطلب ، ولا أبو سفيان كأبى طالب ، ولا الطليق كالمهاجر ، ولا المبطل كالمحق ، وفى أيدينا فضل النبوة التى قتلنا بها العزيز وبعنا بها الحر ، والسلام

معاوية يقع فى على بمكة فينهاه سعد ويذكر فضل على

وحدث أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، عن محمد بن حميد الرازى ، عن أبى مجاهد ، عن محمد بن إسحق ، عن ابن أبى نجيح ، قال : لما حج معاوية طاف بالبيت ومعه سعد ، فلما فرغ انصرف معاوية إلى دار الندوة ، فأجلسه معه على سريره ، ووقع معاوية فى على ، وشرع فى سبه ، فزحف سعد ثم قال : أجلستنى معك على سريرك ثم شرعت فى سب على ، والله لأن يكون فىَّ خصلة واحدة من خصال كانت لعلى أحب إلى من أن يكون لى ماطلعت عليه الشمس ، والله لأن أكون صهرا لرسول صلى الله عليه وسلم لى من الولد ما لعلى أحب إلى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس ، والله لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى ما قاله يوم خيبر « لأعطين الراية غداً رجلا يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله ليس بفرار يفتح الله على يديه » أحبُّ إلى من أن يكون لى ماطلعت عليه الشمس ، والله لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى ماقال له فى غزوة تبوك « ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى » أحبُّ إلى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس ، وأيم الله لادخلت لك دارا ما بقيت ، ونهض .

ووجدت فى وجه آخر من الروايات ، وذلك فى كتاب على بن محمد بن سليمان

النوفلى فى الأخبار ، عن ابن عائشة وغيره ، أن سعداً لما قال هذه المقالة لمعاوية ونهض ليقوم ضرطه معاوية ، وقال له : اقعد حتى تسمع جواب ماقلت ، ما كنت عندى قط ألأم منك الآن ؛ فهلا نصرته ، ولم قعدت عن بيعته ، فانى لو سمعت من النبى صلى الله عليه وسلم مثل الذى سمعت فيه لكنت خادما لعلى ما عشت ، فقال سعد : والله إنى لأحق بموضعك منك ، فقال معاوية : يأبى عليك بنو عذرة ؛ وكان سعد فيما يقال لرجل من بنى عذرة ، قال النوفلى : وفى ذلك يقول السيد محمد الحميرى : —

السيد محمد الحميرى يمدح عليا

سائل قريشا بها إن كنت ذا عَمَهٍ ... من كان أثبتَهَا فى الدين أوتادا

من كان أقدَمَهَا سلما ، وأكثرها ... علما ، وأطهرها أهلاً وأولادا

من وَحَّدَ الله إذ كانت مكذبة ... تدعو مع الله أوثانا وأندادا

من كان يقدم فى الهيجاء إن نكلوا ... عنها ، وإن بخلوا فى أزمة جادا

من كان أعدلها حكما ، وأقسطها ... حلما ، وأصدقها وَعْداً وإيعادا

إن يصدقوك فلم يعدوا أبا حسن ... إن أنت لم تلق للأبرار حُسَّادا

إن أنت لم تَلْقَ من تَيْمٍ أخا صلفٍ ... ومِنْ عَدِيٍّ لحقِّ الله جُحَّادا

أو مِنْ بنى عامر ، أو من بنى أسد ... رهط العبيد ذوى جهل وأوغادا

أو رهط سعد ، وسعد كان قد علموا ... عن مُسْتَقِيمِ صراطِ الله صَدَّادا

قوم تَدَاعَوْا زنيماً ثم سادهم ... لولا خمول بنى زهر لما سادا

بعض القاعدين عن نصرة على

وكان سعد وأسامة بن زيد وعبد الله بن عمر ومحمد بن سلمة ممن قعد عن على بن أبى طالب ، وأبوا أن يبايعوه هم وغيرهم ممن ذكرنا من القعاد عن بيعته ، وذلك أنهم قالوا : إنها فتنة ، ومنهم من قال لعلى : أعطنا سيوفا نقاتل بها معك فاذا ضربنا بها المؤمنين لم تعمل فيهم ونبت عن أجسامهم وإذا ضربنا بها الكافرين سرت فى أبدانهم ، فأعرض عنهم على ، وقال : (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) .

وذكر أبو مخنف لوط بن يحيى وغيره من الأخبار بين أن الأمر لما أفضى إلى معاوية أتاه أبو الطفيل الكنانى فقال له : كيف وَجْدك على خليلك أبى الحسن ؟ قال : كوجد أم موسى على موسى ، وأشكو إلى الله التقصير ، فقال معاوية : أكنت فيمن حضر قتل عثمان ؟ قال : لا ، ولكنى فيمن حضر فلم ينصره ، قال : فما منعك من ذلك وقد كانت نصرته عليك واجبة ؟ قال : منعنى ما منعك إذ تَرَبَّصُ به ريب المنون وأنت بالشأم ، قال : أو ما ترى طلبى بدمه نصرة له ؟ قال : بلى ، ولكنك وإياه كما قال الجعدى : —

أبو الطفيل الكنانى ومعاوية

لأُلْفِيَنَّكَ بعد الموت تَنْدُبُنى ... وفى حياتى ما زَوَّدْتَنِى زادا

ودخل على معاوية ضرار بن الخطاب فقال له : كيف حزنك على أبى الحسن ؟ قال : حزن من ذبح ولدها على صدرها فما ترقأ عبرتها ولا يسكن حزنها

ضرار بن الخطاب

ومما جرى بين معاوية وبين قيس بن سعد بن عبادة حين كان عاملا على مصر فكتب إليه معاوية : أما بعد فانك يهودى ابن يهودى ، وإن ظفر أحب الفريقين إليك عَزَلَكَ واستبدل بك ، وإن ظفر أبغضهما إليك نكل بك وقتلك ، وقد كان أبوك أوتر قوسه ، ورمى غرضه ، فأكثر الجد وأخطأ القصد ، فخذله قومه ، وأدركه يومه ، ثم مات بحوران طريدا

كتاب معاوية لقيس بن سعد ابن عبادة

فكتب إليه قيس بن سعد : أما بعد ؛ فانما أنت وَثَنِىٌّ ابن وثنى ، دخلت فى الاسلام كرها ، وخرجت منه طوعا ، لم يقدم إيمانك ، ولم يحدث نفاقك ، وقد كان أبى أوتر قوسه ، ورمى غرضه ، فشعب به من لم يبلغ عقبه ، ولا شق غباره ، ونحن أنصار الدين الذى منه خرجت ، وأعداء الدين الذى فيه دخلت

جواب قيس على معاوية

ودخل قيس بن سعد بعد وفاة على ووقوع الصلح فى جماعة من الأنصار على معاوية ، فقال لهم معاوية : يا معشر الأنصار ، بم تطلبون ما قبلى ؟ فوالله لقد كنتم قليلا معى كثيرا على ، ولفللتم حدى يوم صفين حتى رأيت المنايا تلظى فى أسنتكم ، وهجوتمونى فى أسلافى بأشد من وقع الأسنة ، حتى إذا أقام الله ما حاولتم

قيس بن سعد والأنصار عند معاوية

ميله قلتم ارْعَ وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هيهات يأبى الحقير الغدرة ، فقال قيس : نطلب ما قبلك بالاسلام الكافى به الله ، لا بما تمتُّ به إليك الأحزاب ، وأما عداوتنا لك فلو شئت كففتها عنك ، وأما هجاؤنا إياك فقول يزول باطله و يثبت حقه ، وأما استقامة الأمر فعلى كره كان منا ، وأما فَلُّنَا حَدَّك يوم صفين فانا كنا مع رجل نرى طاعته لله طاعة ، وأما وصية رسول الله بنا فمن آمن به رعاه بعده ، وأما قولك يأبى الحقير الغدرة فليس دون الله يد تحجزك منا يا معاوية ، فقال معاوية يُمَوِّه : ارفعوا حوائجكم

ورع قيس بن سعد بن معاذ

وقد كان قيس بن سعد من الزهد والديانة والميل إلى على بالموضع العظيم ، و بلغ من خوفه الله وطاعته إياه أنه كان يصلى فلما أهوى للسجود إذا فى موضع سجوده ثعبان عظيم مُطْرِق ، فمال عن الثعبان برأسه ، وسجد إلى جانبه ، فتطوق الثعبان برقبته ، فلم يقصر من صلاته ولا نقص منها شيئا ، حتى فرغ ، ثم أخذ الثعبان فرمى به ، كذلك ذكر الحسن بن على بن عبد الله بن المغيرة عن معمر ابن خلاد عن أبى الحسن على بن موسى الرضا

عتب عمرو على معاوية

وقال عمرو بن العاص لمعاوية ذات يوم : قد أعيانى أن أعلم أجبان أنت أم شجاع ؛ لأنى أراك تتقدم حتى أقول أراد القتال ، ثم تتأخر حتى أقول : أراد الفرار ، فقال له معاوية : والله ما أتقدم حتى أرى التقدم غنما ، ولا أتأخر حتى أرى التأخر حزما ، كما قال القَطامى : —

شجاع إذا ما أمْكَنَتْنِى فرصةٌ ... وإلا تكن لى فرصة فَجَبَانُ

شجاعة العباس ابن ربيعة

وذكر أبو مخنف لوط بن يحيى عن أبى الأغر التيمى ، قال بينا أنا واقف بصفين إذ مر العباس بن ربيعة مغفرا بالسلاح ، وعيناه تبصّان من تحت المغفر كأنهما شعلتا نار أو عينا أرْقَمَ ، و بيده صفيحة له يمانية يقلبها ، والمنايا تلوح فى شفرتها ، وهو على فرس صَعْبٍ ؛ فبينا هو يبعثه و يمنعه و يلين من عريكته إذ هتف به هاتف يقال له غرار بن أدهم من أهل الشام : ياعباس ، هلم إلى النزال ،

قال : فالنزول إذا فانه إياس من الحياة ، فنزل إليه الشامى وهو يقول : —

إن تركبوا فركوب الخيل عادتنا أو تنزلون فانا معشر نزل

وثنى العباس وركه وهو يقول : —

الله يعلم أنا لا نحبكم ولا نلومكم أنْ لاَ تُحِبُّونَا

ثم عصر فضلات درعه فى محزمه يريد منطقته ودفع فرسه إلى غلام له أسود كأنى والله أنظر فلافل شعره ، ثم زحف كل واحد منهما إلى صاحبه ، وكف الفريقان أعنةَ الخيول ينظرون ما يكون من الرجلين ، فتكالحا بسيفيهما مَليًا نهارهما لا يصل واحد منهما إلى صاحبه لكمال لأمته ، إلى أن لحظ العباس وَهَنًا فى درع الشامى ، فأهوى إليه بيده وهتكه إلى ثَنْدُوَته ، ثم عاد لمحاولته ، وقد أفرج له مفتق الدرع ، فضربه العباس ضربة انتظم بها جوانح صدره ، فخر الشامى لوجهه ، فكبر الناس تكبيرة ارتجت لها الأرض من تحتهم ، وانساب العباس فى الناس ، فاذا قائل يقول من ورائى (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ـ الآية) فالتفت فاذا بعلى رضى الله عنه ، فقال : ياابن الأغر ، من المبارز لعدونا ؟ قلت : ابن أخيكم العباس بن ربيعة؛ قال : وإنه لهو العباس ؟ قلت : نعم ، فقال : ياعباس ، ألم أنهك وعبد الله بن عباس أن تحلا بمركز أوتبارزا أحدا ؟ قال : إن ذلك كما قلت ، قال على : فما عدا فيما بدا ؟ قال : أفأدعى إلى البراز فلا أجيب ؟ قال : طاعة إمامك أولى بك من إجابة عدوك ، وتغيَّظَ واستطار ، ثم تطامن وسكن ورفع يديه مبتهلا ، فقال : اللهم أشكر للعباس مقامه ، واغفر ذنبه ، اللهم إنى قد غفرت له فاغفرله ؛ وتأسف معاوية على غرار بن أدهم ، وقال : متى ينطف فحل بمثله أبطل دمه ، لاها الله ، ألا رجل يشرى نفسه يطلب بدم غرار ، فانتدب له رجلان من لخم من أهل البأس ومن صناديد الشأم ، فقال : اذهبا فأيكما قتل العباس فله مائة أوقية من التبر ومثلها

من اللجين و بعددهما من برود اليمن ، فأتياه فدعواه إلى البراز ، وصاحا بين الصفين : يا عباس ياعباس ، ابرز إلى الداعى ، فقال : إن لى سيدا أريد أن أؤامره ، فأتى عليا وهو فى جناح الميمنة يحرض الناس ، فأخبره الخبر ، فقال على : والله يود معاوية أنه ما بقى من بنى هاشم نافخ ضرمة إلا طعن فى بطنه إطفاء لنور الله (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) أما والله ليملكنكم منا رجال ورجال يسومونهم سوم الخسف حتى تعفو الآثار ، ثم قال : ياعباس ، ناقلنى سلاحك بسلاحى ، فناقله ، ووثب على فرس العباس ، وقصد اللخميين ، فلم يشكا أنه العباس ، فقالا له : أذن لك صاحبك ، فتحرج أن يقول نعم ، فقال : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا و إن الله على نصرهم لقدير) وكان العباس أشبه الناس فى جسمه وركوبه بعلى ، فبرز له أحدهما فما أخطأه ، ثم برز له الآخر فألحقه بالأول ، ثم أقبل وهو يقول : (الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) ثم قال : يا عباس ، خذ سلاحك وهات سلاحى ، فان عاد لك أحد فعدلى ، ونما الخبر إلى معاوية ، فقال : قبح الله اللجاج إنه لعقور ما ركبته قط إلا خذلت ، فقال عمرو بن العاص : المخذول والله اللخميان ، والمغرور من غررته ، لا أنت المخذول ، قال : اسكت أيها الرجل فليس هذا من شأنك ، قال : و إن لم يكن رحم الله اللخميين ولا أراه يفعل ، قال : ذلك والله أضيق لحجتك ، وأخسر لصفقتك ، قال : قد علمت ذلك ولولا مصر وولايتها لركبت المنجاة منها فانى أعلم أن على بن أبى طالب على الحق وأنا على ضده ، فقال معاوية : مصر والله أعمتك ، ولولا مصر لألفيتك بصيرا ، ثم ضحك معاوية ضحكا ذهب به كل مذهب ، قال : مم تضحك يا أمير المؤمنين أضحك الله سنك ؟ قال : أضحك من حضور ذهنك يوم بارزت عليا ، و إبدائك سوأتك ، أما والله ياعمرو لقد واقعت المنايا ، ورأيت الموت عيانا ، ولو شاء لقتلك ولكن أبى ابن أبى طالب فى قتلك إلا تكرما ، فقال عمرو : أما والله إنى لعن

يمينك حين دعاك إلى البراز فاحْوَلَّتْ عيناك ، و بدا سَحْرُك ، و بدامنك ما أكره ذكره لك من نفسك ، فاضحك أودع .

معاوية يخرج للحرب فيجيئه على فيهرب منه

وذكر أبو مخنف لوط بن يحيى أن معاوية برز فى بعض أيام صفين أمام الناس وكر على ميسرة على ، وكان على فيها فى ذلك الوقت يعبى الناس ، فغير على لأمته وجواده ، وخرج بلأمة بعض أصحابه ، وصمد له معاوية ، فلما تدانيا انتبه معاوية فغمز برجليه على جواده وعلى وراءه ، حتى فاته ودخل فى مصاف أهل الشأم ، فأصاب على رجلا من مصافهم دونه ، ثم رجع وهو يقول : —

يالَهْفَ نفسى فاتَنِى مُعَاويه فوق طِمِرٍّ كالعُقَاب الضاريه

قدوم عمرو من مصر على معاوية

وقدم عمرو بن العاص من مصر على معاوية فى بعض الأيام ، فلما رآه معاوية قال :

يموت الصالحون وأنْتَ حَىٌّ تخطاك المنايا لا تموت

فأجابه عمرو :

فلست بميت ما دُمْتَ حيا ولستُ بميت حتى تموت

تعبئة على لجيوشه

وذكر أن معاوية لما نظر إلى عساكر أهل العراق — وقد أشرفت ، وأخذت الرجال مراتبها من الصفوف — ونظر إلى على على فرس أشقر حاسر الرأس يرتب الصفوف كأنه يغرسهم فى الأرض غرسا فيثبتون كأنهم بنيان مرصوص قال لعمرو : يا أبا عبد الله أما تنظر إلى ابن أبى طالب وماهو عليه ؟ فقال له عمرو : من طلب عظيما خاطر بعظيم .

معاوية يبعث الى المدينة بسر بن أرطاة ثم إلى مكة واليمن

وقد كان معاوية فى سنة أربعين بعث بُسْرَ بن أرطاة فى ثلاثة آلاف حتى قدم المدينة وعليها أبو أيوب الأنصارى ، فتنحى ، وجاء بسر حتى صعد المنبر وتهدد أهل المدينة بالقتل ، فأجابوه إلى بيعة معاوية ، و بلغ الخبر عليا فأنفذ حارثة ابن قدامة السعدى فى ألفين ووهب بن مسعود فى ألفين ، ومضى بسر إلى مكة ثم سار إلى اليمن ، وكان عبد الله بن العباس بها ، فخرج عنها ولحق بعلى

واستخلف عليها عبد الله بن عبد المدان الحارثى ، وخلف ابنيه عبد الرحمن وقثم عند أمهما جويرية بنت فارط الكنانية ، فقتلهما بسر وقتل معهما خالاً لهما من ثقيف ، وقد كان بسر بن أرطاة العامرى عامر بن لؤى بن غالب قتل بالمدينة و بين المسجدين خلقا كثيرا من خزاعة وغيرهم ، وكذلك بالجرف قتل بها خلقا كثيرا من رجال همدان ، وقتل بصنعاء خلقا كثيرا من الأبناء ، ولم يبلغه عن أحد أنه يمالىء علياأو يهواه إلا قتله ، ونما إليه خبرحارثة بن قدامة السعدى فهرب ، وظفر حارثة بابن أخى بسر مع أربعين من أهل بيته فقتلهم ، وكانت جويرية أم ابنى عبد الله بن العباس اللذين قتلهما بسر تدور حول البيت ناشرة شعرها وهى من أجمل الناس وهى تقول ترثيهما : —

هامن أحس من ابنى اللذين هما ... كالدرتين تشظّى عنهما الصَّدَفُ
هامن أحس من ابنى اللذين هما ... سَمْعى وقلبى فعقلى اليوم مُختَطَفُ
هامن أحس من ابنى اللذين هما ... مُخُّ العظام فمخّى اليوم مزدهف
نُبِّئْتُ بُسْرًا ، وماصدَّقت مازعموا ... من قولهم ومن الإفك الذين وصفوا ،
أنْحَى على وَدِجَىْ ابنىَّ مُرْهَفَةً ... مشْحُوذة ، وكذاك الإثم يقْتَرفُ

اجتمع معاوية وعمرو وغلامه فتذاكروا ما بقى مما يشتهونه

وذكر الواقدى قال : دخل عمرو بن العاص يوما على معاوية بعد ما كبر ودق ، ومعه مولاه وردان ، فأخذا فى الحديث ، وليس عندهما غير وردان ، فقال عمرو : يا أمير المؤمنين ، مابقى مماتستلذه ؟ فقال : أما النساء فلا أرَبَ لى فيهن ، وأما الثياب فقد لبست من لينها وجيدها حتى وَهَى بها جلدى فما أدرى أيها ألين ، وأما الطعام فقد أكلت من لينه وطيبه حتى ما أدرى أيه ألذ وأطيب ، وأما الطيب فقد دخل خياشيمى منه حتى ما أدرى أيُّهُ أطيب ، فما شىء ألذ عندى من شراب بارد فى يوم صائف ، ومن أن أنظر إلى بنىَّ وبَنِى بنىَّ يدورون حولى ؛ فما بقى منك يا عمرو ؟ قال : مال أغرسه فأصيب من ثمرته ومن غلته ، فالتفت معاوية إلى وردان فقال : ما بقى منك يا وردان ؟ قال : صنيعة كريمة سنية أعلقها

فى أعناق قوم ذوى فضل وأخطار لا يكافؤنى بها حتى ألقى الله تعالى وتكون لعقبى فى أعقابهم بعدى ، فقال معاوية : تبا لمجلسنا سائر اليوم ، إن هذا العبد غلبنى وغلبك

وفاة عمرو

وفى سنة ثلاث وأربعين مات عمرو بن العاص بن وائل بن سهم بن سعيد ابن سعد بمصر ، وله تسعون سنة ، وكانت ولايته مصر عشر سنين وأربعة أشهر ولما حضرته الوفاة قال : اللهم لا براءة لى فأعتذر ، ولا قوة لى فأنتصر ، أمرتنا فعصينا ، ونهيتنا فركبنا ؛ اللهم هذه يدى إلى ذقنى ، ثم قال : خذُّوا لى فى الأرض خدًّا ، وسنوا على التراب سنا ، ثم وضع أصبعه فى فيه حتى مات . وصلى عليه ابنه عبد الله يوم الفطر ؛ فبدأ بالصلاة عليه قبل صلاة العيد ، ثم صلى بالناس بعد ذلك صلاة العيد ، وكان أبوه من المستهزئين ، وفيه نزلت (إن شانئك هو الأبتر)

تركة عمرو

وولّى معاوية ابنه عبد الله بن عمرو ما كان لأبيه ، وخلف عمرو من العين ثلثمائة ألف دينار وخمسة وعشرين ألف دينار ، ومن الورق ألفى ألف درهم ، وضيعته المعروفة بالرهط قيمتها عشرة آلاف درهم ، وفيه يقول ابن الزبير الأسدى الشاعر من أبيات : —

ألم تر أن الدهر أخنت صروفه ... على عمرو والسهمى تجبى له مصر
فلم يغن عنه حزمه واحتياله ... ولا جمعه لما أتيح له الدهر
وأمسى مقيما بالعراء وضلت ... مكايده عنه وأمواله الدثر

معاوية يولى زيادا البصرة

وفى سنة خمس وأربعين ولى معاوية زياد بن أبيه البصرة وأعمالها ، وقال لما دخلها : —

ألا رب مسرور بما لا يسره ... وآخر محزون بما لا يضره

غزاة الرادف

وقد كان معاوية عزل فى هذه السنة شقران بن عوف العامرى ، وأمره أن يبلغ الطوانة فأصيب معه خلق من الناس ، فعم الناس الحزن بمن أصيب

بأرض الروم ، وبلغ معاوية أن يزيد ابنه لما بلغه خبرهم وهو على شرابه مع ندمائه قال : —

أهْوِنْ عَلَيَّ بما لاقت جموعهم ... يوم الطوانة من حُمَّى ومن شُومِ
إذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً ... بدَيْرِ مَرْوَان عندى أمُّ كلثوم

موت أبي أيوب الأنصارى

فخلف عليه ليغزُوَنَّ ، وأردف به شقران ، فسميت هذه الغزاة غزاة الرادفة ، وبلغ الناس فيها إلى القسطنطينية ، وفيها مات أبو أيوب الأنصارى ودفن هناك على باب القسطنطينية ، واسم أبى أيوب خالد بن زيد ، وقد قيل : إن أبا أيوب مات فى سنة إحدى وخمسين غازيا مع يزيد ، وقد أتينا على خبر هذه الغزاة وما كان من يزيد فيها فى الكتاب الأوسط

طاعون الكوفة وموت المغيرة ابن شعبة

وفى سنة تسع وأربعين كان الطاعون بالكوفة فهرب منها المغيرة بن شعبة وكان واليها ، ثم عاد إليها فطُعِنَ فمات ، فمر أعرابى عليه وهو يدفن فقال : —

أرَسْمَ ديارٍ للمغيرة تعرف ... عليها دوانى الإنس والجن تعزِفُ
فان كنت قد لاقيت هامانَ بعدنا ... وفِرْعَوْنَ فاعلم أن ذا العرش منصِفُ

المغيرة بن شعبة يخطب هند بنت النعمان بن المنذر فترده

وذكر أن المغيرة ركب إلى هند بنت النعمان بن المنذر ، وهى فى دَيْرٍ لها فى الحيرة مترهبة ، وهو أمير الكوفة يومئذ ، وقد كانت هند عميت ، فلما جاء الدير استأذن عليها ، فأتتها جاريتها فقالت : هذا المغيرة يستأذن عليك ، فقالت للجارية : ألقى إليه أثاثا ، فألقت إليه وسادة من شعر ، فلما دخل قعد عليها ، وقال : أنا المغيرة ، فقالت له : قد عرفتك عامل المدرة ، فما جاء بك ؟ قال : أتيتك خاطبا إليك نفسك ، قالت : أما والصليب لو أردتنى لدين أو جمال ما رجعت إلا بحاجتك ، ولكنى أخبرك الذى أردت ذلك له ، قال : وما هو ؟ قالت : أردت أنك تتزوجنى حتى تقوم فى الموسم فى العرب فتقول : تزوجت ابنة النعمان ، قال : ذلك أردت ، ولكن أخبرينى ما كان أبوك يقول فى هذا الحى من ثقيف ، قالت : كان ينسبهم فى إياد ، وقد افتخر عنده رجلان من ثقيف أحدهما من بنى

سالم والآخر من بنى يسار فسألهما عن أنسابهما فانتسب أحدهما إلى هوازن والآخر إلى إياد ، فقال أبى : مالحى معد على إياد فضل ، فخرجا وأبى يقول : —

إن ثقيفا لم تكن هوازنا ولم تناسب عامرا ومازنا

إلا حديثا واثبتوا المحاسنا

فقال المغيرة : أما نحن فمن هوازن وأبوك أعلم ، قال : فأخبرينى أى العرب كان أحب إلى أبيك ، قالت : أطوعهم له ، قال : ومن أولئك ، قالت : بكر بن وائل ، قال : فأين بنو تميم ؟ قالت : ما استعنتهم فى طاعة ، قال : فقيس ؟ قالت : ما اقتربوا إليه بما يحب إلا استعقبوه بما يكره ، قال : فكيف أطاع فارس ؟ قالت : كانت طاعتهم إياه فيما يهوى ، فانصرف المغيرة

زياد يلى الكوفة مع البصرة

ولما هلك المغيرة ضم معاوية الكوفة إلى زياد ، فكان أول من جمع له ولاية العراقيين البصرة والكوفة

وفى سنة ثمان وأربعين قبض معاوية فَدَكَ من مروان بن الحكم وقد كان وهبها له قبل ذلك ، فاستردها ، وقد كان معاوية حج فى سنة خمسين وأمر بحمل منبر النبى صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى الشأم ، فلما حمل كسفت الشمس ورؤيت الكواكب بالنهار ، فجزع من ذلك وأعظمه ، ورَدَّه إلى موضعه وزاد فيه ست مراق

معاوية يحاول نقل منبر النبى إلى الشأم

وفى سنة ثلاث وخمسين هلك زياد بن أبيه بالكوفة فى شهر رمضان ، وكان يكنى أبا المغيرة ، وقد كان كتب إلى معاوية أنه قد ضبط العراق بيمينه ، وشماله فارغة ، فجمع له الحجاز مع العراقين ، واتصلت ولايته بأهل المدينة ، فاجتمع الصغير والكبير بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضَجُّوا إلى الله ، ولاذوا بقبر النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام ؛ لعلمهم بما هو عليه من الظلم والعسف ، فخرجت فى كفه بَثْرَة ثم حَكَّها ثم سرت واسودت فصارت أكلة سوداء ،

وفاة زياد بعد ولايته الحجاز والعراقين جميعا

فهلك بذلك وهو ابن خمس وخمسين سنة ، وقيل : اثنتين وخمسين ، ودفن بالنوبة من أرض الكوفة

زياد يحرض الناس على سب على ويقتل من لا يطيعه

وقد كان زياد جمع الناس بالكوفة بباب قصره يحرضهم على لعن على ، فمن أبى ذلك عرضه على السيف ، فذكر عبد الرحمن بن السائب قال : حصرت فصرت إلى الرحبة ومعى جماعة من الأنصار ، فرأيت شيئا فى منامى وأنا جالس فى الجماعة ، وقد خَفَقْتُ ، وهو أنى رأيت شيئا طويلا قد أقبل ، فقلت : ما هذا ؟ فقال : أنا النقاد ذو الرقبة بعثت إلى صاحب هذا القصر ، فانتبهت فزعا ، فما كان إلا مقدار ساعة حتى خرج خارج من القصر فقال : انصرفوا فان الأمير عنكم مشغول ، وإذا به قد أصابه ما ذكرنا من البلاء ، وفى ذلك يقول عبد الله بن السائب من أبيات : —

ما كان منتهيا عما أراد بنا ... حتى تأتّى له النقّاد ذو الرقبه

فأسقط الشقّ منه ضربة ثبتت ... لما تناول ظلما صاحب الرحبة

يعنى بصاحب الرحبة على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقد ذهب جماعة إلى أن عليا دفن فى القصر بالكوفة ، ويقال : إن زيادا طُعِنَ فى يده وإنه شاور شريحا فى قطعها فقال له : لك رزق مقسوم ، وأجل معلوم ، وإنى أكره إن كانت لك مدة أن تعيش أجذّ ، وإن حم أجلك أن تلقى ربك مقطوع اليد فاذا سألك لم قطعتها قلت : بُغْضاً للقائك ، وفرارا من قضائك ، فلام الناس شريحا ، فقال : إنه استشارنى والمستشار مؤتمن ، ولو لا أمانة المشورة لوددت أن الله قطع يده يوما ورجله يوما وسائر جسده يوما

وفود الأمصار عند معاوية وبيعته لابنه يزيد

وفى سنة تسع وخمسين وفد على معاوية وفد الأمصار من العراق وغيرها ، فكان ممن وفد من أهل العراق الأحنف بن قيس فى آخرين من وجوه الناس ، فقال معاوية للضحاك ابن قيس : إنى جالس من غد للناس فأتكلم بما شاء الله ، فإذا فرغت من كلامى فقل فى يزيد الذى يحق عليك ، وادع إلى بيعته ، فانى

قد أمرت عبد الرحمن بن عثمان الثقفى وعبد الله بن عمارة الأشعرى وثور بن معن السلمى أن يصدقوك فى كلامك، وأن يجيبوك إلى الذى دعوتهم إليه ، فلما كان من الغد قعد معاوية فأعلم الناس بما رأى من حسن رعية يزيد ابنه وهديه وأن ذلك دعاه إلى أن يوليه عهده ، ثم قام الضحاك بن قيس فأجابه إلى ذلك ، وحض الناس على البيعة ليزيد ، وقال لمعاوية : اعزم على ما أردت ، ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفى وعبد الله بن عمارة الأشعرى وثور بن معن فصدقوا قوله ، ثم قال معاوية : أين الأحنف بن قيس ؟ فقام الأحنف فقال : إن الناس قد أمسَوْا فى منكر زمان قد سلف ، ومعروف زمان يؤتنف ، ويزيد حبيب قريب فان توله عهدك فعن غير كبر مُفْنٍ ، أو مرض مُضْنٍ ، وقد حلبت الدهور ، وجربت الأمور ، فاعرف من تسند إليه عهدك ، ومن توليه الأمر من بعدك ، واعص رأى من يأمرك ولا يقدر لك ، ويشير عليك ولا ينظر لك ، فقام الضحاك بن قيس مغضبا فذكر أهل العراق بالشقاق والنفاق ، وقال : اردد رأيهم فى نحورهم ، وقام عبد الرحمن بن عثمان فتكلم بنحو كلام الضحاك ، ثم قام رجل من الأزد فأشار إلى معاوية وقال : أنت أمير المؤمنين ، فإذا مُتَّ فأمير المؤمنين يزيد ، فمن أبى هذا فهذا ؛ وأخذ بقائم سيفه فسله ؛ فقال له معاوية : اقعد فأنت من أخطب الناس ، فكان معاوية أول من بايع ليزيد ابنه بولايه العهد ؛ وفى ذلك يقول عبد الله بن هشام السلولى :

فان تأتُوا برَمْلَةَ أو بهندٍ ... نبايعها أميرَةَ مؤمنينا

إذا ماماتَ كِسْرَى قام كسرى ... نَعُدُّ ثلاثة متتاسقينا

فيا لهفا لَوَ انَّ لنا ألوفا ... ولكن لا نعود كما عنينا

إذا لضربتمو حتى تعودوا ... بمكة تَلْعَقُونَ بها السَّخينا

خشينا الغيظ حتى لو شَرِبْنَا ... دماء بنى أمية ما رَوِينَا

لقد ضاعت رعيتكم وأنتم ... تصيدون الأرانب غافلينا

وأنفذت الكتب ببيعة يزيد إلى الأمصار ، وكتب معاوية إلى مروان بن الحكم — وكان على المدينة — يعلمه باختياره يزيد ، ومبايعته إياه بولاية العهد ويأمره بمبايعته ، وأخذ البيعة له على من قبله ، فلما قرأ مروان ذلك خرج مغضبا فى أهل بيته وأخواله من بنى كنانة ، حتى أتى دمشق فنزلها ، ودخل على معاوية يمشى بين السماطين ، حتى إذا كان منه بقدر ما يسمعه صوته سلم ، وتكلم بكلام كثير يوبخ به معاوية ، منه : أقم الأمور يا ابن أبى سفيان ، واعدل عن تأميرك الصبيان ، واعلم أن لك من قومك نظراء ، وأن لك على مناواتهم وزراء ، فقال له معاوية : أنت نظير أمير المؤمنين ، وعُدَّته فى كل شديدة ، وعضده ، والثانى بعد ولى عهده ، وجعله ولى عهد يزيد ، وردَّه إلى المدينة ، ثم إنه عزله عنها ، وولاها الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ، ولم يف لمروان بما جعل له من ولاية عهد يزيد بن معاوية

ذكر جمل من اخلاقه وسياسته

وظرائف من عيون أخباره

قد ذكرنا فيما تقدم جملا من أخباره وسيره ؛ فلنذكر الآن فى هذا الباب جملا من أخلاقه وسياساته وأخباره ، وغير ذلك مما لحق بهذا المعنى إلى وفاته

كان معاوية يأذن كل يوم وليلة خمس مرات

كان من أخلاق معاوية أنه كان يأذن فى اليوم والليلة خمس مرات ، كان إذا صلى الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه ، ثم يدخل فَيُؤْتَى بمُصْحَفه فيقرأ جزأه ، ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهى ، ثم يصلى أربع ركعات ، ثم يخرج إلى مجلسه ؛ فيأذن لخاصة الخاصة فيحدثهم ويحدثونه ، ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم إلى العشى ، ثم يؤتى بالغداء الأصغر — وهو فضلة عشائه من جَدْى بارد أو فرخ أو مايشبهه — ثم يتحدث طويلا ، ثم يدخل منزله لما أراد ، ثم يخرج فيقول : ياغلام ، أخرج الكرسى ، فيخرج إلى المسجد

فيوضع فيسند ظهره إلى المقصورة ويجلس على الكرسى ، ويقوم الأحداث فيتقدم إليه الضعيف والأعرابى والصبى والمرأة ومن لا أحد له ، فيقول : ظلمت ، فيقول : أعِزُّوه ، ويقول : عُدِى على ، فيقول : ابعثوا معه ، ويقول : صُنِع بى ، فيقول : انظروا فى أمره ، حتى إذا لم يبق أحد دخل فجلس على السرير ، ثم يقول : ائذنوا للناس على قدر منازلهم ولا يشغلنى أحد عن رد السلام ، فيقال : كيف أصبح أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ؟ فيقول : بنعمة من الله ، فإذا استَوَوْا جلوسا قال : ياهؤلاء ، إنما سميتم أشرافا لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس ، ارفعوا إلينا حوائج من لا يصل إلينا ، فيقوم الرجل فيقول : استشهد فلان ، فيقول افرضوا لولده ، ويقول آخر : غاب فلان عن أهله ، فيقول : تعاهدوهم ، أعطوهم ، اقضوا حوائجهم ، اخدموهم ، ثم يؤتى بالغداء ، ويحضر الكاتب فيقوم عند رأسه ويقدم الرجل فيقول له : اجلس على المائدة ، فيجلس ، فيمد يده فيأكل لقمتين أو ثلاثا والكاتب يقرأ كتابه فيأمر فيه بأمر ، فيقال : ياعبدالله أعقب ، فيقوم ، ويتقدم آخر ، حتى يأتى على أصحاب الحوائج كلهم ، ور بما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء ، ثم يرفع الغداء ويقال للناس : أجيزوا ، فينصرفون ، فيدخل منزله فلا يطمع فيه طامع ، حتى ينادى بالظهر فيخرج فيصلى ثم يدخل فيصلى أربع ركعات ، ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة ، فان كان الوقت وقت شتاء أتاهم بزاد الحاج من الأخبصة اليابسة والخشكنانج والأقراص المعجونة باللبن والسكر من دقيق السميذ والكعك المنضد والفواكه اليابسة ، وإن كان وقت صيف أتاهم بالفواكه الرطبة ، ويدخل إليه وزراؤه فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه بقية يومهم ، ويجلس إلى العصر ، ثم يخرج فيصلى العصر ، ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع ، حتى إذا كان فى آخر أوقات العصر خرج فجلس على سريره ويؤذن للناس على منازلهم ، فيؤتى بالعشاء فيفرغ منه مقدار ماينادى بالمغرب ، ولاينادى له بأصحاب الحوائج ، ثم يرفع العشاء وينادى بالمغرب فيخرج فيصليها ،

ثم يصلى بعدها أربع ركعات يقرأ فى كل ركعة خمسين آية يجهر تارة ويخافت أخرى ، ثم يدخل منزله فلايطمع فيه طامع ، حتى ينادى بالعشاء الآخرة فيخرج فيصلى ، ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية ، فيؤامره الوزراء فيما أراد وأصدروا من ليلتهم ، ويستمر إلى ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها وسائر ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها ، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة ، ثم تأتيه الطُّرَف الغريبة من عند نسائه من الحَلْوَى وغيرها من المآكل اللطيفة ، ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات ، ثم يخرج فيصلى الصبح ، ثم يعود فيفعل ماوصفنا فى كل يوم

وقد كان هَمَّ بأخلاقه جماعة بعده مثل عبد الملك بن مروان وغيره فلم يدركوا خلقه ، ولا إتقانه للسياسة ، ولا التأنى للأمور ، ولا مداراته للناس على منازلهم ، ورفقه بهم على طبقاتهم

إحكام معاوية للسياسة وأمثلة منه

وبلغ من إحكامه للسياسة وإتقانه لها واجتذابه قلوب خواصه وعوامه أن رجلا من أهل الكوفة دخل على بعير له إلى دِمَشْقَ فى حال مُنْصَرَفِهم عن صِفِّينَ ، فتعلق به رجل من دمشق فقال : هذه ناقتى ، أُخِذَت منى بصفين ، فارتفع أمرهما إلى معاوية ، وأقام الدمشقى خمسين رجلا بينة يشهدون أنها ناقته ، فقضى معاوية على الكوفى وأمره بتسليم البعير إليه ، فقال الكوفى : أصلحك الله إنه جمل وليس بناقة ، فقال معاوية : هذا حكم قد مضى ، ودَسَّ إلى الكوفى بعد تفرقهم فأحضره ، وسأله عن ثمن بعيره ، فدفع إليه ضعفه ، وبَرَّه ، وأحسن إليه ، وقال له : أبلغ عليا أنى أقابله بمائة ألف مافيهم من يفرق بين الناقة والجمل ؛ ولقد بلغ من أمرهم فى طاعتهم له أنه صلى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة فى

يوم الأربعاء وأعاروه رءوسهم عند القتال وحملوه بها وركنوا إلى قول عمرو بن العاص : إن عليا هو الذى قتل عمار بن ياسر حين أخرجه لنصرته ، ثم ارتقى بهم الأمرُ فى طاعته إلى أن جعلوا لَعْن عليّ سنةً ينشأ عليها الصغير ويهلك عليها الكبير

أمثلة من بلاهة أهل الشام

قال المسعودى : وذكر بعض الأخباريين أنه قال لرجل من أهل الشام من زعمائهم وأهل الرأى والعقل منهم : من أبوتراب هذا الذى يلعنه الإمام على المنبر ؟ قال : أراه لصا من لصوص الفتن

وحكى الجاحظ قال : سمعت رجلا من العامة وهو حاج وقد ذكر له البيتُ يقول : إذا أتيته من يكلمنى منه ؟ وأنه أخبره صديق له أنه قال له رجل منهم وقد سمعه يصلى على محمد صلى الله عليه وسلم : ماتقول فى محمد هذا أربُّنا هو ؟

وذكر ثُمَامَة بن أشْرَس قال : كنت مارًّا فى السوق ببغداد ، فاذا أنا برجل عليه الناس مجتمعون ، فنزلت عن بغلتى وقلت : لشىء ماهذا الاجتماع ، ودخلت بين الناس ؛ وإذا برجل يصِفُ كُحْلا معه أنه ينجح من كل داء يصيب العين ، فنظرت إليه فاذا عينه الواحدة بَرْشَاء والأخرى مأسوكة ، فقلت له : ياهذا ، لوكان كحلك كما تقول نفع عينيك !! فقال لى : أها هنا اشتكت عيناى ، إنما اشتكتا بمصر ، فقال كلهم : صدق ، وذكر أنه ماانفلت من نعالهم إلا بعد كَدٍّ

وذكر لى بعض إخوانى أن رجلا من العامة بمدينة السلام رفع إلى بعض الولاة الطالبين لأصحاب الكلام على جار له أنه يتزندق ، فسأله الوالى عن مذهب الرجل ، فقال : إنه مُرْجِئٌ قَدَرِى أباضىٌّ رافضىٌّ ، فلما نص عن ذلك قال : إنه يبغض معاوية بن الخطاب الذى قاتل على بن العاص ، فقال له الوالى : ما أدرى على أى شىء أحسدك على علمك بالمقالات أو على بصرك بالأنساب ؟

وأخبرنى رجل من إخواننا من أهل العلم ، قال : كنا نقعد نتناظر فى أبى بكر وعمر وعلى ومعاوية ، ونذكر مايذكره أهل العلم ، وكان قوم من العامة يأتون

فيستمعون منا ، فقال لى ذات يوم بعضهم وكان من أعقلهم وأكبرهم لحية : كم تطنبون فى على ومعاوية وفلان وفلان ؟ فقلت له : فما تقول أنت فى ذلك ؟ قال : من تريد ؟ قلت : على ماتقول فيه ؟ قال : أليس هو أبو فاطمة ؟ قلت : ومن كانت فاطمة ؟ قال : امرأة النبى عليه السلام بنت عائشة أخت معاوية ، قلت : فما كانت قصة على ؟ قال : قتل فى غزاة حُنَين مع النبى صلى الله عليه وسلم

كان بنو أمية يزعمون لأهل الشام أنهم ورثة النبى

وقد كان عبد الله بن على حين خرج فى طلب مروان إلى الشام ، وكان من قصة مروان ومقتله ماقد ذكر ، ونزل عبد الله بن على على الشام ، ووجَّه إلى أبى العباس السفاح أشياخا من أهل الشأم من أرباب النعم والرياسة ، فحلفوا لأبى العباس السفاح أنهم ماعلموا لرسول صلى الله عليه وسلم قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بنى أمية حتى وليتم الخلافة ، فقال فى ذلك إبراهيم بن المهاجر البجلى : —

أيها الناس اسمعوا أخبركم ... عجبا زاد على كل العجب
عجبا من عبد شمس إنهم ... فتحوا للناس أبواب الكذب
ورثوا أحمد فيما زعموا ... دون عباس بن عبدالمطلب
كذبوا والله مانعلمه ... يحرز الميراث إلا من قرب

بعض أخلاق العامة وعدم اهتدائهم لوجه الصواب

وقد كان ببغداد رجل فى أيام هرون الرشيد متطبب يطبب العامة بصفاته ، وكان دهريا يظهر أنه من أهل السنة والجماعة ويلعن أهل البدع ويعرف بالسنى ، تنقاد إليه العامة ، فكان يجتمع إليه فى كل يوم بقوارير الماء خلقٌ من الناس ؛ فاذا اجتمعوا وثب قائما على قدميه فقال لهم : معاشر المسلمين ، قلتم لاضار ولانافع إلا الله فلأى شىء تسألونى عن مضاركم ومنافعكم ؟ الجؤا إلى ربكم وتوكلوا على بارئكم حتى يكون فعلكم مثل قولكم ، فيُقْبل بعضهم على بعض فيقولون : إى والله قد صَدَقَنا ؛ فكَمْ من مريض لم يعالج حتى مات ، ومنهم من كان يتركه حتى

يسكن ثم يريه الماء فيصف له الدواء فيقول : إيمانك ضعيف ولولاذلك لتوكلت على الله كما أمرضك فهو يبرئك ، فكان يقتل بقوله هذا خلقا كثيرا لتزهيده إياهم فى معالجة مرضاهم ، ومن أخلاق العامة أن يسوّدوا غير السيد ، ويفضلوا غير الفاضل ، ويقولوا بعلم غيرالعالم ، وهم أتباع من سبق إليهم من غير تميز بين الفاضل والمفضول ، والفضل والنقصان ، ولا معرفة للحق من الباطل عندهم ، ثم انظر هل ترى إذا اعتبرت ما ذكرنا ونظرت فى مجالس العلماء هل تشاهدها إلا مشحونة بالخاصة من أولى التمييز والمروءة والحجا ، وتقصد العامة فى احتشادها وجموعها فلا تراهم الدهر إلامرقلين إلى قائد دبّ ، وضارب بدفّ على سياسة قرد ، ومتشوقين إلى اللهو واللعب ، أو مختلفين إلى مشعبذ منمس مخرف ، أو مستمعين إلى قاصّ كذاب ، أو مجتمعين حول مضروب ، أو وقوفاعندمصلوب : ينعق بهم ، ويصاح بهم ؛ فلا يرتدعون : لا ينكرون منكرا ، ولا يعرفون معروفا ، ولا يبالون أن يلحقوا البار بالفاجر ، والمؤمن بالكافر ، وقد بين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله فيهم حيث يقول « الناس اثنان : عالم ، أو متعلم ، وما عدا ذلك همجٌ رعاع لا يعبأ الله بهم » وكذلك ذكر عن على وقد سئل عن العامة فقال : همج رعاع أتباع كل ناعق ، لم يستضيؤا بنور العلم ، ولم يلجؤا إلى ركن وثيق ، وأجمع الناس فى تسميتهم على أنهم غوغاء ، وهم الذين إذا اجتمعوا غلبوا وإذا تفرقوا لم يعرفوا ، ثم تدبر تفرقهم فى أحوالهم ومذاهبهم فانظر إلى إجماع مَلَئِهِمْ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام يدعو الخلق إلى الله اثنتين وعشرين سنة وهو ينزل عليه الوحى ويمليه على أصحابه فيكتبونه ويدونونه ويلتقطونه لفظة لفظة ، وكان معاوية فى هذه المدة بحيث علم الله ، ثم كتب له صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بشهور ، فأشادوا من ذكره ، ورفعوا من منزلته : بأن جعلوه كاتبا للوحى ، وعظموه بهذه الكلمة ، وأضافوه إليها ، وسلبوها عن غيره ، وأسقطوا ذكر سواه وأصل ذلك العادة والإلْفُ ، وماولدوا عليه ، وما نشؤا فيه ، فألفوا وقت التحصيل

تأثير العادة

والبلوغ وقد عملت العادة عملها ، و بلغت مبالغها ، وفى العادة قالت الشعراء وتكلم أهل الدراية والأدباء قال الشاعر : ــ

لاتهنى بعداذ أكرمتنى فشديد عادة منتزعة

وقال آخر معاتبا لصاحبه : ــ

ولكن فطام النفس أثقل محملاً من الصخرة الصماء حين ترومها

وقد قالت حكماء العرب : العادة أملك بالأرب ، وقالت حكماء العجم : العادة هى الطبيعة الثانية ، وقد صنف أبو عقال الكاتب كتاباً فى أخلاق العوام يصف فيه أخلاقهم وشيمهم ومخاطباتهم ، وسماه بالملهى ، ولو لا أنى أكره التطويل والخروج عما قصدنا إليه فى هذا الكتاب من الإيجاز لشرحت من نوادر العامة وأخلاقها وظرائف أفعالها عجائب ، ولذكرت مراتب الناس فى أخلاقهم ، وتصرفهم فى أحوالهم .

فلنرجع الآن إلى أخبار معاوية وسياسته ، وما أوسع الناس من أخلاقه ، وما أفاض عليهم من بره وعطائه ، وشملهم من إحسانه : مما اجتذب به القلوب ، واستدعى به النفوس ، حتى آثروه على الأهل والقرابات :

وفد عقيل ابن أبى طالب على معاوية فى حياة على

من ذلك أنه وفد عليه عقيل بن أبى طالب منتجعاً وزائرا ، فرحّب به معاوية ، وسرّ بوروده ؛ لاختياره إياه على أخيه ، وأوسعه حلما واحتمالا ، فقال له : يا أبا يزيد ، كيف تركت عليا ؟ فقال : تركته على ما يحب الله ورسوله ، وألفيتك على ما يكره الله ورسوله ، فقال له معاوية : لولا أنك زائر منتجع جنابنا لرددت عليك أبا يزيد جوابا تألم منه ، ثم أحب معاوية أن يقطع كلامه مخافة أن يأتى بشىء يخفضه ، فوثب عن مجلسه ، وأمر له أن ينزل ، وحمل إليه مالا عظيما ، فلما كان من غد جلس وأرسل إليه فأتاه فقال له : يا أبا يزيد ، كيف تركت عليا أخاك ؟ قال : تركته خيرا لنفسه منك ، وأنت خير لى منه ، فقال له معاوية : أنت والله كما قال الشاعر : ــ

وإذا عددت فخار آل محرق فالمجد منهم فى بنى عتاب

فمحل المجد من بنى هاشم مَنُوطٌ فيك يا أبا يزيد ما تغيرك الأيام والليالى ، فقال عقيل :

اصبر لحرب أنت جانيها لا بد أن تَصْلَى بحاميها

وأنت والله يا ابن أبى سفيان كما قال الآخر :-

وإذا هوازن أقبلت بفخارها يَوْماً فَخَرْتُهُمُ بآل مُجَاشع

بالحاملين على الموالى عزمهم والضاربين الهامَ يوم القارع

ولكن أنت يامعاوية إذا افتخرت بنو أمية فبمن تفخر ؟ فقال معاوية : عزمت عليك أبا يزيد لما أمسكت ، فانى لم أجلس لهذا ، وإنما أردت أن أسألك عن أصحاب على فانك ذو معرفة بهم ، فقال عقيل : سل عما بدا لك ، فقال : مَيِّزْلى أصحاب على وابدأ بآل صَوْحَان فانهم مخاريق الكلام ، قال : أما صَعْصَعَة فعظيم الشان ، عَضْب اللسان ، قائد فرسان ، قاتل أقران ، يَرْتُق ما فتق ، ويفتق مارتق ، قليل النظير ، وأما زيد وعبد الله فانهما نهران جاريان ، يصب فيهما الخلجان ، ويُغَاث بهما البلدان ، رجلا جد لا لعب معه ، وأما بنو صوحان فكما قال الشاعر :—

معاوية يسأل علقمة بن أبى طالب عن بنى صوحان فيجيبه

إذا نزل العدُوُّ فإنَّ عندى أسوداً تَخْلِسُ الأُسْدَ النفوسا

فاتصل كلام عقيل بصعصعة فكتب إليه « بسم الله الرحمن الرحيم ، ذكر الله أكبر ، وبه يستفتح المستفتحون ، وأنتم مفاتيح الدنيا والآخرة ، أما بعد ؛ فقد بلغ مولاك كلامك لعدو الله وعدوه ، فحمدت الله على ذلك ، وسألته أن يفىء بك إلى الدرجة العليا ، والقضيب الأحمر ، والعمود الأسود ، فانه عمود من فارقه فارق الدين الأزهر ، ولئن نزعت بك نفسك إلى معاوية طلبا لماله إنك لذو علم بجميع خصاله ، فاحذر أن تعلق بك ناره فيضلك عن الحجة ؛ فان الله قد رفع

كتاب من صعصعة بن صوحان إلى عقيل بن أبى طالب

عنكم أهل البيت ما وضعه فى غيركم ، فما كان من فضل أو إحسان فبكم وصل إلينا ؛ فأجلّ الله أقداركم ، وحمى أخطاركم ، وكتب آثاركم ؛ فان أقداركم مرضية ، وأخطاركم محمية ، وآثاركم بدرية ، وأنتم سلم الله إلى خلقه ، ووسيلته إلى طرقه ، أيْدٍ عَلِيَّة ، ووجوه جلية ، وأنتم كما قال الشاعر : —

فما كان من خَيْرٍ أتَوْهُ فإنما ... تَوارَثَهُ آباءٌ آبائهم قبلُ
وهل ينبت الخطى إلا وشيجه ... وتُغْرَسُ إلا فى منابتها النخْلُ

على بن أبى طالب يستشير وجوه أصحابه فى شأن معاوية

وحدث أبو الهيثم ، عن أبى سفيان عمرو بن يزيد ، عن البراء بن يزيد ، عن محمد بن عبد الله بن الحرث الطائى ثم أحد بنى عفان ، قال : لما انصرف على من الجمل قال لآذنه : من بالباب من وجوه العرب ؟ قال : محمد بن عمير بن عطارد التميمى والأحنف بن قيس وصعصعة بن صوحان العبدى ، فى رجال سماهم ، فقال : ائذن لهم ، فدخلوا فسلموا بالخلافة ، فقال لهم : أنتم وجوه العرب عندى ، ورؤساء أصحابى ، فأشيروا على فى أمر هذا الغلام المُتْرَف — يعنى معاوية — فافتتن بهم المشورة عليه ، فقال صعصعة : إن معاوية أترفه الهوى ، وحُبِّبت إليه الدنيا ، فهانت عليه مصارع الرجال ، وابتاع آخرته بدنياهم ، فان تعمل فيه برأى ترشد وتصب إن شاء الله ، والتوفيق بالله و برسوله و بك يا أمير المؤمنين ، الرأى أن ترسل إليه عَيْناً من عيونك ، وثقةً من ثقاتك ، بكتاب تدعوه إلى بيعتك ، فان أجاب وأناب كان له مالك وعليه ما عليك ، و إلا جاهدته وصبرت لقضاء الله حتى يأتيك اليقين . فقال على : عزمت عليك يا صعصعة إلا كتبت الكتاب بيدك ، وتوجهت به إلى معاوية ، واجعل صدر الكتاب تحذيرا وتخويفا ، وعجزه استتابة واستنابة ، وليكن فاتحة الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله على أمير المؤمنين إلى معاوية ، سَلامٌ عليك ، أما بعد » ثم اكتب ما أشرت به على ، واجعل عنوان الكتاب « ألا إلى الله تصير الأمور » قال : أعفنى من ذلك ، قال : عزمت عليك لتَفْعَلَنَّ ، قال : أفعل ، فخرج بالكتاب ، وتجهز وسار حتى

صعصعة ابن صوحان رسول على ابن أبى طالب عند معاوية بكتابه

ورد دمشق ، فأتى باب معاوية فقال لآذنه : استأذن لرسول أمير المؤمنين على ابن أبى طالب ، و بالباب أردفة من بنى أمية ، فأخذته الأيدى والنعال لقوله ؛ وهو يقول « أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله » وكثرت الجلبة واللغط ، فاتصل ذلك بمعاوية ، فوجه بمن يكشف الناس عنه ، فكشفوا ، ثم أذن لهم فدخلوا ، فقال لهم : من هذا الرجل ؟ قالوا : رجل من العرب يقال لهصعصعة بن صَوْحان معه كتاب من على ، فقال : والله لقد بلغنى أمره ، هذا أحد سهام على وخطباء العرب ، ولقد كنت إلى لقائه شيقًا ، ائذن له يا غلام ، فدخل عليه ، فقال : السلام عليك يا ابن أبى سفيان ، هذا كتاب أمير المؤمنين ، فقال معاوية : أما إنه لو كانت الرسل تقتل فى جاهلية أو إسلام لقتلتك ، ثم اعترضه معاوية فى الكلام ، وأراد أن يستخرجه ليعرف قريحته أطبعا أم تكلفا ، فقال : ممن الرجل ؟ فقال : من نزار ، قال : وما كان نزار ؟ قال : كان إذا غزا نكس ، و إذا لقى افترس ، و إذا انصرف احترس ، قال : فمن أى أولاده أنت ؟ قال : من ربيعة ، قال : وما كان ربيعة ؟ قال : كان يطيل النجاد ، و يعول العباد ، و يضرب ببقاع الأرض العماد ، قال : فمن أى أولاده أنت ؟ قال : من جديلة ، قال : وما كان جديلة ؟ قال : كان فى الحرب سيفا قاطعا ، وفى المكرمات غَيْثا نافعا ، وفى اللقاء لهبا ساطعا ، قال : فمن أى أولاده أنت ؟ قال : من عبد القيس ، قال : وما كان عبد القيس ؟ قال : كان حضريا خصيبا أبيض وَهَّابا لضيفه ما يجد ، ولا يسأل عما فقد ، كثير المرق ، طيب العرق ، يقوم للناس مقام الغيث من السماء ، قال : ويحك يا ابن صوحان فما تركت لهذا الحى من قريش مجدا ولا فخرا ، قال : بلى والله يا ابن أبى سفيان ، تركت لهم مالا يصلح إلا بهم ، ولهم تركت الأبيض والأحمر ، والأصفر والأشقر ، والسرير والمنبر ، والملك إلى المحشر ، وأنى لا يكون ذلك كذلك وهم منار الله فى الأرض ونجومه فى السماء ، ففرح معاوية وظن أن كلامه يشتمل على قريش كلها ، فقال : صدقت يا ابن صوحان ، إن ذلك لكذلك ، فعرف صعصعة ماأراد ، فقال : ليس لك ولا لقومك فى ذلك إصدار ولا إيراد ؛ بعدتم عن أنف

المرعى ، وعلوتم عن عذب الماء ، قال : فلم ذلك ويلك يا ابن صوحان ؟!! قال : الويل لأهل النار ، ذلك لبنى هاشم ، قال : قم ، فأخرجوه ، فقال صعصعة : الصدق ينبىء عنك لا الوعيد ، من أراد المشاجرة قبل المحاورة ، فقال معاوية : لشىء ماسوده قومه ، وددت الله أنى من صلبه ، ثم التفت إلى بنى أمية فقال : هكذا فلتكن الرجال

وحدث منصور بن وحشى ، عن أبى الفياض عبد الله بن محمد الهاشمى ، عن الوليد بن البخترى العبسى ، عن الحارث بن مسمار البهرانى ، قال : حبس معاوية صعصعة بن صوحان العبدى وعبد الله بن الكواء اليشكرى ورجالا من أصحاب على مع رجال من قريش ، فدخل عليهم معاوية يوما فقال : نشدتكم بالله إلا ما قلتم حقا وصدقا ، أى الخلفاء رأيتمونى ؟ فقال ابن الكواء : لو لا أنك عزمت علينا ماقلنا لأنك جبار عنيد ؛ لاتراقب الله فى قتل الأخيار ، ولكنا نقول : إنك ما علمنا واسع الدنيا ضيق الآخرة ، قريب الثرى ، بعيد المرعى ؛ تجعل الظلمات نورا ، والنور ظلمات ، فقال معاوية : إن الله أكرم هذا الأمر بأهل الشام الذابين عن بيضته ، التاركين لمحارمه ، ولم يكونوا كأمثال أهل العراق المنتهكين لمحارم الله ، والمحلين ماحرم الله ، والمحرمين ماأحل الله ، فقال عبدالله بن الكواء : يا ابن أبى سفيان ، إن لكل كلام جوابا ، ونحن نخاف جبروتك ، فان كنت تطلق ألسنتنا ذَبَبْنَا عن أهل العراق بألسنة حداد لايأخذها فى الله لومة لائم ، وإلا فانا صابرون حتى يحكم الله ويضعنا على فَرَجِهِ ، قال : والله لايطلق لك لسان ثم تكلم صعصعة فقال : تكلمت يا ابن أبى سفيان فأبلغت ، ولم تقصر عما أردت ، وليس الأمر على ماذكرت ، أنى يكون الخليفة من ملك الناس قهرا ، ودانهم كبرا ، واستولى بأسباب الباطل كذبا ومكرا ؟؟ أما والله مالك فى يوم بدر مضرب ولامرمى ، وما كنت فيه إلا كما قال القائل : « لاحُلّى ولا سِيرِى »[1]

(١) كذا ، والذى نرجحه — إن لم يكن كما ضبطناه — أن أصله « لاحاء ولاساء » وهو من أمثال العرب ، يريد لم يكن لك فيه أمر ولا نهى . وانظر (مجمع الأمثال ٢ : ١٥٨ طبع بولاق)

ولقد كنت أنت وأبوك فى العير والنفير ممن أجلب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما أنت طليق ابن طليق أطلقكما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانى تصلح الخلافة لطليق ؟ فقال معاوية : لولا أنى أرجع إلى قول أبى طالب حيث يقول :

قابلت جهلهم حلماً ومغفرة والعفو عن قدرةٍ ضَرْبٌ من الكرم

لقتلتكم

معاوية يسأل صعصعة بن صوحان عن العرب فيجيبه

وحدث أبو جعفر محمد بن حبيب ، قال : أخبرنا أبو الهيثم يزيد بن رجاء الغنوى ، قال : أخبرنا الوليد بن البخترى ، عن أبيه ، عن أبى مزروع الكلبى ، قال : دخل صعصعة بن صوحان على معاوية فقال له : يا ابن صوحان ، أنت ذو معرفة بالعرب وبحالها ، فأخبرنى عن أهل البصرة ، وإياك والحمل على قوم لقوم ، قال : البصرة واسطة العرب ، ومنتهى الشرف والسؤدد ، وهم أهل الخطط فى أول الدهر وآخره ، وقد دارت بهم سروات العرب كدوران الرحا على قطبها ، قال : فأخبرنى عن أهل الكوفة ، قال : قبة الاسلام ، وذروة الكلام ، ومصان ذوى الأعلام ، إلا أن بها أجلافاً تمنع ذوى الأمر الطاعة ، وتخرجهم عن الجماعة ، وتلك أخلاق ذوى الهيئة والقناعة ، قال : فأخبرنى عن أهل الحجاز ، قال : أسرع الناس إلى فتنة ، وأضعفهم عنها ، وأقلهم غناء فيها ، غير أن لهم ثباتاً فى الدين ، وتمسكا بعروة اليقين ، يتبعون الأئمة الأبرار ، ويخلعون الفسقة الفجار ، فقال معاوية : من البررة والفسقة ؟ فقال : يا ابن أبى سفيان ، ترك الخداع من كشف القناع ؛ على وأصحابه من الأئمة الأبرار ، وأنت وأصحابك من أولئك ، ثم أحب معاوية أن يمضى صعصعة فى كلامه بعد أن بان فيه الغضب ، فقال : أخبرنى عن القبة الحمراء فى ديار مضر ، قال : أسد مضر بسلاء بين غيلين ، إذا أرسلتها افترست ، وإذا تركتها احترست ؛ فقال معاوية : هنالك يا ابن صوحان العز الراسى ، فهل فى قومك مثل هذا ؟ قال : هذا لأهله دونك يا ابن أبى سفيان ، ومن أحب قوما حشر معهم ، قال : فأخبرنى

عن ديار ربيعة ولا يستخفنك الجهل وسابقة الحمية بالتعصب لقومك ، قال : والله ما أنا عنهم براض ، ولكنى أقول فيهم وعليهم : هم والله أعلام الليل ، وأذناب فى الدين والميل ، لن تغلب رايتها إذا رشحت خوارج الدين برازخ اليقين ، من نصروه فلج ، ومن خذلوه زلج ، قال : فأخبرنى عن مضر ، قال : كنانة العرب ، ومعدن العز والحسب ، يقذف البحر بها آذيَّه ، والبر رديه ، ثم أمسك معاوية ، فقال له صعصعة : سل يامعاوية وإلا أخبرتك بما تحيد عنه ، قال : وما ذاك يابن صوحان ؟ قال : أهل الشأم ، قال : فأخبرنى عنهم ، قال : أطوع الناس لمخلوق وأعصاهم للخالق ، عصاة الجبار ، وخلفة الأشرار ، فعليهم الدمار ، ولهم سوء الدار ؛ فقال معاوية : والله يابن صوحان إنك لحامل مُدْيتك منذ أزمان إلا أن حلم ابن أبى سفيان يرد عنك ، فقال صعصعة : بل أمر الله وقدرته ، إن أمر الله كان قدراً مقدورا .

صعصعة بين يدى معاوية أيضا

حدث أبو الهيثم قال : حدثنى أبو البشر محمد بن بشر الفزارى ، عن إبراهيم ابن عقيل البصرى ، قال : قال معاوية يوما - وعنده صعصعة وكان قدم عليه بكتاب على وعنده وجوه الناس - : الأرض لله ، وأنا خليفة الله ، فما آخذ من مال الله فهو لى ، وما تركت منه كان جائزا لى ، فقال صعصعة :

تُمَنِّيكَ نَفْسُكَ ما لا يكو ن جَهْلاً مُعَاوِىَ لا تَأْثَمِ

فقال معاوية : يا صعصعة ، تعلمت الكلام ، قال : العلم بالتعلم ، ومن لا يعلم يجهل ، قال معاوية : ما أحوجك إلى أن أذيقك وبال أمرك ، قال : ليس ذلك بيدك ، ذلك بيد الذى لايؤخر نفسا إذا جاء أجلها ، قال : ومن يحول بينى وبينك ؟ قال : الذى يحول بين المرء وقلبه ، قال معاوية : اتسع بطنك للكلام كما اتسع بطن البعير للشعير ، قال : اتسع بطن من لا يشبع ، ودعا عليه من لا يجمع .

قال المسعودى : ولصعصعة بن صوحان أخبار حسان ، وكلام فى نهاية البلاغة والفصاحة والايضاح عن المعانى ، على إيجاز واختصار .

صعصعة عند عبد الله بن عباس يخبره عن المكارم

ومن ذلك خبره مع عبد الله بن العباس ، وهو ما حدث به المدائنى ، عن زيد بن طليح الذهلى الشيبانى ، قال : أخبرنى أبى ، عن مصقلة بن هبيرة الشيبانى ، قال : سمعت صعصعة بن صوحان وقد سأله ابن عباس ما السؤدد فيكم ؟ فقال : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، وبذل النوال ، وكف المرء نفسه عن السؤال ، والتودد للصغير والكبير ، وأن يكون الناس عندك شَرَعاً ، قال : فما المروءة ؟ قال : أخوان اجتمعا ، فان لقيا قهرا ، وإن كان حارسهما قليلا وصاحبهما جليلا لجاجان إلى صيانة مع نزاهة وديانة ، قال : فهل تحفظ فى ذلك شعرا ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول مرة بن ذهل بن شيبان حيث يقول : —

إن السيادة والمروءة عُلِّقَا ... حيث السماء من السِّماك الأعزل
وإذا تقابل مُجْرِيَان لغاية ... عَثَرَ الهجينُ وأسلمته الأرجل
ويجى الصَّريح مع العِتاق مُعَوَّداً ... قُرْبَ الجياد فلم يجئه الأفكلُ

فى أبيات ، فقال له ابن عباس : لو أن رجلا ضرب آباط إبله مُشَرِّقا ومغربا لفائدة هذه الأبيات ماعنفته ، إنا منك يا ابن صوحان لعلى علم وحلم واستنباط ماقد عفا من أخبار العرب ، فمن الحليم فيكم ؟ قال : من ملك غضبه فلم يفعل ، وسعى إليه بحق أو باطل فلم يقبل ، ووجد قاتل أبيه وأخيه فصفح ولم يقتل ، ذلك الحليم يا ابن عباس ، قال : فهل تجد ذلك فيكم كثيرا ؟ قال : ولا قليلا ، وإنما وصفت لك أقواما لا تجدهم إلا خاشعين راهبين لله مريدين ينيلون ولا ينالون ، فأما الآخرون فانهم سبق جهلهم حلمهم ، ولا يبالى أحدهم إذا ظفر ببغيته حين الحفيظة من كان بعد أن يدرك زعمه ويقضى بغيته ، ولو وتره أبوه لقتل أباه ، أو أخوه لقتل أخاه ، أما سمعت إلى قول ريان بن عمرو بن ريان ، وذلك أن عمرا أباه قتله مالك بن كومة ، فأقام ريان زمانا ، ثم غزا مالكا ؛ فأتاه فى مائتى فارس صباحا وهو فى أربعين بيتا فقتله ، وقتل أصحابه ، وقتل عمه فيمن قتل ، ويقال : بل كان أخاه وذلك أنه كان جاورهم ، فقيل لريان فى ذلك قتلت صاحبنا ، فقال : —

فلو أمى ثَقَفْتُ بحيثُ كانوا لبـل ثيابها عَلَقٌ صبيبُ
ولو كانت أمية أخت عمرو بهذا الماء ظَلَّ لها نحيب
شهرت السيف فى الأدْنَيْنَ منى ولم تعطف أواصِرَنَا قلوب

فقال ابن عباس : فمن الفارس فيكم حُدَّ لى حدًّا أسمعه منك فانك تضع الأشياء مواضعها يا ابن صوحان ، قال : الفارس من قصر أجله فى نفسه ، وضغم على أمله بضرسه ، وكانت الحرب أهون عليه من أمسه ، ذلك الفارس إذا وقدت الحروب ، واشتدت بالأنفس الكروب ، وتداعوا للنزال ، وتزاحفوا للقتال ، وتخالسوا المهج ، واقتحموا بالسيوف اللجج ، قال : أحسنت والله يا ابن صوحان ، إنك لسليل أقوام كرام خطباء فصحاء ، ما ورثت هذا عن كَلَالَة ، زدنى ، قال : نعم الفارس كثير الحذر ، مدير النظر ، يلتفت بقلبه ، ولا يدير خرزات صلبه ، قال : أحسنت والله يا ابن صوحان الوصف ، فهل فى مثل هذه الصفة من شعر ؟ قال : نعم ، لزهير بن جناب الكلبى يرثى ابنه عمرا حيث يقول : —

فارسٌ تُكْلأ الصحابة منه بحسام يَمُرُّ مَرَّ الحريق
لاتراه لدى الوغى فى مجال يغفل الضرب ، لا ، ولا فى مضيق
من يَرَاهُ يَخَلْهُ فى الحرب يوماً أنه أخرق مضل الطريق

فى أبيات ، فقال له ابن عباس : فأين أخواك منك يا ابن صوحان صفهما لأعرف ورثكم ، قال : أما زيد فكما قال أخو غنى : —

فتًى لا يبالى أن يكون بوجهه إذا نال خلان الكرام شُحُوبُ
إذا ما ترا آه الرجال تحفظوا فلم ينطقوا العوراء وَهْوَ قريبُ
حليف الندى يدعو الندى فيجيبه إليه ويدعوه الندى فيجيب
يبيت الندى يا أم عمرو ضجيعَهُ إذا لم يكن فى المنقيات حلوب
كأن بيوت الحى ما لم يكن بها بَسَائس ما يلفى بهن عريب

فى أبيات ، كان والله يا ابن عباس عظيم المروءة ، شريف الأخوة ، جليل

الخطر ، بعيد الأثر ، كميش العروة ، أليف البدوة ، سليم جوانح الصدر ، قليل وساوس الدهر ، ذاكر الله طرفى النهار وزلفا من الليل ، الجوع والشبع عنده سيان ، لا ينافس فى الدنيا ، وأقل أصحابه من ينافس فيها ، يظيل السكوت ، ويحفظ الكلام ، وإن نطق نطق بعقام ، يهرب منه الدُّعَّار الأشرار ، ويألفه الأحرار الأخيار ، فقال ابن عباس : ما ظنك برجل من أهل الجنة رحم الله زيدا !! فأين كان عبد الله منه ؟ قال : كان عبد الله سيدا شجاعا ، مألفا مطاعا ، خيره وساع ، وشره دفاع ، قلبى النحيزة ، أحوذى الغريزة ، لا ينهنهه منهنه عما أراده ، ولا يركب من الأمر إلا عتاده ، سِمَامُ عدى ، وبازل قرى ، صعب المقادة ، جزل الرفادة ، أخو إخوان ، وفتى فتيان ، وهو كما قال البرجمى عامر بن سنان : —

سِمَامُ عِدًى ، بالنبل يقتل من رمى ... وبالسيف والرمح الرُّدَينِيِّ مشعب
مهيب مفيد للنوال مُعَوَّد ... بفعل الندى والمكرمات مجرب

فى أبيات ، فقال له ابن عباس : أنت يا ابن صوحان باقِرُ علم العرب

صعصعة ورجل من فزارة

ومن أخبار صعصعة ما حدث به أبوجعفر محمد بن حبيب الهاشمى ، عن أبى الهيثم يزيد بن رجاء الغنوى ، قال : وقف رجل من بنى فزارة على صعصعة ؛ فأسمعه كلاما منه : بسطت لسانك يا ابن صوحان على الناس فتهيبوك ، أما لئن شئت لأكونن لك لصاقا ، فلا تنطق إلا جددت لسانك بأذرب من ظُبَة السيف ، بعضب قوى ، ولسان على ، ثم لا يكون لك فى ذلك حل ولا ترحال ، فقال صعصعة : لو أجد غرضا منك لرميت ، بل أرى شبحا ولا إخال مثالا ، إلا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، أما لو كنت كفؤا لرميت حصائلك بأذرب من ذلق السنان ، ولرشقتك بنبال تردعك عن النضال ، ولخطمتك بخطام يخزم منك موضع الزمام ، فاتصل الكلام بابن عباس فاستضحك من الفزارى ، وقال : أما لو كلف أخو فزارة نفسه نقل الصخور من

جبال شمام إلى الهضاب لكان أهون عليه من منازعة أخى عبد القيس ، خاب أبوه ، ما أجهله ، يستجهل أخا عبد القيس وقواه المريرة ، ثم تمثل

صبت عليك ولم تنصبَّ من أمم ... إن الشقاء على الأشقين مصبوبُ

مقتل عبد الله ابن وهب الراسبى

وحدث المبرد ، عن الرياشى ، عن ربيعة بن عبدالله النميرى ، قال : أخبرنى رجل من الأزد ، قال : نظرت إلى أبى أيوب الأنصارى فى يوم النهروان ، وقد علا عبد الله بن وهب الراسبى فضربه ضربة على كتفه فأبان يده ، وقال : بؤبها إلى النار يا مارق ، فقال عبد الله : ستعلم أينا أولى بها صِليًا ، قال : وأبيك إنى لأعلم إذ أقبل صعصعة بن صوحان فوقف ، وقال : أولى بها والله صليا من ضَلَّ فى الدنيا عميا ، وصار إلى الآخرة شقيا ، أبعدك الله وأنزحك ، أما والله لقد أنذرتك هذه الصرعة بالأمس فأبيت إلا نكوصا على عقبيك ، فذق يا مارق و بال أمرك وشَرَكَ أبا أيوب فى قتله : ضربه ضربة بالسيف أبان بها رجله ، وأدركه بأخرى فى بطنه ، وقال : لقد صرت إلى نار لا تطفأ ولا يبوخ سعيرها ، ثم احتزا رأسه وأتيا به عليا ، فقالا : هذا رأس الفاسق الناكث المارق عبد الله بن وهب ، فنظر إليه فقطب ، وقال : شاه هذا الوجه ، حتى خيل إلينا أنه يبكى ، ثم قال : قد كان أخو راسبٍ حافظا لكتاب الله ، تاركا لحدود الله ، ثم قال لهما : اطلبا لى ذا الثُّدَيَّة ، فطلب فلم يوجد ، فرجعا إليه وقالا : ما أصبنا شيئا ، فقال : والله لقد قتل فى يومه هذا ، وما كذبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذبت عليه ، قوموا بجمعكم فاطلبوه ، فقامت جماعة من أصحابه فتفرقوا فى القتلى فأصابوه فى دهاس من الأرض فوقه زهاء مائة قتيل ؛ فأخرجوه يجر برجله ، ثم أتى به على فقال : اشهدوا أنه ذو الثدية ، وقد ذكرنا أخبار ذى الثدية فيما سلف من هذا الكتاب

ولعلى فى ربيعة كلام كثير يمدحهم فيه ويرثيهم شعرا ومنثورا ، وقد كانوا أنصاره وأعوانه والركن المنيع من أركانه ؛ فمن بعض ذلك قوله يوم صفين : ـ

لمن راية سوداء يخفق ظلُّها إذا قيل قدِّمْها حُصَيْنُ تَقَدَّمَا

على يمدح ربيعة

فيوردها فى الصف حتى يُعِلَّها حياض المنايا تقطر الموت والدما

جزى الله قوما قاتلوا فى لقائه لدى الموت قدماً ما أعَزَّ وأكرما

وأطيب أخبارا ، وأكرم شيمة ، إذا كان أصوات الرجال تغمغما

ربيعة أعنى ؛ إنهم أهل نجدة وبأس، إذا لاقوا خميساً عَرَمْرَمَا

معاوية يأسر جميل بن كعب الثعلبى

وذكر المدائنى أن معاوية أسر جميل بن كعب الثعلبى — وكان من سادات ربيعة وشيعة على وأنصاره — فلما وقف بين يديه قال : الحمد لله الذى أمكننى منك ، ألست القائل يوم الجمل : —

أصبحت الأمة فى أمر عجب والملك مجموع غَداً لمن غلب

قد قلت قولا صادقا غير كذب إن غَداً تهلك أعلام العرب

قال : لا تقل ذلك فانها مصيبة ، قال معاوية : وأى نعمة أكبر من أن يكون الله قد أظفرنى برجل قد قتل فى ساعة واحدة عدة من حماة أصحابى ؟ اضربوا عنقه ، فقال : اللهم اشهد أن معاوية لم يقتلنى فيك ولا لأنك ترضى قتلى؛ ولكن قتلنى على حطام الدنيا ، فان فعل فافعل به ما هو أهله ، وإن لم يفعل فافعل به ما أنت أهله ، فقال معاوية : قاتلك الله !! لقد سببت فأبلغت فى السب ، ودعوت فبالغت فى الدعاء ، ثم أمر به فأطلق ، وتمثل معاوية بأبيات للنعمان بن المنذر لم يقل النعمان غيرها فيما ذكر ابن الكلبى ، وهى : —

تعفو الملوك عن الجلي ل من الأمور بفَضْلِها

ولقد تعاقب فى اليسير ، وليس ذاك لجهلها

إلا ليُعْرَفَ فَضْلُها ويخاف شدة نكلها

احتضار معاوية

وذكر لوط بن يحيى وابن دأب والهيثم بن عدى وغيرهم من نقلة الأخبار أن معاوية لما احتضر تمثل :

هو الموت، لا مَنْجَى من الموت، والذى تحاذر بعد الموت أدْهَى وأفظع

ثم قال : اللهم أقل العثرة ، واعفُ عن الزلة ، وجد بحلمك على جهل من لم يرج غيرك ، ولم يثق إلا بك ، فانك واسع المغفرة ، وليس لذى خطيئة مهرب ، فبلغ ذلك سعيد بن المسيب فقال : لقد رغب إلى من لا مرغوب إليه مثله ، وإنى لأرجو أن لا يعذبه الله

وذكر محمد بن إسحق وغيره من نقلة الآثار أن معاوية دخل الحمام فى بدء علته التى كانت وفاته فيها ، فرأى تحول جسمه ، فبكى لفنائه وما قد أشرف عليه من الدثور الواقع بالخليقة ، وقال متمثلا :

أرى اللَّيَالى أسْرَعَتْ فى نقضى ... أخَذْنَ بَعْضِى وتَرَكْنَ بَعْضِى
حَنَيْنَ طُولى وحَنَيْنَ عرضى ... أقْعَدْنَنِى من بعد طول نهضى

ولما أزف أمره وحان فراقه واشتدت علته وأيس من برئه أنشأ يقول : -

فياليتنى لم أعن فى الملك ساعةً ... ولم أك فى اللذّات أعْشَى النواظر
وكنت كذى طِمْرَيْنِ عاش ببُلْغَةٍ ... من الدهر حتى زار أهل المقابر

قال المسعودى : ولمعاوية أخبار كثيرة مع على وغيره ، وقد أتينا على الغرر من أخباره وما كان فى أيامه فى كتابنا « أخبار الزمان » والأوسط ، وغيرهما من كتبنا ، مما أفرد للآثار ، وهذا باب كبير ، والكلام فيه وفى غيره مما تقدم وتأخر فى هذا الكتاب كثير ، ومن ضَمِنَ الاختصار لم يجزله الإكثار ، وإنما نذكر فى كل باب من هذا الكتاب طرفا من كل نوع من العلوم والأخبار ، وما انتخبناه من طرائف الآثار ؛ ليستدل الناظر فيه بما ذكرنا على المراد مما تركنا ذكره ، وقد تقدم وصفه وبسطه فيما سلف من كتبنا

وإذ قد تقدم ما ذكرنا فلنذكر الآن جملا من فضل الصحابة وغيرهم عليهم السلام ؛ إذ كانوا حجة على من بعدهم ، وقدوة لمن تأخر عنهم ، وبالله التأييد

ذكر الصحابة ومدحهم، وعلى والعباس وفضلهما

معاوية يسأل عبد الله بن عباس عن أبي بكر فيجيبه

دخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده وُجُوه قريش، فلما سلم وجلس قال له معاوية: إنى أريد أن أسألك عن مسائل، قال: سل عما بدالك، قال: ماتقول فى أبى بكر؟ قال: رحم الله أبا بكر، كان والله للقرآن تاليا، وعن المنكر ناهيا، وبذنبه عارفا، ومن الله خائفا، وعن الشبهات زاجرا، وبالمعروف آمرا، وبالليل قائما، وبالنهار صائما، فاق أصحابه ورعا وكفافا، وسادهم زهدا وعفافا، فغضب الله على من أبغضه وطعن عليه

قال معاوية: إيهاً يا ابن عباس، فما تقول فى عمر بن الخطاب؟

ويسأله عن عمر فيجيبه

قال: رحم الله أبا حفص عمر، كان والله حليف الاسلام، ومأوى الأيتام، ومنتهى الإحسان، ومحل الإيمان، وكَهْفَ الضعفاء، ومَعْقِل الْحُنَفَاء، قام بحق الله عز وجل صابرا محتسبا، حتى أوضح الدين، وفتح البلاد، وأمن العباد، فأعقب الله على من ينقصه اللعنة إلى يوم الدين

قال: فما تقول فى عثمان؟

ويسأله عن عثمان فيجيبه

قال: رحم الله أبا عمرو، كان والله أكرم الجعدة، وأفضل البررة، هجادا بالأسحار، كثير الدموع عند ذكر النار، نَهَّاضاً عند كل مكرمة، سباقا إلى كل منحة، حييا أبيا وفيا، صاحب جيش الْعُسْرة، خَتَن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله، فأعقب الله على من يلعنه لعنة اللاعنين إلى يوم الدين.

قال: فما تقول فى على؟

ويسأله عن على فيجيبه

قال: رضى الله عن أبى الحسن، كان والله عَلَمَ الهدى، وكَهْفَ التقى، ومَحْمِل الحجا، وبحر الندى، وطَوْد النُّهَى، وكهف العلا، للورى داعيا إلى المحجة العظمى، متمسكا بالعروة الوثقى، خير من آمن واتقى، وأفضل من تقمص وارتدى، وأبر من انتعل وسعى، وأفصح من تنفس وقرأ، وأكثر من شهد النجوى،

سوى الأنبياء والنبى المصطفى ، صاحب القبلتين فهل يوازيه أحد ؟ وأبو السبطين فهل يقارنه بشر ؟ وزوج خير النسوان فهل يفوقه قاطن بلد ؟ للأسود قتّال ، وفى الحروب ختّال ، لم ترعينى مثله ولن ترى ، فعلى من انتقصه لعنة الله والعباد إلى يوم التناد

قال : أيها يا ابن عباس لقد أكثرت فى ابن عمك ، قال: فما تقول فى أبيك العباس ؟

ويسأله عن أبيه العباس فيجيبه

قال : رحم الله العباس أبا الفضل ، كان صِنْوَ نبى الله صلى الله عليه وسلم ، وقرة عين صفى الله ، سيد الأعمام ، له أخلاق آبائه الأجواد ، وأحلام أجداده الأمجاد ، تباعدت الأسباب فى فضيلته ، صاحب البيت والسقاية ، والمشاعر والتلاوة ، ولم لا يكون كذلك وقد ساسه أكرم من دب ؟

فقال معاوية : يا ابن عباس ، أنا أعلم أنك كلمانى أهل بيتك

ويحدثه عن فضل الصحابة

قال : ولم لا أكون كذلك ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » ، ثم قال ابن عباس بعد هذا الكلام : يا معاوية ، إن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه ، خص محمدا صلى الله عليه وسلم بصحابة آثروه على الأنفس والأموال ، وبذلوا النفوس دونه فى كل حال ، ووصفهم الله فى كتابه فقال (رحماء بينهم ـ الآية) قاموا بمعالم الدين ، وناصحوا الاجتهاد للمسلمين ، حتى تهذبت طرقه ، وقويت أسبابه ، وظهرت آلاء الله ، واستقر دينه ، ووضحت أعلامه ، وأذل الله بهم الشرك ، وأزال روحه ، ومحا دعائمه ، وصارت كلمة الله العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، فصلوات الله ورحمته وبركاته على تلك النفوس الزاكية ، والأرواح الطاهرة العالية ، فقد كانوا فى الحياة لله أولياء ، وكانوا بعد الموت أحياء أصحياء ، رحلوا إلى الآخرة قبل أن يصلوا إليها ، وخرجوا من الدنيا وهم بعد فيها

فقطع عليه معاوية الكلام ؛ وقال : أيها يا ابن عباس ، حديثاً فى غير هذا

قد تم ـ بمعونة الله تعالى وحسن توفيقه ـ مراجعة الجزء الثانى من كتاب « مروج الذهب ، ومعادن الجوهر » تصنيف العلامة الرحالة أبى الحسن على بن الحسين بن على المسعودى أحد أعلام القرن الرابع الهجرى ، ويليه ـ إن شاء الله تعالى ـ الجزء الثالث مفتتحا بذكر أيام يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، نسأل الله أن يعين على إكماله بمنه وكرمه .

فهرست الموضوعات

الواردة فى الجزء الثانى من كتاب

مروج الذهب

ومعادن الجوهر

ص	الموضوع
٣	ذكر اليمن وملوكها ومقدار سنيها
٣	أولهم سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان
٣	ملك حمير بن سبأ
٣	ملك كهلان بن سبأ
٣	ملك أبى مالك عمرو بن سبأ
٣	ملك جبار بن غالب أبرهة ذى المنار
٣	ذكر بقية ملوك اليمن
٤	أبرهة ذو الأذعار
٤	تبع الأول
٤	بلقيس وسليمان بن داود
٥	ناشر النعم بن عمرو بن يعفر
٥	كليكرب بن تبع
٥	حسان بن تبع
٥	عمرو بن تبع
٥	تبع بن حسان بن كليكرب
٥	مرثد بن كلال
٥	أبرهة بن الصباح
٦	ملك ذى شناتر
٦	يوسف ذو نواس ، وذكر أصحاب الأخدود
٦	قصة أبي رغال الذى يرجم قبره بالمغمس بين الطائف ومكة
٨	قبر العبادى
٨	ملك يكسوم بن أبرهة
٨	ملك مسروق بن أبرهة
٩	حرب الفرس مع الحبشة باليمن
١٠	ملك معد يكرب
١٠	وفود العرب إلى معد يكرب وفيهم عبد المطلب بن هاشم جد النبى ﷺ
١١	أشهر أسماء وفد العرب إلى معد يكرب
١١	خطبة عبد المطلب بين يدى معد يكرب
١٢	أبو زمعة الثقفى (أبو ربيعة) بين يدى معد يكرب
١٢	مقتل معد يكرب
١٢	رواية أخرى فى ترتيب ملوك اليمن
١٤	ملوك اليمن من الفرس
١٤	ملوك اليمن من أبناء إبراهيم الخليل
١٥	ظفار عاصمة بلاد اليمن
١٥	حدود اليمن
١٦	ذكر ملوك الحيرة من بنى نصر وغيرهم
١٦	جذيمة الوضاح صاحب الزباء
١٧	ملك عمرو بن عدى ابن أخت جذيمة الوضاح
١٧	قصة زواج عدى بن نصر برقاش أخت جذيمة الوضاح
١٩	الزباء تستدعى جذيمة الوضاح
٢١	مقتل جذيمة الوضاح
٢٣	ملك عمرو بن امرئ القيس الملقب بمحرق
٢٣	ملك المنذر بن النعمان فارس حليمة
٢٤	ملك عمرو بن المنذر
٢٤	ملك قابوس بن المنذر
٢٤	ملك النعمان بن المنذر
٢٤	النابغة الذبيانى والنعمان بن المنذر
٢٥	تنكيل كسرى بالنعمان بن المنذر بسعاية عدى بن زيد

ص	الموضوع
٢٧	وفاة هانى بن مسعود الشيبانى
٢٧	خرقاء بنت النعمان بن المنذر وسعد ابن أبى وقاص
٢٨	إحصاء بملوك الحيرة ومدتهم
٢٩	ذكر ملوك الشأم من غسان وغيرها
٣٣	ذكر البوادى من العرب وغيرها من الأمم وعلة سكناها البدو
٣٥	قصة أولاد نزار بن معد مع الأفعى الجرهمى وصاحب البعير الشارد
٣٩	تفرق الناس بعد الطوفان
٤٠	علة سكنى العرب الخيام
٤٢	كسرى يسأل عن اختيار العرب سكنى البدو
٤٣	الأكراد ، وأصلهم ، وسكناهم
٤٤	الترك
٤٤	رأى آخر فى أصل الأكراد
٤٤	بعض أيام العرب
٤٥	ذكر ديانات العرب وآرائها فى الجاهلية ، وتفرقها فى البلاد
٤٥	تعدد دياناتهم
٤٦	سير أبرهة بالفيل إلى مكة
٥٠	اختلاف الناس فى تدين عبد المطلب
٥١	اختلاط الألسنة
٥١	مسير يعرب وسكناه اليمن
٥١	مسير عاد إلى الأحقاف
٥١	إرم ذات العماد بدمشق
٥٢	نزول ثمود الحجر
٥٢	مسير جديس إلى اليمامة

ص	الموضوع
٥٢	مسير عملاق ، وتفرق بنيه فى جهات مختلفة
٥٣	مسير طسم نحو البحرين
٥٤	خبر عملوق ملك طسم الظالم ومقتله ومقتل قومه
٥٦	رباح بن مرة الطسمى يفر من القتل فيستنجد بحمير على جديس
٥٧	خبر زرقاء اليمامة
٥٨	مسير وبار بن أميم إلى رمل عالج
٥٨	أرض وبار مسكن الجن فى زعم العرب
٥٩	مسير عبد ضخم بن إرم إلى الطائف
٦٠	بدء الكتابة
٦٠	مسير جرهم إلى مكة
٦٠	مسير أميم بن لاوذ بن إرم إلى بلاد فارس
٦٠	أول من بنى البيوت أميم بن لاوذ
٦١	تنازع الناس فى نسب البربر
٦١	الشام بلاد كنعان
٦١	مسير بوقر بن لوط إلى الهند
٦١	بغى عاد ، وذكر أصنامها ، وبعثة هود إليهم ، وهلاكهم ، وبعض ما قيل فى ذلك
٦٤	الجحفة ، وسبب تسميتها بذلك
٦٤	يثرب ، وسبب تسميتها بذلك
٦٤	تنازع الناس فى شعيب ونسبه
٦٦	بنو حضورا وتنازع الناس فى أنسابهم
٦٧	تنازع الناس فى ديارهم
٦٨	ذكر ما ذهب إليه العرب فى النفوس والهام والصفر

ص	الموضوع
٦٨	الاختلاف فى النفس ما هى
٦٨	الهام ، وما قيل فيه
٦٩	آراء العرب فى الغيلان والتغول وما ورد من الأخبار فى ذلك
٧٠	يرون أن الغول تتلون وتضلل
٧٠	عمر بن الخطاب والغول قبل الاسلام
٧٠	الغول عند الفلاسفة والمنجمين
٧١	تلون الغول أيضا
٧١	السعلاة
٧١	بعض إيذاء الغيلان والشياطين للناس
٧٣	ذكر قول العرب فى الهواتف والجان
٧٣	الهاتف واختلاف أقوالهم فيه
٧٣	علقمة بن صفوان والهاتف
٧٤	بعض الذين قتلهم الجن
٧٤	زعموا أن قبر حاتم الطائى يقرى الضيف
٧٧	ذكر ما ذهب إليه العرب من القيافة والزجر والسانح والبارح
٧٧	الخلاف فى القيافة ، وجواز الاستدلال بها
٧٧	اختصاص العرب بذلك
٧٨	منشأ القيافة ، وذكر علل طبيعية لها
٧٩	الزجر وبعض أخباره
٨٠	اختصاص بعض العرب ببعض هذه الأمور
٨٠	القيافة
٨١	القيافة عند أهل الشرع ، وهل يجوز الاستدلال بها ؟
٨٢	ذكر الكهانة ، وما قيل فى ذلك ، وما اتصل به ، وحد النفس الناطقة
٨٢	أصل ادعاء علم الغيب ، وتنازع الأمم فى الكهانة ماهى وما سببها
٨٣	استراق السمع سبب الكهانة عند بعضهم
٨٣	سبب الكهانة عند بعضهم علل فلكية
٨٣	وعند آخرين علل نفسية
٨٤	العرافة وبعض العرافين
٨٤	الكهانة فى العرب
٨٥	الرؤيا ، وأسبابها ، واختلاف الناس فيها
٨٧	تحديد النفس ، واختلاف الفلاسفة فيه
٨٩	ذكر جمل من أخبار الكهان ، وسيل العرم
٨٩	ملوك سبأ ، وذكر بعض عاداتهم
٨٩	وصف بلاد سبأ
٩١	العرم
٩١	مفاخرة بين القحطانيين والنزاريين فى مجلس السفاح العباسى
٩٢	العرم فى شعر العرب
٩٢	طول العمر ، وعمر النسور ، وما قيل فى ذلك من الشعر
٩٣	اختلاف الناس فى علة طول العمر
٩٤	طريفة الخير الكاهنة تنذر بسيل العرم
٩٦	عمرو بن عامر يتحيل للخروج من بلاده بعد ما أنذرته طريفة بالسيل
٩٧	تفرق أهل سبأ فى البلاد
٩٧	خزاعة

ص	الموضوع
٩٧	غسان
٩٨	ديانة أهل مأرب
٩٩	عود إلى حديث الكهانة ، وذكر سطيح الكاهن ، وبيان أول كهانته
١٠٠	ذكر سنى العرب والعجم وشهورها وما اتفق منها واختلف
١٠١	ذكر شهور القبط وما يقابلها عند السريان
١٠١	أيام لواحق للأقباط (النسىء)
١٠١	مبدأ التاريخ عند الأقباط
١٠٢	ذكر شهور السريان ووصف موافقتها لشهور العرب
١٠٣	زمن المهرجان ، ومعناه ، وأصله
١٠٤	ليلة الغطاس وما يحدث فيها بمصر والشام
١٠٤	بطارقة النصرانية وأماكنهم
١٠٤	كنائس أنطاكية وعجائبها
١٠٥	زمن أيام برد العجوز وأسماؤها
١٠٦	استواء الليل والنهار ومنزلة الشمس حينئذ
١٠٦	ذكر شهور الفرس وأسمائها
١٠٧	ذكر أيام الفرس وأسمائها
١٠٨	ذكر سنى العرب وشهورها وتسمية أيامها ولياليها
١٠٨	تعليل تسمية الشهور عند العرب
١٠٨	اختصاص بعض الشهور ببعض الأسماء
١٠٨	اختصاص بعض الأيام ببعض الأسماء
١٠٩	تسمية أيام التشريق والاختلاف فى سببها
١١٠	الأيام النحسات
١١٠	أسماء أيام الأسبوع وعلتها
١١٠	أسماء الأيام عند العرب قديما
١١٠	أسماء الشهور عند العرب قديما
١١٠	الازمنة الأربعة
١١١	شهور الروم مرتبة على الفصول
١١٢	ذكر قول العرب فى ليالى الشهور القمرية
١١٣	تقسيم ليالى الشهر ثلاثا ثلاثا وتسمية كل ثلاث منها باسم
١١٣	أسماء الهلال والليالى عند العرب بحسبه
١١٤	ذكر القول فى تأثير النيرين فى العالم
١١٤	رأى اليونانيين الحكماء فى ذلك
١١٤	تصور الجنين فى رحم أمه ، وسببه
١١٥	يشبه الولد أباه وأهل بيت أبيه
١١٦	الاختلاف فى تأثير النيرين
١١٧	كروية الأرض وجميع أجزائها
١١٩	ذكر أرباع العالم والطبائع
١١٩	الطبائع الأربع
١١٩	أرباع العالم ، وما خص به كل ربع منها
١٢٠	علة عدم سكنى بعض الأرض
١٢٠	مدة سلطان الكواكب
١٢١	أجناس الأجسام وخاصة كل نوع منها
١٢٢	أنواع الجن
١٢٢	النسناس ، والاختلاف فى وجوده ، وذكر شبهه بالآدميين
١٢٥	العنقاء

ص	الموضوع
١٢٦	خالد بن سنان نبى بنى عبس
١٢٦	خبر خلق الخيل
١٢٧	بحث فى بيان مايجوز أن يؤخذ به من الأخبار وما لا يجوز
١٢٨	بعض الاسرائيليات التى لا يؤخذ بمثلها
١٢٩	عود إلى ذكر أرباع العالم والطبائع
١٢٩	الكلام على عمور الانسان وما يظهر عنده من الطبائع فى كل عمر منها
١٣٠	رأى أبقراط فى أعمار الانسان
١٣٠	الهواء وأثره فى الانسان
١٣٠	الاستدلال بتغاير أهل الأقاليم على تأثير الهواء فى الانسان
١٣١	اختلاف الحكماء فى ذلك
١٣٢	الرياح الأربعة
١٣٢	مساحة الممالك وما بينها من المسافات
١٣٤	اعتذار للمؤلف عن استطراداته
١٣٤	ذكر البيوت المعظمة والهياكل وبيوت النيران والأصنام
١٣٤	الهند والصين تتخذ أصناما تمثل الملائكة
١٣٤	اتخاذهم الكواكب آلهة
١٣٥	اتخاذهم أصناما تمثل الكواكب
١٣٥	عقيدة العالم فى البيت الحرام
١٣٥	يوداسف متنبى الهند يدعو إلى مذهب الصابئة
١٣٥	دعوته إلى عبادة النار
١٣٦	عمرو بن لحى أول من نصب الأصنام بمكة
١٣٦	البيوت السبعة المعظمة
١٣٧	البرموك سادن البوبهار وهو بيت النار بخراسان، ومنهم جد البرامكة
١٣٧	قصر غمدان وما قيل فيه
١٤٠	البيوت المعظمة عند اليونانيين
١٤٠	البيت الأول بأنطاكية
١٤٠	الثانى بمصر
١٤٠	الثالث بيت المقدس فى زعمهم
١٤١	البيوت المعظمة عند أوائل الروم
١٤١	البيوت المعظمة عند الصقالبة
١٤٢	البيوت المعظمة عند الصابئة
١٤٢	هياكل العقول
١٤٢	هياكل الكواكب
١٤٢	قرابينهم
١٤٣	الباقى من هياكلهم إلى عصر المؤلف
١٤٤	بحث فى النفس
١٤٤	استطراد بذكر الكليات الخمس والمقولات العشر
١٤٥	عود إلى الكلام عن الصابئة
١٤٥	وصف هيكل بأقاصى بلاد الصين
١٤٧	ذكر الأخبار عن بيوت النيران وغيرها
١٤٧	رأى الفرس الأولى فى النار والنور
١٤٧	أماكن بيوت النيران
١٤٨	المؤلف يصف بيتا من بيوت النيران رآه باصطخر
١٤٩	المؤلف يصف بيتا آخر رآه بجور من بلاد فارس ، ويتعرض لبعض وصف جور

ص	الموضوع
١٥٠	حصن الحضر واستيلاء سابور عليه وقتله الساطرون ملك الحضر وابنته النضيرة
١٥٢	الهيا كل المعظمة عند اليونانيين
١٥٢	هيكل بعل
١٥٢	جيرون ، ووصف هيا كلها
١٥٣	مسجد دمشق ، وأصله
١٥٤	البريض بناء بدمشق
١٥٤	الديماس هيكل بأنطاكية
١٥٤	مجمل بذكر بعض البناءات العجيبة فى العالم
١٥٦	ذكر محاولات قديمة لوصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض
١٥٨	ذكر جامع التاريخ من بدء العالم إلى رسول الله
١٥٨	اختلاف الناس فى حدوث العالم
١٦٠	اختلاف الناس فى مدة العالم منذ نشأته
١٦٢	رأى أهل الآثار من المسلمين فى مبدأ العالم ، وفى المدة التى مضت منه إلى التاريخ المعلوم لهم على سبيل الجزم
١٦٤	ذكر مولد النبى صلى الله عليه وسلم ونسبه وغير ذلك مما لحق بهذا الباب
١٦٤	نسبه صلى الله عليه وسلم ، واختلاف الروايات فيه
١٦٥	نهى رسول الله أن يتجاوز النسابون عدنان
١٦٦	كنيته صلى الله عليه وسلم
١٦٦	أولاده صلى الله عليه وسلم
١٦٦	زمن مولده عليه الصلاة والسلام
١٦٦	حروب الفجار

ص	الموضوع
١٦٧	بطون قريش
١٦٧	عود لحروب الفجار وحلف الفضول ، وسببه ، وما قيل فى ذلك ، وتاريخه
١٦٩	بناء قريش الكعبة واختلافهم فى وضع الحجر الأسود وحكم النبى صلى الله عليه وسلم بينهم
١٧٠	فخار أبي طالب بحكم النبى
١٧٠	تحديد يوم مولده صلى الله عليه وسلم
١٧٠	جماع الحوادث من مبدأ مولده عليه الصلاة والسلام
١٧٢	ذكر مبعثه صلى الله عليه وسلم وما جاء فى ذلك إلى هجرته
١٧٢	إسلام على بن أبي طالب
١٧٣	إسلام أبى بكر ومن أسلم باسلامه من الصحابة
١٧٤	ذكر هجرته ، وجوامع ما كان فى أيامه صلى الله عليه وسلم إلى انتقاله إلى الرفيق الأعلى
١٧٤	فرض الجهاد
١٧٤	تأريخ الهجرة
١٧٥	تحديد يوم قدومه المدينة ولقاء أهل المدينة له
١٧٦	زمن وفاته صلى الله عليه وسلم
١٧٦	عدة غزواته
١٧٦	ترتيب مغازيه
١٧٧	بيان المغازى التى قاتل فيها ، واختلاف الرواة فيها

ص	الموضوع
١٧٧	السرايا والبعوث
١٧٨	أشهر الحوادث التى تتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم
١٧٩	اختلاف العلماء فى مقدار سنه صلى الله عليه وسلم
١٧٩	وفاته وتكفينه ودفنه
١٨٠	أشهر الامور التى حدثت من مولده إلى وفاته صلى الله عليه وسلم
١٨٠	ماحدث فى السنة الأولى من مولده
١٨٠	ماحدث فى السنة الخامسة
١٨٠	ماحدث فى السنة السادسة
١٨٠	ماحدث فى السنة التاسعة
١٨١	أعمام النبى صلى الله عليه وسلم
١٨١	ماحدث فى سنة ست وعشرين من مولده
١٨١	ماحدث فى سنة ست وثلاثين
١٨١	ماحدث فى سنة إحدى وأربعين
١٨٢	ماحدث فى سنة ست وأربعين
١٨٢	ماحدث فى سنة خمسين
١٨٢	ماحدث فى سنة إحدى وخمسين
١٨٢	ماحدث فى سنة أربع وخمسين ، وهى سنة الهجرة
١٨٢	ماحدث فى سنة اثنتين من الهجرة
١٨٢	ماحدث فى سنة ثلاث من الهجرة
١٨٣	ماحدث فى سنة أربع من الهجرة
١٨٣	ماحدث فى سنة خمس من الهجرة
١٨٣	ماحدث فى سنة ست الهجرة
١٨٣	ماحدث فى سنة سبع من الهجرة
١٨٤	ماحدث فى سنة ثمان من الهجرة
١٨٤	ماحدث فى سنة تسع من الهجرة
١٨٤	ما حدث فى سنة عشر من الهجرة

ص	الموضوع
١٨٥	ذكر أولاده صلى الله عليه وسلم
١٨٦	ذكر مابدأ به عليه الصلاة والسلام من الكلام مما لم يحفظ قبله عن أحد من الناس
١٩١	باب ذكر خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه
١٩١	مجمل تاريخه من خلافته إلى وفاته
١٩٢	ذكر نسبه ولمع من أخباره وسيره
١٩٢	اسمه ونسبه
١٩٢	تواضعه ولباسه
١٩٢	وفود ذى الكلاع الحميرى على أبي بكر رضى الله عنه وتأسيه به فى لباسه
١٩٢	أبو بكر وأبو سفيان بن حرب
١٩٣	نسب أبى بكر من جهة أمه
١٩٣	أولاد أبى بكر ، وبيان أمهاتهم ، ومن أعقب منهم
١٩٤	مات أبو قحافة والد أبى بكر فى خلافة عمر بن الخطاب
١٩٤	عدى بن حاتم
١٩٤	مرض أبى بكر
١٩٥	بنات أبى بكر
١٩٥	بيعة على لأبى بكر
١٩٥	وصية أبى بكر ليزيد بن أبى سفيان
١٩٦	ثبت بجماع الحوادث فى عهد أبي بكر
١٩٨	ذكر خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه
١٩٨	مجمل تاريخه
١٩٨	ذكر نسبه ولمع من أخباره وسيره
١٩٨	نسبه من جهة أبيه ومن جهة أمه

ص	الموضوع
١٩٩	أخلاقه وتواضعه
١٩٩	دين سعد بن عامر بن خريم أحد عمال عمر ، وكان عامله على حمص
٢٠٠	سلمان الفارسى عامل عمر على المدائن
٢٠٠	أبو عبيدة بن الجراح عامل عمر على الشام
٢٠٠	عمر يحرض على الجهاد ويؤمر أبا عبيدة على جيوشه
٢٠٠	مسير أبى عبيدة لقتال الفرس
٢٠٣	شأن جرير بن عبدالله البجلى والمثنى ابن حارثة
٢٠٤	وفاة المثنى بن حارثة بسيراف
٢٠٤	شأن سعد بن أبى وقاص
٢٠٥	شأن عاصم بن عمرو
٢٠٥	يوم أغواث
٢٠٧	شأن أبى محجن الثقفى ، وبلاؤه وشجاعته ، وتوبته
٢٠٩	يوم عماس
٢١١	تمصير البصرة والكوفة
٢١٢	أبو لؤلؤة المجوسى غلام المغيرة بن شعبة ، وهو قاتل عمر رضى الله عنه
٢١٢	أولاد عمر بن الخطاب
٢١٣	عمر وعبد الله بن العباس
٢١٣	خبر وقعة نهاوند
٢١٥	عمرو بن معديكرب يصف قومه لعمر ابن الخطاب بطنا فبطنا
٢١٧	عمرو بن معديكرب وربيعة بن مكدم
٢٢١	ذكر خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه
٢٢١	مجمل تاريخه
٢٢١	ذكر نسبه ولمع من أخباره وسيره
٢٢١	نسبه من جهة أبيه وأمه ، وذكر أولاده
٢٢٢	أخلاقه رضى الله عنه
٢٢٢	ثروته
٢٢٢	الزبير بن العوام ، وثروته
٢٢٢	طلحة بن عبيد الله ، وثروته
٢٢٢	عبد الرحمن بن عوف ، وثروته
٢٢٢	سعد بن أبى وقاص ، وثروته
٢٢٣	زيد بن ثابت ، وثروته
٢٢٣	المقداد يبنى دارا بالمدينة ذات شرفات
٢٢٣	يعلى بن أمية ، وثروته
٢٢٣	شدة عمر بن الخطاب فيما هو مصلحة للرعية
٢٢٣	ذكر بعض عمال عثمان على الأمصار
٢٢٤	الوليد بن عقبة بن أبي معيط والى الكوفة ، وصرفه عنها ، وتولية سعيد بن العاص
٢٢٥	أمر سعيد بن العاص فى ولايته الكوفة
٢٢٧	مبدأ إنكار الناس على عثمان ، وأسبابه
٢٢٨	أبو ذر وعثمان ، ونفى أبى ذر إلى الشام ثم إلى الربذة
٢٢٩	خروج أبي ذر وتوديع على ، أبى طالب إياه وتلاحى على مع مروان ابن الحكم بسبب ذلك
٢٣٠	الجفاء بين على وعثمان
٢٣٠	عمار بن ياسر والمقداد بن عمرو يظاهران على بنى أمية ويعلنان حب آل الرسول

ص	الموضوع
٢٣١	قدوم الثائرين على عثمان من الأمصار
٢٣٢	حصار الثوار دار عثمان
٢٣٢	وصول محمد بن أبي بكر إلى عثمان أمام الثوار
٢٣٢	وصول الثوار إلى عثمان بعد تسلقهم إليه
٢٣٣	مقتل عثمان، وتاريخه، ومدة حصاره
٢٣٣	قتلة عثمان
٢٣٣	مدفن عثمان وذكر الذين صلوا عليه
٢٣٣	بيان الذين صلوا بالناس أيام حصار الخليفة
٢٣٤	بعض ما قيل في مقتل عثمان
٢٣٤	حسان بن ثابت وموقفه
٢٣٦	ذكر خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه
٢٣٦	مجمل تاريخه، وبيان موضع قبره
٢٣٦	نسبه من جهة أبيه، ومن جهة أمه
٢٣٦	إخوته، وأمهاتهم
٢٣٧	أوان مسيره إلى البصرة
٢٣٨	ثبت الحوادث في أيامه وتواريخها
٢٣٨	شهود وقائعه من الصحابة
٢٣٨	القاعدون عن بيعته من الصحابة وبعض ماجرى بينهم
٢٤٠	عمرو بن العاص يعاهد معاوية على الانتصار له في مقابل توليته مصر
٢٤٠	نصيحة المغيرة بن شعبة لعلي رضي الله عنه
٢٤١	رواية أخرى في شأن نصيحة المغيرة
٢٤٢	ذكر الأخبار عن يوم الجمل وبدئه وما كان فيه من الحرب وغيره
٢٤٢	مسير طلحة والزبير وعائشة
٢٤٣	مسير علي من المدينة
٢٤٤	دخول على البصرة، وذكر أنصاره وقواد جيشه من الصحابة
٢٤٥	دعاء علي ربه قبل القتال
٢٤٦	علي يرسل إلى الخارجين عليه من يدعوهم إلى السلم، فيأبون
٢٤٦	عمار بن ياسر يدعو إلى حقن الدماء
٢٤٦	وصية علي لأصحابه قبل القتال
٢٤٧	علي يدعو الزبير إلى قتاله، فاذا التقيا ذكره بما قاله النبي صلى الله عليه وسلم له في شأنه، فيعزم على ترك القتال، ويأخذه الندم
٢٤٧	الزبير ينصرف عن القتال، فيقوم ابنه عبد الله في وجهه يحجزه فيأبى
٢٤٨	مقتل الزبير، وما قيل فيه
٢٤٨	علي يدعو طلحة إلى القتال، فاذا التقيا عاتبه على خروجه وذكره بما قال رسول الله فيه، فيعزم على الرجوع
٢٤٩	مقتل طلحة
٢٤٩	ترجمة طلحة بن عبيد الله
٢٤٩	مقتل محمد بن طلحه، وترجمته
٢٥٠	بنو ضبة يحيطون بالجمل، فيموت منهم عدد حوله
٢٥١	عبد الله بن الزبير والأشتر النخعي
٢٥١	خطبة طويلة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب بالبصرة
٢٥٢	ابن عباس وعائشة أم المؤمنين
٢٥٣	امرأة من عبد القيس تجد ولديها مقتولين
٢٥٣	عمير بن الأهلب الضبي وشجاعته

ص	الموضوع
٢٥٣	عودة عائشة
٢٥٤	عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أمية ، يعسوب قريش
٢٥٤	استيلاء على رضى الله عنه على أموال البصرة
٢٥٥	على رضى الله عنه يولى عبد الله بن عباس على البصرة
٢٥٥	على رضى الله عنه يبعث جرير بن عبد الله إلى معاوية
٢٥٦	معاوية بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة
٢٥٧	ذكر جوامع مما كان بين أهل العراق وأهل الشأم
٢٥٧	مسير على رضى الله عنه إلى صفين ، ووقته
٢٥٧	عدة جيشه
٢٥٧	عدة جيش معاوية بن أبي سفيان ومنزله للقتال
٢٥٨	معاوية يمنع جيش على من ورود الماء ، فيأمر على أصحابه أن يقتحموا إلى الماء وينزلوا عنده ويطردوا عنه جيش معاوية
٢٥٩	جيش علي يرد الماء ويطرد عنه جيش معاوية
٢٥٩	اتفاق الفريقين على ترك القتال شهر المحرم
٢٦٠	مبدأ القتال ، وذكر ما كان فى اليوم الأول
٢٦٠	ذكر ما كان فى اليوم الثانى
٢٦٠	ذكر ما كان فى اليوم الثالث
٢٦٠	ذكر ما كان فى اليوم الرابع

ص	الموضوع
٢٦١	شأن عبيد الله بن عمر بن الخطاب والسبب فى خروجه على على رضى الله عنه
٢٦١	ما كان فى اليوم الخامس من أيام الحرب
٢٦١	ما كان فى اليوم السادس
٢٦١	ما كان فى اليوم السابع
٢٦١	ما كان فى اليوم الثامن
٢٦٢	ما كان فى اليوم التاسع
٢٦٣	مقتل عمار بن ياسر ، وترجمته
٢٦٥	موقف حذيفة بن اليمان من على ، ومقتل ولديه صفوان بن حذيفة وسعد بن حذيفة
٢٦٦	معاوية بن أبي سفيان والنعمان بن جبلة التنوخى أحد قواده
٢٦٧	مقتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب
٢٦٨	على رضى الله عنه يحرض أصحابه
٢٦٨	على رضى الله عنه يدعو معاوية إلى القتال فيخرج له عمرو بن العاص فيرد عليا بكشف سوأته
٢٦٩	معاوية يحاول أن يمثل بعبد الله ، بديل بن ورقاء الخزاعى فيمنعه عبد الله بن عامر
٢٦٩	على رضى الله عنه يحرض أصحابه على غسان
٢٧٠	ليلة الهرير
٢٧١	خديعة رفع المصاحف
٢٧١	أهل العراق ينخدعون فيثورون على على رضى الله عنه
٢٧٢	الاختلاف فى اختيار الحكم عن أهل العراق
٢٧٣	ذكر الحكمين ، وبدء التحكيم

ص	الموضوع
٢٧٣	اتفق القوم على المبدأ الذى يحكمان بمقتضاه ، وكتبوا بذلك صحيفة
٢٧٤	عدة القتلى أيام صفين
٢٧٥	اختلاف أهل العراق فى التحكيم
٢٧٥	الحرورية
٢٧٥	أول التقاء الحكمين
٢٧٦	وصية ابن عباس لأبى موسى
٢٧٦	الحكمان يكتبان كتاب التحكيم
٢٧٨	عمرو يقدم أبا موسى للكلام
٢٧٨	أبو موسى يتقدم فيخلع عليا ومعاوية ويرشح عبد الله عمر
٢٧٨	عمرو يخطب فيخلع عليا ويثبت معاوية
٢٧٨	رواية أخرى فى هذا الشأن
٢٨٠	مكر معاوية بعمرو بن العاص
٢٨١	تأنيب على لأهل العراق ، وتحريضهم على الاستعداد للحرب
٢٨٣	ذكر حروب على مع أهل النهروان
٢٨٣	الخوارج وفعلهم بالمدائن
٢٨٣	مسير على إلى النهروان والتقاؤه بالخوارج
٢٨٤	موقعة الرميلة
٢٨٥	ذو الثدية المخدج
٢٨٥	غنائم على ، ودعوته أصحابه إلى الاستمرار على الحرب
٢٨٦	بعض جيش على يرتدون عن الاسلام
٢٨٦	على يرسل من يحارب المرتدين
٢٨٧	عمرو بن العاص يسير الى مصر
٢٨٧	مقتل محمد بن أبى بكر

ص	الموضوع
٢٨٧	على يولى الأشتر مصر فيدس له السم رجل بالعريش بايعاز معاوية
٢٨٨	بعض الفروق بين وقعتى صفين والجمل
٢٨٩	ذكر مقتل على بن أبى طالب رضى الله عنه
٢٨٩	تعاهد ثلاثة من الخوارج على قتل على ومعاوية وعمرو بن العاص
٢٨٩	مسير عبد الرحمن بن ملجم إلى الكوفة لقتل على ونزوله على ابنة عمه قطام وخطبته إياها
٢٩١	طلب أصحاب على منه أن يعهد بالخلافة فأبى
٢٩١	وفاة على رضى الله تعالى عنه
٢٩٢	تركة على
٢٩٢	قتل ابن ملجم ، وبعض ما قيل فى شأنه
٢٩٣	رثاء أبى الأسود لعلى رضى الله عنه
٢٩٤	مسير البرك التميمى لقتل معاوية
٢٩٤	مسير زادويه بن عمرو بن بكر التميمى لقتل عمرو
٢٩٥	معاوية يأمر بعض أنصاره أن يذيعوا فى الناس أنه قتل ليبلغ ذلك عليا
٢٩٦	ذكر لمع من كلام على رضى الله عنه وأخباره وزهده
٢٩٦	وصف الدنيا
٢٩٧	ضرار بن حمزة بعض خلصان على يصفه لمعاوية ويذكر له من روائع كلامه
٢٩٩	ثقة على رضى الله عنه بما عند الله

ص	الموضوع
٢٩٩	دفاع ابن عباس عن على وقد سمع قوما ينالون منه
٣٠٠	مقالة على صبيحة مقتله
٣٠٠	خطبة له فى التزهيد فى الدنيا
٣٠٠	جماع فضائله
٣٠٢	ذكر خلافة الحسن بن على رضى الله عنهما
٣٠٢	وقت البيعة له
٣٠٢	ذكر لمع من أخباره وسيره رضى الله عنه
٣٠٢	سم الحسن رضى الله عنه
٣٠٣	امرأته جعدة بنت الأشعث هى التى سمته بايعاز معاوية
٣٠٣	النجاشى يرثى الحسن رضى الله عنه
٣٠٤	رثاء ابن الحنفية لأخيه الحسن بن على رضى الله عنهما
٣٠٥	سرور معاوية بموت الحسن بن على وتأنيب عبد الله بن عباس إياه على ذلك
٣٠٥	سرور معاوية بصلح الحسن إياه
٣٠٦	خطبة الحسن بن على بعد صلحه لمعاوية
٣٠٦	خطبة للحسن فى حياة أبيه ، وقد أمره أن يصلى الجمعة بالناس
٣٠٦	خطبة أخرى للحسن بن على
٣٠٧	ذكر خلافة معاوية بن أبى سفيان
٣٠٧	زمان بيعته ووفاته ، ومكان دفنه
٣٠٧	ذكر لمع من أخباره وسيره ونوادر من بعض أفعاله
٣٠٧	مقتل حجر بن عدى الكندى
٣٠٩	معاوية وعدى بن حاتم الطائى وكان من شيعة على
٣٠٩	تنازع أسامة بن زيد وعمرو بن عثمان بن عفان إلى معاوية فى أرض فقضى بها لأسامة خوفا من آل على
٣١٠	معاوية يلحق زياد ابن سمية بأبى سفيان
٣١٠	سمية أم زياد وأمرها فى الجاهلية
٣١٠	سبب إلحاق معاوية لزياد
٣١١	شهادة أبى مريم السلولى على أبى سفيان
٣١١	اعتراض يونس بن عبيد بن أسد على حكم معاوية بلحوق زياد لأبى سفيان
٣١٢	عبدالله بن هاشم بن عتبة وعمرو بن العاص يتلاحيان بين يدى معاوية فيشير عمرو على معاوية بقتله فلا يأخذ بمشورته
٣١٤	عبد الله بن هاشم بن عتبة يفسر لمعاوية الجود والنجدة والمروءة
٣١٤	كتاب من محمد بن أبى بكر والى مصر لعلى بن أبى طالب يرسله إلى معاوية بن أبى سفيان
٣١٥	جواب معاوية على كتاب محمد بن أبى بكر
٣١٦	كتاب من معاوية إلى على
٣١٦	جواب على على كتاب معاوية
٣١٧	وقع معاوية بن أبى سفيان فى على ابن أبى طالب بمكة فنهره سعد وذكر له بعض فضل على

ص	الموضوع
٣١٨	السيد الحميرى الشاعر يمدح على بن أبى طالب
٣١٨	ذكر بعض القاعدين عن نصرة على
٣١٩	أبو الطفيل الكنانى يصف لمعاوية حزنه على على وبتهم بالقعود عن نصرة عثمان فى حياته
٣١٩	ضرار بن الخطاب يصف لمعاوية حزنه على على
٣١٩	كتاب من معاوية لقيس بن سعد ابن عبادة وكان عاملا على مصر أيام حرب على ومعاوية
٣١٩	جواب قيس بن سعد على كتاب معاوية
٣١٩	قيس بن سعد والانصار عند معاوية
٣٢٠	ورع قيس بن سعد
٣٢٠	عتب عمرو بن العاص على معاوية بأنه كثير التردد
٣٢٠	شجاعة العباس بن ربيعة
٣٢٣	برز معاوية للقتال فى يوم من أيام صفين فتقدم على لحربه ، فلما عرفه معاوية ولى الأدبار
٣٢٣	قدوم عمرو بن العاص من مصر على معاوية
٣٢٣	نظام تعبئة على لجيوشه
٣٢٣	معاوية يرسل بسر بن أرطاة لقتال أهل المدينة ثم لقتال أهل مكة واليمن
٣٢٤	اجتمع معاوية وعمرو بن العاص ووردان غلام عمرو فتذاكروا مابقى لهم مما يشتهونه
٣٢٥	وفاة عمرو بن العاص

ص	الموضوع
٣٢٥	تركة عمرو بن العاص
٣٢٥	معاوية يولى زيادا البصرة
٣٢٥	غزاة الرادف
٣٢٦	موت أبى أيوب الأنصارى
٣٢٦	طاعون بالكوفة ، وموت المغيرة ابن شعبة به
٣٢٦	المغيرة بن شعبة يخطب هند بنت النعمان ابن المنذر فلا تجيبه
٣٢٧	زياد يجمع بين الكوفة والبصرة
٣٢٧	حاول معاوية نقل منبر النبى إلى الشام
٣٢٧	اجتمع لزياد ولاية الحجازين والعراقين ، ثم مات
٣٢٨	زياد يحرض الناس بالكوفة على سب على ويقتل من لايطيعه
٣٢٨	وفود الأمصار على معاوية ، وأخذه البيعة لابنه يزيد من بعده
٣٣٠	ذكر جمل من أخلاق معاوية وسياسته
٣٣٠	كان معاوية يأذن فى كل يوم وليلة خمس مرات
٣٣٢	إحكام معاوية للسياسة وأمثلة منه
٣٣٣	أمثلة من بلاهة أهل الشام وتسليمهم لمعاوية
٣٣٤	كان بنو أمية يزعمون لأهل الشام أنهم ورثة رسول الله
٣٣٤	بعض أخلاق العامة وعدم اهتدائهم لوجه الصواب
٣٣٦	تأثير العادة
٣٣٦	وفد عقيل بن أبى طالب على معاوية فى حياة على

ص	الموضوع
٣٣٧	معاوية يسأل علقمة بن أبى طالب عن بنى صوحان فيجيبه
٣٣٧	كتاب من صعصعة بن صوحان إلى عقيل بن أبى طالب
٣٣٨	على بن أبى طالب يستشير وجوه أصحابه فى شأن معاوية
٣٣٩	صعصعة بن صوحان رسول على بن أبى طالب إلى معاوية بكتاب على
٣٤١	معاوية يسأل صعصعة بن صوحان عن بطون العرب فيجيبه
٣٤٢	صعصعة بين يدى معاوية
٣٤٣	صعصعة عند عبد الله بن عباس يجيبه عن المكارم
٣٤٥	صعصعة ورجل من فزارة
٣٤٦	مقتل عبد الله بن وهب الراسبى
٣٤٧	على يمدح ربيعة
٣٤٧	معاوية يأسر جميل بن كعب الثعلبى
٣٤٧	احتضار معاوية
٣٤٩	ذكر الصحابة ومدحهم
٣٤٩	معاوية يسأل ابن عباس عن أبى بكر فيجيبه
٣٤٩	ويسأله عن عمر فيجيبه
٣٤٩	ويسأله عن عثمان فيجيبه
٣٤٩	ويسأله عن على فيجيبه
٣٥٠	ويسأله عن أبيه العباس فيجيبه ثم يذكر له فضل الصحابة جميعا

مركز الوثائق والبحوث

30018000012011
المكتبة